1

من رحم المعركة يولد البطل

معارك صنعت أبطالا



رمزي المنياوي

خمسون معركة قدمت خمسين بطلاً

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

معارك صنعت أبطالا



اسم الكتاب: معارك صنعت أبطالا

اسم المؤلف: رمزي المنياوي

المراجعة اللغوية والتدقيق: طه عبد الرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٣٠٩٥/ ٢٠٠٩

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 978-977-376-519-3

التنفيذ الفنى: أحمد وليد ناصيف

الإشراف الفنى: محمد وليد ناصيف

الإشراف العام: أ. أسعد بكرى كوسا

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربى - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٦٠

دمشق: مكتبة رياض العلبى - خلف البريد - ت: ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى - أمام البريد ت: ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبة الفتال- فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثاني- ت: ٢٢٢٢٣٧٣

حقوق الطبع محفوظة

تحذير:

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتاب العربى للنشر وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أى جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد اليكترونية أو نقله بأى وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أى نحو بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

الطبعة الأولى
٢٠١٠

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودى تلفاكس: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ٣٤٨٢٥
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس: ٢٣٩١٦١٢٢ - ٢٣٩٣٣٦٧١
لبنان - تلفاكس: ٤٣٤١٨٦/ ٠٥ - تليفون: ٠٣/٦٥٢٢٤١ - ص.ب.٣٠٤٣ الشويفات
www.darketab.com - info@darketab.com
E-mail: darelkitab@yahoo.com - daralwalid@hotmail.com

من رحم المعركة يولد البطل

معارك صنعت أبطالا

خمسون معركة قدمت خمسين بطلاً

الجزء الأول

◆

رمزي المنياوي

◆

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

تقديم



من يقلّب صفحات التاريخ، ويتتبع سطور الأحداث، يتوقف طويلاً عند المعارك الكبرى التي غيرت مسار التاريخ، وقدمت الدليل القاطع على أن الحرب هي الحدث الأهم الذي كان له أبلغ الأثر في مجرى البشرية، وفي رسم خريطة مستقبلها عبر العصور.

وفي هذه المعارك الكبرى التي خاضتها الشعوب وُلِدَ أبطال، وسقط أبطال، وأصبح هؤلاء وأولئك في ذاكرة التاريخ، وفي مخيلة الناس في كل زمان ومكان، سواء العامة أو خبراء السياسة والعسكرية والاستراتيجية.

معركة الماراثون، ومعركة ثرموبيلاي، ومعركة إسوس، ومعركة زاما، ومعركة أكيتيوم البحرية، ومعركة القادسية، ومعركة اليرموك، ومعركة نهاوند، ومعركة ذات الصواري البحرية، ومعركة وادي لكّة، ومعركة بلاط الشهداء، وفتح صقلية، ومعركة عموريّة، ومعركة ملاذ كرد، ومعركة الزلاقة، ومعركة حطين، ومعركة عين جالوت، و معركة كوسوفو، ومعركة أورليان، وفتح القسطنطينية، ومعركة مرج دابق، ومعركة ليبانتو البحرية، ومعركة ساراتوجا، ومعركة الطرف الأغر، ومعركة أوسترلتز، ومعركة واترلو، ومعركة جيتيسبرج، ومعركة سيدان، ومعركة التل الكبير، ومعركة العلمين، ومعركة ستالينجراد، ومعركة ميدواي، ومعركة ديان بيان فو، وعشرات المعارك الأخرى التي خاضتها البشرية وشهدت مولد أبطال أو سقوط أبطال آخرين!

وقد حاولنا في هذا الكتاب الذي وضعناه في جزئين - قدر جهدنا - تقديم المائة المعركة الأكبر والأخطر والأشهر في التاريخ ، وقصة أبطالها سواء الذين سطعوا فيها أوالذين سقطوا وكيف اندلعت هذه المعارك ، و كيف سارت أحداثها ، وكيف انتهت بقادتها ، مع الوقوف على أهم نتائجها .

الجزء الأول من هذا الكتاب ، اخترنا له عنوانا يُقرأ : " معارك صنعت أبطالا " . أما الجزء الثاني فيحمل عنوانا يقرأ : " معارك دمرت أبطالا " .

هذا الكتاب أشبه بالعمل الموسوعي الذي يتتبع مسيرة الحروب التي عصفت بالبشرية في الماضي و الحاضر للوقوف على سير حياة قادة شاءت الأقدار أن ينتصروا أو ينهزموا ، و في انتصاراتهم و كذلك في هزائمهم بالإضافة لتغييرها للتاريخ ، عبرة أيضا للأجيال المتعاقبة لكي يستفيدوا من أهم دروسها و هي كثيرة كما سنرى في الكتاب .

نعم أصبحت تلك المعارك — كما سنرى في الكتاب - تمثل صفحاتٍ مهمة من التاريخ، لكي تستفيد الأجيال من تجاربها القاسية، ونستخلص منها الدروس التي تبين عوامل النصر وأسباب الهزيمة.

رمزي المنياوي

١

هانيبال .. و"معركة كاني ".. التاريخُ لا يكتبه إلا المنتصرون !!





"التاريخ يكتبه المنتصرون" .. لن تجد أصدق من هذه المقولة الشهيرة حين تتقصى سيرة بطلنا هذا ، قد تقرأ الأساطير عن الإسكندر وقد تمجد فتوحات روما وانتصارات نابليون لكنك قد لا تعرف الكثير عن هانيبال ، أسوأ كابوس عرفته روما عبر كل تاريخها .

" حنبعل برقا " الشهير بـ " هانيبال " أو " هانيبعل " أو " حنا بعل " هو من أعظم القادة العسكريين في التاريخ إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق فى كل التاريخ القديم .

كان هانيبال القرطاجي رجل حرب وعسكرية ولد بقرطاج سنة ٢٤٦ قبل الميلاد، وبدأ زحفه على روما سنة ٢١٨ قبل الميلاد،ويلفظ اسمه هنيبعلو ومعناها محبوب الرب أو عبد الله، ومثله الاسم العربى (هاني-هانىء)وكان وهو صغير جدا قد أخذئ أبوه إلى المعبد وأقسم هنالك مرات عديدة أن لا يكون صديقا لروما ، وأبوه هاملكار بركه وهو أيضا قائد حربي حارب روما مرات عديدة انتهت بهزيمته ، وأنجبت له زوجته هاني بال وهو في الثغور يقاتل روما وحين عاد كان هانيبال صغيرا لم يتجاوز من عمره مرحلة الطفولة فدربه والده على ركوب الفِيَلَة ، ولاحظ أبوه أن هاني بال يركب الفيل وبجواره جواده وحين سأله عن سبب ذلك قال : لأن الفيل بطيء الحركة وحين أريد أن أنقض على روماني أنتقل من فيلي لجوادي ، فأعجبت والده هذه الفكرة فرافق الخيل بجوار الفيلة في معاركه .

وقد كان هانيبال أو هنبعل " - كما يُلفَظ أيضا - جنديا بارعا بحق برع في فنون القتال منذ كان في التاسعة من عمره .

ولد فى قرطاج (تونس الآن) عام ٢٤٧ قبل الميلاد . نشأ هانيبال بصحبة أبيه "هاميلقار برقة" الذى قاسى ويلات الحرب ضد روما والتى جردته هو وقرطاج من الشرف والأرض معا . اعتاد هاميلكار اصطحاب ابنه الصغير إلى معبد قرطاجة الكبير ليقسم هناك أن يظل عدوا لروما طالما بقى على قيد الحياة ، وقد نشأ الطفل الصغير على الحقد والكره لهذا الكيان الظالم . وهكذا نشأ من أجل هدف واحد ورسالة واحدة ، دمار روما .

مدينة قرطاج تأسست في عام ٨١٤ ق.م حين هربت الأميرة السورية أليسار المعروفة باسم الملكة "ديدون" من قهر أخيها "بيقماليون" ملك فينيقيا ، وقامت برحلة طويلة حول حوض البحر الأبيض المتوسِّط بحثا عن موقع متميِّز حيث يمكنها من تأسيس مدينة جديدة.

وعندما رست السفن على شاطئ تونس وجدت نفسها مجبرة على التفاوض السلمي مع المحليين من الأمازيغ للحصول على موطئ قدم لها ولجيشها . وهذا بحد ذاته رصيد جيد لسمعة القرطاجيين ...إذ أنهم لم يكونوا مستعمرين بل اشتروا الأرض باتفاق مع الأهالي . علما بأنهم كانوا من أشد المحاربين الذين عرفوا في ذلك الوقت .

وتوسع القرطاجيون فى التجارة حتى لُقبوا بأسياد البحر الأبيض المتوسط ، غير أن التاريخ دوما لا يقبل سوى بسيد واحد ، فكان الصراع مع روما .

وصف الرومان هانيبال بصورة مرعبة ، وقد يكون لهم العذر فقد كان بحق أسوأ كابوس عرفته عبر كل تاريخها الملىء بالحروب والمجد والانتصارات ، فهو هذا القائد الوحشى السفاح ذو الملامح القاسية والمعروف بالغرور والتهور . **فكيف كان هانيبال وكيف يصفه من حوله ؟**



شخصية هانيبال مزيج من الرعب والقوة والفن والذكاء والشخصية "الكارزماتئية" والتصميم والشباب المغامر.

ويعتبر هانيبال من أوائل مؤسسي علم الجاسوسية في العالم فقد كان يوظف الجواسيس لحشد المعلومات ويستخدم طرقا ذكية للغاية وكان هانيبال نفسه يعمل على

تغيير شكله وشعره ويذهب إلى روما وإسبانيا متخفيا ويدخل القرى والمدن للحصول على المعلومات الدقيقة .

وكان يعامل الأسرى معاملة حسنة ولم يبعهم رقيقا ولا عبيدا وكان يساوي بينهم وبين جنوده فأحبته كثير من المدن التي فتحها . كان هانيبال مثالا للقائد العظيم والمتواضع في آن واحد، ولم تكن له خيمة تميزه عن باقي الأفراد.

وعندما اقترب هانيبال من تحقيق هدفه كثيرا ، ورأى نفسه مهيأ ومعدا لتحقيق ما وُلد من أجله ، انتهز فرصة ثمينة لإثارة حنق روما ومن ثم إشعال فتيل الحرب وهو جل ما كان يصبو إليه .

وعندما هاجمت "ساجونتم" مدينة إسبانية حليفة لروما ، حلفاء إسبان لقرطاج، عبر هانيبال إلى إسبانيا وقام بمهاجمة " ساجونتم " ومن ثم أعلنت روما غضبها وطالبت مجلس قرطاج بتسليم هانيبال إلا أن المجلس قد رأى بهذا الطلب تطاولا جديدا على السيادة القرطاجية ، ومن ثم اندلعت الحرب .

كان الوضع الطبيعى أن يقوم الرومان بمهاجمة حلفاء قرطاج فى إسبانيا أولا وكان المتوقع أن يقوم هانيبال بتحصين الدفاعات وانتظار الرومان ، لكن هذا البطل المغامر قد أخذ قرارا من أعجب القرارات فى التاريخ .

وإذا كانت السمة المشتركة بين كل عظماء الحرب عبر التاريخ أن كل منهم قد تمتع بعبقرية تصل أحيانا إلى حافة الجنون ، إلا أن السمة الأكثر تميزا هى الابتكار فى مواجهة المواقف بصورة تجعل هذا البطل وحدا ذو فكر خاص فريد يستحيل على سواه أن يلجأ لمثله .

ورغم التشابه الكبير بين كل هؤلاء الأبطال عبر ساحة التاريخ إلا أن كلا منهم نسخة فريدة لا تتكرر .

لقد اتخذ هانيبال قرارا أقل ما يصفه العسكريون بالجنون . هو كعسكرى بارع رأى حروب أبيه الطويلة مع روما فى مختلف البقاع وشهد صراعا طويلا بين هاتين الحضارتين العريقتين ، مما عرف يقينا أن ليس هناك سوى سبيل واحد للفوز ، قلب العدو .. روما.

وفى وضع سيطرت فيه روما على كامل البحر الأبيض المتوسط ، لم يعد هناك سبيل سوى طريق البر وهو بدوره ملىء بالدوريات والقلاع والحصون الموالية لروما والملىء أيضا بقبائل "الجاول" التى لا تدين لأحد . من هنا كان القرار الخطير ، عبور جبال الألب بجيش قوامه ٥٠ ألف جندى مصحوبا بـ ٣٧ فيلا مع ندرة الغذاء ووعورة الطريق وبرد الشتاء القارس عبر ثلوج جبل الألب حيث الصقيع القاتل، وثلج يغطي القمم يمضى خلاله جيش مسافة ٢٥ كيلو مترا وفيلة تحتاج للغذاء بكميات خرافية ولا تعتاد هذا الجو البارد القارس .

ولأن وراء كل انتصار بارع قيادة عسكرية أكثر براعة ، لذا فقد تجلت براعة هانيبال عندما عمد إلى تكوين هيئة أركان جيشه على أعلى قدر من الكفاءة والتنوع .وقد كان تنوع القيادة وتنوع فرق الجيش هو أحد أسباب قوته وتميزه .

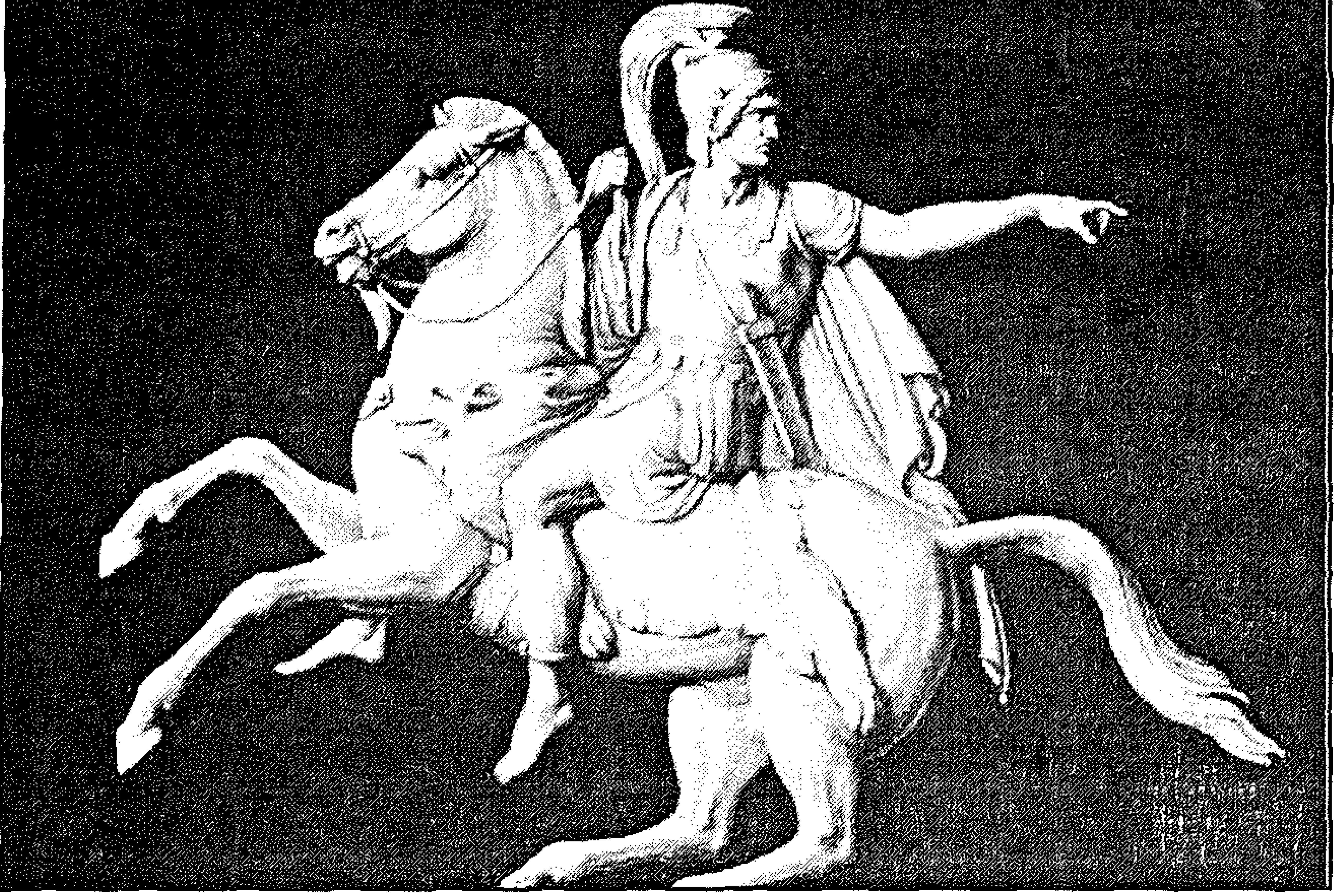
ويدأ الكابوس الروماني بمجرد زحف هانيبال على روما سنة ٢١٨ قبل الميلاد انطلاقا من مدينة قرطاج الإسبانية ، قاعدة قرطاج العسكرية فى أوروبا تاركا وراءه أخيه "هازدربال" للدفاع عنها فى حال هجوم الرومان عليها وهو المتوقع حدوثه .

كان هانيبال يقول لقادة أركان جيشه : في حالة وصولنا لنهر البو قبل فوات الأوان، نستطيع أن نمسك بتلابيب جيوش الغزو الرومانية داخل إيطاليا نفسها ، فلا تصبح مدينة قرطاج ميدانا للحرب، وحينئذ تقع تكاليف الحرب ولأول مرة ، على الرومان وعلى بلادهم فيكتوون بآلامها ، ويحرقون بنارها.. فالسرعة ثم السرعة.

وتقدم هانيبال الذي يحب دائما ترديد عبارته الشهيرة : " إما أن تقهر عدوك، أو أن تقبل مصير المقهورين " . وتمكن من عبور جبال الألب بجيش قوامه ثلاثون ألفا من مشاة وثمانية آلاف فارس، وسبعة وثلاثون فيلا التي لم يكن يعرفها سكان أوروبا. وتمكن من عبور جبال الألب في خمسة عشر يوما ، مات جزء من جيشه في الطريق، وبقي قسمه الأكبر.

خاض هانيبال أول معركة وهي " معركة تسينو " التي دارت على شواطئ نهر تسينو. حسمها " حنا بعل " لصالحه بخطة سريعة لعب فيها الفرسان الأمازيغ دورا حاسما عندما طوقوا من الخلف كتائب الرومان الثقيلة بحيث لم تصمد برماحهم الطويلة أمام

حراب الأمازيغ القصيرة والخفيفة والنافذة، وما هي إلا لحظات حتى سقط القنصل ببليوس قائد الجيش تحت سنابك خيل هؤلاء الفرسان المردة. عاد هذا القنصل لروما جريحا وهو يردد لخاصته كيف وقع من صهوة جواده وسط فرسان غرباء لم ير مثلهم في حياته من قبل في سرعة الكر والفر ، ويقصد الفرسان النوميديين الأمازيغ .



وجهت روما جيشا ثانيا ضخما بقيادة قنصل جديد هو طيباريوس سمبرونيوس لمحو هزيمة معركة تسينو، وأعد حنا بعل له فخا على ضفاف نهر تريبيا حيث دارت معركة تريبيا حسمها هانيبال باختيار مكان المعركة وهو سهل غمره الفيضان فأوحلت تربته ولم يره خصمه، اختاره وهو يردد قول أبيه هملقار برقة : " دع الأرض تقاتل عنك " .

أمر هانيبال خمسمائة من خيرة الفرسان النوميديين الأمازيغ . البربر وأصدر توجيهاته لقائدهم فقال له : توجهوا في بداية الليل إلى معسكر العدو، اقتربوا من خنادقهم راكضين، وعندما يتصدي لكم فرسانه، التحموا معهم في معركة، ثم ولوا هاربين ممثلين اندحارا، فسيتبعكم العدو، وجهوه عند ذلك إلى السهل الضحل حيث الكمين. ووقع القائد الروماني في الفخ.. وانطلقت المعركة فأعطى القنصل الأمر ببدء المعركة بتعقب النوميديين الأمازيغ المراوغين... وهُزم الرومان شر هزيمة .

وأهم ما أسفرت عنه هذه المعركة تحالف " حنا بعل " مع شعب غال سيسالبين وانضم له في الشهرين التالين ١٤٠٠٠ من مقاتليهم الأشداء، فاستقبلهم وهو يردد قولته المشهورة: " إذا أحرزت نصرا انضم اليك الجميع حتى خصومك، أما إذا حاقت بك الهزيمة تخلى عنك حتى محبوك ".

وبعد انقضاء شهري الشتاء قرر التوجه جنوبا نحو روما، ووقع في مستنقعات، وانتشرت الحمي بين جيشه وفقد نتيجة لإصابته بمرض إحدي عينيه.

في اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيو ٢١٧ ق. م. تقدم جيش روماني ضخم تعداده أربعون ألفا بقيادة جايوس فلامنيوس نحو بحيرة ترازايمين تحت رقابة الفرسان البربر الأمازيغ ، كان يلفه ضباب كثيف ، وكان هانيبال قد رصده بواسطة جواسيسه من بعيد . وترصد للمكان الذي سيخرج منه وهو يسيطر على المرتفعات التي تشرف على مكان مروره . وفجأة ومن خلال الضباب هاجم القرطاجيون من مواقع مثالية ، فكانت الصاعقة المفاجئة تحل على رؤوس الرومان .

وأرسل هانيبال بسائر فرقه لتهاجم في وقت واحد وكان يراقب من موقع عال فوق الطرف الأقصى من طريق البحيرة وسد فرسان مهربال التوميديان ، مصحوبين بمشاة الأفارقة مدخلَ شاطئ البحيرة الهلالي الشكل وهكذا وقع القنصل في نفس المصيدة الذي كان ينوي ايقاع حنا بعل فيها وأطبقت كماشة الجيش القرطاجي من كل ناحية، بحيث لم تجد كتائب الرومان مجالا للمناورة ولا حتى للهروب .

وما كادت تحل الساعة العاشرة صباحا حتى كانت موقعة بحيرة ترازايمين قد انتهت.

وصار بذلك ستة آلاف من الجنود الأشداء أسرى وهكذا تمكن الجيش القرطاجي الذي أنهكته الحمي قبل أيام ، بجياد هزيلة من إبادة جيش قوي خارج للتو من معسكراته ينعم بالصحة والعافية . تمكن من هزيمته وأسر خمسة عشر ألفا من خيرة جنوده ، وأطلق سراح الأسرى من الشعوب الأخرى وهو يقول لهم : ما جئت لأشن الحرب على الشعوب المستعمرة بل ولا حتى على الإيطاليين، وإنما جئت لأساعد الجميع ضد حكام روما الظالمين .

تجمعت جماهير روما بساحة الفوروم ، بعد أن وصلت أنباء كوارث الهزائم ، وبقيت أبواب مجلس الشيوخ مغلقة أمام الجماهير وبعد طول إلحاح خرج إليهم القنصل بومبونيوس بمفرده واعتلى درج مدخل المجلس وألقى عليهم خطابا يتكون من اثنتي عشرة كلمة فقط : لقد قهر العدو جيوش روما في موقعة عظيمة مات فيها أحد القنصليين.

ينبغي لنا أن نتوقف هنا طويلا ، فقد كانت كاناى (ومعناها الكماشة) هى آخر خيط نجاة للرومان جمعوا فيها قوة هائلة تتألف من ٨٥ إلى ١٠٠ألف مقاتل ، قام هانيبال بمناورات على مدى أشهر جعلت العدو يحرك قوات جبارة إلى كناي ، كان منيوسياس روفوس صغير السن وقام " حنا بعل " بمناورة فهم منها الضابط الروماني أنه صار يخاف المواجهة ويهرب وهكذا انطلت عليه مناورة " حنا بعل " الذي أظهر تقهقرا منهزما زيادة في أتقان حبكة الاستدراج الكبير الذي يعده لخصمه المغرور كان " حنا بعل " يقود جيشا من أربعين ألفا بينما كان جيش عدوه يتجاوز المائة ألف نصفهم من المجندين حديثا واعتبر أنه أقوى جيش على الإطلاق جمعته روما في تاريخها وزيادة في الخديعة قام الفرسان النوميديون (البربر) في خفة الأشباح بغارة صدتها القوات الرومانية بنجاح وتقهقر الفرسان البربر مظهرين انهزامهم فقرر عند ذاك القنصلان فارو وأميليوس مطاردة العدو المنهزم وتقهقر القائد الأمازيغي مهر بعل عبر نهر أوفيدوس هاربا وجيشا القنصليين يتعقبانه وضيق عليهما الخناق شيئا فشيئا فوق سهل كناي المكشوف و عندما التقي الجيشان أعطى " حنا بعل " إشارة البدء .

ووجد الرومانيون أنفسهم يقاتلون في ظروف مزدوجة السوء كانوا منكفئين بعضهم على بعض محصورين الكتف إلى الكتف بينما كان أعداؤهم يحومون حولهم بكامل حريتهم كانوا منهوكي القوى يواجهون عدوا متجدد القوة شديد البأس كان " حنا بعل " يستعمل من بعيد إشارات معينة بدخان منطلق من حزم أعشاب خاصة تطلق دخانا عاليا وكل عدد من هذه المشاعل الدخانية يعني أمرا معينا ولم تكد تحل الظهيرة حتى اختفى الفرسان فلم يبق فارس واحد بين مرتفعات كناي والمقر الصخري المرتفع لقيادة "حنا بعل " وبقيت في هذا الامتداد كتائب مشاة الرومانيين مكدس بعضها على بعض في كتلة بشرية هائلة صماء وانطلق الفرسان النوميديون الخفاف كالبرق وعلى رأسهم قائدهم " مهر بعل " فسدوا ثغرة فرارَ العدو المنهزم الهارب إلى النهر وكانت الأرض في

سائر الاتجاهات ضد الرومان وتمعن " حنا بعل " في هذا الموج البشري وردد في نشوة وصية والده " هملقار برقة " : " دع الأرض تقاتل عنك " وترك قادة وحداته ينفذون حرفيا خطته وأبيد هذا الجيش الضخم .

كانت الخطة رغم بساطتها شديدة التعقيد . جيش هانيبال الرئيسى يواجه جيش الرومان بتشكيل قوس رأسه باتجاه الرومان ، يقوم الرومان بالهجوم ونظرا لعدد الرومان الضخم سيتم الضغط على هذا القوس إلى الداخل على أن تظل الأطراف صامدة ، فيتم ابتلاع جيش الرومان فى نصف دائرة ، جنود هانيبال الاحتياط المختفون وراء التلال يطوقون الروم من المجنبات ، فرسان مهربال النوميديان يقومون بالالتفات وتطويق الرومان من الخلف وبهذا يتم سحق كامل جيش روما وهو ما حدث تماما .

أراد الرومان تطبيق كماشة على جيش هانيبال فكان أن حدث العكس ، وتكتيك الكماشة هلك فيه الجيش النازي السادس بقيادة فون باولوس في الحرب العالمية الثانية حين أحكم إغلاق الطوق عليه ولولا وجود الطيران لأبيد في أيام معدودات وهو ما حصل للجيش الروماني الذى قتل منه قرابة ٦٠ – ٨٠ ألفا .

كانت كاناى كارثة مروعة لروما هلك فيها جيل كامل من خيرة شباب العاصمة الإمبراطورية وبعد هذه المعركة لم تقو روما على مواجهة هانيبال قط، الذى أصبح الرعب الأكبر المهدد لزوال روما ولذا لم ترحم روما قرطاج قط ولم تكن يوما رحيمة وما عرف التاريخ فاتحا أرحم من المسلمين .

بعد هذه المعركة بدأت روما تتعلم من هانيبال فن القتال وأن الحرب ليست شجاعة فقط بل علم استراتيجي تكتيكي يلعب فيه الذكاء والمناورة والخدعة والتربص والانتظار إلى آخر فنون الحرب .

أصبح الطريق ممهدا تماما أمام هانيبال لدخول روما ، إلا أننا فى هذه اللحظة أمام أحد أعجب القرارات وأكثرها غموضا فى التاريخ . إننا حتى يومنا هذا لا نعرف يقينا الأسباب الحقيقية وراء عدم إقدام هانيبال على دخول روما التى باتت بلا جيش وبلا روح .

نكاد نجتهد فى تقصى الأسباب لكن تظل الحقيقة غامضة دفينة فى صفحات التاريخ ودروبه العجيبة . هناك أكثر من قصة قد تكشف واحدة منها سر هذا الغموض:

بعد " كاناى " ، هانيبال يطلب أن يستريح رجاله قائلا لهم : ينبغي على الطهاة أن يعدوا وجبة شهية ويسخروا لها كل فنونهم وتقدم مصحوبة بالخمر إلى الجنود من سائر الرتب فقد آن للجيش أن يستريح !

وهنا صاح العجوز مهر بعل الأمازيغي في غضب : حنا بعل ! اسمعني جيدا ، في خمسة أيام يستطيع الجيش أن يتناول هذه الوجبة في روما نفسها سيسبقك فرساني كالبرق إليها فيكتشف الرومانيون بحلولك بينهم من خلال هؤلاء الفرسان المردة قبل أن يعلموا بخروجك إليهم وتطلع حنا بعل مليا في وجه مساعده العجوز، ثم أجابه : هذا مما يسهل قوله لكن يجب إمعان التفكير في الأمر وتقليبه على عدة وجوه، وقد يحتاج إلى وقت طويل وهنا لم يتمالك مهر بعل نفسه فصاح فيه في غضب، وقال له قولته الخالدة: حنا بعل لقد حبتك الآلهة بنعم كثيرة، فأنت تعرف كيف تحرز النصر، ولكنك لا تعرف كيف تستخدمه وتستغله .

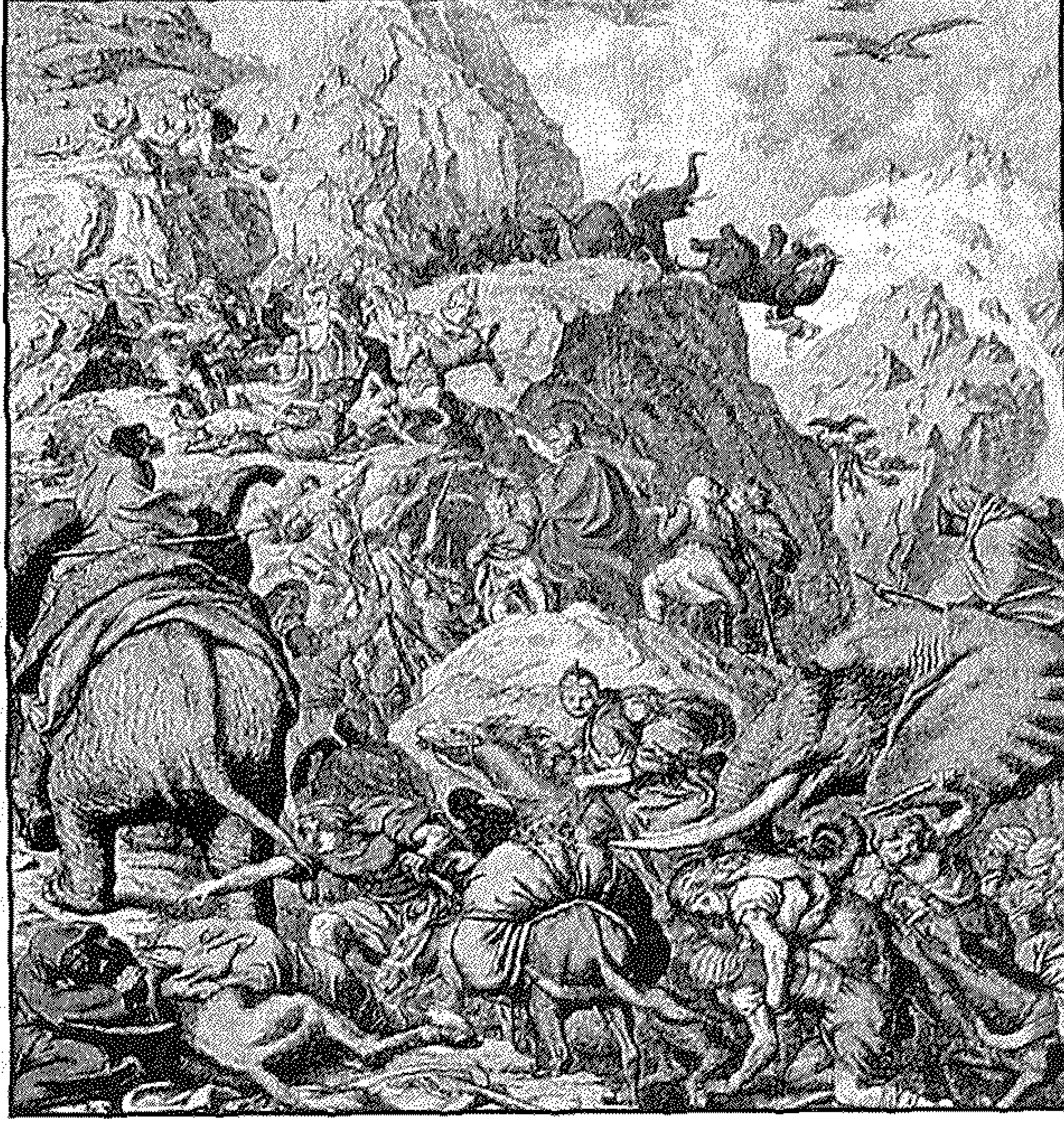
ويعقب مؤرخو سيرة حنا بعل فيجمعون على أنه لو عمل برأي القائد الفارس الأمازيغي مهر بعل لتمكن من احتلال روما وتغيير مجرى التاريخ .

إلى هنا تنتهى هذه القصة ، لكن المتأمل فيها يشك كثيرا فى صحتها وصدقها ، فالملاحظ فى كل سيرة هانيبال وتاريخه إلى هذه اللحظة يرى عبقرية عسكرية تكون معها هذه القصة أشبه بسذاجة لا تليق ببطل كهذا .

قصة أخرى ، لم يتمكن هانيبال من اقتحام أسوار روما العالية المنيعة رغم حصاره لها . وهذه أكثر سذاجة فالمدن لا تحتمى بالأسوار بل بروح قتالية وعزيمة تحفزها على البقاء والمقاومة ، وفى كاناى كانت الفاجعة التى أذهلت العقول وبددت أى فرصة فى النجاة وباتت روما خاضعة ذليلة لسلطة المنتصر .

الرأى الأقرب صحة – رأى البعض – قد يبدو واضحا جليا أمام أعيننا رغم بحثنا فى كل مكان آخر ، إنها كاناى . لقد كانت كاناى مذبحة بشعة بكل ما تحمله البشاعة من أحرف . بشعة حتى على جنرال حرب مثل هانيبال اعتاد رؤية الدماء طول حياته . فهو القائد ذو الأخلاق والصفات التى تكلمنا عنها ، يأبى أن تجتاح جنوده هذه المدينة العريقة فيأتون عليها بالحرق والسلب والدمار وهى سنة الحروب وقتها ولِمَ لا ؟ وجزء

كبير من جيشه من المرتزقة الذين لا يعرفون أخلاق الحرب وتواضع المنتصر . أراد هانيبال أن تخضع روما وتحقن دماؤها بأن تأتى إليه سلما لا عنوة . لكن روما العنيدة لم تحن لحظة سقوطها بعد ، ولأنها لم تقم فى يوم وليلة فكان صعبا أن تسقط أيضا بين ضحية وعشاها .



لوحة رومانية تصور هانيبال وعبوره جبال الألب

لقد جاء لإذلال روما وجعلها تدفع الثمن غاليا من أرواح أبنائها ومن كرامتها ، وها هو ذا ينجح فى مسعاه فى كاناى . إذا فقد نال ثأره وكفى .

قطع الرومان كل الإمدادات من مؤن وطعام إلى جيش هانيبال والتى تمر عبر أراضيهم كما أن هانيبال يحارب الرومان على أرضهم حيث الغذاء الوفير ووفرة الجنود والمال . كما أثارت انتصارات هانيبال حقد وغيرة مجلس قرطاج وحزب التجار الضيق الأفق والمادى الحساب والقصير النظر المعدوم الرؤيا الذى رأى فى حرب هانيبال خطرا على سلطته كما رأى فى حربه على الرومان طموحا شخصيا فى حين رأى هانيبال هذه

الحرب حرب وجود وبقاء على كل حال فقد ظل هانيبال ينتظر الإمدادات قرابة ٥أعوام دون جدوى .

كانت الأحداث تمر سريعا بدءا من العام ٢١٨ قبل الميلاد وحتى كاناى ٢١٦ ، لتتواصل سيطرته بعد ذلك على العديد من المقاطعات الرومانية حتى سنة ٢١١ قبل الميلاد .

ووسط السقوط المروع لكل جنرالات روما ، كان هناك قائد رومانى شابٌ يرقب الأحداث عن كثب ويفكر ويتأمل ويتعلم .

كان أبوه "سيبيو" أحد الجنرالات المهزومين وقد تسمى هذا القائد "بابليوس كورنيليوس سيبيو" والملقب بـ "سيبيو الإفريقى" نسبة لانتصاراته فى إفريقيا فيما بعد . تعلم "سيبيو" من غريمه هانيبال أن الهجوم إلى قلب العدو خير وسيلة للدفاع ، اصطحب "سيبيو" جيشا رومانيا ضخما وعبر البحر الخاضع فى الأصل للرومان متجها إلى قاعدة قرطاج فى إسبانيا "نيو قرطاج" واستولى عليها بعد أن دمرها بوحشية الرومان وحرق كل ما فيها ، بعدها كان وجهته إلى قلب الخطر نفسه .. قرطاج .

ويستمر الحقد والغيرة من قبل المجلس القرطاجى وعلى رأسهم "هانو" الذى رفض استدعاء هانيبال للدفاع عن العاصمة بحجة أنهم ليسوا بحاجة إليه إلى جانب أنه المتسبب الأول فى هذه الكارثة . وكان هذا القرار بمثابة كارثة حيث أبيد جيش قرطاج المتمرس عن بكرة أبيه ولم يعد هناك مفر الآن سوى باستدعاء هانيبال للدفاع عن قرطاج .. معركة أخيرة من أجل البقاء .

قال المؤلف الرومانى بوليب : "إن القدر لم يقدم قط للمحاربين مثل ما قدمه فى زاما فنتيجة تلك المعركة لم تكن وقوع إفريقية وأوروبا فى قبضة المنتصر وحسب ، بل كل أقطار العالم المعروفة فى ذلك الحين ".

كانت "صفو نسب" ابنة "آذروبعل" القائد السياسى القرطاجى القادم من حزب التجار ذو الفكر المادى المحدود ، مخطوبة للأمير الإفريقى " مسينيسا" ، وفى واحدة من لحظات الزمن .. يزوج هذا القائد ابنته إلى قائد إفريقى آخر له من العمر خمسون عاما والذى دفع ثمن هذه الحسناء حلفا مع قرطاج .

فى نفس الوقت ، كان الحقد يملأ قلب "مسينيسا" ، ذلك الأمير الشاب الذى طعنه "آذروبعل" فى قلبه . واستولى زوج فتاته على ملكه لهذا قرر الانتقام بأى ثمن ولو من قرطاج نفسها . فكان أن ضم كل فرسانه إلى الجيش الرومانى ورحب به "سيبيو" ووعده بأن يعيد إليه ملكه .

إن حكاية مسينيسا مدهشة ، تكاد تكون أقرب إلى الأسطورة منها إلى الوقائع التاريخية .

وفى زاما ..كان الجيشان متساويين بعدد الرجال ، إذ كان الجيش الرومانى مؤلفا من ثلاثين ألفا ثم انضم إليه مسينيسا على رأس عشرة آلاف فارس هم من أعظم محاربى هذا الوقت وأشدهم بأسا وبطشا .

وكان جيش هانيبال يفتقد مصدر قوته الأول ، الفرسان النوميديان ..

وكانت مذبحة جيش قرطاج سببا فى استبداله بآخر إلا أن جنوده حديثي العهد بالقتال فروا من ساحة المعركة تاركين الجنود المتمرسين يواجهون الرومان بمفردهم..

وكانت الفيلة غير مدربة .. فانقلبت بعد موجة الهجوم الأولى على القرطاجيين أنفسهم وفرت هاربة فى فوضى عارمة ..

لقد حسم فرسان مسينيسا النوميديان المعركة تماما لصالح القائد الرومانى سيبيو..

وسقط هانيبال ..

وسقطت قرطاج ودمرت إلى الأبد ..

انتهت هذه الملحمة البطولية ملحمة الدفاع عن قرطاج . واذا كانت هذه الحرب أسفرت عن وفاة مدينة، فقد أكدت أن الإنسان أقوى من القهر وأن إرادته لا تردع بسهولة ولقد تأثر لهذه المأساة حتى بعض المؤرخين الأوروبيين فيقول وارمنغتون: ألقى سيبيو أميليانوس نظرة على المدينة التى ازدهرت أكثر من سبعمائة سنة منذ إنشائها والتي حكمت مناطق كثيرة، جزرا وبحارا، وكانت ثرية في السلاح والأساطيل والفيلة

والمال مثل الإمبراطوريات العظمى بل والتي فاقتها في الإقدام والشجاعة الفائقة فبالرغم من أنها جردت من كافة أسلحتها وسفنها فقد صمدت أمام حصار شديد ومجاعة دامت ثلاث سنوات، ووصلت إلى نهايتها بالتدمير الكلي .

ويروي المؤرخ اليوناني بوليبيوس الذي رافق القائد الروماني في عملية التدمير، فيقول: إن سيبيو الإفريقى بكي تأثرا بما آل له عدوه، فاستعرض أمامه الحقيقة المتمثلة في أن الأفراد والأمم والإمبراطوريات نهايتها محتومة وكذلك نصيب مدينة طروادة العظيمة، ونهاية الإمبراطوريات الأشورية، والميدية، والفارسية، والتدمير الأخير لإمبراطورية مقدونية الكبيرة تمعن في هذا كله ثم ردد بقصد أو بدون قصد، كلمات هكتور في إلياذة هوميروس: (سيأتي اليوم الذي تسقط فيه طروادة المقدسة، وكذلك الملك بريام وجميع رجاله المسلحين معه) ، وعندما سأل المؤرخ بوليبيوس، سيبيو، ماذا تقصد بهذا؟ ، التفت إليه القائد الروماني وقال بتأثر: هذه لحظة عظيمة يا بوليبيوس.. إن الخوف يتملكني من أن نفس المصير سيكون لوطني في يوم من الأيام .

هانيبال الذى اكتسح شمال إفريقيا و إسبانيا و فرنسا وسويسرا و إيطاليا و حاصر روما ١٥ عاما ، قضى ما تبقى من عمره بعد زاما طريدا من الرومان فهرب إلى سوريا ومنها إلى الأناضول وعندها ملّ الهروب حينما تبين له عزم الرومان وإصرارهم الشديد على النيل منه رغم أنه قد بلغ ٦٤ عاما لكن روما ترى فيه الكابوس الذى لن تطمئن وتهدأ إلى أن تقتص منه وتطمئن إلى زواله .

لكنه يأبى أن تنال منه روما فيشرب السم ويقول كلمته الأخيرة :

"ها أنا أريح روما من قلقها مني وأنا رجل مسنٌّ ، وسأرحل عن هذا العالم الفاني"

بقى أن نقول إن من بين كل معارك هانيبال تظل " معركة كاني " هى الأبرز نظرا لموقعها في التاريخ العسكري و تأثيرها على خبراء العسكرية في العالم حتى يومنا هذا!!

وكلمة " كاني " و معناها " الكماشة " ذهبت مثلا في العلم العسكري. ولكنها لروما كانت محزنة كبرى هلك فيها جيل كامل من خيرة شباب العاصمة الإمبراطورية، على يد هانيبال القرطاجي، ودارت رحاها على الأرض الإيطالية (حاليا)، وبعد هذه المعركة

لم تقو روما على مواجهة هانيبال قط، وعاث هانيبال لمدة ١٨ عاما في الجنوب من أجل عقد تحالفات ضد روما، وكانت مدينة كابو من هذا الطابور الخامس، فدفعت ثمنا مدمرا بعد انقلاب الزمن على هانيبال.

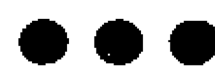
وبسبب استخدام تكتيك " كاني " أو كما أصبح يُعرف بعد هانيبال بـ " تكتيك الكماشة " هلك الجيش النازي السادس بقيادة فون باولوس في الحرب العالمية الثانية، حين أُحْكِمَ إغلاق الطوق عليه، وهو ما حدث للجيش الروماني في " كاني " .

وخلاصة هذا التكتيك العسكري أن الجيشين يتقابلان بقلب وميسرة وميمنة وذيل مع الخيالة على الجوانب، ثم يحمى الوطيس ويهرع الأبطال في دخول بوابة الموت، وليس أسهل من قتل الإنسان وجرحه وإيذائه.

أما هانيبال فدفع القلب إلى الأمام ثم خطط له بالتراجع وكأنه ينهزم وهي خديعة، فيفرح العدو ويتقدم فتنسحب المقدمة أكثر فأكثر، وإذا أصبحت مقدمة جيش العدو قد غطست في عمق جيش هانيبال فهو يستجرُّها أكثر فأكثر في الوقت الذي تلتف الأجنحة تدريجيا على جوانب العدو، وحين يكتمل الطوق الجانبي تقوم الخيالة بالالتفاف على العدو من الخلف وهكذا يحكم إغلاق الدائرة على العدو، وفي هذه الحالة يقاتل الجيش بحوافه فقط ويصبح لهانيبال أشبه بقطعة لحم " السلامي والشاورما " فيقطعها شرائح بسهولة ويقضي على الجيش بأكمله.

وهكذا فقد قتل هانيبال في ذلك اليوم ٨٠ ألف روماني من خيرة شباب روما، فلم يبق بيت وبر ومدر وكبير وصغير وقنصل وحقير إلا وقد خسر منه شاب وهلك يافع وذُبح كهل..

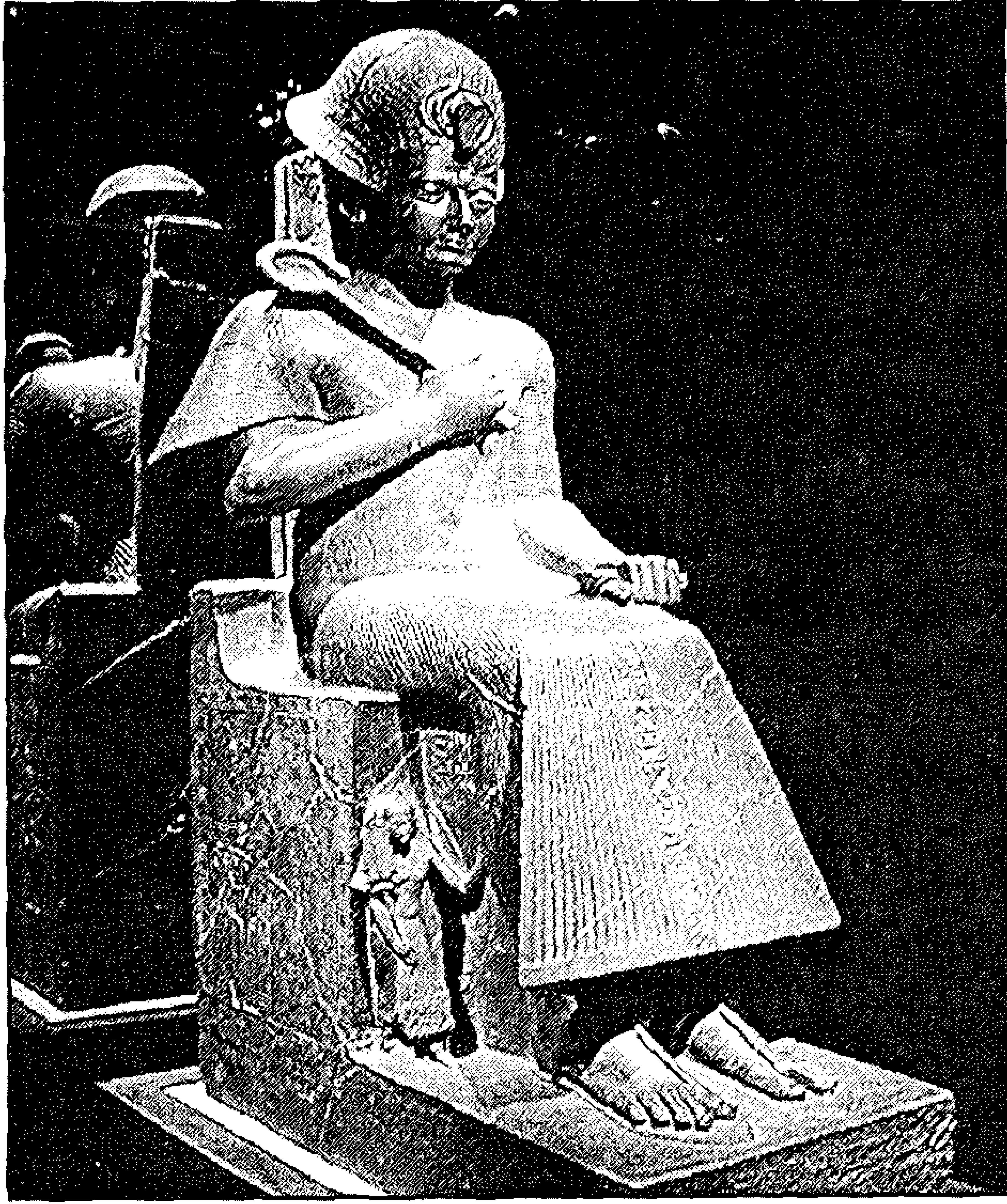
بعد هذه المعركة بدأت روما – و كذا سائر الأمم بعدها – تتعلم من هانيبال فن القتال وأن الحرب ليست شجاعة فقط بل علم استراتيجي تكتيكي يلعب فيه الذكاء والمناورة والخدعة والتربص والانتظار إلى آخر فنون الحرب. وبذلك نشأ العلم العسكري وتطور ولا يزال.



٢

" معركة قادش " ..
رمسيس الثاني يصنع المجد !!





وقعت هذه المعركه بين قوات الملك رمسيس الثاني ملك مصر والحيثيين بقيادة الملك مواتللي الثاني بمدينة " قادش " التي تقع على الضفة الغربية لنهر العاصي جنوب بحيرة حمص بعدة كيلومترات في سورية، وهذه المعركه مؤرخه بالعام الخامس من

حكم الملك رمسيس الثاني (العام الخامس فصل الشمو، اليوم التاسع) أي حوالي العام ١٢٧٤ ق.م على وجه التقريب، وتعتبر هذه المعركه هي أشهر المعارك سواء في التاريخ أو التي خاضها الملك رمسيس الثاني في صراعه مع الحيثيين وأصبح بعدها بطلا لا يضاهى ، والتي انتهت بعقد معاهدة صلح بين الطرفين .

وتعود قصة المعركة إلى اللحظة التي بدأ فيها انحسار النفوذ المصري في آسيا في عصر أواخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة كنتيجة مباشرة للاضطرابات التي خلفتها ثورة إخناتون الدينية في الداخل. مما جعل الحيثيون يستغلون هذه الاضطرابات لكي يقوموا بقيادة تحالف ضد مصر، ونجاحهم في ذلك، وبالتالي فقدان مصر للكثير من مناطق نفوذها في آسيا الغربية، وذلك دون أن يتحرك الملك أخناتون لتلبية طلبات النجدة التي كان يرسلها إليه أمراء المدن الآسيوية الموالون لمصر فيما عرف بخطابات تل العمارنة.

وبعد وفاة الملك أخناتون وفشل ثورته الدينية والعودة إلى عبادة الآلهة التقليدية لمصر والإله آمون مره أخرى ،وتولي الملك حور محب عرش مصر في نهاية الأمر، والذي يعتبر آخر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة الذي قام بتنظيم الشؤون الداخلية لمصر، والذي توفي دون وريث بعد أن نجح في إعادة الأمن إلى البلاد، تولى عرش مصر أحد قادة الجيش وهو رمسيس الأول مؤسسا بذلك الأسرة التاسعة عشرة .

وقد أخذ ملوك هذه الأسرة على عاتقهم استعادة النفوذ المصري في آسيا مرة أخرى، فبعد وفاة الفرعون رمسيس الأول بعد سنتين من الحكم، بدأ ابنه وخليفته سيتي الأول حملاته العسكرية ضد الحيثيين ،حيث كان يرمي إلى إعادة النفوذ المصري في آسيا إلى ما كان عليه في عهد الفرعون تحتمس الثالث في عصر الأسرة الثامنة عشرة، وبالفعل نجح سيتي الأول بعد عدة حملات عسكرية ناجحة في إعادة بسط النفوذ المصري في وتقابل مع جيوش الحيثيين بالقرب من قادش في سوريا الحالية ، وأخيرا عقد الصلح معهم (كما ذكر في نقوشه على جدران معبد الكرنك) بمعاهدة شهيرة ، وقد فضل سيتي الأول الوقوف عند هذا الحد ، و ربما قام بتوقيع معاهدة مع الحيثيين ،ومات بعد ١٤ عاما من الحكم ،وتولى من بعده ابنه رمسيس الثاني.

وقد شن الفرعون رمسيس الثاني حملته الأولى في العام الرابع من حكمه وعبر فيه فلسطين ووصل بجيوشه إلى نهر الكلب (بالقرب من بيروت) حيث أقام لوحة تذكارية هناك ،واستعاد مقاطعة آمور من الحيثيين. وبغرض السيطرة على سوريا تحرك الملك رمسيس الثاني بجيوشه في العام الخامس من حكمه ،وتابع تقدمه شمالا في سوريا وتواجه مع جيوش الحيثيين عند مدينة " قادش " على نهر العاصي.

خرج رمسيس الثاني بجيوشه من قلعة " ثارو " الحدودية وذلك في ربيع العام الخامس من حكمه. وبعد مرور شهر وصل بجيوشه إلى مشارف مدينة " قادش " عند ملتقى نهر العاصي أحد فروعه .

وكان الجيش المصري يتكون من أربعة فيالق وهي فيالق " آمون ورع " و " بتاح وست " وهي أسماء آلهة مصر الكبرى، بينما كان الملك مواتللي ملك الحيثيين قد حشد جيشا قويا انخرط فيه الكثير من الجنود المرتزقة بالإضافة إلى جيوش حلفائه (ومن بينهم ريميشارينا أمير حلب)، واتخذ من قادش القديمة مركزا لجيوشه.

وفيما كان رمسيس معسكرا بجيشه بالقرب من قادش (التي كانت على مسيرة يوم واحد)،إذ دخل معسكره اثنان من الشاسو (البدو) ادعيا أنهما فارين من جيش الملك الحيثي ،وأظهرا الولاء للفرعون الذي أسلمهما بدوره إلى رجاله ليستجوبوهما عن مكان جيوش الحيثيين ، فأخبرا الفرعون بأن ملك الحيثيين ما إن سمع بمقدم الفرعون حتى ارتعد وتقهقر بجيوشه إلى حلب في الشمال من سوريا.

وفي الواقع لم يكن هذين الشاسو غير جواسيس ، وعلى أساس هذه الأخبار وبدون التأكد من صحتها أسرع الملك رمسيس على رأس فيلق امون وعبر مخاضة لنهر العاصي، ثم سار إلى مرتفع شمال غربي قادش وأقام معسكره هناك في انتظار وصول باقي الجيش ليتابع السير في إثر جيش خيتا الذي كان يظن أنه في الشمال حسب ما أخبره الجاسوسان، وفي هذ ، الأثناء قبض جيشه على اثنين من جنود العدو الكشافة اللذين استخلصوا منهما الحقيقة وهي أن الحيثيين كانوا كامنين في قادش وأن العدو كان في طريقه لعبور نهر العاصي و مفاجأة الجيش المصري هناك .



أحد التماثيل التي شيدها المصريون القدماء تكريما لبطلهم رمسيس الثاني

وبالفعل عبر نصف الجيش الحيثي مخاضة نهر العاصي وفاجأوا فيلق رع ودمروه وبذلك قطعوا الاتصال بين رمسيس وبقية فيالقه ،واتجه العدو بعد ذلك بعرباته الحربية وتابع تقدمه وهاجم فيلق آمون الذي فقد نتيجة ذلك العديد من جنوده،وهنا وفي مواجهة خطر التطويق والهزيمة المحتمة قاد الفرعون بنفسه هجوما ضد العدو ودفع به حتى النهر وقد ساعده في ذلك وصول فرق الجنود القادمين من بلاد آمور والمسماه (نعارينا).

وبعد معارك ضارية بين الطرفين ارتد ملك الحيثيين بباقي جيشه الذي كان في الشرق ولم يشترك بعد في المعركه ، وكان التعب قد حل بجيش رمسيس أيضا واتفق الطرفان على الصلح،وهكذا انتهت المعركة دون نصر حاسم لأي من الطرفين ،بينما بقيت قادش في أيدي الحيثيين .

في أعقاب عودة رمسيس الثاني إلى مصر أحكم مواتللي قبضته على قادش وجعل أمورو موالية له، وجعل من دمشق منطقة محايده بينه وبين مصر .

وقد ذكر الملك مواتللي من ناحيته في وثائق بوغازكوي بأن المعركة كانت انتصارا له وأن أمور قد وقعت في أيدي الحيثيين ،بينما ذكر الملك رمسيس الثاني انتصاره في المعركة كذلك، والتي قام بنقش تفاصيلها بالكامل على جدران معبد الرمسيوم وكذلك معبد الأقصر، بالإضافة إلى معبده بابو سمبل (على جداره الشمالي فيما عرف بأنشودة معركة قادش) لكن الحيثيين أكدوا أن الانتصار كان من نصيبهم .

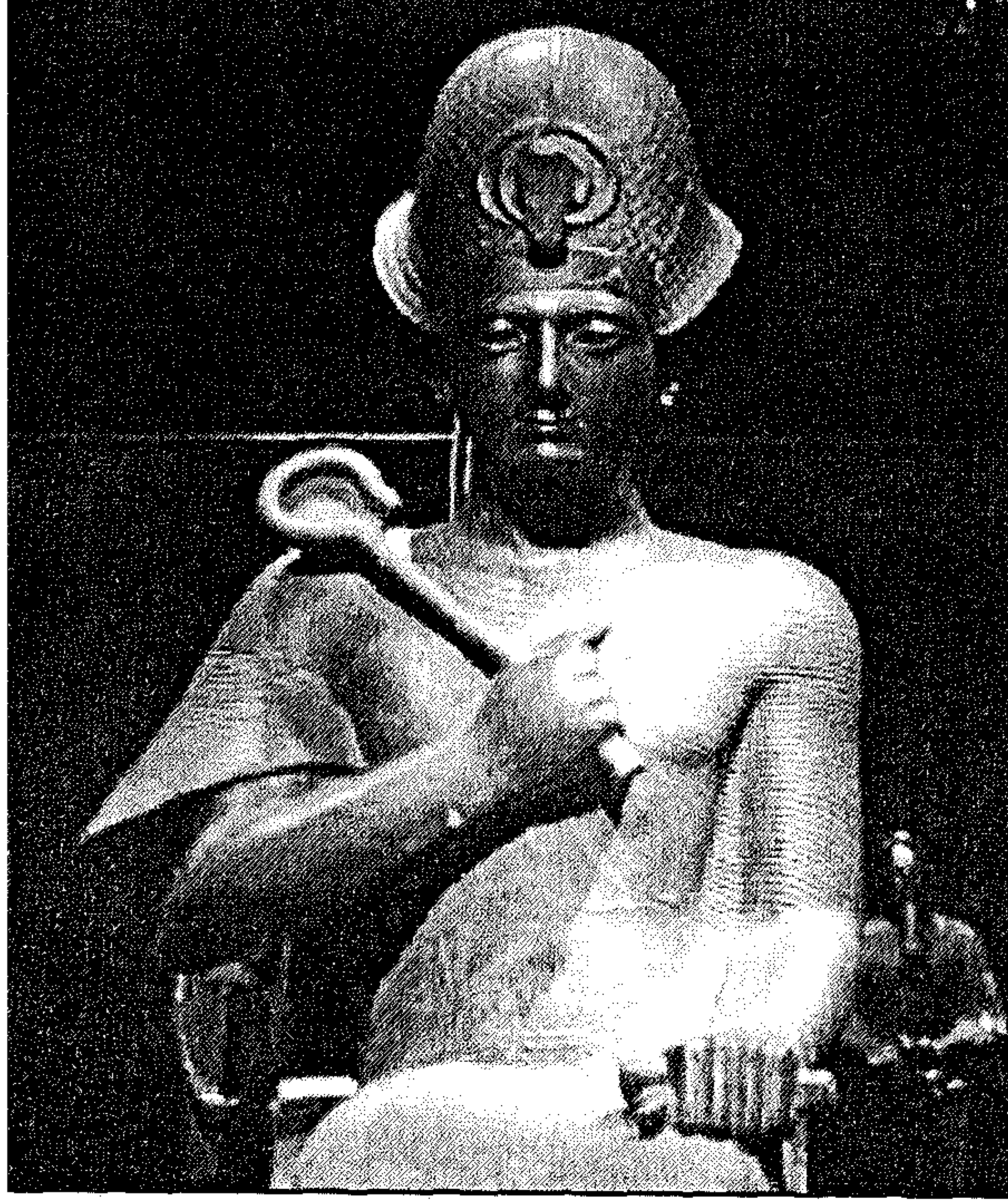
وفي خلال السنوات العشر التي مرت بعد ذلك قام رمسيس بعدة حملات إلى آسيا واستولى على دابور بعد حصارها واضطر الحيثيون في النهاية إلى التراجع تاركين أكبر جزء من سوريا دون حماية كافية . وفي أعقاب وفاة مواتللي تولي ابنه الذي كان صغيرا جدا .

وبعد عدة سنوات من الحكم حل محله عمه الملك خاتوسيل الثالث وانتهز رمسيس هذه الفرصة وتقدم نحو تونيب واستولى عليها.

وهنا بدأت قوة الأشوريين في الظهور وتهديد مناطق النفوذ المصرية والحيثية،مما حدا بالطرفين إلى توقيع معاهدة سلام بينهما وذلك في العام الحادي والعشرين من حكم الملك رمسيس الثاني (حوالي ١٢٥٨ ق.م)والتي سجلت بالخطين المسماري (على لوح من الفضة باسم الملك خاتوسيل) والهيروغليفي على جدران معبدي الكرنك والرامسيوم في طيبة(الأقصر حاليا) في جنوب مصر. وعليه فمهما كانت النتيجة من نصر الملك رمسيس الثاني أو هزيمته فقد حاول بشتى الطرق إثبات النصر من خلال المناظر التي تصور انتصاره على الأعداء في معركة قادش في شتي بقاع مصر. ولعله من الملاحظ أن طريقة تصوير المعركة كانت بنفس النمط الذي ساد في الدولة الحديثة خاصة عصر الملك سيتي الأول.

وهكذا تعد معركه قادش من أشهر المعارك التي خاضها الملك رمسيس الثاني في صراعه مع الحثيين والتي انتهت بعقد معاهدة صلح بين الطرفين حيث سيطرت على الشرق الأدنى القديم، قوتان عظميان: هما مصر في الجنوب والحثيون بآسيا الصغرى في الشمال.

وقد أرادت كل قوة من الاثنتين أن تلعب الدور القيادي في المنطقة وتبسط نفوذها في الأقاليم الواقعة بين بلدانهم.



رمسيس الثاني القائد الفرعوني الخالد عبر العصور !!

وذكرت المصادر التاريخية أنه قد تم الاستعداد للمعركة من كلا الجانبين (المصريين والحثيين) بأعلى درجات التحضير، فقد وصل المصريون والحثيون إلى جوار قادش في الوقت نفسه تقريباً، وكان للحثيين فرصة اختيار المكان، حيث تم فيه قطع طريق المصريين بعيداً عن قواعدهم، ومن ثَمَّ أصبح خط إمدادهم طويلاً جدا، وإضافة إلى علاقة الحثيين بأمير قادش.

قادش ضمنيّاً كانت ضد المصريين بسبب هجومهم المتواصل عليها إلا أنها لم تُعلن موقفها، فدعمت الحثيين للإيقاع بالمصريين.

وذكرت المصادر أنه قد شكل أكبر جيش حثي في تاريخه، وكان يضم عدداً كبيراً من حلفاء الحثيين، وقد نقش على جدران معبد أبو سمبل اسم ١٨ دولة منها.



رمسيس الثاني وقد وضع نفسه بين الإله " آمون" والإلهة " موت " في ثالوث الآلهة.

فقيل إنهم كانوا فرقتين من المشاة الأولى مؤلفة من ١٨٠٠٠ رجل، والثانية ضمت ١٩٠٠٠ رجل مع ٣٧٠٠ عربة قتال، كل عربة أقلت ثلاثة رجال، وقد تميزت هذه العربات بثقل وزنها، وبقفص من الخشب مغطى بالجلد، وقد ظهر عليها بعض التطور. فأيام الفرعون ستي كانت عربة القتال الحثية تحمل راكبين فقط الأول يحمل قوساً والثاني يقود العربة ويحمل درعاً، على حين في عصر رمسيس صورت بإضافة محارب آخر يحمل رمحاً طوله من ٧ إلى ٨ أقدام، وارتدى المحاربون الثلاثة قلنسوات طويلة. وقد واكبت هذه المرحلة تطوير الحثيين لمعادن الأسلحة حيث طوروا معدن الحديد، وتفوقوا على الأسلحة البرونزية المصرية.

بالنسبة للجيش المصري تقول النصوص المصرية: إن رمسيس قسم جيشه إلى أربعة فيالق، وفي الحقيقة هي أربعة جيوش كاملة كل منها يتألف من ٥٠٠٠ رجل، وتيمنا بالآلهة أطلق اسم إله على كل فيلق من الفيالق (آمون، رع، بتاح، ست)

فرقة آمون: فرقة الحرس الملكي أو فرقة النخبة.

فرقة رع: تتألف من الأمراء المصريين والنبلاء.

فرقتا بتاح وست: كانتا قواتا حلفاء مصر من النوبيين والليبيين والآسيويين.

كانت كل واحدة من العربات المصرية تحمل سائقاً ورامياً وحامل رمح، وكان يلاحظ أن جميع جنود العربات في مصر كانوا من الأحرار والنبلاء أو المتطوعين المحترفين، نظراً إلى أهمية سلاح العربات في ذلك الوقت.

أما جنود المشاة فكانوا من المجندين والحلفاء الذين فرض عليهم تقديم عدد من الجنود.

وكان المصريون يمتلكون السيوف العريضة الضخمة، واعتمدوا على الرماة الذين امتلكوا القوس المركب، الذي امتاز بسهولة الحمل والخفة، وبعد الرمي.

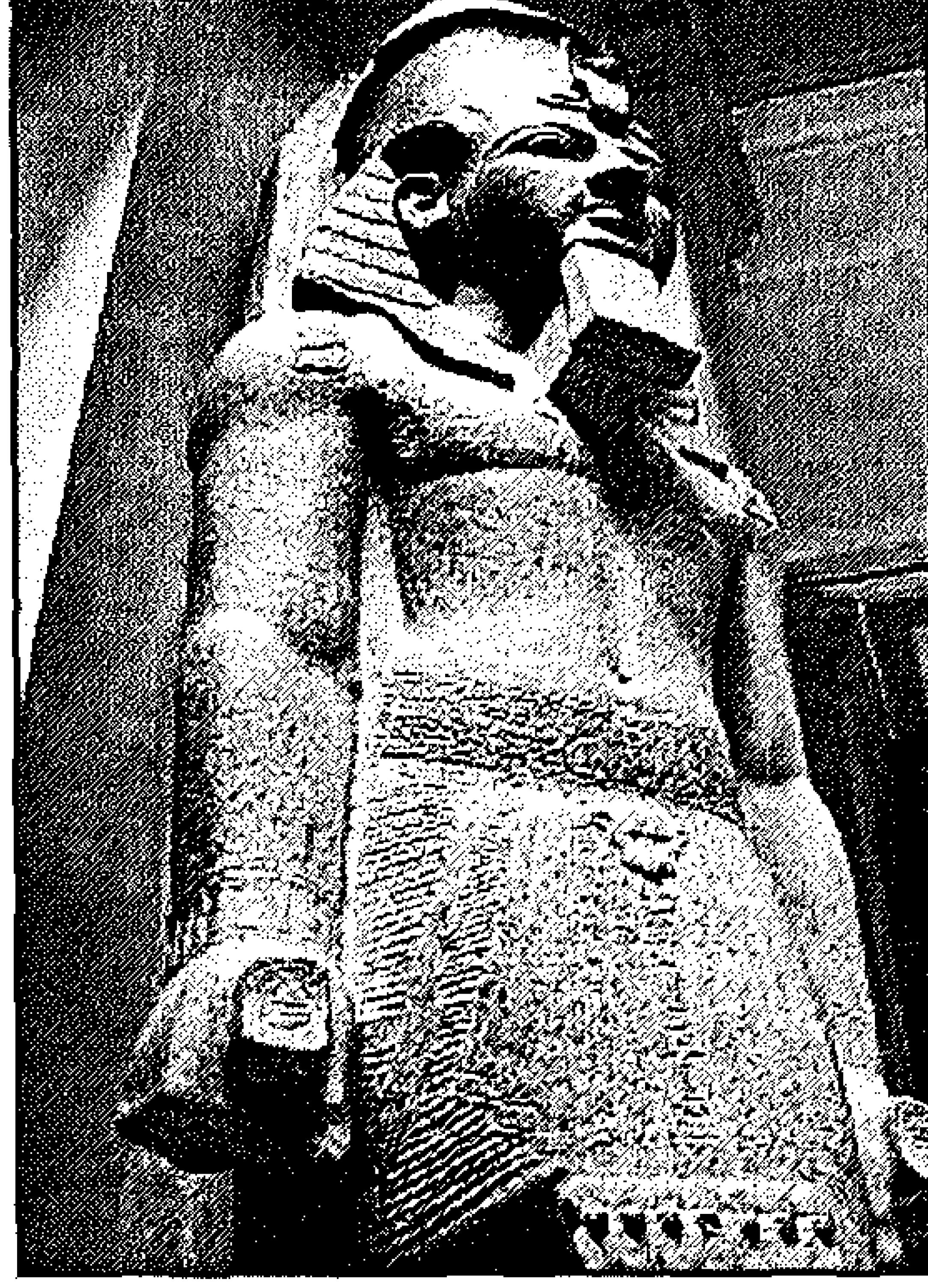
بعد تحضيرات واستعدادات طويلة من كلا الطرفين انطلق رمسيس بجيشه الكبير باتجاه قادش ودارت هناك معركة حامية بين الطرفين انتهت بإعلان القوات المصرية انسحابها جنوباً لتعيد تجمعها بأقل الخسائر الممكنة، ولتبقى قادش على ولائها للحثيين.

وفي نهاية المحاضرة يطرح الدكتور الحايك سؤالاً مفاده: من الذي انتصر في معركة قادش المصريون أم الحثيون؟

جميع اللوحات المصرية تدعي الانتصار الهائل لرمسيس الثاني!

ولكن في الحقيقة وبعد مراجعة إحداثيات المعركة ونصوص أخرى تدل على أن رمسيس لم يستطع إلا أن يحقق نصراً فرديا له عندما استطاع بشجاعة نادرة من الإفلات من كمين موفاتالي، كما تمكن أن ينجي جيشه بأعجوبة من الهجوم الحثي المفاجئ، لكن النتيجة أنه اضطر للانسحاب من سورية الشمالية والوسطى.

وفي عام ١٢٦٨ ق.م وقعت معاهدة صلح دائمة بين المصريين والحثيين وهي من أشهر معاهدات العالم القديم على الإطلاق، حيث ضمت اتفاق ضمان إقليمي، وتحالفاً دفاعيًّا، واتفاق تعاون متبادل يستهدف العصاة، وبنوداً لتسليم اللاجئين والفارين سياسيًّا.



رمسيس الثاني و تمثاله الشهير

بقى أن نقول إن رمسيس الثاني هو ثالث فراعنة الأسرة التاسعة عشرة.. حكم مصر لمدة حوالي ٦٦ سنة من ١٢٧٩ ق.م. حتى ١٢١٢ ق.م. (أو ١٢٩٠ ق.م. - ١٢٢٤ ق.م.)، صعد إلى سدة الحكم وهو في أوائل العشرينيات من العمر. ظُن من قبل أنه عاش حتى أصبح عمره ٩٩ عاماً، إلا أنه على الأغلب توفي في أوائل تسعيناته. الكتاب الإغريق القدامى (مثل هيرودوت) نسبوا إنجازاته إلى الملك شبه الأسطوري سيزوستريس.

يعتقد البعض أنه فرعون خروج اليهود من مصر. إذا كان قد اعتلى العرش عام ١٢٧٩ ق.م ، كما يعتقد معظم علماء المصريات ، فإن ذلك كان يوم ٣١ مايو ١٢٧٩ ق.م بناءً على التاريخ المصري لاعتلائه العرش الشهر الثالث من فصل شمو يوم ٢٧.

رمسيس الثاني كان ابن سيتي الأول والملكة تويا. أشهر زوجاته كانت نفرتاري. من ضمن زوجاته الأخريات إيزيس نوفرت و ماعت حور نفرو رع ، والأميرة حاتّي. بلغ عدد أبنائه نحو ٩٠ ابنة وابنا. أولاده كان منهم: بنتاناث و مريت أمن (أميرات وزوجات والدهن)، ستناخت والفرعون مرنبتاح (الذي خلفه) وأخيرا الأمير خعامواست الذى رمم آثار أجداده القدامى (ولذلك هو أول مرمم آثار في التاريخ) ومن أشهر ما رممه الأمير خعامواست هرم أوناس الشهير.

ومثل معظم الفراعنة، فقد كان لرمسيس عدة أسماء. أهم اثنين منهما: اسمه الملكي واسمه الأصلي . وتلك الأسماء تُكتب بالعربية كالتالي: وسر معت رع ستپ ان رع ، رع مس سو مري إمن ، ومعناها: "قوي رع وماعت ، مصطفى رع ، روح رع ، محبوب أمون" . في النسخة الحيثية من معاهدة السلام الذكورة آنفاً مع حاتّوسيليس الثالث، فإن اسم الفرعون يظهر كالتالي: وَشْمُوَارع شَتپْنَرَع رعمَشِش مَيّأمَنَ . ويعتقد بعض علماء المصريات أن هذا النطق يجب اعتباره أقرب نطق لاسم الفرعون.

قاد رمسيس الثاني عدة حملات شمالاً إلى بلاد الشام ، وفي معركة قادش الثانية في العام الرابع من حكمه (١٢٧٤ ق.م.) ، قامت القوات المصرية تحت قيادته بالاشتباك مع قوات مُواتاليّس ملك الحثيين استمرت لمدة خمسة عشر عاما ولكن لم يتمكن أي من الطرفين هزيمة الطرف الآخر. وبالتالي ففي العام الحادي والعشرين من حكمه (١٢٥٨ ق.م.)، أبرم رمسيس الثاني معاهدة مع حاتّوسيليس الثالث ، وهي أقدم معاهدة سلام في التاريخ.

قاد رمسيس أيضاً عدة حملات جنوب الشلال الأول إلى بلاد النوبة ، وقد اتخذ رمسيس مدينة (بر رعمس) التى بناها في شرق الدلتا عاصمة له.



مومياء رمسيس الثاني

قام رمسيس خلال مدة حكمه ببناء عدد كبير من المبانى يفوق أى فرعون آخر ، فقد بدأ بإتمام المعبد الذى بدأه والده في أبيدوس ثم بنى معبدا صغيرا خاصا به بجوار معبد والده ولكنه تهدم ولم يتبق منه إلا أطلال ، وفى الكرنك أتم بناء المعبد الذى قد بدأه جده رمسيس الأول ، وأقام في طيبة الرامسيوم (أطلق علماء القرن التاسع عشر على هذا المعبد الجنائزى اسم الرامسيوم نسبة إلى رمسيس الثانى) وهو معبد جنائزى ضخم بناه رمسيس لآمون ولنفسه ، وأقام أيضا التحفة الرائعة معبدى " أبو سمبل " المعبد الكبير له المنحوت في الصخر ويحرس مدخل المعبد أربعة تماثيل ضخمة لرمسيس الثانى وهو جالس ، ويزيد ارتفاع كل تمثال عن ٢٠ مترا.

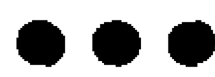
كما بنى المعبد الصغير المنحوت أيضا في الصخر لزوجته نفرتاري وكان مكرسا لعبادة الإلهة حتحور إلهة الحب والتى تصور برأس بقرة ، وتوجد في واجهة المعبد ستة تماثيل ضخمة واقفة أربعة منها لرمسيس الثانى واثنان للملكة نفرتارى ويصل ارتفاع التمثال إلى حوالى ١٠ أمتار .

كانت آثار أبو سمبل مهددة بالغرق تحت مياه بحيرة ناصر ، ولكن تم إنقاذها بمساعدة اليونيسكو حيث تم نقل المعبدين الكبير والصغير إلى موقعهما الحالى.

وأقام رمسيس الثانى العديد من المسلات منها مسلة لا تزال قائمة بمعبد الأقصر، ومسلة أخرى موجودة حاليا في فرنسا بميدان الكونكورد بباريس قام بنقلها مهندس فرنسى يدعى ليباس.

دفن رمسيس في وادي الملوك ، في المقبرة KV٧ ، إلا أن مومياؤه نُقلت إلى خزانة المومياوات في الدير البحري ، حيث اكتُشفت عام ١٨٨١ ونقلت إلى المتحف المصري بالقاهرة بعد خمس سنوات ، كان رمسيس يبلغ ارتفاع قامته ١٧٠ سم ، والفحوص الطبية على مومياته تظهر آثار شعر أحمر أو مخضب ، ويعتقد أنه عانى من روماتيزم حاد في المفاصل في سنين عمره الأخيرة ، وكذلك عانى من أمراض في اللثة

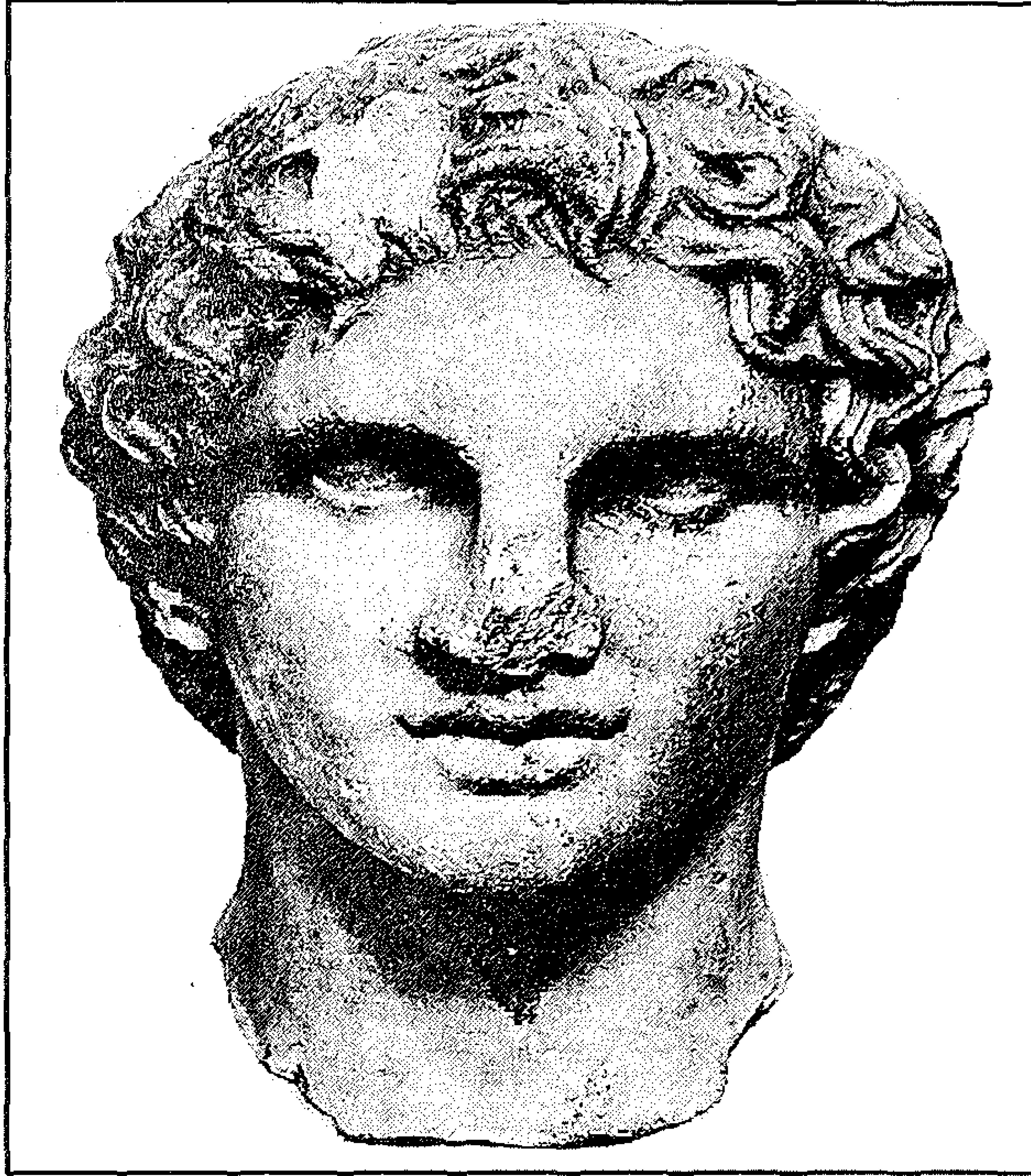
تم نقل تمثال رمسيس من مكانه إلى منطقة الهرم ليتواجد فى المتحف الأثرى القائم بمنطقة الهرم.



٣

الإسكندر الأكبر..
المعارك تصنع الأبطال !!





الإسكندر الثالث (ميغاس أليكساندروس باليونانية) أو الإسكندر الأكبر أو الإسكندر المقدوني، حاكم مقدونيا أو ماسيدونيا، قاهر إمبراطورية الفرس واحد من أذكى وأعظم القادة الحربيين على مر العصور. . ولا يزاحمه على زعامة أبطال التاريخ العسكريين سوى هانيبال !!

كان الإسكندر الأكبر عبقرية عسكرية فذة .. وكان أيضا عبقرية سياسية فذة ، فرغم فتوحاته الشاسعة التي تعدى بها حدود بلاده إلى فارس ومصر والهند، كان يتوج هذه الفتوحات بإرضاء أهلها واحترام دياناتهم، حتى أنه عندما جاء إلى مصر ذهب إلى واحة سيوة وادعى أنه ابن الإله آمون.. و.. ربما كان هذا الاتساع في الأفق مرجعه إلى أنه كان تلميذا للفيلسوف اليوناني الكبير أرسطو.

ولد الإسكندر في بيلا، العاصمة القديمة لمقدونيا. ابن فيليبُّوس الثاني ملك مقدونيا وابن الأميرة أوليمبياس أميرة ابيروس. درس الفلسفة على الفيلسوف أرسطوطاليس الذي كان مهذب الإسكندر الأمير الخاص عند تنشئته. درّبه تدريبا شاملا على فنون الخطابة والأدب وحفزه الاهتمام بالعلوم والطب والفلسفة.

وقد استطاع والده فيليب عندما تولى عرش مقدونيا أن يخضع بلاد الإغريق، ويوحد كلمتهم تحت علم واحد وكان أمله أن يخضع الشعوب المجاورة لنفوذه، كما كان من آماله أن يعلن الحرب على الأمبراطورية الفارسية ويخضعها لنفوذه، وهي التي ظلت لسنوات طويلة تخيف المدن اليونانية، وتفرض سلطانها عليها.

وكان فيليب هذا متزوجا من ست زوجات، ولكنه لم ينجب سوى وريثين شرعيين من زوجته الملكة أوليمبياس، وكان أحد هذين الوريثين مصابا بالصرع ولا يصلح لأن يرث فيليب الذي استطاع أن يخضع المدن اليونانية لسلطانه، أما الآخر فهو الإسكندر الذي ورث عن والده الشجاعة، وعن أمه الدهاء والمكر وقد فكر فيليب طويلا فيمن يرثه في ملكه العريض، وهو مقبل على حروب كثيرة يشاركه فيها ابنه صاحب العبقرية العسكرية، الإسكندر، وتتابعت علامات الاستفهام على رأسه، ماذا يحدث لو أن الإسكندرقتل في أحد المعارك! هل يصبح العرش بلا وريث؟! وهداه تفكيره أن يتزوج للمرة السابعة حتى يأتي بولي للعهد لو حدث لابنه الإسكندر حادث يودي بحياته سواء في ميادين القتال أو في غير ميادين القتال!

وكان من الطبيعي أن يحدث خلاف بين فيليب وزوجته الملكة أوليمبياس، فهي لا تريده أن يتزوج عليها، وكان من الطبيعي أيضا أن يغضب الإسكندر لغضب أمه، وإن كان البعض يرى أن الإسكندر كانت له طموحات لا حدود لها، وأنه كان يريد أن يغزو

العالم كله وليس بلاد فارس وحدها، وأن هذا المجد ينبغي أن يلصق به لا بأبيه، فهو يعيش للمجد، وخياله يحوم حول تكوين إمبراطورية شاسعة الأطراف يكون هو إمبراطورها، لا والده الذي يريد أن يتزوج على والدته من أجل ولي للعرش قد يخلفه على مملكته.. ويقول بعض المؤرخين إن الملكة أوليمبياس، قد دبرت مؤامرة مع ولدها الإسكندر للتخلص من والده فيليب، فتم اغتيال فيليب بطعنة في إحدى حفلات الزواج!

كان من الطبيعي أن تحدث فتن واضطرابات عقب اغتيال فيليب، ولكن حزم الإسكندر ومقدرته العسكرية والسياسية، جعلت الفتن تنام في مهدها وتدين له البلاد بالولاء التام، وعندما حاولت إحدي المدن اليونانية الثورة عليه، سرعان ما أخمد هذه الثورة بعد أن هدم المدينة وسوى بيوتها بالأرض! كما أمر أن يباع رجالها وأطفالها ونساؤها في سوق العبيد!

وكون الإسكندر الذي أصبح الإسكندر الأكبر جيشا منظما من مقدونيا ليبدأ مشروعه الإمبراطوري في التوسع والاستيلاء على الدول المجاورة، لنشر الثقافة الإغريقية بجانب أطماعه أن يكون سيدا على العالم!

والغريب أنه عندما كان يهاجم الفرس، وكان معهم عدد كبير من الجنود المرتزقة من الإغريق، وكان عددهم يزيد عن عشرين ألف مقاتل، وقد أمر الإسكندر بعد هزيمة الفرس، بقتل كل هؤلاء المرتزقة باعتبارهم خانوا بلادهم، وانضموا إلى جيش الفرس.

وقارئ التاريخ يعرف كيف استطاع الإسكندر هزيمة الفرس هزيمة منكرة، وأصبح قائدا عسكريا لا ينافس بعد هزيمته ملك الفرس دارا وبعد أن أصبحت صورته في العالم صورة القائد الشاب المنتصر دائما.



الإسكندر الأكبر في شبابه ؟

المهم أنه في صيف (٣٣٦) ق م اغتيل الملك فيليبّوس الثاني فاعتلى العرش ابنه الإسكندر فوجد نفسه محاطاً بالأعداء حوله من كل جانب ومهددا بالتمرد والعصيان من الخارج. بدأ التخلص من المتآمرين وأعدائه من الداخل بالحكم عليهم بالإعدام. ثم انتقل إلى ثيساليا واستعاد الحكم على مقدونيا.

قبل نهاية ٣٣٦ ق م، أعاد تأسيس موقعه في اليونان باختيار الكونغرس له في كورينث قائداً. كان المخطط مع أبيه قيادة حملة ضد الفرس المهددين في عام٣٣٥ ق م تولى حملة ناجحة سحق في أسبوع الذين كانوا يهددون أمنه من اليرانس مرورا بثيبيس اللتين تمردتا عليه فحطم كل شيء فيها ما عدا المعابد وبيت الشاعر اليوناني (بيندار) وأمر ترحيل السكان الناجين وكانوا ما يقرب من ٨،٠٠٠ إلى سلافيري، سرعة الإسكندر في القضاء على ثيبيس كانت بمثابة عبرة للولايات اليونانية الأخرى التي سارعت إلى إعلان الرضوخ له فورا قبل ان يسحقوا.

بدأ الإسكندر حربه ضد الفرس في ربيع عام ٣٣٤ ق م، عبر هيليسبونت بجيش تعداده ٣٥،٠٠٠ مقدوني وضابط يوناني منهم انتيجواس الأول وبطليموس الأول وسيليكوس الأول، عند نهر جرانيياس بالقرب من المدينة القديمة لطروادة، قابل جيشا من الفرس فالحق بجيش الفرس هزيمة شنعاء خسر الجيش المقدوني فيها ١١٠ مقاتلين.

وبعد هذه الحرب الضارية أصبح الإسكندر مسيطرا على كل ولايات آسيا. عندها استمر الإسكندر تقدمه جنوبيا فواجه جيش الفرس الأول الذي قاده الملك داريوس الثالث في أسوس شمال شرق سوريا.

لم يكن معروفا عدد جيش داريوس قيل كان يبلغ حوالي ٥٠٠،٠٠٠ مقاتل. يعتبر المؤرخون هذا العدد مبالغا فيه. معركة اسيوس حدثت عام ٣٣٣ ق م انتهت بنصر كبير للإسكندر وبهزيمة داريوس هزيمة نكراء، فرَ شمالاً تاركا أمه وزوجته وأولاده حيث عاملهم الإسكندر معاملة جيدة قريبة لمعاملة الملوك، وفق ما تروي الروايات.

مدينة صور المحصنة بحريا قاومت مقاومة قوية وثابتة أمام الإسكندر إلا أن الإسكندر اقتحمها بعد حصار دام سبعة أشهر في عام ٣٣٤ ق م فاحتل غزة ثم توجه إلى مصر حيث استقبله السكان كمنقذ.

وبهذا النجاح أمن التحكم بخط الساحل الشرقي للبحر المتوسط. وفي عام ٣٣٢ ق م على رأس نهر النيل أسس مدينة الإسكندرية المعروفة الآن التي غدت عاصمة علمية وأدبية وتجارية للثقافة اليونانية. أما سيرين العاصمة القديمة لملكة إفريقيا الشمالية سيرناسيا فقد خضعت فيما بعد للإسكندر وبهذا وسع حكمه إلى قرطاجة.

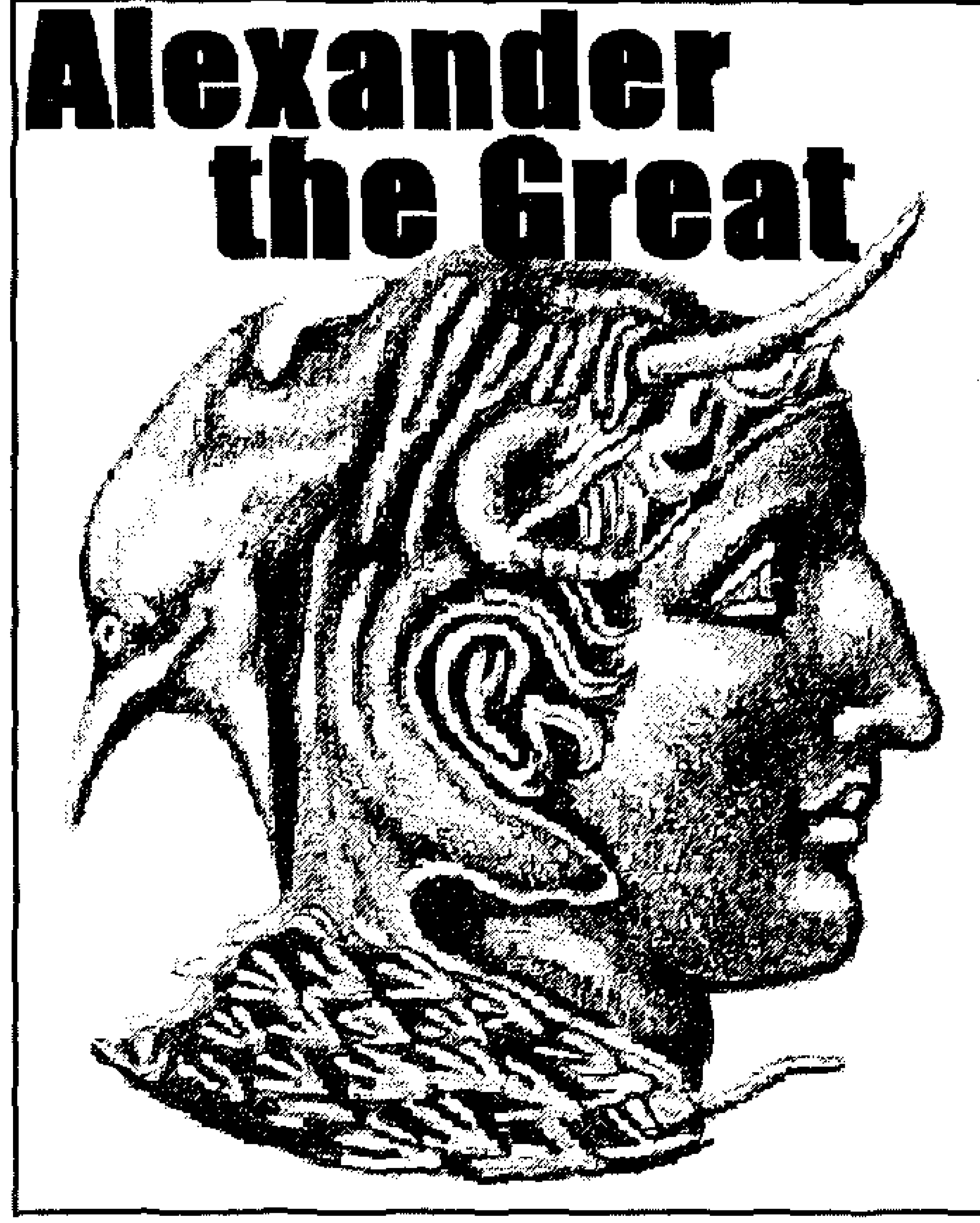
في ربيع عام ٣٣١ ق م حج الإسكندر إلى المعبد العظيم وسيط الوحي آلهة الشمس (آمون- رأ) الذي هو (زيوس) عند اليونان، كان المصريون القدامى يظنون بأنهم أبناء إله الشمس (أمون- را). الحج الذي قام به جعله ابناً للإله لاعتقاده بأن أصوله إلهية. بالعودة إلى الشمال مرة اخرى، أعاد ترتيب قواته في صور بجيش مكون من ٤٠,٠٠٠ من المشاة و ٧,٠٠٠ فارس عابرا نهري دجلة والفرات، فقابل داريوس بجيش يقارب المليون مقاتل وهذا الرقم مبالغ فيه في الكتابات القديمة. وقد استطاع التغلب على هذا الجيش وهزمه هزيمة ساحقة في معركة (كاوكاميلا) في أكتوبر عام ٣٣١ ق م.

فرَ داريوس مرة أخرى كما فعل في (أسيوس). أما داريوس فقد قتله حراسه عندما كان بطريقه إلى مدينة همدان هاربا من جيوش الإسكندر التي كانت تلاحقه.

حوصرت مدينة بابل(Babylon) في بلاد الرافدين بعد معركة (كاوكاميلا) واحتل مدينة سوسا ذات الكنوز الهائلة، وبعد ذلك وفي نصف فصل الشتاء اتجه الإسكندر إلى (بيرسبوليس) عاصمة الفرس. فاحتلها فنهب الثروات الملكية وأخذ الغنائم ثم حرق المدينة خلال حفلة شرب الخمر. بهذا الانتصار أصبحت سيطرة الإسكندر تمتد إلى خلف الشواطيء الجنوبية من بحر الكاسبيان إلى أفغانستان وبلوشستان وشمالاً من باكتريا وسوقديانا غرب تركستان التي تعرف بآسيا الوسطى.

استغرقت حملة الإسكندر من ربيع ٣٣٧ ق م إلى ربيع ٣٣٠ ق م احتل هذه الممالك المتعددة. بإكمال سيطرته على بقايا الإمبراطورية الفارسية وصل جزءاً من غرب الهند، عبر نهر الاندوس في عام ٣٢٦ ق م محتلاً بذلك البنجاب الهندية. في هذه المرحلة تعب المقدونيون فثاروا على الإسكندر رافضين الاستمرار معه فتولى بناء جيش آخر ثم أبحر إلى الخليج العربي ثم عاد برّاً عبر صحراء ميديا وبنقص الطعام والشراب خسر عدداً من قواته هناك. مضى الإسكندر في خططه فسيطر على منطقة الخليج العربي للاستعداد لهجوم محتمل.

وصل الإسكندر بابيلون (بابل) في ربيع ٣٢٣ ق م و في شهر تموز أصيب بحمى شديدة مات على أثرها تاركاً إمبراطورية عظيمة واسعة. قائلا جملته الغامضة إلى الأقوى (to the strongest)مخلفا صراعات شديدة بين ضباطه استمرت ما يقرب من نصف قرن. كان الإسكندر من أعظم الجنرالات على مر العصور حيث كان تكتيكيا بارعا وقائد قوات عبقريًا بدليل قدرته على احتلال كل تلك المساحات الواسعة في فترة قصيرة. كان شجاعا سخيا لكنه كان شديدا صلباً في السياسة.



كما ورد في كتب التاريخ القديمة. كان الإسكندر مدمنا على الكحول إذ يقال إنه قتل أقرب أصدقائه كليتوس في حفلة شرب لكنه ندم بعدئذ ندما عظيما على ما فعله بصديقه الودود. وصف المؤرخون الإسكندر بأنه كان ذا حكمة يسعى لبناء حكم قائم على الأخوة بدمجه الشرق مع الغرب في إمبراطورية واحدة .

درب آلاف الشباب الفرس بمقدونيا وعينهم في جيشه، وتبنى بنفسه عادات وتقاليد الفرس فتزوج شرقيات منهن (روكسانا Roxana) التي ماتت عام ٣١١ ق.م كانت ابنة (أوكسيارتس Oxyartes) ذات القربى بـ (داريوس)، وشجع ضباط جيشه و جنوده على الزواج بالفارسيات.

قبل موته بفترة قصيرة أمر الإسكندر الإغريق بتمجيده وعبادته كإله، أرجع ذلك لأسباب سياسية بيد أن القرار ألغي بعد موته. أهم ما أنجزه إثر دخوله مصر تأسيس مدينة الإسكندرية ولا تزال المدينة قائمة، فقد غير معالمها تغييرا جذريا حيث كانت مكانا استراتيجيا مهما على البحر الأبيض المتوسط، ومن ثم عسكريا وتجاريا كما أنها تتمتع بوفرة المياه على النيل حيث توارد عليها في عهده التجار وطلاب المعرفة والعلماء وجميع الفئات وبهذه الإنجازات أصبحت اللغة اليونانية واسعة الانتشار ومسيطرة على لغات العالم.

وبعد وفاة الإسكندر عام (٣٢٣) ق.م في بابل في القرية التي تسمى الآن الإسكندرية الملحقة بمدينة الحلة. قسمت إمبراطوريته بين قواده وذلك بعد حروب ضارية جرت بينهم فأصبح هؤلاء القواد ملوكا مستقلين عن بعضهم وكان القائد (أنيتغونس مونوفتالموس) قد تمكن من توحيد سورية وفلسطين وشمال بلاد الرافدين تحت سيطرته.

و(سلوقس نيكاتور) غدى ملك بابل بعد انتصار في معركة ايفيسوس عام (٣٠١) ق م في آسيا الصغرى استولى أيضا على هذه المناطق التي كانت تحت سيطرة (انتيغومس مونوفتالموس) إلا أن الرومان الذين نزلوا من آسيا الصغرى في عام (١٩١) ق.م. استطاعوا تجريد (سلوقس نيكاتور) من معظم البلدان التي تتبعه وانحصرت مملكته في حدود سورية.

ورد عن دهاء الإسكندر أن فليونيكس المسئول عن استطبلات خيول الملك فيليب المقدونى والد الاسكندر يخبره بأن فرسا متمردة وعنيفة جدا، لا يستطع أحد التحكم بزمامها لذا قرر بيعها إذ سمع الإسكندر وكان فى سن المراهقة قال لأبية، سأذهب مع فيلونيكس لأرى هذه الفرس الجامحة .حاول والده أن يثنيه عن عزمه خوفاً عليه من الفرس، لكنه فى لطف أجاب لا تخف يا والدى، فإنه لكل عنف علة أوسببا فإننى أحاول أن أروضها. قال الملك لابنه : " لا أظن أن لك خبرة " .

فسائس الخيل الذى قضى حياته يدرس ويمارس ترويض وتدريب الخيل .أجاب الإسكندر (لم أتدرب على ترويض الخيل لكن أعطنى فرصة لأتعرف على سبب جموح الفرس). ذهب الصبى المراهق الإسكندر مع المدرب العظيم إلى إسطبل الخيل، وإذ ذهب المدرب ليمسك بالفرس ثارت وصار الموقف خطيراً، مشى الصبى نحو الفرس وأمسك بلجامها ثم غيّر اتجاه رأسها فصارت الفرس هادئة فامتطاها بسهولة ثم أخذها إلى والده راكبا فهنأه على قدرتة على ترويض الفرس فى لحظات قليلة سأله الملك فيليب ماذا فعلت يا ابنى؟ أجاب الإسكندر أن الأمر بسيط للغاية، لقد كانت الفرس ترى ظله فتخاف منه ، فلما حولت رأسها نحو الشمس صار ظله تحت قدميها فلم تخف بل صارت هادئة. فقال أبوه عبارته الشهيرة : " إن الدنيا لن تسع عقلك يابني " .

حلت الوفاة عندما وصل الإسكندر بابل في ربيع ٣٢٣ ق.م. وبعد شهر يونيو - حزيران من عام ٣٢٣ ق.م أصيب بحمى شديدة مات على أثرها تاركاً وراءه إمبراطورية عظيمة واسعة الأطراف. في رواية أخرى أن الإسكندر الأكبر مات مسموما بسم دسه له طبيبه الخاص الذي يثق به ثقة عمياء وسقط مريضا حوالي أسبوعين وكان قد سلم الخاتم الخاص به لقائد جيشه برداكيس وهو على فراش المرض وطلب من الجنود زيارته في فراشه ويبدو أن المحيطين به في تلك الفترة كانوا متآمرين عليه نظرا لتصرفاته وسلوكياته الغريبة، حيث إنه في أواخر أيامه طلب من الإغريق تأليهه في الوقت الذي كان عنيفا مع الكثيرين ومن سلبياته إدمانه في احتساء الخمر.

كل هذه العوامل جعلت البعض يتربصون به ومحاولتهم للفتك به. لعل أهم ماخلفه خلفاء الإسكندر. بطليموس الأول خليفته الذي انشأ مكتبة الإسكندرية عام ٣٣٠ ق م وصرف بطليموس الثاني صرفا هائلا على المكتبة التي جمعت المخلفات القديمة من برديات وتماثيل قديمة تعود للعصور الفرعونية.

كانت المكتبة في عهدها وحيدة وفريدة فغدت مثلا لقيام مكتبات ضخمة في أرجاء العالم. كانت مكتبة الإسكندرية في بداياتها تضم ٧٠٠ ألف بردية وتضم خاصة أعمال هوميروس و أرسطوطاليس.

ومن سلالة أحد ضباط الإسكندر ظهرت كليوباترا ملكة لمصر. الإسكندر الأكبر بالإضافة إلى تأسيسه مدينة الإسكندرية العظيمة في مصر فإنه خلف اسمه على مدينة صغيرة توجد حتى هذا العهد وهي قائمقامية الإسكندرية التابعة لمحافظة الحلة قرب بابل.

ويقال إن بطليموس قد أخرج جثمانه من بابل حيث توفي ونقله إلى الإسكندرية (ومازال المغامرون يبحثون كل حين عن هذا الجثمان الذي لا تقدر قيمته التاريخية بمال إن وجد).

ويقول: حياة الإسكندر تعتبر العامل الحاسم في نقطة ارتكاز التاريخ الإنساني.. يعتبر الإسكندر في المنتصف الهندسي للتطور الإنساني، والحياة الإنسانية بعده تختلف اختلافا بينا عن الحياة قبله، فكأنه يقع في منتصف رحلة الإنسانية (كما أن نشاطه يقع في قلب العالم كما تخيله) إذا نظرنا إلى خريطة العالم، فإننا نتبين للوهلة الأولى

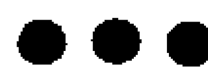
المسافات الشاسعة التي اخترقها بجيشه (كما فعل من قبله قورش العظيم ودارا العظيم) ثم نتبين الهدف إلى أخذ نفسه بتحقيقه ومقدار ما تحقق من هذا الهدف.

لم يكن هدفه تحقيق الفتوحات فحسب، بل كان من أهدافه استكشاف المناطق ثم استعمارها والاستقرار فيها، وحقق هذه الأهداف وتشابك الغزو العسكري مع السياسة السليمة والفن والتجارة والتقدم التقني والعلمي، وفي هذا الشأن فاق الإسكندر كل من سبقوه، فاقهم بالاستفادة الكاملة مما تركوه له، ومما ورثه عن الحضارة الإغريقية.

ويقال عن شخصية الإسكندر: كان إنسانا فيه كل فضائل الإنسان ونقائصه.. هو رجل قتل أصدقاءه عندما غاب عقله بفعل الخمر، كما كان يقتل أعداءه بالآلاف وهو في كامل عقله سواء اشترك في مؤامرة لقتل والده أو لم يشترك في تلك المؤامرة لا يغير شيئا من حكمنا عليه.. كان يتأسف كثيرا على جرائمه ويندم على أفعاله الخاطئة ولكنه لم يغير من طباعه ولم يقومها، كان شديد التدين ولكنه لم يمتنع أن ينصب نفسه إلها، كان باني ملك عظيم ولكنه لم يتزوج لينجب وريثا للعرش إلا في آخر الأمر، رغم كل هذه التناقضات في حياته، فإن حياته كانت ذات معنى عظيم.. ورث نبوغه من أبيه، وحدة طبعه من أمه..

المهم أن الإسكندر الذي كون إمبراطورية هائلة، وبني مدينة الإسكندرية في مصر، والإسكندرونة بالشام مات بعد أن أقام وليمة شراب في بابل فمات في ٣٢٣ ق.م وأن هذه الامبراطورية كما يقول هـ.ج.ويلز سرعان ما تمزقت إربا تلك الرقعة الهائلة من الأرض.

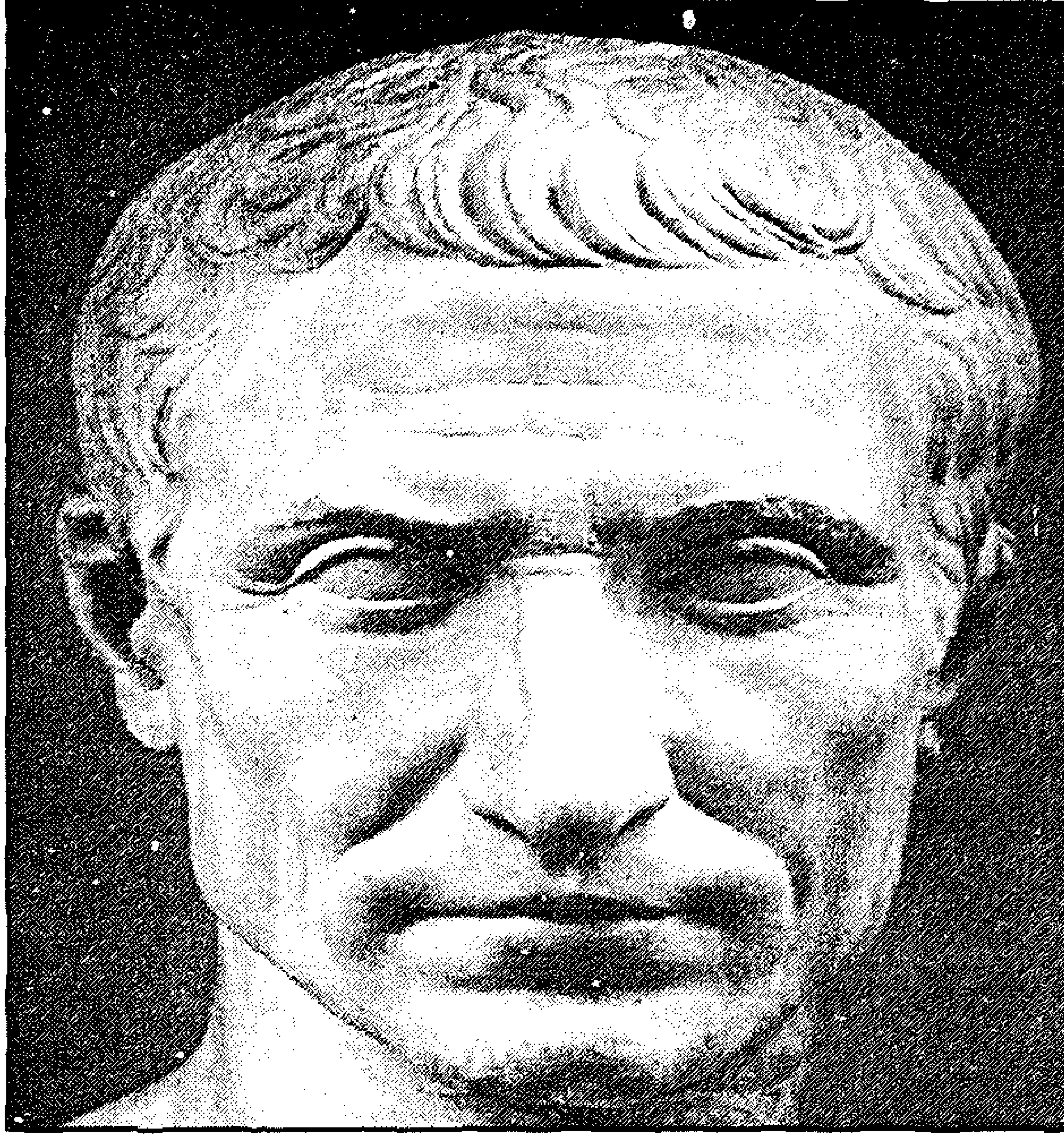
وقبض سلوقوس أحد قواده على معظم الإمبراطورية الفارسية من السند إلى افيسوس، واستولى على مصر قائد آخر هو بطليموس، كما اختار مقدونيا قائد آخر اسمه انتيجوناس، أما بقية الإمبراطورية فإنها رزحت في غمرات الفوضى وعدم الاستقرار، وجعلت تنتقل إلى أيدي مجموعة متعاقبة من المغامرين المحليين، وابتدأت غارات البرابرة من الشمال وأخذت تتسع مجالا وتزداد وحدة، حتى انتهى الأمر بظهور قوة جديدة هي قوة الجمهورية الرومانية التي جاءت من الغرب وأخذت تخضع الجزء تلو الجزء إلى أن ربطت بينها جميعا إمبراطورية جيدة أطول عمرا.



٤

يوليوس قيصر..
هَزَّ الكَوْنَ بمعاركه وحَملاتِه !!





كانت الإمبراطورية الرومانية من أعظم الإمبراطوريات التي عرفها التايخ، فقد سادت العالم في عصرها، بل إن جميع الدول المطلة على البحر المتوسط وقعت تحت سطوتها.. بما في ذلك تركيا وسوريا ومصر والشمال الإفريقي كله حتى أسبانيا، بل أنه قد وقع تحت نفوذها فرنسا وإنجلترا وغيرها من البلدان الأوروبية. .إمبراطورية لها كل هذه السطوة، لابد أن يكون حاكمها هو سيد العالم.

وقد كان يوليوس قيصر من أهم الشخصيات البارزة وأهم القادة الذين عرفتهم هذه الإمبراطورية، لأنه كان يملك القوة، وعبقرية القيادة، وقدرته الهائلة على إقناع الجماهير، حتى قيل إنه كان أعظم الخطباء الروم بعد سيشرون!

في هذا الجو المفعم بعنف الانتصارات العسكرية كان يعيش يوليوس قيصر.

أحب الجندية، وبرزت مواهبه العسكرية في المعارك التي خاضها، وحقق فيها المزيد من الانتصارات في فرنسا (بلاد الغال) وإنجلترا وإيطاليا وأسبانيا.

و يعتبر يوليوس قيصر من أبرز الشخصيات العسكرية الفذة في التاريخ وصاحب ثورة تحويل روما من جمهورية إلى مملكة وكان إمبراطوراً لها وخلفه العديد من الأباطرة والحكام الذين تبنوا اسمه وأبرزهم ابنه (بالتبني) أغسطس قيصر و بطليموس الخامس عشر (قيصرون) ابنه من كليوبترا السابعة.

كان يوليوس قيصر منذ صغره محبا للعلم حيث درس في اليونان العديد من العلوم، إذ كانت اليونان مركز العلوم في ذلك الحين وكان أبناء أثرياء روما يرسلون إليها للتعلم ثم التدرج في العمل السياسي أو ما شابه. انضم قيصر إلى المعترك السياسي منذ بداياته حيث كانت عائلة قيصر معادية بصورة تقليدية لحكم الأقلية المتمثل بمجموعة من الأعضاء النبلاء في مجلس الشيوخ. وجاء قيصر ليتبع هذا التقليد. أودعه سولا بالسجن لفترة قصيرة لكنه تمكن من المحافظة على علاقات طيبة مع النبلاء لعشر سنوات بعد إطلاق سراحه. حتى إنه تم اختياره زميلاً جديداً في كلية القساوسة عام ٧٣ ق.م. ثم انضم إلى صفوف الجيش الروماني كضابط ومحاسب تابع للحكومة الرومانية إلى أن قاد جيشه الخاص المعروف كأكثر جيوش روما انضباطا على الإطلاق. وقف قيصر إإلى جانب بومبي مؤيداً له بصورة صريحة عام ٧١ ق.م. وشكل قيصر وبومبي و كراسوس أول حكومة ثلاثية.

خلال السنوات التسع التي تلت، انشغل قيصر بقيادة حملاته في بقاع مختلفة من العالم شملت توسعة نفوذ روما إلى كل من بلاد الغال (فرنسا) وسوريا ومصر و غيرها، حيث كانت معظم حملاته ناجحة إلى حد مثير حيث عين حاكما لإسبانيا البعيدة ليتم انتخابه قنصلا. ونصب بعد ذلك حاكما على بلاد الغال، وكانت تلك مهمة شغلته لتسعة

سنوات كان خلالها تاركاً لبومبي وكراسوس أمر حماية مصالحه في روما. إلا إنه كانت هناك خلافات كثيرة بينهم عند هذا الوقت جعلتهم يعقدون لقاء فيما بينهم في لوكا عام ٥٦ ق.م. في محاولة لحل تلك الخلافات. عين بومبي قنصلا وحيدا عام ٥٢ ق.م. بعد موت كراسوس الأمر الذي نتج عنه حرب أهلية وهزيمة لجيش بومبي في إسبانيا عام ٤٥ ق.م ثم عاد قيصر بعد ذلك إلى روما ليكون حاكمها الدكتاتوري المطلق.

حاول تحسين ظروف حياة المواطنين الرومان وزيادة فعالية الحكومة وجعلها تتبنى مواقف تتم عن صدق وأمانة وأعلن في عام ٤٤ ق.م. عن جعل ديكتاتوريته المطلقة حكماً دائما على روما، غير أن أعداءه الكثر دبروا له مؤامرة كانت نتيجتها اغتياله في آذار من عام ٤٤ ق.م.، مما أدخل روما بحرب أهلية أخرى وحزن كبير على فقدانه حيث انتقم ماركوس أنطونيوس (زميل قيصر) و أغسطس قيصر (ابن قيصر بالتبني) من مغتالي قيصر وهم بروتوس (الذي يعتقد أنه كان ابناً لقيصر) والذي قدم له قيصر في حياته العديد من المناصب و الألقاب و عينه حاكما لغاليا ومع ذلك صوب نحوه الخنجر فقال له يوليوس قيصر (حتى أنت يا بروتوس) وأيضا كاسيوس الذي كان يخدم في جيش قيصر أيضا مما جعل اغتيال قيصر قصة درامية تاريخية ذكرها العديد من الكتاب وأبرزهم شكسبير الذي وصفها بأقبح عملية اغتيال بالتاريخ.حيث تدور تفاصيل المؤامرة أنه بعد الأعلان السابق ذكره قام زملاؤه بمجلس السناتو بانتظاره في القاعة وما أن جلس معهم قاموا جميعا بطعنه بخناجرهم في بطنه وصدره وكان الاتفاق ان لكل شخص منهم طعنة حتى يموت على أيديهم جميعا دون لأن تقع التهمة على شخص واحد وتتالت الطعنات على أحشاء يوليوس قيصر حتى جاءه آخرهم بروتس السابق ذكره وطعنه بخنجره في الجملة الشهيرة " حتى أنت يا بروتس " ..قال له : إني أحبك ولكني أحب روما أكثر منك " .. وجذب سلاحه من أحشائه ومات يوليوس هكذا بهذه الصورة البشعة.

كان قيصر أحد أفراد أسرة من الأشراف الرومان ، وكانت تتجلى فيه معالم ومواهب ومقدرات الشخصية الأرستقراطية الرومانية، فكلمة "شرف" غالبا ما كانت على شفتيه، والشرف تطلب منه أن يكون مخلصاً وفيا إلى أبعد حدود الاخلاص و الوفاء إلى أصدقائه ومعاصريه و مؤيديه حتى إلى أولئك الأوضع مقاماً ممن يؤدون له خدمة، كان

قيصر يقول إنه حتى لو تساعده عصابة من قطاع الطرق وسفاكي الدماء في الدفاع عن شرفه فإنه سيكافئها بنفس الطريقة التي يكافئ فيها أناساً آخرين.

كانت لقيصر العديد من المواهب منها الكتابة والتأليف وكانت له العديد من الكتب المشهورة آن ذاك في روما. لم يكن قيصر وحشيا بالفطرة إنما على العكس من ذلك تماماً، كانت رأفته تجاه أبناء البلاد التي كان يفتحها معروفة ذائعة الصيت وحتى في حروبه الخارجية لم يكن قيصر وحشيا بقصد الوحش، لكن كان عليه أن يوفر الغنائم لقواته وكان يجب إمدادها بما تحتاجه من مؤن وطعام.

ومن أعظم ما ارتبط بعبقرية قيصر العسكرية هو أنه كان أول من استخدم ما يعرف بـ " الشيفرة " ليحمي الرسائل ذات الأهمية العسكرية .. و هناك في العلوم العسكرية التي تُدرس في العالم اليوم ما يعرف بـ " شيفرة قيصر " .

ويبدو أن هذه انتصارات قيصر ، وتألق نجمه قد أوغر صدر بعض القادة الآخرين، وعلى رأسهم (بومبي).

رغم أنه في عام ٦٠ (ق.م) تحالف مع ليسنيوس كراسوس، وأجنايوس يومبي، وكونوا أول حكومة ثلاثية لحكم روما.. ومعروف تاريخيا أنه تم انتخاب يوليوس قيصر قنصلا..

وفي نفس العام الذي أصبح فيه قنصلا تزوج من(كالبورنيا).

لقد أوغر صدر كثير من القادة ما حققه يوليوس قيصر من نجاحات على المستوى العسكري والمستوى السياسي.. فحاكوا مؤامرات ضده، وكان بومبي من الذين انفصلوا عنه وبعدوا عن تأييده.. ولم يكن أمام (بومبي) عندما شاهد صعود نجم قيصر حتى كاد أن يصبح سيدا على العالم كله عندما بسط نفوذه على أسبانيا، بعد أن بسط نفوذه من قبل على شرق نهر الراين، وغزا بريطانيا على مدى عامين متتالين عام ٥٥، ٥٤ ق.م.

لم يكن أمام (بومبي) سوى الهرب إلى مصر وقرر قيصر القضاء عليه، فجاء على رأس حملة إلى مصر، حيث استطاع بالفعل أن يتخلص من عدوه اللدود (بومبي).

وفي مصر التقى بكليوباترا. لم تكن كليوباترا فاتنة الجمال، ولكنها كانت بالغة الذكاء.. تستطيع أن تأسر محدثها بثقافتها العريضة، وقوة منطقها، فتعلق بها قلب

يوليوس قيصر، ودعم سلطانها كملكة على مصر. وسرعان ما شعر أنه لا يمكن أن يستغني عن هذه الملكة المصرية الجميلة فقرر أن تصحبه إلى روما. وقد اختلف الرواة والمؤرخون حول تلك العلاقة التي تجمع بين يوليوس قيصر وكليوباترا.. البعض قال إنها كانت تهدف من وراء هذه العلاقة أن تحقق أحلامها ليس في حكم مصر وحدها، ولكن في حكم الامبراطورية الرومانية من خلال يوليوس قيصر.

والبعض الآخر كان يرى أنها تريد بسط نفوذ مصر على سوريا وأسيا الوسطى من خلال علاقتها بقيصر.



يوليوس قيصر .. ذهب الرجل و بقيت مقولته الشهيرة على ألسنة الناس في كل زمان و مكان " حتى أنت يا بروتس " !!

بينما رأي فيها البعض الآخر أنها غانية تستهوي قلوب الأبطال لا لشيء إلا لإرضاء حاجة في نفسها.. بأنها جميلة.. وأنها مرغوبة من مشاهير الأبطال.

ومهما كان الرأي فقد ذهبت معه إلى روما وكانت ذات تأثير عنيف عليه، حتى إنه أصبح كما يقولون طوع بنانها، بل قيل إنه تأثر بثقافتها العريقة، كما تأثر بالحضارة المصرية عندما جاء إلى مصر، وشاهد روائع ما تحوي من آثار، وما كانت عليه مصر من حضارة راقية، فانبهر بالآثار المصرية.. كما انبهر بحكم الفراعنة، وتأليه الناس لهم.

ولعله جاءه هذا الهاجس عندما كان في مصر، لماذا لا يكون له هيبة ملوك الفراعنة؟ ولماذا لا تقدس الناس شخصه كما يقولون في مصر شخصية الفرعون، وهو الذي حقق لروما كل هذه الإنجازات الهائلة.. من فتوحات وغزوات وإصلاحات داخلية.

وكان قيصر قد واصل زحفه إلى مصر بعد هزيمة (بومبي).. وأخذ يطارح كليوباترا الغرام، وهي آخر البطالمة، وملكة مصر الربة، ويلوح أنها لعبت برأسه تماما.

وعاد قيصر إلى روما حاملا معه فكرة (الملك المؤله) المصرية. وشاهد ذلك أن تمثاله أقيم في أحد المعابد وعليه عبارة نصها:

"إلى الإله الذي لا يُقْهَر".

ولآخر مرة اندلع من الروح الجمهورية المحتضرة بروما لهيب احتجاج أخير.

ويقول المؤرخون إن وراء تغير شخصية قيصر، كانت هي كليوباترا، وإنها هي التي زينت له أن يكون ملكا متشبها بفراعنة مصر المؤلهين، وأنهما قررا الزواج عندما يعلن نفسه ملكا على روما والعالم، وسيصبح هو سيد العالم، وتصبح هي سيدة الدنيا.

ولكن الأمور سارت بما لا تشتهي السفن كما يقولون.

ففي روما دستور وفي روما مجلس للشيوخ له قراراته التي يجب أن يحترمها الحاكم.

وأن الأمور لا يمكن أن تسير على أهواء قيصر أو كليوباترا.

فهذا المجلس هو الذي يعين القناصل وغيرهم، وهو الذي يمنح السلطات حتى يسير دولاب العمل السياسي على أسس موضوعية ومن خلال رأي أعضاء هذا المجلس، حتى يظل للمجلس صيته ويظل للقانون هيبته. وكثيرا ما خرق يوليوس قيصر القوانين، إرضاء لطموحاته الشخصية.. وكل ذلك أغضب أعضاء مجلس الشيوخ.

وإذا كان من الصعب مجابهة قيصر، فإنه من الأسهل أن تحاك المؤامرات للتخلص منه، وبالفعل.. نجحت المؤامرة، والتي كانت تهدف إلى ضربه بالخناجر والسيوف عندما يدخل قاعة المجلس.

وفي لحظة حاسمة من لحظات التاريخ، في عام (٤٤ ق.م) وبينما كان قيصر يدخل قاعة المجلس إذا به يفاجأ بمن يطعنه بالخنجر، ثم توالي من جاءوا لاغتياله، حتى سقط مدرجا في دمائه .. نعم حدث ذلك أثناء دعوة يوليوس إلى مجلس الشيوخ للاجتماع برئاسته فتوجه صوبه العديد من هؤلاء الشيوخ لأخذ بركته كالعادة و لكنهم غرسوا في جسده خناجرهم .. وخرج يوليوس صريعا و هو يتطلع إلى وجه صديق عمره " بروتس" الذي شاركهم قتله ليقول له كلمته المشهورة: " حتى أنت يا بروتس " . والعجيب أن حادثة الاغتيال قد وقعت عند تمثال منافسة (بومبي).

وبمقتل قيصر، كان لابد أن تعود كليوباترا إلى مصر من جديد، لتأخذ دورا جديدا في الصراع الروماني الروماني.. ولديها طموحات لا تحد للسيطرة على الإمبراطورية الرومانية كلها، وتصبح هي الملكة غير المتوجة على عرش العالم!!


Julius Caesar

"I love the name of honour, more than I fear death"

I conquered

يوليوس قيصر أحد أعظم القادة في التاريخ الذي لا يزال مادة خصبة للباحثين و المؤرخين .

كان القيصر يوليوس " إمبراوطور روما " في مجلس الشيوخ " ، قبل أن يتنامى إلى سمعه فجأة صوت جلبة وهرج ومرج في ردهات المجلس .. وإذا بمجموعة من الانقلابيين قد اقتحموا عليه القاعة بأسلحتهم وسيوفهم يريدون قتله .. فحمل سيفه وقاومهم بكل شجاعة .. وإذا به وهو في غمرة قتالهم بكل شجاعة و جلد ، يحس بخنجر غادر يغرسه أحدهم في ظهره من الخلف !!

لقد تعرض القيصر إلى طعنة شديدة وعميقة وقاتلة في ظهره .. وقد ظن للوهلة الأولى أن من فعلها هو أحد هؤلاء الانقلابيين تحين الفرصة وطعنه في ظهره . ولكنه حينما التفت ليرى قاتله كانت مرارة الصدمة - آنذاك - أشد من حرارة الطعنة !!

فقد تفاجأ بأن صاحب تلك الطعنة الغادرة القاتلة لم يكن سوى أعز الناس إلى قلبه، و ابنه الذي لم ينجبه و صديقه ونصيره " بروتس " . فنظر إليه " القيصر "– وهو في ذهول - نظرة تقطر ألمًا قائلاً كلمته الشهيرة التي أصبحت خالدة خلود الزمن ، ومضربا للأمثال في خيانة الصديق وانقلاب الشقيق .. قال بمزيج من المرارة والدهشة والأسف : " حتى أنت يا بروتس " !!

و إذا كان المثل العربي يقول : " من رابع المستحيلات " باعتبار أن هناك مستحيلات ثلاثة في الحياة هى الغول و العنقاء والخل الوفي فإن بروتوس هو التجسيد الحي للمستحيل الثالث " الخل الوفي " !!

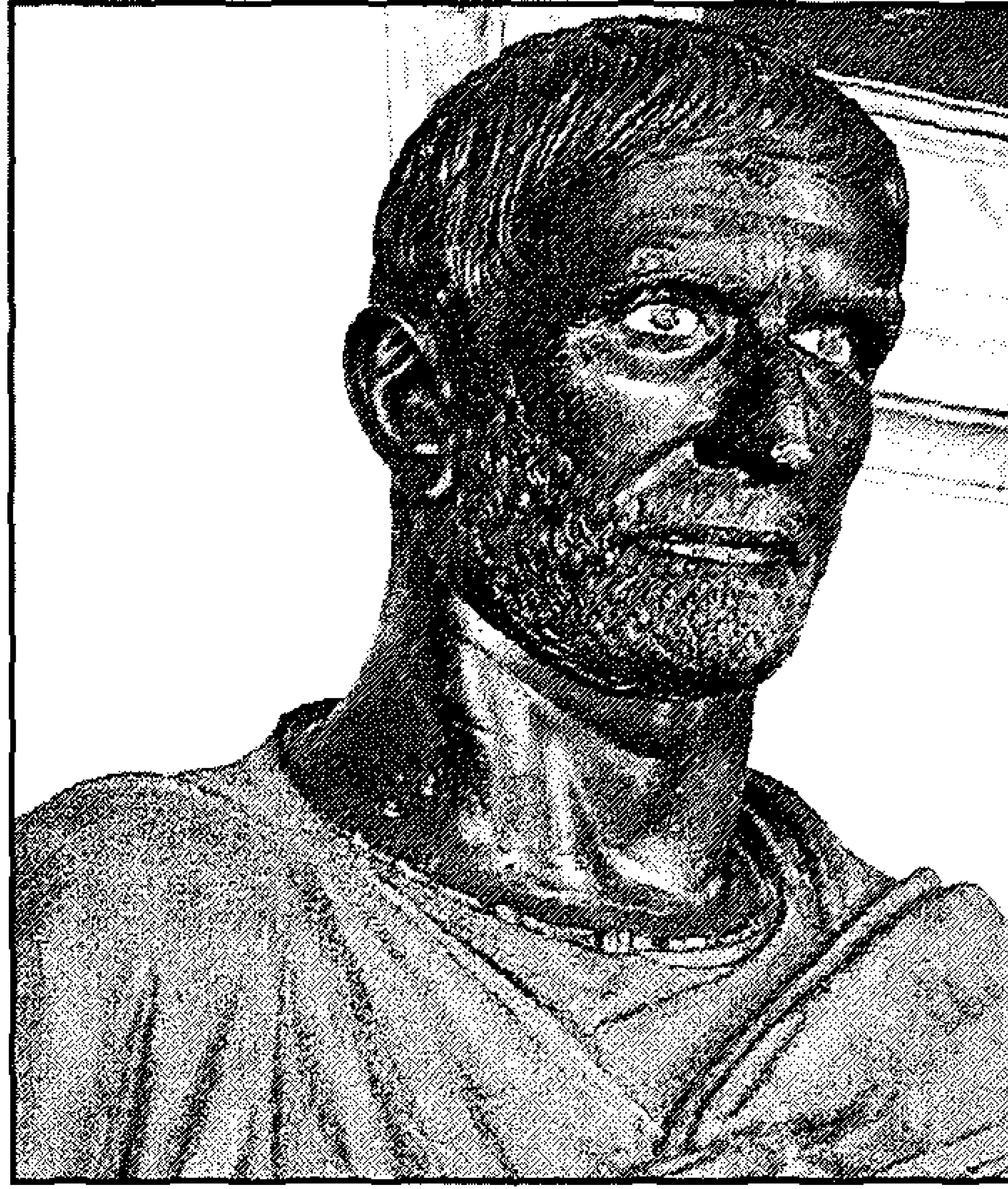
فقد تكتلت مجموعة من المعارضة ضد يوليوس قيصر بزعامة كاسيوس، الذي غضب لتعاظم سلطة يوليوس قيصر، واستطاع كاسيوس إقناع بروتوس للوقوف ضد يوليوس قيصر ، فوافق بروتوس لأن كاسيوس أقنعه بأنّ خلاص روما في التخلص من قيصر .

ووقف ستون عضواً من مجلس الشيوخ ضد يوليوس قيصر. واتفقوا على اغتياله يوم ١٥ مايو عام ٤٤ ق. م بخناجر كانت مخفية بين ثيابهم.

و تبدأ المأساة باحتفالات يوليوس قيصر بانتصاراته في حروبه، إلا أنّ أعداءه لا يرغبون في إقامة هذه الاحتفالات، وكان كاسيوس هو المحرض الأول ضد يوليوس .

وكان كاسيوس بحاجة إلى بروتوس لأنّ الأخير محبوب من قبل الشعب، وكان كاسيوس قد شارك في الحروب التي خاضها يوليوس قيصر ويعرف نقاط ضعفه ويرى أنّه لا يستحق هذه العظمة كلّها، ويقترح كاسيوس قتل أنطوني لأنّه صديق يوليوس قيصر فيعترض بروتوس لأنّ أنطوني بلا يوليوس قيصر لا يشكل خطراً.

ويتردد يوليوس قيصر في الذهاب إلى مجلس الشيوخ بسبب الكابوس الذي رأته زوجته – كما تقول الروايات التاريخية - في حلمها إذ رأت ماءً ينهمر من تمثاله والرومان يضعون أيديهم بدمه ونشوة السعادة تغمرهم، ولكنَّ أحد أعدائه يقنعه أن تفسير الحلم أن قوته ستزداد.



بروتوس .. قاتل قيصر .. أصبح مضربًا للأمثال عبر التاريخ للخيانة والغدر !!

و ينقل المؤرخون عن قيصر قوله عن الكابوس الذي رأته زوجته كالبورنيا : "رأت في منامها الليلة الماضية تمثالي وقد انبجست منه مئة عين، تنفر منها الدماء الرائقة، وأتى عليها حشد من الرومان تغمرهم السعادة فغسلوا أيديهم في دمي" .

ويتسلم يوليوس قيصر رسالة وهو في طريقه إلى مجلس الشيوخ يحذره فيها أحد أصدقائه من المؤامرة ضده ، إلا أنّه لم يقرأ الرسالة.

ويقتل يوليوس قيصر، ويتظاهر أنطوني أنّه مع القتلة في حين أنه كان يحرض الشعب ضدهم، فيهرب بروتوس وكاسيوس من روما بسبب ثورة الشعب ضدهم، فتنتحر زوجة بروتوس إذ تبتلع الجمر، واسمها بورشيا.

ويحكم روما ثلاثة هم أنطوني وأوكتافيوس ابن أخي قيصر وليبدوس ويشن أوكتافيوس وأنطوني حرباً ضد كاسيوس وبروتوس.

ويخسر كاسيوس المعركة ويطلب من أحد أصدقائه أن يطعنه بالسيف ذاته الذي قتل به يوليوس قيصر. ويموت ويظهر شبح يوليوس قيصر لبروتوس، ويفهم الأخير أنّ أجله قد دنا، ويطلب من خادمه أن يحمل سيفه كي يلقي بروتوس بنفسه على السيف ويموت، وتمت هذه المعركة بعد مرور عامين على مقتل يوليوس قيصر أي عام ٤٢ قبل الميلاد.

ولد يوليوس قيصر غيوس عام ١٠٠ ق.م. في عائلة عريقة من الأشراف الرومان، عايش في مرحلة مراهقته عهد الحرمان (الحرمان من حماية القانون) الذي فرضه ماريوس صهر أبيه. كما عايش عهد ديكتاتورية سولا وأوائل عهد القائد الروماني "بومبي".

ومن أهم الأحداث التاريخية التي ارتبطت بحياة يوليوس قيصر هو تلك المرتبطة بعلاقته مع الملكة الشهيرة كليوباترا السابعة التى ولدت عام ٦٩ قبل الميلاد، وأصبحت ملكة في سن السابعة عشرة عقب وفاة والدها بطليموس الثاني عشر، واتبعت التقاليد المصرية في ذلك الوقت بأن تزوجت أخاها بطليموس الثالث عشر أثناء فترة حكمها معه.

كيلوبترا أصبحت ملكة مصر والحاكم الأخير في السلالة الملكية البطلمية التي أنشأها بطليموس الأول عام ٣٢٣ ق . م الذي كان قائدا في جيش الفاتح المقدوني الاسكندر الأكبر ، وكانت تحمل لقب " الملكة المحبة لأبيها " .

وأطلق على كليوباترا بـ (كيلوباترا السابعة) لأنها كانت الملكة السابعة من السلالة المقدونية التي تحمل الاسم نفسه .

جلست كيلوباترا على عرش مصر عام ٥١ م . ق بعد وفاة والدها بطليموس الثاني، استولى الأوصياء على شقيق كليوباترا بطليموس الصغير و السلطه عام ٤٨ ق . م وخلعوا

كليوباترا من عن العرش وفي ذلك الوقت وصل يوليوس قيصر بالإسكندريه التي كانت عاصمة مصر بذلك الوقت التقى يوليوس قيصر بكليوباترا .

ففي عهد يوليوس قيصر كانت روما وصية على عرش المملكة المصرية، وزحف قيصر" وجنوده من روما إلى مصر وراء عدوه "بومبي" الذي استنجد بملك مصر، ولكن قيصر انتصر على بطليموس الثالث عشر، الذي لقي حتفه هو الآخر، وبذلك خلا عرش مصر للملكة كليوباترا، التي أصبحت صديقة لروما.

في أعقاب ذلك أنجبت كليوباترا ابنا أطلقت عليه اسم "قيصرون" أو قيصر الصغير، الذي ادعت أنه ابن يوليوس قيصر، وسافرت كليوباترا في عام ٤٦ قبل الميلاد إلى روما لتعيش هناك بدعوة من يوليوس قيصر، وبعد مرور شهر واحد من زيارتها إلى روما اغتيل قيصر على يد أحد رجاله، لتعود كليوباترا إلى الإسكندرية سرا.

وعقب مقتل يوليوس قيصر، تنازع على حكم روما كل من "مارك أنطونيوس"، والقائد "أوكتافيوس"، فانحازت كليوباترا إلى جانب أنطونيوس الذي انتهى به الأمر للانتحار بعد هزيمته، فتنتحر هى الأخرى بسم إحدى الحيات عام ٣٠ قبل الميلاد.

وبوفاة كليوباترا، يقوم أوكتافيوس بقتل قيصر الصغير، ويصدر قراراً من خمس كلمات يعلن فيه ضم مصر إلى المملكة الرومانية، وانتهاء عصر البطالمة في مصر.



٥

سيدنا داود عليه السلام وطالوت
و النصر الإلهي على جالوت وجنوده



قال تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا
نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟
وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ
ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ
قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ
مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى
ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ
نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ
مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن
شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً
كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

ذهب بنو إسرائيل لنبيهم يوما.. سألوه: ألسنا مظلومين؟

قال: بلى..

قالوا: ألسنا مشردين؟

قال: بلى..

قالوا: ابعث لنا ملكا يجمعنا تحت رايته كي نقاتل في سبيل الله ونستعيد أرضنا ومجدنا.

قال نبيهم وكان أعلم بهم: هل أنتم واثقون من القتال لو كتب عليكم القتال؟

قالوا: ولماذا لا نقاتل في سبيل الله، وقد طردنا من ديارنا، وتشرد أبناؤنا، وساء حالنا؟

قال نبيهم: إن الله اختار لكم طالوت ملكا عليكم.

قالوا: كيف يكون ملكا علينا وهو ليس من أبناء الأسرة التي يخرج منها الملوك -أبناء يهوذا- كما أنه ليس غنيا وفينا من هو أغنى منه؟

قال نبيهم: إن الله اختاره، وفضله عليكم بعلمه وقوة جسمه.

قالوا: ما هي آية ملكه؟

قال لهم نبيهم: يسترجع لكم التابوت تحمله الملائكة.

ووقعت هذه المعجزة.. وعادت إليهم التوراة يوما.. ثم تجهز جيش طالوت، وسار الجيش طويلا حتى أحس الجنود بالعطش.. قال الملك طالوت لجنوده: سنصادف نهرا في الطريق، فمن شرب منه فليخرج من الجيش، ومن لم يذقه وإنما بل ريقه فقط فليبق معي في الجيش..

وجاء النهر فشرب معظم الجنود، وخرجوا من الجيش، وكان طالوت قد أعد هذا الامتحان ليعرف من يطيعه من الجنود ومن يعصاه، وليعرف أيهم قوي الإرادة ويتحمل العطش، وأيهم ضعيف الإرادة ويستسلم بسرعة. لم يبق إلا ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلا، لكن كان جميعهم من الشجعان.

كان عدد أفراد جيش طالوت قليلا ، وكان جيش العدو كبيرا وقويا .. فشعر بعض -هؤلاء الصفوة- أنهم أضعف من جالوت وجيشه وقالوا: كيف نهزم هذا الجيش الجبار..؟!

قال المؤمنون من جيش طالوت: النصر ليس بالعدة والعتاد، إنما النصر من عند الله.. (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ).. فثبّتوهم.

وبرز جالوت في دروعه الحديدية وسلاحه، وهو يطلب أحدا يبارزه.. وخاف منه جنود طالوت جميعا.. وهنا برز من جيش طالوت راعي غنم صغير هو داود.. كان داود مؤمنا بالله، وكان يعلم أن الإيمان بالله هو القوة الحقيقية في هذا الكون، وأن العبرة ليست بكثرة السلاح، ولا ضخامة الجسم ومظهر الباطل.

وكان الملك، قد قال: من يقتل جالوت يصير قائدا على الجيش ويتزوج ابنتي.. ولم يكن داود يهتم كثيرا لهذا الإغراء.. كان يريد أن يقتل جالوت لأن جالوت رجل جبار وظالم ولا يؤمن بالله.. وسمح الملك لداود أن يبارز جالوت..

وتقدم داود بعصاه وخمسة أحجار ومقلاعه (وهو نبلة يستخدمها الرعاة).. تقدم جالوت المدجج بالسلاح والدروع.. وسخر جالوت من داود وأهانه وضحك منه، ووضع داود حجرا قويا في مقلاعه وطوح به في الهواء وأطلق الحجر. فأصاب جالوت فقتله. وبدأت المعركة وانتصر جيش طالوت على جيش جالوت.

بعد فترة أصبح داود -عليه السلام- ملكا لبني إسرائيل، فجمع الله على يديه النبوة والملك مرة أخرى. وتأتي بعض الروايات لتخبرنا بأن طالوت بعد أن اشتهر نجم داوود أكلت الغيرة قلبه، وحاول قتله، وتستمر الروايات في نسج مثل هذه الأمور. لكننا لا نود الخوض فيها فليس لدينا دليل قوي عليها .

كان جالوت جبّاراً و مجرماً و حاكماً على بني إسرائيل ، أما طالوت فقد كان من القرويين الفقراء ، و قد قام النبي " اشموئيل " بطلب من بني إسرائيل بتنصيب "طالوت " قائداً للجيش وحاكماً على بني إسرائيل ، لكن الملأ من بني إسرائيل احتجّوا على هذا الانتخاب و اعتبروا أنفسهم أرجح منه ، و ذلك لما لهم من ثروة و فخامة ! إلاّ أنّ نبيّهم قال لهم بصراحة : (إنّ الله قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلكاً) و أضاف (إنّ الله اصْطَفاهُ وَزَادَهُ بَسْطةً في العِلْمِ والجِسْمِ) .

و لكن ما هي قصة التابوت الواردة في سورة البقرة؟

التابوت قامت حوله خرافات كثيرة، وجلها من خرافات بني إسرائيل، موجودة في تفسير "الخازن" وغيره، ولا داعي لذكرها.

وذكر الله عز وجل التابوت في سورة البقرة، بقوله: «وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، فالله يخبرنا عن نبي من أنبياء بني إسرائيل، أنه قال لقومه: إن علامة بركة ملك طالوت فيكم أن يرد عليكم التابوت الذي أخذ منكم، وفيه سكينة من ربكم، أي وقار وجلالة، وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، أي فيه شيء من عصا وملابس موسى وهارون، وقيل شيء من رضاض الألواح التي ألقاها موسى من يديه، فيما أخبر الله عز وجل، تحمله الملائكة، يروى عن ابن عباس قال: ((جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت، والناس ينظرون إليه)).

فهذه آية من آيات الله التي أخبر الله عنها، وقعت في بني إسرائيل في زمن نبي من أنبيائهم للملك طالوت، وكان عبداً صالحاً، والله أعلم.

جاء في الآية ٢٤٨ من سورة البقرة: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ .

عندما طلب بنو إسرائيل، قبل عهد داود عليه السلام، أن يجعل الله لهم مَلكاً يجمعهم، ويوحّد كلمتهم، ويقودهم في حربهم لأعدائهم، استجاب الله لهم، وجعل طالوت ملكاً عليهم، وجعل علامة اختياره أن تأتي الملائكةُ بالتابوت، الذي استولى عليه أعداؤهم. وهو صندوق فيه بقية من آثار آل موسى وهارون، عليهما السلام، توارثه الصالحون من بني إسرائيل. وعند عودة التابوت إليهم جعل الله فيه الطمأنينة لنفوسهم، التي بقيت مضطربة لفقده واستيلاء الأعداء عليه.

واضح في النص القرآني الكريم أنّ التابوت له قدسيّة، وعلى وجه الخصوص ما فيه من الآثار المتوارثة من عهد موسى وهارون، عليهما السلام. ونحن نعلم أنّ الله تعالى قد أنزل على موسى، عليه السلام، الألواح، والتي خطّت فيها الوصايا، وقد جاء في سفر الخروج، في التوراة الحالية: " وأجعل في التابوت الشهادة التي أعطيكها ". والمقصود

بالشهادة، ما ورد في سفر الخروج أيضاً: " ولما فرغ من مخاطبة موسى على طور سيناء دفع إليه لَوْحَي الشهادة، لوحين من حجر . . . ". وقد ورد في سفر صموئيل أنّ أعداء بني إسرائيل قد سيطروا على التابوت هذا لمدة سبعة أشهر.

وكلمة التابوت مشتقة من التّوب: وهو الرجوع، لأنه يُرجع إليه تكراراً لأخذ وإرجاع المُودَعات فيه. وعليه تكون اللفظة عربية، على قول الكثير من أهل اللغة. وقد ذكرت التوراة الحالية أنّ التابوت، المقدس عندهم، صنع من الخشب والذهب بأمر من الله تعالى. ويقولون إنّ طوله يبلغ متراً وربع المتر، أما عرضه فيبلغ ٧٥ سم، وكذلك ارتفاعه. وورد أنّ بني إسرائيل كانوا يحملون التابوت ويتقدمون به أمام الجيش، فيكون ذلك دافعاً لهم للاستبسال، لثقتهم بالنصر بوجود التابوت. وقد ورد في أخبار الأيام الأول، من العهد القديم، على لسان داود، عليه السلام: ".. حتى نُرجع تابوت إلهنا، لأننا أهملنا طلب المشورة بواسطته منذ أيام شاوُل ". ويقصدون بشاوُل هنا طالوت المذكور في القرآن الكريم.

والتابوت عندهم من أقدس المقدَّسات، وكانوا في البداية يضعونه في وسط خيمة، ثم أحضره داود، عليه السلام، حسب رواية العهد القديم، إلى (مدينة داود).

وقبل مواصلة الحديث عن التابوت يجدر بنا التوقف عند قصة سيدنا داود التي ورد ذكر التابوت في سياقها .

داود عليه السلام آتاه الله العلم والحكمة وسخر له الجبال والطير يسبحن معه وألان له الحديد، كان عبدا خالصا لله شكورا يصوم يوما ويفطر يوما يقوم نصف الليل وينام ثلثه ويقوم سدسه وأنزل الله عليه الزبور وقد أوتي ملكا عظيما وأمره الله أن يحكم بالعدل.

حال بنى إسرائيل قبل داود: قبل البدء بقصة داود عليه السلام، لنرى الأوضاع التي عاشها بنو إسرائل في تلك الفترة.

لقد انفصل الحكم عن الدين..فآخر نبي ملك كان يوشع بن نون.. أما من بعده فكانت الملوك تسوس بني إسرائيل وكانت الأنبياء تهديهم. وزاد طغيان بني إسرائيل، فكانوا يقتلون الأنبياء، نبيا تلو نبي، فسلط الله عليهم ملوكا منهم ظلمة جبارين، استعبدوهم وطغوا عليهم.

وتتالت الهزائم على بني إسرائيل، حتى إنهم أضاعوا التابوت. وكان في التابوت بقية مما ترك آل موسى وهارون، فقيل إن فيه بقية من الألواح التي أنزلها الله على موسى، وعصاه . كان بنو إسرائيل يأخذون التابوت معهم في معاركهم لتحل عليهم السكينة ويحققوا النصر. فتشردو وساءت حالهم.

في هذه الظروف الصعبة، كانت هنالك امرأة حامل تدعو الله كثيرا أن يرزقها ولدا ذكرا. فولدت غلاما فسمته أشموئيل.. ومعناه بالعبرانية إسماعيل.. أي سمع الله دعائي.. فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته لرجل صالح ليتعلم منه الخير والعبادة. فكان عنده، فلما بلغ أشده، بينما هو ذات ليلة نائم: إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعورا ظانا أن الشيخ يدعوه. فهرع أشموئيل إليه يسأله: أدعوتني..؟ فكره الشيخ أن يفزعه فقال: نعم.. نم.. فنام..

ثم ناداه الصوت مرة ثانية.. وثالثة. وانتبه إلى جبريل عليه السلام يدعوه: إن ربك بعثك إلى قومك. وكان ما كان كما ذكرنا سابقا.

لقد أكرم الله نبيه الكريم بعدة معجزات. لقد أنزل عليه الزبور (وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) ، وآتاه جمال الصوت، فكان عندما يسبّح، تسبح الجبال والطيور معه، والناس ينظرون. وألان الله في يديه الحديد، حتى قيل إنه كان يتعامل مع الحديد كما كان الناس يتعاملون مع الطين والشمع.

كانت الدروع الحديدية التي يصنعها صناع الدروع ثقيلة ولا تجعل المحارب حرا يستطيع أن يتحرك كما يشاء أو يقاتل كما يريد. فقام داود بصناعة نوعية جديدة من الدروع. درع يتكون من حلقات حديدية تسمح للمحارب بحرية الحركة، وتحمي جسده من السيوف والفئوس والخناجر.. أفضل من الدروع الموجودة أيامها..

وشد الله ملك داود، جعله الله منصورا على أعدائه دائما.. وجعل ملكه قويا عظيما يخيف الأعداء حتى بغير حرب، وزاد الله من نعمه على داود فأعطاه الحكمة وفصل الخطاب، أعطاه الله مع النبوة والملك حكمة وقدرة على تمييز الحق من الباطل ومعرفة الحق ومساندته.. فأصبح نبيا ملكا قاضيا.

يروي لنا القرآن الكريم بعضا من القضايا التي وردت على داود -عليه السلام.

فلقد جلس داود كعادته يوما يحكم بين الناس في مشكلاتهم.. وجاءه رجل صاحب حقل ومعه رجل آخر..

وقال له صاحب الحقل: سيدي النبي.. إن غنم هذا الرجل نزلت حقلي أثناء الليل، وأكلت كل عناقيد العنب التي كانت فيه.. وقد جئت إليك لتحكم لي بالتعويض..

قال داود لصاحب الغنم: هل صحيح أن غنمك أكلت حقل هذا الرجل؟

قال صاحب الغنم: نعم يا سيدي..

قال داود: لقد حكمت بأن تعطيه غنمك بدلا من الحقل الذي أكلته.

قال سليمان.. وكان الله قد علمه حكمة تضاف إلى ما ورث من والده: عندي حكم آخر يا أبي..

قال داود: قله يا سليمان..

قال سليمان: أحكم بأن يأخذ صاحب الغنم حقل هذا الرجل الذي أكلته الغنم.. ويصلحه له ويزرعه حتى تنمو أشجار العنب، وأحكم لصاحب الحقل أن يأخذ الغنم ليستفيد من صوفها ولبنها ويأكل منه، فإذا كبرت عناقيد الغنم وعاد الحقل سليما كما كان أخذ صاحب الحقل حقله وأعطى صاحب الغنم غنمه..

قال داود: هذا حكم عظيم يا سليمان.. الحمد لله الذي وهبك الحكمة..

وقد ورد في الصحيح قصة أخرى: حَدَّثَنِى زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنِى شَبَابَةُ حَدَّثَنِى وَرْقَاءُ عَنْ أَبِى الزِّنَادِ عَنِ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ (بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا . فَقَالَتْ هَذِهِ لِصَاحِبَتِهَا إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ أَنْتِ . وَقَالَتِ الأُخْرَى إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ . فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَالَ ائْتُونِى بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَكُمَا . فَقَالَتِ الصُّغْرَى لاَ وَيَرْحَمُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا . فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى) . قَالَ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاللَّهِ إِنْ سَمِعْتُ بِالسِّكِّينِ قَطُّ إِلاَّ يَوْمَئِذٍ مَا كُنَّا نَقُولُ إِلاَّ الْمُدْيَةَ.

وكان داود رغم قربه من الله وحب الله له، يتعلم دائما من الله، وقد علمه الله يوما ألا يحكم أبدا إلا إذا استمع لأقوال الطرفين المتخاصمين.. فيذكر لنا المولى في كتابه الكريم قضية أخرى عرضت على داود عليه السلام.

جلس داود يوما في محرابه الذي يصلي لله ويتعبد فيه، وكان إذا دخل حجرته أمر حراسه ألا يسمحوا لأحد بالدخول عليه أو إزعاجه وهو يصلي.. ثم فوجئ يوما في محرابه بأنه أمام اثنين من الرجال.. وخاف منهما داود لأنهما دخلا رغم أنه أمر ألا يدخل عليه أحد. سألهما داود: من أنتما؟

قال أحد الرجلين: لا تخف يا سيدي.. بيني وبين هذا الرجل خصومة وقد جئناك لتحكم بيننا بالحق.

سأل داود: ما هي القضية؟ قال الرجل الأول: (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ). وقد أخذها مني. قال أعطها لي وأخذها مني..

وقال داود بغير أن يسمع رأي الطرف الآخر وحجته: (لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ).. وإن كثيرا من الشركاء يظلم بعضهم بعضا إلا الذين آمنوا..

وفوجئ داود باختفاء الرجلين من أمامه.. اختفى الرجلان كما لو كانا سحابة تبخرت في الجو وأدرك داود أن الرجلين ملكان أرسلهما الله إليه ليعلماه درسا.. فلا يحكم بين المتخاصمين من الناس إلا إذا سمع أقوالهم جميعا، فربما كان صاحب التسع والتسعين نعجة معه الحق.. وخر داود راكعا، وسجد لله، واستغفر ربه..

نسجت أساطير اليهود قصصا مريبة حول فتنة داود عليه السلام، وقيل أنه اشتهى امرأة أحد قواد جيشه فأرسله في معركة يعرف من البداية نهايتها، واستولى على امرأته.. وليس أبعد عن تصرفات داود من هذه القصة المختلقة.. إن إنسانا يتصل قلبه بالله، ويتصل تسبيحه بتسبيح الكائنات والجمادات، يستحيل عليه أن يرى أو يلاحظ جمالا بشريا محصورا في وجه امرأة أو جسدها..

عاد داود يعبد الله ويسبحه حتى مات... كان داود يصوم يوما ويفطر يوما.. قال رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم عن داود: "أفضل الصيام صيام

داود. كان يصوم يوما ويفطر يوما. وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتا، وكانت له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ويبكي ببكائه كل شيء ويشفي بصوته المهموم والمحموم"..

جاء في الحديث الصحيح أن داود عليه السلام كان شديد الغيرة على نسائه، فكانت نساؤه في قصر، وحول القصر أسوار، حتى لا يقترب أحد من نسائه. وفي أحد الأيام رأى النسوة رجلا في صحن القصر، فقالوا: من هذا والله لن رآه داود ليبطشنّ به. فبلغ الخبر داود -عليه السلام- فقال للرجل: من أنت؟ وكيف دخلت؟ قال: أنا من لا يقف أمامه حاجز. قال: أنت ملك الموت. فأذن له فأخذ ملك الموت روحه.

مات داود عليه السلام وعمره مئة سنة. وشيع جنازته عشرات الآلاف، فكان محبوبا جدا بين الناس، حتى قيل لم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كان بنو إسرائيل أشد جزعا عليه.. منهم على داود.. وآذت الشمس الناس فدعا سليمان الطير قال: أظلي على داود. فأظلته حتى أظلمت عليه الأرض. وسكنت الريح. وقال سليمان للطير: أظلي الناس من ناحية الشمس وتنحي من ناحية الريح. وأطاعت الطير. فكان ذلك أول ما رآه الناس من ملك سليمان.

وعودة للتابوت بعد هذا السرد تقول الرواية إنّه عندما بنى سليمان، عليه السلام، الهيكل وضع التابوت في أقدس بقعة منه، وتسمّى (قدس الأقداس): وهي عبارة عن غرفة لا نوافذ لها، وتكون أعلى جزء في الهيكل، وهي محرابه. وهم يعتقدون أنّ روح الله قد حلّت في التابوت. وعندما تمّ تدمير الهيكل ٥٨٦ ق.م على يد نبوخذ نصّر البابلي، فُقدت التوراة، وفقد تابوت العهد.

ويبدو أنّه تمّ إحراقهما مع ما أُحرق من محتويات الهيكل. واللافت للانتباه أنّ سفر أخبار الأيام الثاني، من العهد القديم، والذي يُرجّح أنّه دوّن في القرن الخامس قبل الميلاد، والذي ينتهي بالحديث عن تدمير الهيكل وإحراق محتوياته، ينص على بقاء العصا التي يُحَمَل بها التابوت، ولم يتطرق إلى ذكر التابوت. يقول النّص: " ... وهي ما برحت هناك إلى هذا اليوم ... ". وواضح أنّ الذي يكتب هذا الكلام يكتبه وهو يقيم بعيدا، ويظهر ذلك من قوله "هناك".

التابوت المقدس الذي يسمى أيضا بـ " تابوت العهد " تم وصفه فى التوراة بأنه مصنوع من خشب الصندل وطوله متران وعرضه متر وارتفاعه متر ومزود بعدد ٣ حلقات كبيرة من النحاس من كل جانب حيث يوضع فى الحلقات المتقابلة من كل جانب عامود من الخشب ليحمل بها التابوت

وكان موسى بعد أن وصل مع بنى إسرائيل إلى الطور كان يصعد بمفرده إلى أعلى الجبل ويرى عامودا من النار والنور ينزل من السماء إلى الوادى المقدس ثم يكلمه الله

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فيعطيه الله التوراة فينزل بها إلى قومه سوره النمل (٧-٩)

وطلب موسى من الله أن يسهل عليه بأن لايصعد الجبل فأنزل الله هذا التابوت المقدس

قال تعالى﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقره ٢٤٨)

ووضع موسى داخل التابوت عصاه التى أعطاها له نبى الله العربى شعيب من نسل اسماعيل بعد أن زوجه ابنته وهذه العصى هى التى التهمت ثعابين السحره عند فرعون والتى فلق بها البحر ليعبر مع قومه فرارا من فرعون كما وضع فى التابوت الألواح التى كتبها له الله بالوصايا العشر وضرب موسى حول التابوت خيمة تحيط به من جميع الاتجاهات سميت بخيمه الاجتماع ومنع قومه من الدخول عند التابوت المقدس حتى لا يحترق من يدخل عنده وغطاه موسى بعباءته السوداء وكان إذا أراد الله أن يكلم موسى يدخل موسى وهارون داخل الخيمة وينزل من السماء عمود من النار والنور إلى سطح التابوت ويكلمهما الله بالتوراة وكان هذا التابوت المقدس بمثابة كعبة لهم للصلاة حوله وبعد موت موسى عليه السلام أرادوا أن يرحلوا فى اتجاه فلسطين وكانو يخشون من أهلها أول الأمر لكنهم استخدموا التابوت المقدس كأداة لنصرهم على أهل فلسطين فكانو يتوجهون للقريهة ويحاصرونها ويلفون حولها حاملين التابوت المقدس فيسلم أهل

القريه لهم ويحتلوها وكان التابوت كعبه متنقلة لهم ينصبون خيمة الاجتماع حوله فى أى مكان يصلون إليه ويعبدون الله فى المكان الجديد الذى يصلون إليه حسب فتوحات ملوكهم وفى النهاية أراد سليمان أن يبنى حوله بناية بدلا من خيمة الاجتماع سماها الهيكل ووضع التابوت المقدس داخلها فى مكان المذبح ليكون قبلتهم وبعد أن أرسل الله المسيح إلى اليهود يدعوهم إلى المسيحية وأن يؤمنوا به وبالإنجيل رفضوا دعوته وأنكروا نبوته فقال لهم جئت لخاصتى وخاصتى لم تتبعنى وقال جئت لخراف بنى اسرائيل الضاله لأدينهم وقال سوف ينقض هذا الهيكل لعدم الإيمان به وقد قتل اليهود كل عائلة المسيح قتلوا زكريا الذى كفل مريم وهو يصلى وذبحوا ابنه يحيى والذى كانوا يسمونه يوحنا المعمدان حيث كان يعمد الناس وهو الذى عمد المسيح وكما قال لهم المسيح مضت ٨٠ عاما حيث غزاهم نبوخز نصر ملك العراق وهدم الهيكل واختفى التابوت والآن هم يبحثون عنه لأنه المعجزة الخاصة بدين اليهودية وهو قبلتهم المفقودة والذى به عصى موسى التى عمل بها المعجزات ولأنهم يتصورون أنه لو عاد لهم التابوت فقد عاد إليهم مجدهم وملكوا العالم .

وعن الدلالات في آية التابوت : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البَقَرَة: ٢٤٨)

عن الدلالات في هذه الآية نعرف أن تفسيرها هو أن الله سبحانه وتعالى أطلع سيدنا آدم على صور كل الأنبياء والرسل ووضعها في التابوت الذي توارثه أحفاده من أقوام الأنبياء والرسل ومن أبناء آل موسى وأبناء آل هارون .. **عن دلالات هذه الآية :**

١) العصيان سبب للخذلان :

المعلوم أن هذا التابوت كان في بني أسرائيل و رفع منهم بسبب عصيانهم. قال القرطبي في تفسيره :

(والتابوت كان من شأنه فيما ذكر أنه أنزله الله على آدم عليه السلام، فكان عنده إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام، فكان في بني إسرائيل يَغلبون به من قاتلهم حتى عَصَوْا فَغُلِبوا على التابوت غلبهم عليه العمالقة: جالوت وأصحابه في قول السدي، وسلبوا التابوت منهم).

٢) طبيعة البشر:

طبيعة البشر إلا تصدق الأنبياء أو الأولياء إلا بالبرهان قال إبن عجيبة في تفسيره:

(من شأن غالب النفوس إلا تقبل الخصوصية عند أحد حتى تظهر علامتُها، ولذلك طالب الكفارُ الرسلَ بالمعجزات، وطالب العوامُ الأولياءَ بالكرامات، ويكفي في الولي استقامة ظاهره، وتحقيق اليقين في باطنه) .

وقال أيضاً رحمه الله: (وكل من طالب أهلَ الخصوصية بالكرامة الحسية ففيه نزعة إسرائيلية، حيث قالوا لنبيهم بعد أن عيَّن لهم مَنْ أكرمه الله بخصوصية الملك:

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ (البقرة: ٢٤٧).

ورد الحق تعالى عليهم بقوله: " والله يؤتي ملكه من يشاء" (. وما أظهر لهم كرامة التابوت إلا بعد امتناعهم من الجهاد المُتَعَيَّنِ عليهم رحمةً بهم) .

٣) سبب النصر :

إن هذا التابوت هو سبب نصر بني إسرائيل إذا حفظوا مكانته . قال بعض المفسرين: (كان التابوت إذا قابلت بنو إسرائيل العمالقة مشى التابوت بين السماء والأرض، والصفوف والرايات خلفه، فكانوا ظاهرين عليهم، حتى ظفرت العمالقة على التابوت فأخذوه فدفنوه في ملقى كناسة لهم، وذلّت بنو إسرائيل).

٤) بركة الآباء:

مما استفدته أن الله يحفظ الود للأحفاد ببركة الآباء إذا ما اتقوا . فكان بنو إسرائيل يُنصرون ببركة آثار أهلهم الصالحين التي حفظها الله لهم وجعلها سببا لنصرهم و بركتهم.

٥) السكينة :

هذا التابوت يوجد به شيئان مهمان : السكينة و ما ترك آل موسى و هارون كما أوضحت الآية الكريمة.

والسكينة شيء رَبِّكم خفي باطني أودعه الله في ذلك التابوت و هو أحد الأسباب الذي جعل بنى إسرائيل تقدم التابوت في مقدمة الجيش مما يكسبه قوة و هيبة ووقارا تدخل مباشرة في الأعداء - بمجرد الرؤية - الرعب و بالتالي تنصر جيوشهم بإذن الله. قال الطبرى في تفسيره : حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: (فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) أي وقار.

وقد كثرت القصص والأساطير حول مصير التابوت. ومن هذه القصص قصة تقول إنّ ابن سليمان، عليه السلام، من زوجته بلقيس، فرّ بالتابوت إلى مصر، ثم نقل التابوت إلى الحبشة. ولكن اليهود لا يزالون يبحثون عن هذا الصندوق الخشبي الصغير، والذي مضى على صناعته ما يقرب من (٣٢٠٠) سنة، على أقل تقدير. ويتوقع بعضهم أن يكون مدفوناً في ساحات الأقصى.

تابوت العهد ضائع أم رفعه الله؟ لا أحد يعلم وآخر من وقعت عليه أيديهم هم الرومان بعدما سرقوه من هيكل سليمان وحرقوا الهيكل، وقيل إن اليهود في القدس حصلوا عليه وأعادوه إلى الهيكل المدمر الذي يزعمون أن المسجد الأقصى أقيم على أنقاضه وأن كنوز بني إسرائيل وشرائعهم وألواح سيدنا موسى هي مدفونة مع التابوت تحت المسجد الأقصى وقد كذبوا . وتلك عادتهم.



٦

معركة مجدو ..
انتصار تحتمس الثالث

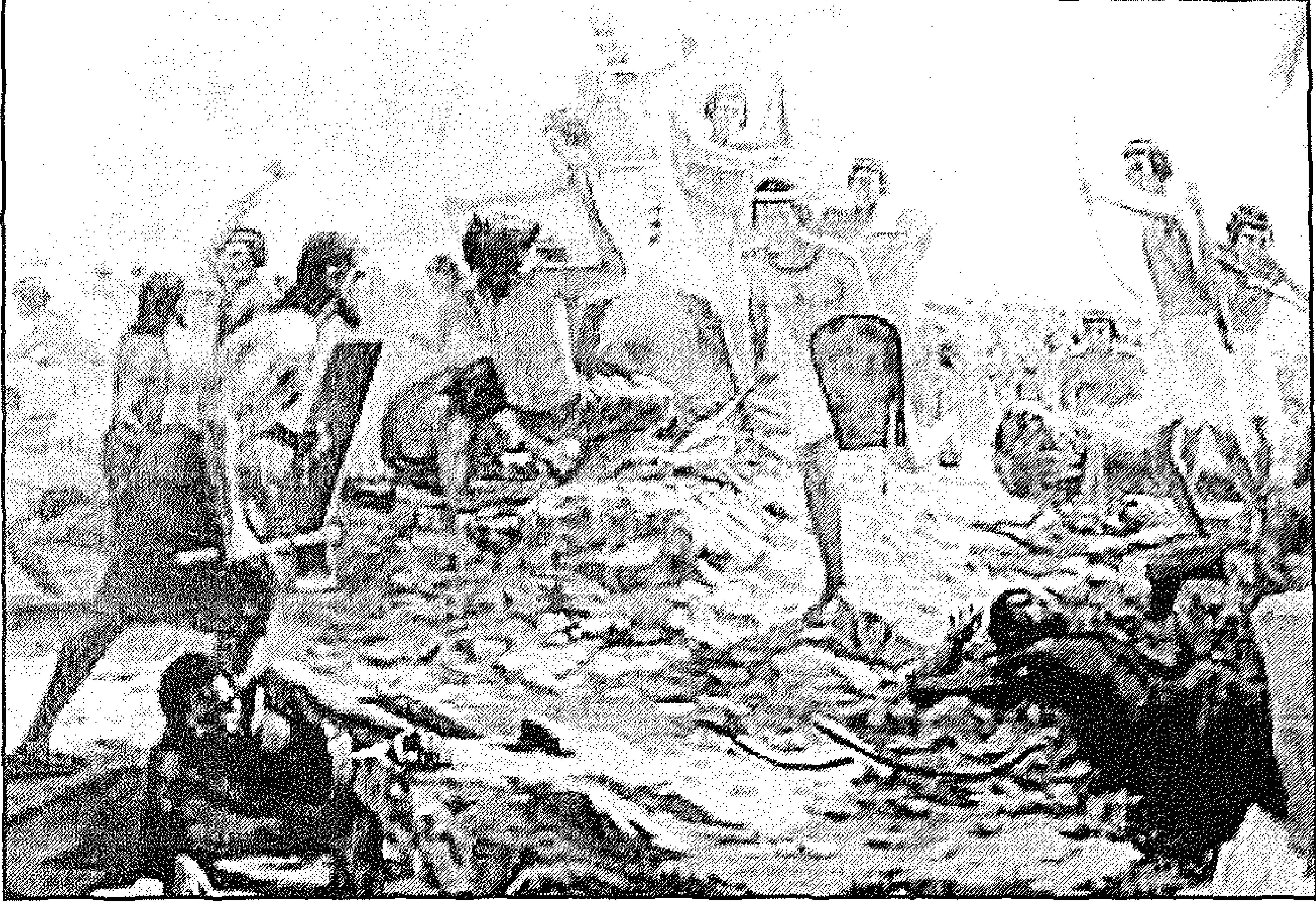




فى عام ١٤٦٨ ق.م توفيت ملكة مصر حتشبسوت وخلفها فى الحكم تحتمس الثالث فحكم مصر ٣٢ عاماً قاد خلالها ١٦ حملة عسكرية لتوطيد سلطان مصر ونفوذها فى كل أنحاء المعمورة المعروفة آنذاك .. ولم يعرف جيش مصر خلال حكمه طعم الهزيمة.. ويعتبر تحتمس الثالث من أعظم ملوك مصر القديمة وأقدر قوادها العسكريين والسياسيين ، ومن أشهر المعارك التى ارتبط بها اسمه معركة " مجدو " .

كانت مجدو – تل المسلم حالياً شمال شرق جبل الكرمة شمال فلسطين – منطقة ذات موقع استرايجى .. فتحرك إليها الجيش المصرى بقيادة تحتمس الثالث حتى انقض على أعدائه عام ١٤٦٨ ق. م ، واختار تحتمس الهجوم عبر ممر مجدو مما كان مفاجأة كبرى لأعدائه .. فاختل نظامهم وتفرقت صفوفهم ، فحسم جيش مصر المعركة فى ساعات .

وتعتبر مدينة مجدو من إحدى أشهر المدن الكنعانية العربية في فلسطين، عبر عصور التاريخ القديم، وتقع هذه المدينة التاريخية في شمال فلسطين/ في الجهة الغربية من مدينة جنين، فمنذ الألف الثالثة قبل الميلاد، وفي ظل الحضارة الكنعانية العريقة، تميزت مدينة مجدو بالبناء الحجري، والأسوار الكبيرة المحيطة بها من كل جانب، وبالقصور الفخمة الرائعة الجمال، والتقدم الزراعي، وبصناعة النسيج والملابس، وقد حاول اليهود، سرقة تاريخ هذه المدينة الكنعانية العريقة، ونسبته إليهم دون وجه حق، كما تعودوا عبر تاريخهم في تعايشهم مع الشعوب التي عاشوا في كنفهم، وهم الآن يروجون حولها أسطورة مخادعة، مفادها أن حربا عالمية ثالثة ستقوم على أرضها، بين قوى الخير بزعامة الولايات المتحدة الأميركية وحلفائها من الصهاينة، وقوى الشر من المسلمين وأتباعهم من الدول الصديقة والمتحالفة معهم، وسينتصر الخير في الآخير على الشر، وسيعود المسيح المنتظر–على حد زعمهم– ليحكم العالم لمدة ألف عام، حيث سيعم الأمن والسلام والهدوء، و سوف يعيدون هم، بناء هيكلهم المزعوم، على أنقاض المسجد الأقصى المبارك. ويروجون أيضا إشاعات بين اليهود أنفسهم، مفادها أن لا قيمة لإسرائيل بدون القدس، ولا قيمة للقدس بدون الهيكل، ولن يكون اليهودي يهوديا كاملا، إلا بعودته إلى القدس وإلى أرض الميعاد، أو على الأقل زيارة المدينة المقدسة ولو لمرة واحدة، وعلى القوى المسيحية المساعدة في الإسراع في بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى المبارك، إذا هم حقا يرغبون بعودة المسيح المنتظر، الذي سوف يحكم العالم، حتى يعم الأمن والسلام والاستقرار، ولن يعود الرب الا بإعادة بناء الهيكل.



المعركة كما جاءت في لوحات تاريخية معظمها تجده في متحف " اللوفر " بباريس.

وهذا هو ملخص للسياسة الصهيونية في العصر الراهن. ولكن! ما هو موقع اليهود من التاريخ؟ أو أين هي آثارهم؟ وكيف كان عبورهم في تاريخ البشرية! يقول عالم الآثار الإسرائيلي زئيف هرتسوج: (بعد سبعين عاماً من الحفريات المكثفة، في أرض إسرائيل، توصل علماء الآثار إلى نتيجة، أنه لم يكن لنا هنا أي شيء لليهود، سوى الأساطير، حيث لا وجود هنا لمملكة داود وسليمان، والباحثون يعرفون هذه الحقائق ...).

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر للميلاد، أسس في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية، كثير من الجمعيات، التي كان همها البحث عن دولة إسرائيل القديمة، لإخفاء التاريخ الفلسطيني، وهذا يوضحه الدستور الخاص بصندوق استكشاف فلسطين، الذي أنشئ عام ١٨٦٥ م من قبل الصهاينة، كما يوضحه صك الانتداب البريطاني (وعد بلفور)، في إشارته إلى الربط التاريخي بين اليهود المشتتين في العالم، وأرض الميعاد، ولخدمة هذا الهدف، زيف اليهود الصهاينة التاريخ الأثري، لخلق أدلة، تدعم ما بين أيديهم من أخبار حاخاماتهم الزائفة.

حاول الصهاينة كعادتهم تزوير علم الآثار، من خلال سيطرتهم على مراكز الأبحاث والدراسات في العالم، ونجحوا في تجنيد مجموعة من الباحثين في الآثار لخدمة أهدافهم، تحت عباءة العمل المحايد، وبحكم الصلة بين اليهود ومسيحيي الغرب، كان المنهج البحثي، يصب في خدمة اليهود الصهاينة. لقد أسس الصهاينة، دائرة الآثار الاسرائيلية، بعد مرور أقل من شهرين على إعلان دولتهم، بهدف وضع اليد على المناطق الأثرية في فلسطين.

ما هي حقيقة مدينة مجدو عبر عصور التاريخ تقع مدينة مجدو في سهل مرج ابن عامر، وهذا السهل، هو الذي يقطع جبال فلسطين باتجاهين، غربا وشرقا، ويقع في هذا المرج، عدد من المواقع الأثرية والتاريخية، ومن أشهرها مدينة مجدو، والتي تعرف حالياً ب (تل المتسلم). و تحتاج مدينة (مجدو) الفلسطينية، إلى تغيير جذري في معالجة تاريخها، الذي جيز لمصلحة تاريخ إسرائيل القديمة.

وأطلال مدينة مجدو، تقع على تل يرتفع (٦٠) متراً عن السهول المحيطة بها، وتبلغ مساحته حوالي (٥٠) دونماً، ويقع على بعد (٣٠ كم) شرقي ساحل البحر الأبيض المتوسط، و (٤٠ كم) إلى الغرب من نهر الأردن، وعلى بعد (٧كم) من مدينة جنين.

هذا التل، يقع على الطريق الذي يخترق جبل الكرمل، ويتحكم بمدخل سهل مرج ابن عامر في شمال فلسطين، ويسيطر على الفتحة الاستراتيجية للممر، الذي يؤدي من السهل الساحلي لفلسطين، إلى مرج ابن عامر، ويشرف على الطريق المؤدية من مصر إلى سوريا، وهذا الموقع المميز، أكسب المدينة مكانة مهمة عبر عصور التاريخ، حيث كان مسرحاً للعديد من المعارك الحربية في فلسطين.

وللأسباب التي سبق ذكرها، أولى علماء الآثار، مدينة مجدو، أهمية خاصة، حيث كانت الفترة التاريخية من ٢٧٠٠-٢٣٠٠ ق.م من أزهى عصور هذه المدينة، وقد غدت من أهم المدن الكنعانية، أهم ما كان يميز هذه المدينة هو تطور حياتها المدنية، و زيادة الحركة العمرانية فيها، التي تدل على نموها السكاني، وارتفاع مستوى المعيشة لدى سكانها، وتقدمهم في نظام الزراعة.



تمثال لتحتمس الثالث من المرمر بمتحف المتروبوليتان !!

وقد عثر في حفريات هذه المدينة، على جرار فخارية، باسم فرعون مصر (سنوسرت الأول)، وفي عهد الملك (سنوسرت الثالث) ١٨٧٨-١٨٤٢ ق.م ارتحل الملك نفسه، للقضاء على تمرد في فلسطين، وقد عثر في مدينة مجدو أيضا، على تمثال لأمير الأشمونيين في مصر، وهو (تحوتحتب الثاني). إن التغلغل الفرعوني المصري في الاراضي الفلسطينية، أدى إلى السيطرة الفرعونية شبه التامة، على جنوب فلسطين، وفي العصر البرونزي الوسيط، والأخير، أصبحت فلسطين تشكل جسر العبور الفرعوني-المصري لبلاد الشام والمناطق الآسيوية الأخرى، ويستدل على ذلك، من خلال المكتشفات المتنوعة التي صنعت في فلسطين، وكانت تقليداً للصناعة الفرعونية المصرية، ومثال على ذلك أيضا العثور على منحوتات مصرية. كانت مدينة مجدو مدينة منيعة، ذات أسوار تحيطها من كل جانب، وقد عثر فيها على عدة قصور وبيوت للنبلاء، و يتضح من خلال تنظيم المدينة، أن الزعماء الكنعانيين، كانوا يسكنون داخل المدن، وحولهم مجموعة من أقاربهم النبلاء، وكان هناك أكثر من معبد في مدينة مجدو.. و دلت المكتشفات الأثرية عن تقدمهم، في صناعة الملابس.

إن معركة مجدو بين فرعون مصر والملوك الكنعانيين، قد أعطتها شهرة مميزة، بصفتها تمثل أول نصر عسكري، لمعركة خاضتها جيوش الإمبراطورية الفرعونية ضد ملوك وجيوش الكنعانيين، وقد ورد ذكر مدينة مجدو، في حوليات الفرعون (تحتمس الثالث) التي تعود إلى القرن الخامس عشر ق.م.، حيث ذكر فيها، أنه استطاع عام ١٤٦٨ ق.م، أن يهزم جيشها الكنعاني، والذي كان عبارة عن ائتلاف لجيوش عدة من الملوك والأمراء لعدد من المدن، ضد النفوذ الفرعوني المصري في كنعان وسوريا، حيث جمع ملك مجدو حوله، ٣٣ أميراً بجيوشهم، وكان سلطان هؤلاء ممتداً من شمال قطنة إلى بحر الجليل والى مجدو جنوباً، ولما علم الفرعون المصري (تحتمس) بذلك التجمع العسكري، دعا قادة جيشه، وعرض عليهم الموقف ووضعوا خطة قيل عنها:

(إنها خطة متقنة، وذات مناورة ناجحة، ليس لها أية سوابق في تاريخ الدول الأخرى، وتدل على عبقرية تحتمس الثالث كقائد حربي عظيم).

وعندما دارت المعركة، خارت قوي جيوش التحالف الكنعاني، وفرت خلف أسوار المدينة، ومن بينهم ملك قادش وملك مجدو، وحوصرت مجدو لمدة سبعة شهور، تمكن الجيش الفرعوني المصري بقيادة الفرعون (تحتمس الثالث) بعدها من تحقيق نصر حاسم، أدى إلى إخضاع الملوك الكنعانيين للسيطرة الفرعونية المصرية لسنوات طويلة.

يستدل من تفاصيل الغنائم التي حصل عليها (تحتمس الثالث) من مملكة مجدو، أن مدينة مجدو كانت مدينة عظيمة، تتمتع بالثراء والقوة والتنظيم، ومحاطة بالأسوار المنيعة، وذات نظام سياسي واجتماعي متميز، يعرف بنظام حكومة المدينة، فقد ذكر تحتمس أنه استولى على مغانم كثيرة، تتألف من (٢٠٤١ حصاناً) و (٩٢٤ مركبة) منها (٣٢) لها تراكيب مصنوعة من الذهب والفضة، و (١٩٢٩ ثوراً) و (٢٠٠٠) من الماشية الصغيرة، و (٢٠٠٥٠٠) من الحيوانات الأخرى، و (٢٠٠ درع) وعدد كبير من الأسلحة الثمينة، وصادروا من القصر الملكي (٨٧ ولداً) و (١٧٩٦) من العبيد، الذكور والإناث، وأباريق ذهبية، وكمية من الأثاث والتماثيل وغيرها.

باحتلال مدينة مجدو من قبل الفراعنة، أصبحت فلسطين جميعها خاضعة للسلطة الفرعونية المصرية، لكن الأمور لم تستقر فيها تماما، حيث إن خليفة (تحتمس الثالث)

وهو ابنه (امنحوتب الثاني) بدأ بشن حملات انتقامية، موجهة إلى مدن مرج ابن عامر والجليل الغربي، التي كانت قد ثارت على الحكام الفراعنة، ويوجد وثيقة من وثائق هذه الحملة، رسالة موجهة إلى حاكم مدينة (تعنك) في مرج ابن عامر من قبل الفرعون (أمنحوتب الثاني)، يضمنها أمراً، بإرسال رجال ومواد مختلفة إلى غزة و مجدو، اللتين كانتا قاعدتين مصريتين.

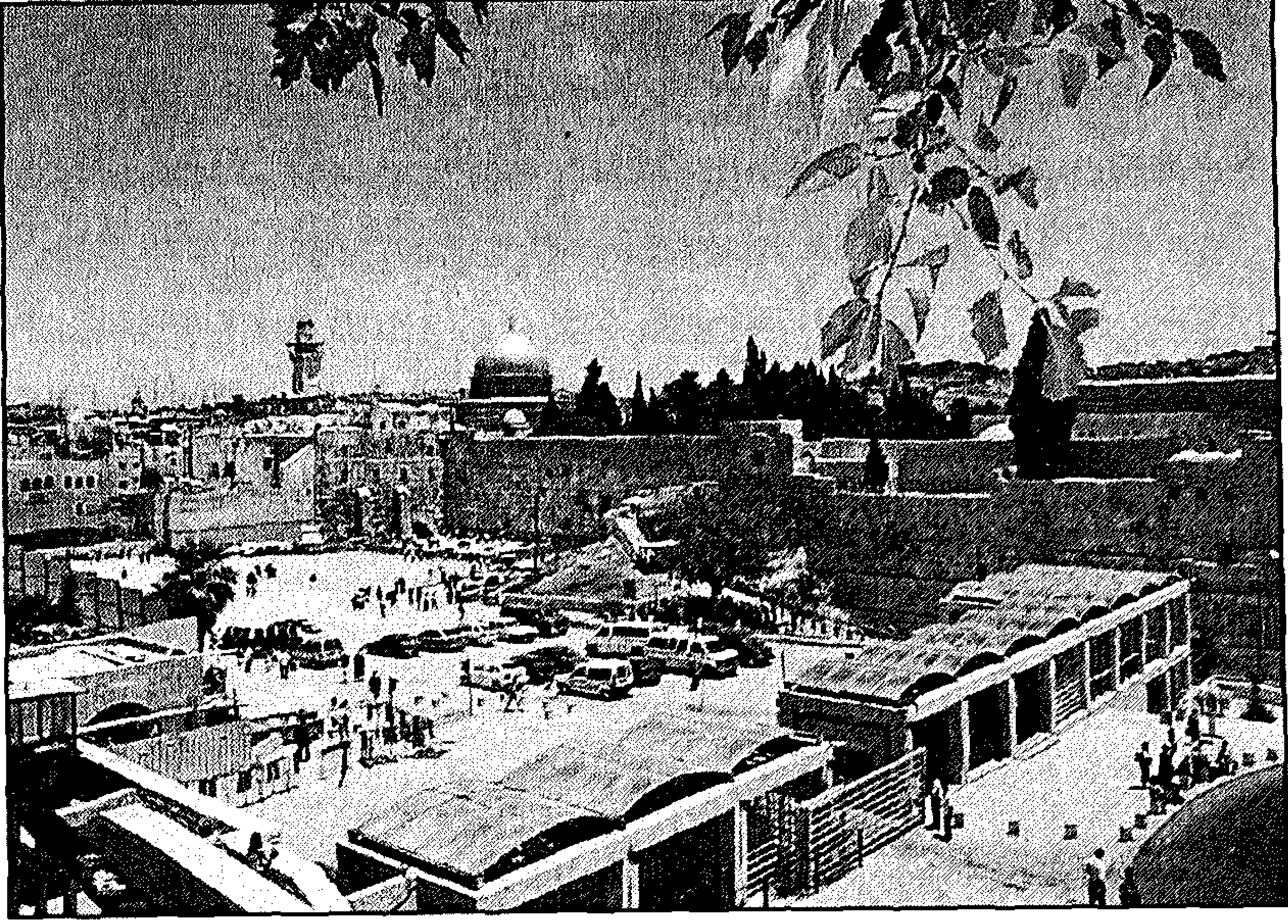
المهم هنا في هذا الموضوع، هو محاولة اليهود الصهاينة، عملية اختلاق تاريخ يهودي لمدينة مجدو واستبدال تاريخها الحقيقي، لإسكات تاريخها الفلسطيني القديم، وهي أخطر عملية تزييف وتزوير، ارتكبت في حق مدينة مجدو، ارتكبها الآثاريون الصهاينة، الذين نسبوا مجمل حضارتها إلى اليهود، دون توفر أي دليل على ذلك، إلا نص أسطوري ، في سفر الملوك في الإصحاح التاسع، قيل فيه، إن الملك سليمان، قد اتجه نحو إعمار عدة مدن كنعانية، من ضمنها مدينة مجدو، وعلى ضوء ذلك، عمل الآثاريون الصهاينة، عمليات التنقيب المسعورة، للبرهنة على صحة هذا الادعاء، وإثبات انه حقيقة تاريخية لا جدال فيها، وشغلوا أنفسهم بالعصر الذهبي للملك سليمان في مدينة مجدو، بالمخططات التفصيلية لأسواره وقصوره، وبإسطبلاته، وأولوا هذه عنايتهم الفائقة، فأسهبوا في حسن بنائها وبهاء أرضياتها وأعمدتها، إلى غير ذلك، وعلى الرغم من هذا كله، فإن مدينة مجدو ظلت مدينة عربية كنعانية، تحتفظ بقوتها وأهميتها عبر العصور، كذلك كانت تحتفظ بكامل سماتها العربية الكنعانية الفلسطينية، إلا أنها منذ القرن التاسع ق.م، وأيضا القرن الثامن، بدأ النفوذ المصري عليها، و على غيرها من مدن الشمال بالانحسار والتراجع، وحل محله النفوذ الآشوري، والذين دحروا فيها الوجود الفرعوني. وقعت مدينة مجدو في يد الملك الآشوري (تجلات بلاسر) ٧٤٢-٧٣٨ق.م، الذي قيل إنه اجتاح فلسطين، ووصل إلى مدينة العريش، وأنه استمال بعض حكام وملوك المدن الفلسطينية، بعدما كان ولاؤهم لفرعون مصر، وقيل إن مدينة مجدو، أصبحت في عهده عاصمة المقاطعة الآشورية في فلسطين، حيث كانت هذه المقاطعة، تضم سهل مرج ابن عامر والجليل.

تذكر الوثائق المصرية، أن الفرعون المصري (طهراقا) ٦٩٠-٦٦٤ ق.م، بدأ ينظم المقاومة ضد الآشوريين في فلسطين، بتعاون مع أمرائها، ومنهم ملك مدينة مجدو،

ويقال إنه حقق انتصاراً على الآشوريين عام ٦٧٤ ق.م، وجعل أمراء فلسطين ينضمون إليه تباعاً. تشير الحوادث في ذلك الوقت، إلى وقوع معركة مجدو عام ٦٠٩ ق.م، وأنه قد تم تدمير المدينة على يد الفرعون المصري (نخاو)، وقد هجرها أهلها في ذلك الحين، وسكنوا أسفل الجبل.

أهم الآثار التي عثر عليها في مجدو هو إسطبلاتها، والتي تتسع لأكثر من (٤٥٠ حصاناً) في وقت واحد، و مجموعة من القطع الفنية العاجية الكنعانية، المنقولة عن أصول مصرية، و عدد من تيجان أعمدة مربعة، من الحجر الجيري، و أثاث العبادة الدينية من الطين والحجر. و من هذه الآثار التي عثر عليها أيضا، كالنقود، والتي تعود إلى القرنين الخامس والرابع ق.م- وقد ظل موقع مدينة مجدو عامراً بالسكان، طوال العهدين الفارسي واليوناني، وآخر عهد لمدينة مجدو، هو العهد الروماني، وهو المزدهر بالعمران، و لم يعكره إلا ضجيج كتبة التوراة، حين بهرتهم شهرة المدينة، فعملوا على إدخالها في كتابهم التوراتي المزيف، وسلب سكان البلد الأصليين، منجزاتهم الحضارية، فوصلوا تاريخها كذباً، بيوشع بن نون، وبلغت دناءتهم ذروتها، حين راحوا يقولون، إن مدينة مجدو أو (هار-مجدون) ستكون مسرحا لمعركة حاسمة قادمة بينهم وبين أناس طامعين، سيكون فيها النصر حليفاً لهم.

والأخطر في هذا الموضوع، اقتراح أصحاب النظرية المعاصرة من اليهود الصهاينة، لدفع الأوضاع عالميا، في اتجاه حرب عالمية ثالثة من أجل تحقيق أحلامهم، وتحقيق نصرهم المزعوم، ويدعون بأنه في ظل هذا النصر، سيكون لليهود مكانة أعظم، ويعاد بعدها بناء الهيكل وسيكون لهم بعد ذلك السيادة على العالم كله.



مدينة مجدو حديثا والتى وقعت فيها المعركة الشهيرة التي تحمل اسمها .

بقى أن نقول إن تحتمس الثالث هو سادس فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، و يعتبر من أعظم حكام مصر على مر التاريخ.

توفي تحتمس الثاني تاركا العرش لابنه تحتمس الثالث، الذي لم يكن عمره قد تجاوز السادسة. وقامت حتشبسوت، وهي عمته وزوجة أبيه في آن واحد، بتنصيب نفسها وصية على عرش الملك الصغير تحتمس الثالث. وبعد عامين، نصبت نفسها ملكة للعرش، وحكمت لمدة عشرين عاما. بعد ذلك اختفت، واعتلى تحتمس الثالث عرش والده.

كان تحتمس الثالث ملكا محاربا قام الست عشرة حملة عسكرية على آسيا (منطقة سورية و فلسطين) استطاع ان يثبت نفوذه هناك كما ثبت نفوذ مصر حتى بلاد النوبة جنوبا ،وقد كان أمير مدينة قادش يتزعم حلفا من أمراء البلاد الآسيوية في الشام ضد مصر فصمم تحتمس الثالث على تأديب هذا الملك وهزيمة هذا الخطر فدرب الجنود أفضل التدريبات وبنى القلاع والحصون وهزمه في معركة تعرف باسم معركة مجدو في تل مجدو (الموجود حاليا بفلسطين) ، وظهرت مواهب تحتمس الثالث العسكرية مما

أدت إلى خوف بلاد الشرق الأدنى من مصر ويقول أحد المؤرخين القدامى في مصر القديمة و يؤكد في نصوصه عن قوة مصر في عصر تحتمس الثالث ويقول (لا توجد قوة في بلاد الشرق الأدنى تستطيع أن تواجه الجيش المصرى الذى نال تدريبا عسكريا ممتازا وفاز بقيادة ملك عبقرى هو فرعون مصر العظيم تحتمس الثالث).

أيضا اهتم بإنشاء أسطول بحرى قوى استطاع ان يبسط سيطرته على الكثير من جزر البحر المتوسط مثل قبرص وأيضا بسط نفوذ على ساحل فينيقيا (سواحل لبنان وفلسطين حاليا) فبذلك هو أول من أقام أقدم إمبراطورية عرفها التاريخ امتدت من أعالى الفرات شمالا حتى الجندل الرابع جنوبا ويلقب ب(أبو الامبراطوريات)وكذلك يُلقب تحتمس الثالث باسم (نابوليون الشرق) و كذلك (أول إمبراطور في التاريخ) إذ يُعد من العبقريات الفذة في تاريخ العسكرية على مر العصور.

و تُدرس خططه العسكرية في العديد من الكليات والمعاهد العسكرية في جميع أنحاء العالم، وهو أول من قام بتقسيم الجيش إلى قلب وجناحين، وقد استعانت الإمبراطورية البريطانية بالعديد من خططه في معاركها، خاصة ما قام به اللورد اللنبي في معاركه ضد الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، كان لهذه السياسة الحكيمة أثرها في تماسك الإمبراطورية المصرية لمدة قرن من الزمان ونشر الثقافة المصرية هناك.

استدعى تحتمس الثالث أبناء أمراء الأقاليم الآسيوية إلى طيبة ، ليتعلموا في مدارسها العادات والتقاليد المصرية ويثقفهم بالثقافة المصرية ، ويغرس في نفوسهم حب مصر، حتى إذا عادوا إلى بلادهم وتولوا الحكم فيها أصبحوا من أتباعه المخلصين و بالتأكيد لا يمكن التفكير في الحرب على مصر.

يشكك بعض المؤرخين أن هذا هو فرعون خروج اليهود من مصر (بنى إسرائيل) وذلك استنادا إلى فقرة في التوراة تقول إن الملك سليمان قد بنى بيت الرب في العام ٤٨٠ من خروج بنى إسرائيل من مصر والعام الرابع لحكمه وبتحديد العام الرابع لحكم سليمان وأضافت ٤٨٠ سنة سيقودنا هذا إلى نهاية تاريخ حكم تحتمس الثالث ، ولكن هذا الافتراض مشكوك في صحته نظرا لاختلاف هذا الرقم في نسخ ترجمات التوراة حتى إن بعضها يجعل هذه الفترة ٥٠٠ عام مما يدل على ان هذا الرقم كان تخمينا من كتبة التوراة.

بنى تحتمس الثالث في طيبة العديد من المعابد منها معبدين أحدهما بجانب معبد حتشبسوت في الدير البحري ، كما قام ببناء الصرحين السادس والسابع وقاعة الاحتفالات في معبد الكرنك وأكمل بناء معبد حابو الذى بدأته حتشبسوت ، وأقام معبد للإله بتاح في موطنه بمنف ، ويحتوى المعبد على ثلاث حجرات الأولى لبتاح والثانية لحتحور ربة طيبة والثالثة للإلهة سخمت زوجة بتاح حيث يقوم تمثال لها برأس لبؤة يعتليه قرص الشمس ، وله معبد في أمدا وسمنة ، وأقام معبدا في الفنتين للإلهة ساتت، وله آثار في كوم امبو وأدفو وهليوبوليس وأرمنت. أقام تحتمس الثالث ما لا يقل عن سبع مسلات معظمها موجود الآن في عدد من عواصم العالم منها المسلة الموجودة بلندن (هى إحدى مسلتين أقامهما تحتمس الثالث أمام معبد الشمس بهليوبوليس) وقد نقلهما مهندس إغريقى يدعى بنتيوس إلى الإسكندرية ليوضعا أمام معبد إيزيس ، وقد سقطت هذه المسلة من فوق قاعدتها في خلال القرن الرابع عشر من الميلاد ، ويقال إن محمد على باشا أهداها إلى بريطانيا عام ١٨٣١ م ولكنها لم تصل إلى لندن إلا في عام ١٨٧٨م حيث ظلت ملقاة على الأرض طوال ذلك الوقت لعدم التمكن من نقلها حتى تكفل بتكاليف نقلها السير أرزمس ولسن فصنع لها سفينة خاصة لنقلها ، وقد تعرضت السفينة في طريقها للعودة للغرق نتيجة عاصفة قامت في خليج بسكاى ولكن تم إنقاذ المسلة ووصلت سالمة .

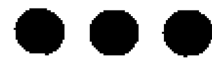
و الجدير بالذكر ان هذه المسلة قد أصيبت بخدوش من شظايا القنابل أثناء الحرب العالمية الثانية على نهر التيمز والمعروفة باسم إبرة كليوباترا والتى كان تحتمس قد أقامها أمام معبد عين شمس ، ومسلة أخرى موجودة حاليا باسطانبول هى إحدى مسلتين أقامهما تحتمس أمام الصرح السابع بمعبد الكرنك وقد نقلها الإمبراطور ثيودورس عام ٥١٠ م ، وفى الواقع تمثل هذه المسلة الجزء الأعلى فقط من مسلة كانت في الأصل أطول بكثير من أية مسلة موجودة الآن .

وله مسلة أخرى موجودة بنيويورك أقامها تحتمس أمام معبد الشمس فهذه المسلة ومسلة لندن توأمان ، وهى قائمة الآن في سنترال بارك ، كما أمر تحتمس في أواخر أيامه بأن تقام مسلة أمام الصرح الثامن من معبد الكرنك ولكنها لم تستكمل لوفاته وتركت في مكانها لمدة ٣٥ عاما إلى أن عثر عليها تحتمس الرابع وأقامها في المكان الذى كانت

معدة له وتوجد الآن في روما أمام كنيسة القديس يوحنا باللاتيران ، قام قسطنطين الأكبر عاهل الدولة الرومانية بنقل هذه المسلة التى تزن ٤٥٥ طنا إلى الإسكندرية عام ٣٣٠ بعد الميلاد لأرسالها إلى بيزنطة لتجميل عاصمته الجديدة ، ولكنه فشل في نقلها فبقيت وظلت في مكانها مدة ٢٧ عاما حتى قام ابنه قسطنطنيوس بنقلها إلى روما وأقامها في ميدان ماكسيماس ، وفى عام ١٥٨٧ كشف عنها ووجدت محطمة إلى ثلاث قطع فتم إصلاحها وترميمها على يد دومنيكو فونتانا بأمر من البابا سكتس الخامس ونصبت في مكانها الحالى بميدان اللاتيران ، كما أمر أيضا بأن يرفع الصليب على قمتها اعتقادا منه أن ذلك رمز لانتصار المسيحية على الوثنية .

إن تحتمس الثالث أقام أقدم إمبراطورية في التاريخ وهى أقصى حدود لمصر في العصر الفرعونى كانت في العصر الإمبراطورى في عصر تحتمس الثالث وصلت حدود مصر إلى الفرات شرقا و إلى ليبيا غربا وإلى سواحل فينيقيا شمالا و جنوبا إلى الجندل الرابع أو الشلال الرابع.

مات تحتمس وعمره ٨٢ سنة بعد أن حكم أربعة وخمسين عاما ، ودفن في مقبرة بوادي الملوك كان قد أعدها لنفسه وهى المقبرة رقم ٣٤ ، حيث يعد من أوائل الملوك الذين بنوا مقابر لأنفسهم في وادى الملوك ، وقد اكتشفت مقبرته في عام ١٨٩٨ على يد العالم فيكتور لوريت ووجد المقبرة قد تعرضت للنهب ولم تكن بها المومياء التى عثر عليها في الدير البحري عام ١٨٨١ .



٧

أوديسيوس بطل طروادة
أول حرب عالمية في التاريخ !!



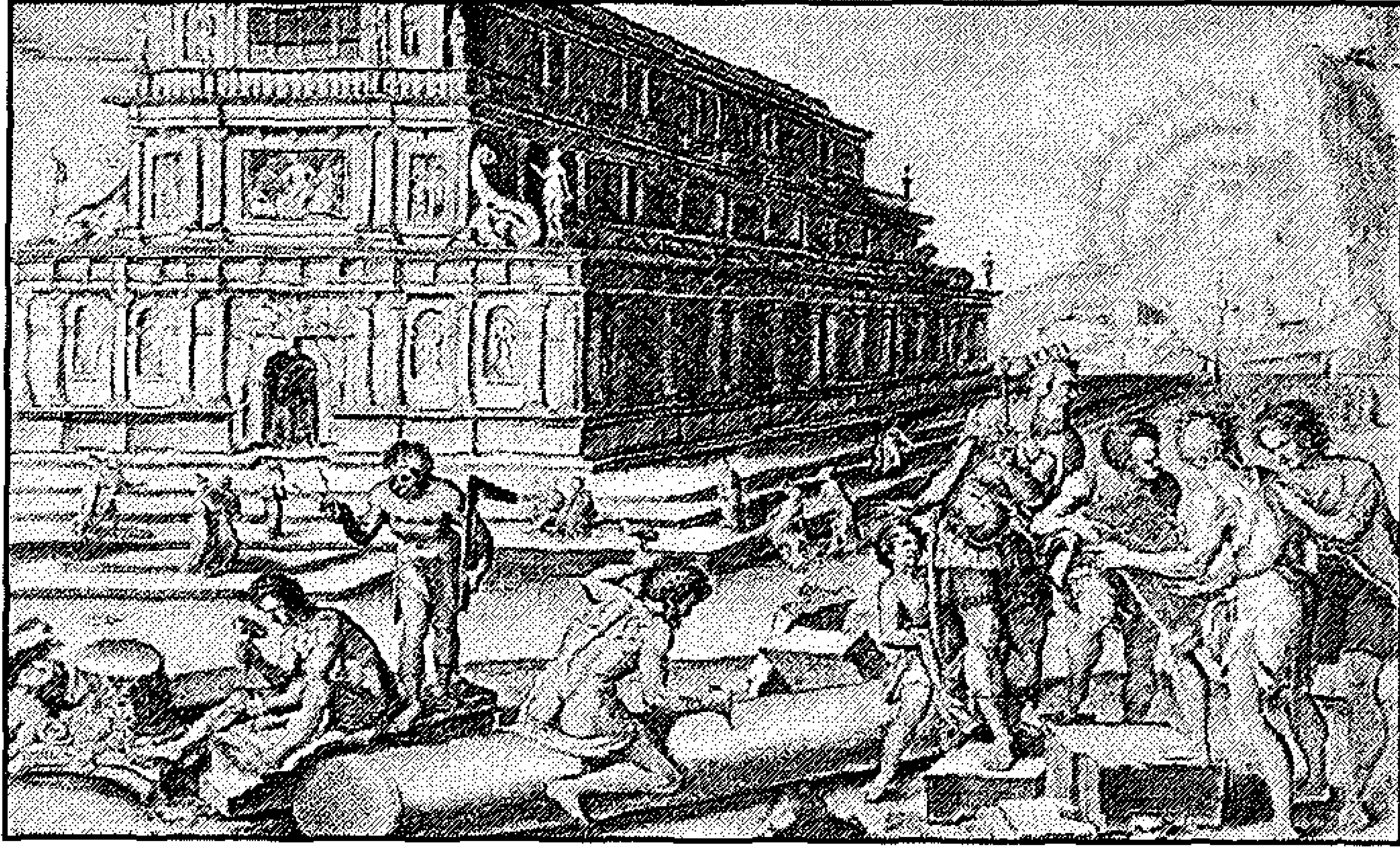


طروادة مدينة قديمة تقع في غرب تركيا في منطقة الأناضول، ازدهرت هذه المدينة في الألف الثالث قبل الميلاد. وقد اشتهرت قصة حصان طروادة الخشبي الذي اختبأ داخله الجنود وتسللوا ليلا لفتح أبواب المدينة أمام جيوش الملك مينلاوس بقيادة أخيه أجاممنون. الذي حاصر المدينة المنيعة ردحها من الزمن يقارب العشر سنوات وما كان من الممكن إسقاطها إلا بالخدعة. وقد تم اكتشاف مدينة طروادة على تسع طبقات من قبل عالم الآثار هاينريش شليمان .

كانت طروادة منذ بداية نشأتها حصناً منيعًا حيث كان يعيش بين جدرانها زعيم مع أسرته وخدمه ، في عدد من البيوت القليلة الكبيرة المحاطة بأسوار متينة . و كان الفلاحون أرباب الحرف و التجار و صائدو الأسماك يعيشون في الخارج على منحدرات التل أو في السهل . و قد دمرت طروادة الأولى بفعل حريق .

وكشف علماء الآثار النقاب عن آثار تِسْع مُدُن في موقع طروادة. وقد شُيدت كل مدينة لاحقة فوق حطام المدينة التي سبقتها. ويعتقد علماء الآثار أن المدينة السابعة هي طروادة الأسطورية، الموصوفة في الإلياذة، والأوديسة. وربما تكون تلك المدينة قد شُيِّدت أوائل القرن الثالث عشر قبل الميلاد وأُحرقت ودُمِّرت في منتصف القرن نفسه، بوساطة غزاة قدموا من أرض اليونان. وقدكشفت خرائب طروادة عن آثار عمرها حوالي ٥،٠٠٠ سنة.

وقد ذاعت شهرة طرْوادة من خلال أساطير الإغريق الأوائل. وتُدعى أيضًا إلْيُوم. وتَرْوي الإلياذة والأوديسة، وهما ملحمتان تُنْسَبان إلى الشاعر الإغريقي هوميروس (هومر)، وكذلك الإنيادة، الملحمة التي كتبها الشاعر الروماني فيرجيل، قصة عن طروادة، قد لا تكون صادقة إلا بشكل محدود. وقد سُمِّيَتْ المدينة باسميها نسبة إلى إلوس، مؤسسها الأسطوري، وتروس والد إلوس.



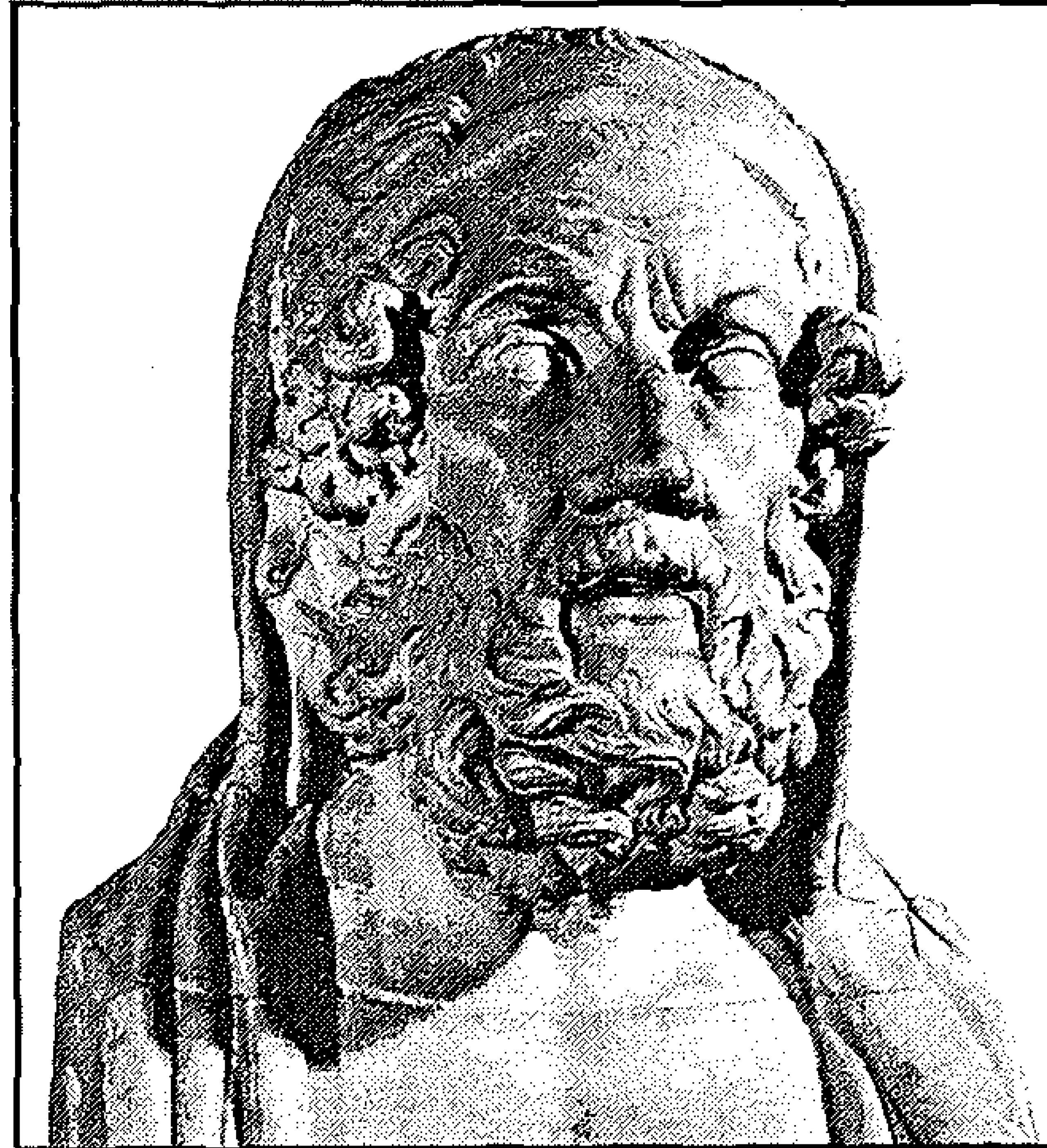
وأديسيوس في الأساطير الإغريقية، هو ابن ليرت، وأمه أنتكليا، وهو ملك إيثاكة، وبطل مشهور يصح أن يعد ممثلاً لخصائص الشعب الإغريقي.

وقد خلده هوميروس على أنه خير أبطال الإغريق وأشجعهم، والحبيب المفضل عند آلهة أثينا.

والأوديسة أو الأوذيسة هى أقدم نص أدبى جاء فيه ذكر العالم الآخر ووصف الجحيم والجنة وما بينهما من مطهر ، والأوديسا كما أثبتت الدراسات قد نظمت بين عام ١٠٠٠و ٨٠٠قبل الميلاد .

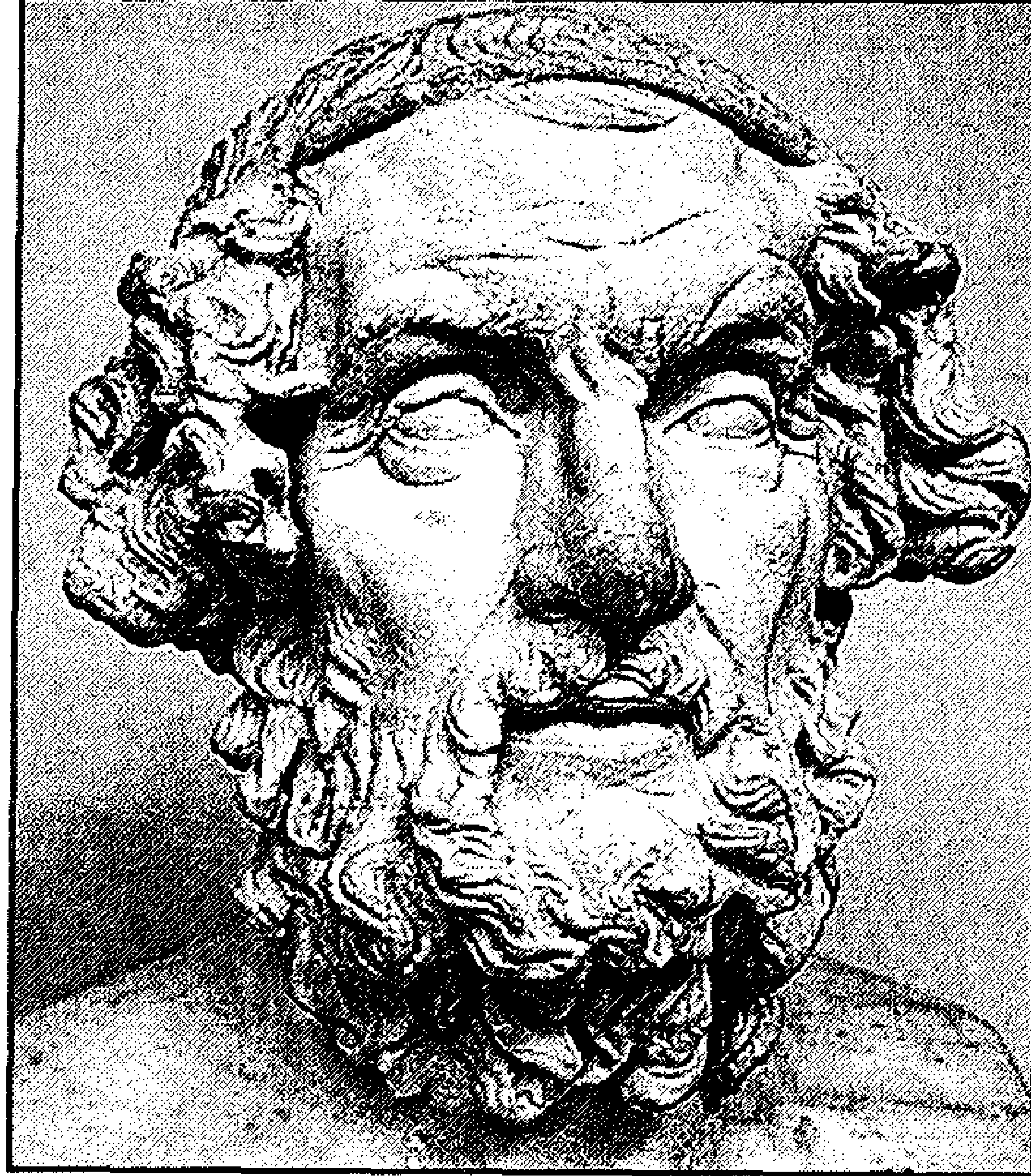
فى هذه الملحمة يبدأ هوميروس بالبطل " أوديسيوس " أو " أوذيسيوس " أو " أوذيس " أو " عوليس " ومغامراته المتعددة وزيارته للجنة والجحيم ،بعد نجاته ورجاله من بلاد العمالقة اللستروجون ثم جزيرة أيايا حيث كانت تحكم الملكة الساحرة سيرسا أوكيركا ذات الضفائر الشقراء بنت هليوس رب الشمس من برسا بنت أوقيانوس رب البحر .

وكانت الجماعة فد هدها الجوع والعطش ومشرفة على الهلاك ، وسعوا إلى الوصول لقصر الملكة ، فوجدوا حول القصر السباع والذئاب تتجول فى الأجمة وقد سحرتها هذه الساحرة بالعقاقير ولكنها تتمسح بهم وكأنها الكلاب المستأنسة ، ودخلوا القصر وقد استقبلتهم وهى تغنى وأدخلتهم إلى أجنحة القصر الباذخة والأطعمة الشهية ، وسرعان ما تحولوا إلى قطيع من الخنازير مع احتفاظهم بعقولهم البشرية .



أوديسيوس

طروادة الأسطورية مدينة كبيرة كان يحكمها الملك بريام. ويُروَى أن باريس ابن الملك حُكِّم في منافسة جمال بين المعبودات الإغريقية هيرا وأثينا وأفروديت، فاختار للفوز أفروديت إذ كانت قد وعدته بأن تزوجه أجمل امرأة في العالم. قام باريس، بعد هذه المنافسة، بزيارة منيلاوس، ملك أسبرطة، فوقع في غرام زوجته هيلين، التي كانت قد عُرفت بأنها أجمل امرأة في العالم. فأخذ باريس هيلين معه إلى طروادة، مما أغضب منيلاوس. وأقسم شعب الإغريق، الذين يُسمِّيهم هوميروس الآخيين، على الانتقام من باريس، ومن شعب طروادة. وهكذا انطلقت حملةٌ، قادها أغاممنون أخو منيلاوس، وضمت إلى جانبه كلا من أخيليوس (أخيل) وأوديسيوس، (يوليسيس كما في اللاتينية) وكثيرًا من أبطال الإغريق الآخرين.



هوميروس شاعر الإغريق العظيم الذي جعل طروادة إحدى أشهر مدن العالم القديم عندما خلدها في رائعته " الإلياذة ".

سقوط طروادة اشتهر من خلال الأساطير. وقد اختبأ جنود الإغريق داخل حصان خشبي ضخم، وقام الطرواديون الفضوليون بسحبه إلى داخل المدينة. ثم تسلل الإغريق خارجين من جوف الحصان وهاجموا طروادة.

حاصر الإغريق طروادة مدة عشر سنوات إلا أنهم أخفقوا في الاستيلاء على المدينة التي كانت محصَّنة بأسوار حجرية عالية. وأخيرًا أمر أوديسيوس العمّال بصنع حصان خشبي ضخم، اختبأ في داخله عدد من الجنود الإغريق، بينما تظاهر بقية الإغريق بالإبحار بعيدًا، تاركين الحصان قائمًا خارج أسوار المدينة.

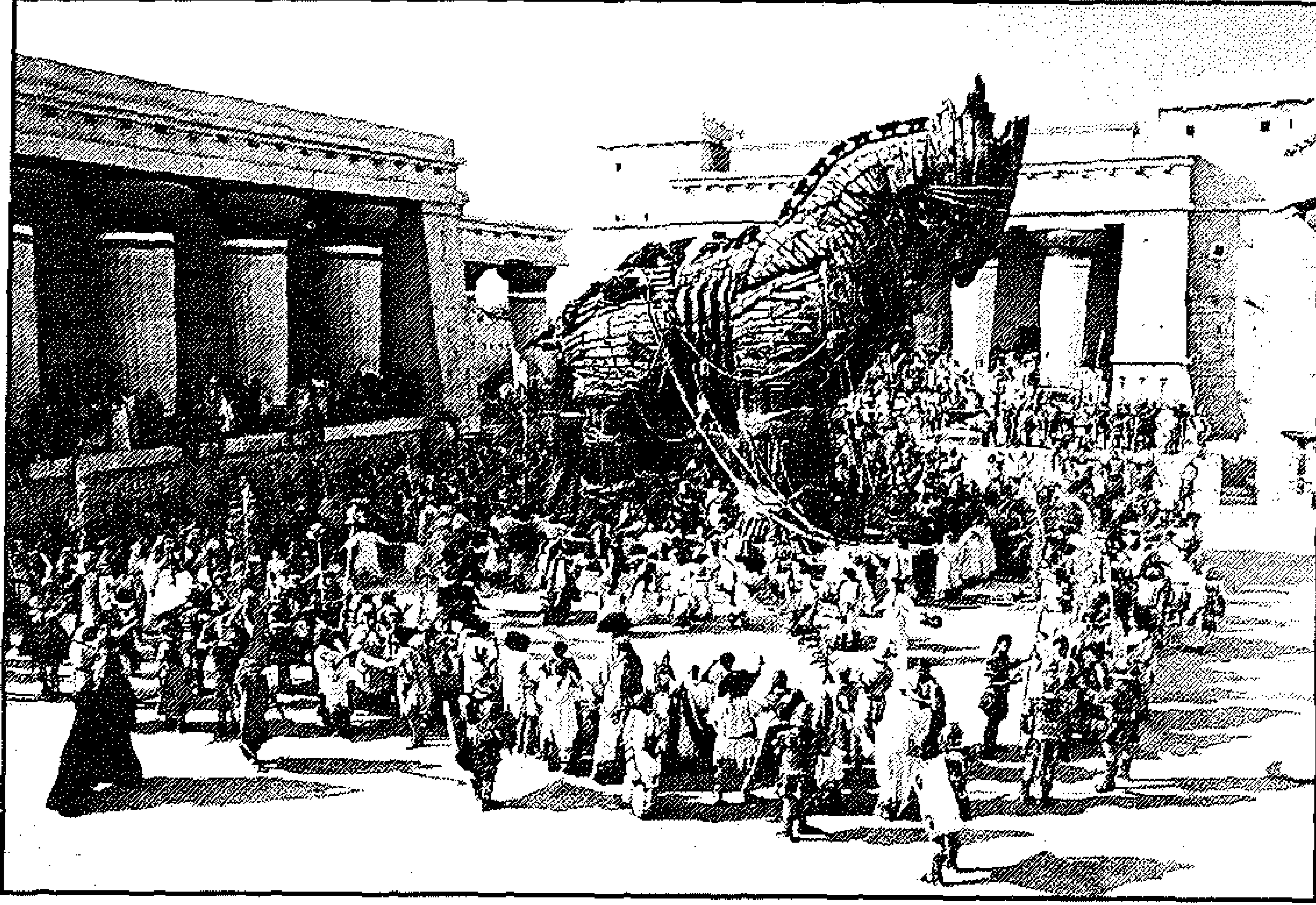
أثار الحصان فضول الطرواديين، فسحبوه إلى داخل المدينة على الرغم من تحذيرات الكاهن الطروادي لاوكون لهم بألا يفعلوا ذلك. وفي تلك الليلة تسلل الجنود الإغريق خارجين من جوف الحصان، وفتحوا بوابات المدينة أمام بقية القوات الإغريقية، لدخول طروادة. وهكذا نفذ الإغريق مذبحةً ذهب ضحيتها شعب طروادة، ونهبوا المدينة وأحرقوها. وقد نجا إينياس، بطل ملحمة الإنيادة لفيرجيل، إلى جانب عدد قليل من الطرواديين، من هذه المذبحة بينما قُتل باريس في هذه الحرب وعادت هيلين إلى منيلاوس.

وفيما عدا هذه الأساطير فإن ما هو معروف عن تاريخ طروادة قليل وعلماء الآثار يعرفون أن طروادة أُسسَتْ في أوائل العصر البرونزي، الذي ابتدأ في آسيا الصغرى نحو ٣٠٠٠ق.م. وتقوم المدينة على سهل مرتفع خصيب، يقع في شمال غربي تركيا الحالية وكانت قريبة من الطرف الجنوبي للمضيق المعروف الآن باسم الدردنيل، الذي كان يسمى هيليسبونْت. وقد اكتشف علماء الآثار تسع مدن بنيت في موقع طروادة، كانت كل مدينة تالية منها تُبنى على أنقاض المدينة التي سبقتها.

كانت كلٌّ من طروادة الثانية وطروادة السادسة، بصفة خاصة، مدينتين غنيتين. فقد اشتغل الطرواديون بالزّراعة وبتربية الأغنام وبإنتاج السلع الصوفية، كما تاجروا مع المسِّينيين الذين كانوا يعيشون في بلاد الإغريق، ومع شعوب أخرى تعيش على امتداد سواحل آسيا الصغرى المطلة على بحر إيجة.

ولا يعرف العلماء إلا القليل عن حرب طروادة الحقيقية، إذ وجد علماء الآثار دلائل على أن الإغريق ربما كانوا قد هاجموا طروادة، ودمروها في حملة مماثلة لتلك التي وصفتها الإلياذة. إلا أن سبب تلك الحرب ظلّ غير معروف. ويَعْتَقدُ علماء اليونان أن طروادة سقطت حوالي العام ١١٨٤ق.م، بينما يظنّ كثير من علماء الآثار أن المدينة

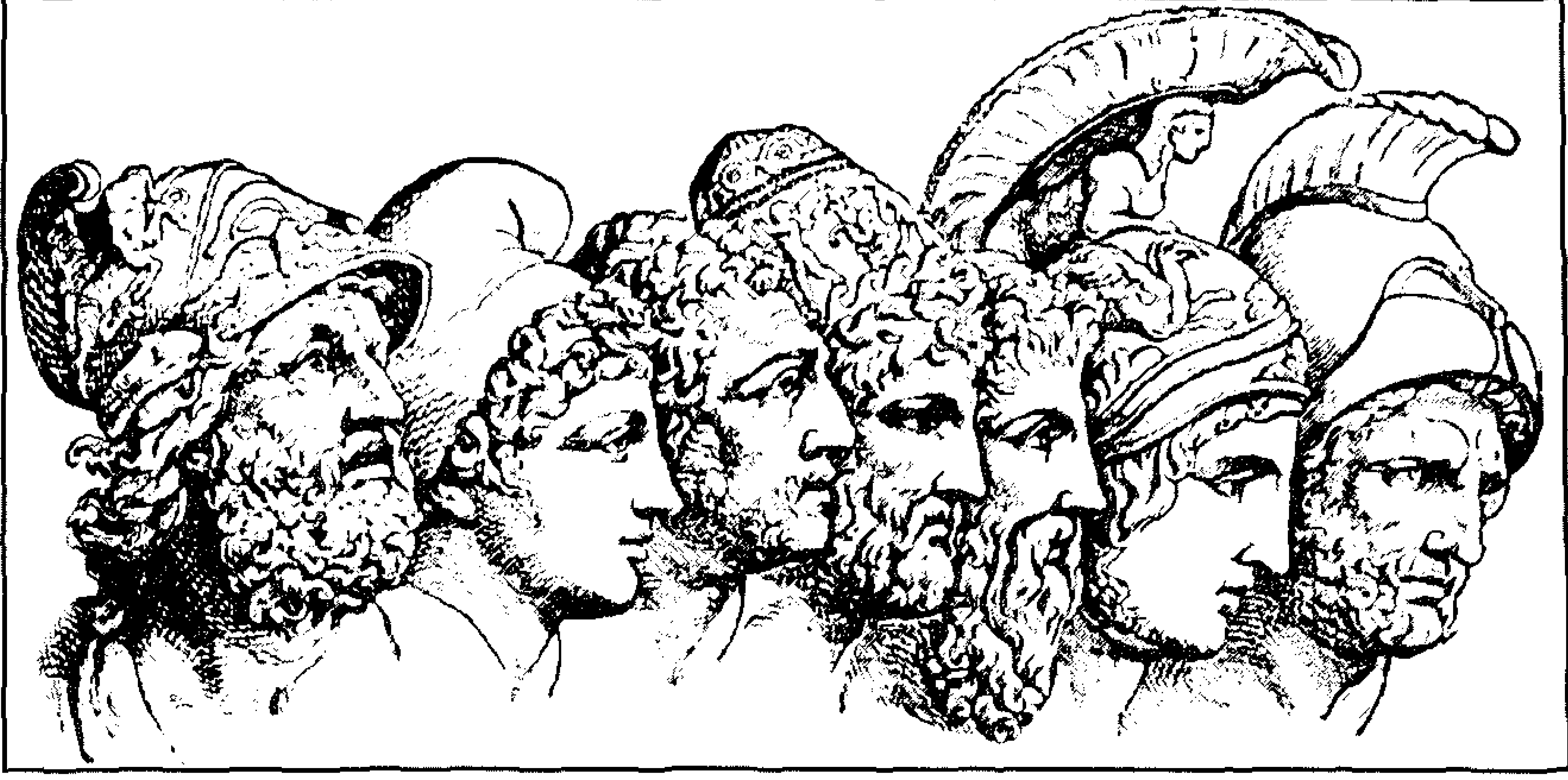
السابعة التي قامت على موقع طروادة هي المدينة التي كُتب عنها في الأدب الإغريقي القديم. ويَعْتَقِدُ هؤلاء العلماء أن هذه المدينة قد دُمِّرت نحو عام ١٢٥٠ق.م.



حصان طروادة

موقع طروادة يضم بقايا تسع مدن متتالية وذات الأسوار الحجرية التي دمرها زلزال حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وربما تكون هذه طروادة التي ورد ذكرها في الأسطورة القديمة.

طروادة الأثرية. كان أول عالم آثار يقوم بدراسة طروادة ألمانيًا يدعى هنريش شليمان، بعد أن لاحظ أشخاص آخرون، وجود كومة ركامية صغيرة على بعد ستة كيلومترات من الدردنيل، وقد بدت مناسبة لأن تكون هي الموقع الجغرافي لطروادة كما وصفتها الإلياذة. وكانت كومة الركام هذه تسمى هِسارْليك. وهكذا شرع شليمان، سنة ١٨٧٠م، بالحفر هناك. فوجد دلائل على وجود عدة مدن بُنيت في هذا الموقع، على امتداد فترة زمنية طويلة، كما اكتشف عند نهاية الحفريات خرائب مدينة قديمة ذات أسوار ضخمة، وبيوتًا مبنيةً بناء حسنًا، وكنوزًا مخبأة من ذهب وفضة. واعتقد شليمان، خطأ، أن هذه المدينة، التي سمّاها طروادة الثانية، هي طروادة نفسها التي وصفها هوميروس.



وفي تسعينيات القرن التاسع عشر الميلادي، قام عالم الآثار الألماني فِلْهلم دُوربفِلْد، وكان مساعدًا لشليمان من قبل، بإجراء حفريات أخرى في طروادة. وكان هو الباحث الأول الذي تَعَرَّف على وجود تسع مدن كانت تقع في الموقع نفسه. واعتقد دورْبفِلد أن المدينة السادسة منها هي المدينة نفسها التي ورد ذكرها في إلياذة هوميروس. وكانت هذه المدينة، التي أطلق عليها اسم طروادة السادسة، أكبر من سابقاتها، وكانت محصنةً بأسوار عالية، وبيوتها فسيحة ومستطيلة الشكل، وقد تكون قد بنيت حول قصر مركزي.

في عام ١٩٣٢م ابتدأ كارل بلِيجن، وهو عالم أمريكي من جامعة سنسناتي بأوهايو في الولايات المتحدة الأمريكية ابتدأ حملة بحث جديدة في طروادة.

واستمرت دراسته مدة ست سنوات، أكد إثرها النتائج التي كان دُوربفِلد قد توصل إليها، باستثناء أن بليجن اعتقد أن المدينة السابعة هي طروادة الأسطورية.

فوفقًا لبليجن، مثّلت طروادة السادسة، مرحلة رئيسية من مراحل تطور المدينة، على الرغم من أنها لم تكن طروادة المذكورة في الأساطير الإغريقية.

وقد تميزت هذه المرحلة بقدوم مهاجرين إليها شاركوا المسِّينيين في اليونان في كثير من خصائصهم الحضارية. وقد دُمِّرت طروادة السادسة نتيجة زلزال وقع في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. أما المدينة التالية التي يُطلق عليها علماء الآثار اسم

طروادة السابعَة، فكانت ذات بيوت غير مُتّقنة ومتزاحمة، كما كانت أقلّ ازدهارًا من المدن الطروادية التي سبقتها. وقد نُهبت طروادة السابعة وأحرقت.

وعلى الرغم من أن بليجن كان يعتقد بأن طروادة السابعة هي المدينة الأسطورية، إلا أن علماء الآثار لم يتمكنوا من إثبات ما إذا كانت هذه المدينة هي المدينة القديمة نفسها.

وخلال الفترة من القرن الثاني عشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد، لم يعش أحد في موقع طروادة،. بينما قام بعض المستوطنين الإغريق، في نحو القرن الثامن قبل الميلاد، ببناء قرية صغيرة هناك.

وبُنِيَتْ آخر مدينة في هذا الموقع، وهي طروادة التاسعة، في القرن الرابع قبل الميلاد، وأُطْلِقَ عليها الإغريق اسم إليوم وقد استمرت نحوًا من سبعة قرون، وهُجِرت في نحو عام ٤٠٠م،وظلت غير منبوشة حتى اكتشفها شليمان.

وقد أعادت هوليوود إحياء قصة مدينة طروادة في فيلم " طروادة " في ربيع عام ٢٠٠٤ وكذلك قامت مجلة " المرآة الألمانية " باستعراض القصة كاملة لتقول إن معظم الدلائل تشير إلى وقوعها.

ويذهب ديورانت المؤرخ ليكشف لنا أنها تسع مدن فوق بعضها بعضًا وأن كنز بريام يعود إلى المدينة السادسة فسبحان الله في عبرة التاريخ.

وفي عام ١٨٢٢ ، ولد الألماني (هنريك شليمان) وكان أبوه مولعًا بقصص التاريخ وما رواه الشاعر اليوناني هوميروس فكان خيال الطفل يشطح فيتذكر حصار طروادة الذي استمر عشر سنوات وكيف أن قبائل الآخِيين الذين اجتمعوا من كل حدب من جزائر اليونان تضافروا على اقتحام مدينة طروادة ففشلوا ولم ينجحوا إلا بواسطة خدعة الحصان الخشبي. تقول رواية الشاعر اليوناني (هوميروس) الذي كان يتنقل بين مدن اليونان ويروي القصة ممزوجة مع الموسيقى أن (أوديسوس) المكّار اقترح خطة بعد عشر سنوات من الإعياء ومقتل الرجال ونفاد المؤن أن يتظاهروا باليأس ومغادرة مدينة طروادة وهي الآن تقع على الساحل التركي عند تلة (حصار لك) قريبة من مضيق الدردنيل.

وإذا تأمل الإنسان الخارطة رأى أن البحر المتوسط لا يتصل بالبحر الأسود مباشرة بل عبر فجوتين الأولى: البوسفور، والثانية: مضيق الدردنيل وهو ما كان يسمى في التاريخ (الهلسبونت) وعنده وقف الإمبراطور الفارسي (كزركسيس) متأثرًا من مرأى أعداد الجنود الكثيفة التي تعبره لاجتياح بلاد اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد ثم رد الطاغية الفارسي على أعقابه مذمومًا مدحورًا ومن تبعه منهم وولدت الديمقراطية في اليونان وتفتح العقل على عبقريات لا نهاية لها.

أما أحداث حصار مدينة طروادة فكانت أسبق من الحملة الفارسية بسبعة قرون، ويقدر المؤرخون حدوثها بين عامي ١١٩٤ و ١١٨٤ قبل الميلاد. ونعود إلى أوديسوس فقد اقترح بناء حصان كبير جدًا بحيث يتسع بطنه لعصبة من الرجال أولي القوة ثم تغادر الحملة العسكرية المنطقة برمتها وتختفي في لجة البحر الذي يقترب من المدينة ثلاثة أميال، ومن خلال خطة اتفق عليها الفريقان يتسلل الرجال من بطن الحصان الذي لا يفتح إلا من الداخل فيفتحون بوابة المدينة خلسة وتنقض الجموع على الناس النيام مع هجعة السحر وكان موعدهم الصبح. تقول رواية هوميروس إن أهل المدينة راقبوا الجموع من فوق الأسوار وأعينهم لا تصدق أن الحصار انتهى وأن جيوش الحلفاء غادرت ولكنهم لاحظوا ظلًا كبيرًا في الساحة بعد أن نفض القوم المنصرفون مضاربهم. وانتظروا حتى جلاء آخر جندي ثم بعثوا رسولهم يستطلع الخبر ما بال النصب الواقف على شكل حصان. كانت الخدعة الأولى في التاريخ ومنها حفظت في بطون الكتب كيف يذهب العدو ويترك من يقوم بالمهمة فيدمر على نحو أشد مكرًا.

فرح القوم بالحصان وقرروا أن يقوموا باحتفال يروحون به عن أنفسهم من عناء الحصار وطالما انفك الأمر فليشربوا الآن دون حدود وليأكلوا حتى ما فوق الشبع وليحتفلوا فهو يوم فرح وترويح ولم يعرفوا أنه يوم تشيب له الولدان، ويتقرر مصير مسح المدينة مسحًا من خارطة الوجود وأن عليهم ألا يفرحوا.

عند الصباح مع نسمات السحر كانت المدينة تُهلك بالسيف والنار وتختفي من الوجود ويقضي أهلها حتفهم بحد السيف وتعلق مجلة " بي إم " الألمانية على الحادثة بالقول "إنها كانت الحرب العالمية في العصر القديم".



٨

سرجون العظيم ..
وتاريخ ما أهمله التاريخ !!





هذا العملاق الذي تهابه وتخافه حتى كتب الأمم والشعوب عندما تخط أحرف اسمه... هذا القائد العراقي الذي حاول تاريخ العالم بأجمعه إخفاء حقيقته خوفاً من تاريخه الذي هزَّ عروش ممالك العالم ... هذا الذي ظلمه التاريخ ولم يذكر عنه إلا الشيء اليسير .... لكن مايخرج من باطن أرض الحضارات لهو الدليل القاطع الذي يخرس الألسن ويرمي بكل تواريخ الأرض بكتبها وتزويرها عُرض الحائط .

وبما أن الحفريات هي بالنسبة للعصور الحضارية جديدة وفي تطور مستمر واكتشافات جديدة وبما أنه إلى الآن خرج أو اكتشف الشي البسيط بالنسبة لحضارة عظيمة مثل حضارة العراق فإن ما هو موجود وما سيخرج فهو إعصار يقلع كل شيء أمامه .

الكل يسمع ويكاد يعرف الإسكندر المقدوني هذا القائد الروماني صاحب الإمبراطورية الكبيرة وتكاد كتب التاريخ القديم لاتخلو منه ... والكل يمجده ويثني عليه.... لكن للمعلومة إن إمبراطورية سرجون الأكدي كانت أكبر وأقوى من إمبراطورية الإسكندر وقد سبقتها بقرون عديدة ...إذن لماذا لايذكر كما يذكر الاسكندر ؟ أم لأنه ليس رومانيا؟

لكن رغم كل شي يبقى هذا الوطن المعطاء رمزا ونوراً ومنجما للرجال والإبداع الذي لا ينضب أبداً ... هؤلاء الرجال الذين جعلوا من أسمائهم نوراً وعلماً وكتبوا أسماءهم بأحرف من ذهب في تاريخ البشرية شاءت أم أبت .

كشف في نص مسماري آشوري وصف فيه كيفية ولادة سرجون كما ورد على لسانه هو والحقيقة قصته تشبه نوعا ما قصة ولادة النبي موسى .. يقول فيه :

أنا سرجون ، الملك العظيم ، ملك أكد ... كانت أمي كاهنة عليا (يعتقد أن أمه حملت به سراً وذلك لايسمح للكاهنات الإنجاب) ، مدينتي هي آزوفيرانو (وهي مدينة الزعفران على الفرات) ... حملت أمي بي ووضعتني سرّاً وأخفتني في سلة مقيرة من الحلفاء وغطتني ورمتني في الماء ، فلم يغرقني النهر بل حملني إلي آكي سقّاء الماء فانتشلني آكي بدلوه ، ورباني واتخذني ولداً وعينني بستانيا عنده ، وبينما كنت أعمل بستانيا أحبتني الإلهة عشتار فتوليت الملوكية .

في أواخر عصر دول المدن السومرية المجزأة ، ظهرت حركة من وسط السهل الرسوبي غيرت مجريات الأحداث التي انحصرت طوال عصر فجر السلالات وهي مدن أو دول صغيرة متصارعة والتي كانت تدعى ببلاد سومر ... قاد هذه الحركة أو الثورة شاب ضابط اسمه سرجون ومعناه " الملك الحق " أو "الملك الصادق " ، وجاءت تسمية القوم بالأكديين نسبة إلى مدينة أكد التي بناها وأسسها ومؤسس السلالة الأكدية " سرجون العظيم " ، واتخذها عاصمة لإمبراطوريته ، ولم يكتف سرجون والذي حكم ٥٥ عاماً

بالسيطرة على المدن السومرية فحسب بل هيمن على كامل حوض دجلة والفرات محققاً بذلك ولأول مرة وحدة بلاد مابين النهرين ، كما تابع فتوحاته إلى البلدان المجاورة وماتلاها ليكون الإمبراطورية الاكدية والتي امتدت من جنوب شرق آسيا شرقاً بما فيها الهند إلى كافة دول غرب العراق بما فيها مصر والدول الغربية وكافة حوض البحر المتوسط !!!

لذلك يعتبر سرجون الأكدي من أوائل الفاتحين في التاريخ وإمبراطوريته أول إمبراطوريه عرفتها البشرية على مدى تاريخها .

بدأ سرجون حياته في مدينة كيش وكان مقرب من ملكها (أور زبابا)، وساقياً في بلاطه ، أما ظروف استيلائه على الحكم في كيش فهي غير معروفة تاريخيا .... بشكل مااستطاع حامل الكأس الملكي هذا الإطاحة بسيده وهجم على أوروك (الوركاء) حيث كان ملكها لوكال زاكيري هو السيد الأعلى لبلاد سومر .... فألحق به هزيمة نكراء والقى القبض عليه وجلبه إلى كيش مقيداً وعرضه في قفص على أعين الناس على مشارف معبد الإله أنليل في "نفر" .... استمر سرجون معاركه الظافرة مع دول المدن السومرية على طريق توحيد بلاد سومر وأكد ومن ثم بناء الدولة الوطنية الموحدة .

وقد انتصر سرجون الأكدي في أربع وثلاثين معركة على المدن الممتدة على حافة البحر المتوسط ومن ضمنها مصر والتي كانت تسمى حينها مزر ، وهدم أسوار جميع المدن .

يرى الباحثون أن وصول الأكديين إلى الحكم كان نتيجة رد فعل ضد الاضطهادات الوحشية التي كان يمارسها الملك لوكال زاكيري ملك سومر " ملك الوركاء " ، الذي فرض حكماً بقبضة من حديد على بلاد الرافدين خلال ربع قرن .. وهكذا انتهى الحكم الاستبدادي على يد قائدنا الذي نحن الآن في صدده ، وعصره (عصر سرجون) كان بداية لعصر الدولة الأكدية وزوال دول المدن السومرية (عصر فجر السلالات).... حيث ظهر في هذا العصر تطبيق النظام المركزي وظهور أول دولة موحدة تضم جميع بلاد الرافدين .... واعتماد سرجون على القوات الأكدية في تكوين نخبته

العسكرية،كذلك برزت اللغات الأكدية كلغة رسمية للبلاد ، رغم أنه كان يولي احترما للغة السومريةومؤسساتها الدينية ...

وسقطت الإمبراطورية الأكدية بعد أن استمرت ٢٠٠ عام وبعد موت سرجون وضعف الدولة وكثرة النزاعات الداخلية والحقد الدفين على هذه الإمبراطورية من قبل شعوب الأرض (العالم القديم حينها) ... فسقطت على يد الكوتيين وهم أقوام جبال زاكروس المتاخمة لحدود العراق الشمالية الشرقية ولايعرف عن أصلهم ولغتهم شيء يذكر وهم من الأقوام الهمجية الوحشية .. حيث استمرت سيطرتهم بحدود قرن ، اتصفت فترتهم بالظلام الحضاري وعدم الاستقرار السياسي .. وتعتبر هذه أول فترة مظلمة في تاريخ بلاد مابين النهرين .

كل ماتقدم يكاد يكون معروفا للمتتبعين في هذا المجال ... لكن نتائج بحوث واكتشافات عالم الآثار المسمى (أ. وادل) والتي تعتبر من النتائج التي هزت العالم واوردها بشكل مختصر عرفت العالم من هو سرجون الأكدي ... قالت : كان يسمى سرجون العظيم وكذلك Gin وهو والد " منس " أبو الفراعنة في مصر وأول فرعون مصري والذي كان يطلق على نفسه "ملك أربع جهات العالم " وآثار إمبراطوريته الكبيرة الممتدة من وادي السند شرقاً إلى الجزر البريطانية غرباً !! .... وتعتبر إمبراطوريته أكبر من إمبراطورية الإسكندر المقدوني أو الإمبراطورية الرومانية ...

وقد جعله ذلك جديراً بأن يلقب نفسه إمبراطور العالم حيث كان كذلك بالفعل ، ومن خلال فتوحاته وهذه التوسعات تمكن من نشر الحضارة السومرية بسرعة لكافة دول العالم القديم ... وهذا كان الأساس في بناء حضاراتهم فيما بعد وكانت النتيجة الحضارة الرومانية والإغريقية والمصرية .

(هذه جميعها نتائج عالم الآثار أوادل)

ويكمل .. ومن ضمن فتوحاته للغرب فتحه أو إعادة فتح مصر وضمها إلى إمبراطوريته الكبيرة ،كذلك تقدم نحو غرب العالم وصولاً إلى مناجم القصدير البريطانية ، ماوراء البحر المتوسط ! ، ووجدت نقوشاته وأختامه هناك وبعض كتاباته مرة باسم سرجون ومرة باسم ملك الأرض ومرة باسم Gin وجميعا بلغة واحده ولشخص واحد وختم

واحد وتوضح الكتابات المكتشفة أنه سيطر على مناجم القصدير هناك في كورنوول .... وله الفضل في دخول بريطانيا العصر البرونزي بعد استيلائه على هذه المناجم وإدخال البرونز إلى بريطانيا !!!!

ويشير العالم (أ . وادل) ، على ان سرجون هو الفرعون الأول ما قبل السلالات الفرعونية المصرية وابنه منس هو الذي أسس السلالات الفرعونية .... وتوجد نقوشه وكتاباته في مدينة أبيدوس وحتى قبره هناك .... وكان وقتها يطلق على مصر مزر وكان يعتبرها مدينة من مدن إمبراطوريته العظيمة .... ويشير العالم أن نقوشه وكتاباته وجدت حتى في الهند ويلقب نفس ملك الأرض كذلك وإمبراطور العالم ....

واختار إقامته الأخيرة قبيل موته وأوصى في دفنه في المقبرة الملكة التي بناها في مصر .... وبالفعل تم العثور على قبره هناك وقبر ملكته ...

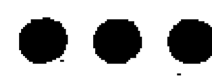
و كان وصول الأكديين إلى الحكم قد جاء على أكثر احتمال نتيجة رد فعل مدبر ضد الاضطهادات الوحشية التي مارسها(لوكال زاكيزي السومري) ملك الوركاء والذي بسط في حوالي سنة ٢٥٠٠ق.م حكمه الحديدي على كل بلاد ما بين النهرين وعلى مدى ربع قرن من الحكم، وفي النهاية ينتهي حكم هؤلاء الملوك على يد ضابط أكدي كان أبوه من أصل وضيع، وعن تفاصيل ظروف المعركة التي خاضها ما زالت مبهمة بعض الشيء ولحد الآن ولقد أقدم هذا الضابط الثائر على أن يحبس لوكال في قفص وأن يعرضه أمام الناس عند بوابة معبد(انليل في نفر).

وقد اتخذ اسما جديدا له هو(شروكينو- الملك الشرعي) لكنه عرف في التاريخ باسم(سرجون الأكدي أو أكادي) وذلك بقصد ربطه بالأرض وبالعرق الذي انحدر منه، ولكي يضع الختم على نجاحه وانتصاراته، عزم الملك أن يؤسس له مدينة جديدة ويجعلها عاصمة له وكانت تلك هي مدينة(آكد) التي لم يحدد الأثريون حتى الآن موقعها على وجه التأكيد.

لقد سقطت مملكة لوكال السومري كلها في يدي سرجون الأكدي الذي جعل لقبه الكامل زعيم وسيد جهات العالم الأربع، ونعني بذلك مملكة عمورو في الغرب و شوبرتو في الشمال و سومر وأكد في الجنوب وعيلام في الشرق، كما لايدع الرأس البرونزي الذي

اكتشف في نينوى والذي يمكن تشخيصه بكل صواب بأنه هو مؤسس السلالة الحاكمة نفسه أي مجال للشك ذلك أن خوذة(مسكلامدوك) من أور لم يتم تحديدها بدقة وان هذا الرأس البرونزي بحد ذاته يبرهن على أن حاكم أكد كان قد صمم على أن يحمي تراثه الفني فهناك مسلة من حجر(الديورايت) تضم مشاهد نحتت بالطريقة السومرية وقد رتبت المشاهد في صفوف على غرار ما كانت عليه في عهد(أناتم) ولكن في عهد حكم(ريموش) بن سرجون الذي ارتقى العرش بعد وفاة والده، بدأوا يقطعون صلتهم ولو في نطاق محدود بالتقاليد القديمة، ففي متحف اللوفر بعض الكسر الكبيرة من مسلة تخلد إحدى المعارك أيضا، فهي تحتفظ بالتقييم المعتاد في ترتيب الأشرطة أحدها فوق الآخر، ولكن حدث تغيير ملحوظ في تنظيم الشخوص فبدلا من أن يتم جمعهم في الكتيبة المرصوصة من السومريين كان الرجال المحاربون من الأكديين يتحركون في تشكيلات أكثر تفككا، كذلك كانت اسلحتهم وتجهيزاتهم متباينة فهم أكثر خفة في ملبسهم وأقل تباطأ في حركتهم وقد تسلحوا بالقسي والنبال. ولابد وأن كان لهذه الاسلحة تأثيرها في المسافات البعيدة فهذه المسلة التي وجدت في(تلو) وإن كانت محطمة إلا أنها توضح الطريق فعلا أمام مسلة(نرا سين) ولقد كان نرام سين حفيد سرجون واحدا من أعظم الحكام الشرقيين كان له قصر في(تل براك) في منطقة الخابور، قاد جيوشه في حملات عسكرية ظافرة عديدة، خلدها أحيانا في مواقعها مثال ذلك(في بير-حسين في أعماق كردستان إلى الشمال الشرقي) من ديار بكر، غير أن النصب الذي خلد نرام سين، هو المسلة الكبرى المحفوظة في متحف اللوفر والتي أقيمت بالأصل في(سبار) مدينة الإله(شمش) لكنها اكتشفت في(سوسه) التي نقلت إليها ضمن أسلاب الحرب بعد حوالي ألف سنة.

لقد ترك الأكديون طابعا لايمحى على النحت المجسم ذلك أن تقليدهم قد حافظ على ذاته خلال المرحلة السومرية الجديدة التي أعقبت ذلك، بل حتى الأزمان التي عاصرت حكم سلالتي(ابسين ولارسا) في هذا الطوفان الفني العظيم يحتل النقش على الحجر مكانة مرموقة لأن الأكديين أنتجوا لنا طائفة متعددة من الآلهة النشطة صورت بغنى في التفصيل، غير أن تفسير هذه المشاهد الغامضة يبقى غير مضمون بصفة حقيقية فيما عدا(أسطورة كلكامش وإيتانا) يندر أن يلقى التقليد الأدبي أي ضوء على فن التصوير الديني الذي وجد له تعبييرا فيه.



٩

السلطان مراد الثاني
بطل معركة كوسوفا





يعود تاريخ انتشار الإسلام في شبه جزيرة البلقان إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، ويرجع الفضل في ذلك إلى العثمانيين وإلى ما بعد انتصارهم المجيد في معركة كوسوفا سنة ١٣٨٩/ ٧٩١هـ.

وتعتبر معركة كوسوفا من المعارك الكبرى الفاصلة في التاريخ – وهي أول مواجهة حاسمة بين المسلمين وبين المسيحيين الأرثوذكس في البلقان، وهي تمثل منعطفا حاسما في تاريخ منطقة البلقان والوجود الإسلامي فيها .

ودارت المعركة بين تحالف الجيش الصليبي الأرثوذكسي بقيادة الملك الصربي لازار من جانب، وبين الجيش العثماني المسلم، بقيادة السلطان مراد الثاني / ١٣٦٢ـ ١٣٨٩م/ من جانب آخر.

فمع دخول العثمانيين إلى شبه جزيرة البلقان وتوغلهم فيها ، وانتشار الإسلام على أيديهم في تلك المنطقة ، نشط الصرب – في الجانب الآخر – للتصدي لهم ، ولمجابهتهم، وكانوا أكثر القوى الأوروبية حساسية من وجودهم ، وأشدها تحمسا لقتالهم ، وسعيا لإخراجهم بالقوة ، وقد اعتبر الصرب أنفسهم – حينئذٍ – أنهم حماة الأرثوذكسية المسيحية في شرق أوروبا ، وعلى ذلك الأساس، شرعوا في الاستعداد ، وكونوا أول تحالف صليبي ضد المسلمين في البلقان ، ضم ما يزيد عن مائتي ألف مقاتل من الصرب والبوسنيين والبلغار وغيرهم.

وما لبث الصرب أن زحفوا بتلك القوات من الشمال ، وحينئذٍ كان الجيش العثماني قد أكمل استعداداته ، فزحف بدوره من الجنوب – بصورة أسرع من الجيش الصربي– والتقى الجمعان في سهل كوسوفا – إلى الشمال من مدينة بيريشتينا – يوم ٢٨ يوليو ١٣٨٩م، ليلتحم عشرات الآلاف من الجنود في معارك ضارية وطاحنة بكل ما تعنيه هذه الكلمات من معنى وكان الطابع الديني هو الغالب على شعارات وهتافات الطرفين في تلك المعركة (الملحمة) والتي انتهت بانتصار حاسم للأتراك العثمانيين المسلمين وهزيمة ساحقة ماحقة للصرب وحلفائهم والذين فقدوا في هذه المعركة زهرة شبابهم وكبار قادتهم وعلى رأسهم الأمير الصربي لازار ، ولم تقم لهم بعدها دولة لمدة خمسمائة عام.



مراد الثاني يقود الجيش ضد المجريين في كوسوفا .

وكان من نتائج معركة كوسوفا الفاصلة ، سقوط البلقان برمته في قبضة الدولة العثمانية– فيما بعد – وخضوع كوسوفا وصربيا والبوسنة والهرسك ومقدونيا ، للحكم العثماني ، وانتشار الإسلام على نطاق واسع بين شعوب هذه المنطقة– بدون أي ضغط أو إكراه – فقد كان العثمانيون قمة في التسامح الديني ولم يجبروا أحدا على تغيير دينه واعتناق الإسلام ، وكان شعارهم " لا إكراه في الدين " وكان لهذا الموقف مردود إيجابي كبير – في بداية الأمر - حيث دفع أهل البلقان إلى أن يعتنقوا الإسلام طوعا، وفي مقدمتهم الألبان والبوشناق – والذين دخلوا في دين الله أفواجا ، وحسن إسلامهم وعظم بلاؤهم في خدمة الإسلام ، وكانوا سندا وعونا للدولة العثمانية في قتال أعدائها ، وفي نشر الإسلام في أوروبا وفي غيرها .

وقد امتزج الألبان – ولاسيما في القرون الأولى من الفتح العثماني للبلقان - امتزاجا شبه كامل مع إخوانهم المسلمين من الأتراك وغيرهم ، وانخرطوا في سلك العمل في هذه الدولة الإسلامية كقادة وكولاة وتبوأوا مختلف الوظائف والمناصب السياسية والعسكرية ، بل وحتى كمستشارين وكتاب في بلاط السلطان العثماني نفسه، مستفيدين في ذلك من مبدأ المساواة الذي حاول العثمانيون تطبيقه – قدر جهدهم– على مواطنيهم المسلمين

أيا كان موطنهم ، وأيا كان جنسهم أو عرقهم أو لونهم ، فقد كان منهم في الدولة العثمانية القواد العظام مثل بالابان باشا – قائد من قواد فتح القسطنطينية – ومحمد على باشا ، والي مصر والداهية الانتهازي المشهور ، الخارج على الدولة العثمانية ، وكما كان منهم كبار الكتاب والشعراء ، والذين كانوا يؤلفون بلغات خمس : (الألبانية والبوسنية والعربية والتركية و الفارسية) ، مثل محمد عاكف أرسوى وسامي فراشري وغيرهم .

وفي عهد العثمانيين كانت ولاية كوسوفا أكبر الولايات العثمانية في رومليا (أوروبا) ، وقد اكتسبت أهمية إستراتيجية لوقوعها على الطريق التجارية إلى البلقان وتمتعت كثيرها من بقية أقاليم البلقان بأطول فترات السلم والاستقرار والرخاء وشهدت نهضة عمرانية إسلامية وما زال بعض تلك المنشآت قائماً حتى الآن.

قصة هذه المعركة تشير إلى بدايات الدولة العثمانية قوية، التي انتقلت من طور الإمارة إلى طور الدولة في أوربا بفضل سلاطينها الأقوياء الذين ألفوا الحياة الجادة، وانشغلوا بعظائم الأمور، وعنوا ببناء الدولة ومؤسساتها العسكرية والمدنية، ولم يكد ينقضي الثلث الأول من القرن العاشر الهجري حتى صارت الدولة العثمانية أكبر إمبراطورية في العالم، تمتد أراضيها عبر قارات آسيا وأوربا وافريقيا.

وكان من أعظم سلاطين الدولة العثمانية الذين شاركوا في مرحلة البناء والتأسيس مراد الثاني، تولى السلطنة في سنة (٨٢٤ هـ = ١٤٢١م) بعد وفاة أبيه محمد جلبي، ولم يزد عمره حين اعتلى عرش الدولة العثمانية عن ثمانية عشر عاما، شابا فتيا، يفيض حماسا وطموحا، ويتطلع إلى المزيد من القوة والنفوذ.

وما كاد مراد الثاني يعتلي السلطنة حتى كان على موعد مع القلاقل والثورات التي كادت تطيح به لولا أنه كان صلب العود قوي الإرادة، واثق النفس، لا تهزه العواصف والأعاصير، فقضى على ثورة عمه مصطفى جلبي الذي كان طامعا في السلطنة يرى نفسه جديرا بها أهلا لتولي مسئولياتها، وكان يقف وراءه الدولة البيزنطية التي كانت ترى في تزايد قوة العثمانيين خطرا داهما يهدد وجودها، ولذا لجأت إلى شغل الدولة العثمانية بالفتن والثورات حتى لا تلتفت إلى فتح القسطنطينية التي كان يحلم بها سلاطين آل عثمان.

وقضى مراد الثاني عدة سنوات يوجه ضربات موجعة لحركات التمرد في بلاد البلقان، ويعمل على توطيد أركان الحكم العثماني بها، وأجبر ملك الصرب "جورج رنكوفيتش" على دفع جزية سنوية، وأن يقدم فرقة من جنوده لمساعدة الدولة العثمانية وقت الحرب، ويزوجه ابنته "مارا"، ويقطع علاقاته مع ملك المجر، كما نجح السلطان مراد الثاني في فتح مدينة سلافيك اليونانية بعد أن حاصرها خمسة عشر يوما.

اشتبك السلطان مراد الثاني مع المجر بسبب ضلوعها في تحريض الصرب على الثورة على الدولة العثمانية، فتحرك إليها في سنة (٨٤٢هـ= ١٤٣٨م)، وأحدث بها خسائر فادحة، وعاد منها بسبعين ألف أسير على ما يقال.

وفي السنة التالية خرج جورج برنكوفتش أمير الصرب على طاعة الدولة العثمانية فخرج السلطان مراد في قواته وحاصر "بلجراد" عاصمة الصرب لمدة ستة أشهر لكنه لم ينجح في فتحها لبسالة المدافعين عنها، ثم اتجه إلى ترانسلفانيا بالنمسا وأغار عليها. وكان من شأن ذلك أن أعلن البابا أوجينيوس الرابع في سنة (٨٤٣هـ = ١٤٣٩م) قيام حملة صليبية ضد الدولة العثمانية، وسرعان ما تكون من وراء دعوة البابا حلف من المجر وبولندا والصرب، وبلاد الأفلاق وجنود البندقية، وقاد هذا الحلف القائد المجري "يوحنا هونياد"، وكان كاثوليكيا متعصبا هدفه في الحياة إخراج العثمانيين من البلقان ومن أوربا.

وقد نجح هذا القائد المجري في إلحاق هزيمة ساحقة بالعثمانيين سنة (٨٤٦ هـ = ١٤٤٢م) بعد أن قتل منهم عشرين ألفا بما فيهم قائد الجيش، وألزم من نجا منهم بالتقهقر إلى خلف نهر الدانوب. ولما بلغ السلطان خبر هذه الهزيمة أرسل جيشا من ثمانين ألف جندي تحت قيادة شهاب الدين باشا، للأخذ بالثأر وإعادة الاعتبار للدولة العثمانية، لكنه لقي هزيمة هو الآخر من "هونياد المجري" في معركة هائلة بالقرب من بلجراد.

وتوالت الهزائم بالسلطان؛ الأمر الذي جعله يعقد معاهدة للصلح لمدة عشر سنوات مع المجر في (٢٦ من ربيع الأول ٨٤٨ هـ= ١٣ من يوليو ١٤٤٤م) بمقتضاها تنازل السلطان عن الصرب، واعترف بجورج برانكوفتش أميرا عليها، وتنازل عن الأفلاق (رومانيا) للمجر. وبعد عودة السلطان إلى بلاده فجع بموت ابنه "علاء الدين" أكبر

أولاده، فحزن عليه وسئم الحياة فتنازل عن الحكم لابنه محمد الذي عرف فيما بعد بمحمد الفاتح وكان في الرابعة عشرة من عمره، وتوجه مراد الثاني إلى "مغنيسيا" في آسيا الصغرى ليقضي بقية حياته في عزلة وطمأنينة ويتفرغ للعبادة والتأمل.

أنعش تخلي السلطان مراد الثاني عن الحكم آمال الأوربيين في الانقضاض على الدولة العثمانية، ولم يكن مثل السلطان الصغير محمد الثاني أهلا لأن يتحمل أعباء مواجهة الحلف الصليبي، وبالفعل نقض ملك المجر المعاهدة بتحريض من مندوب البابا، الذي أقنعه بأنه في حل من القسم الذي تعهد به، وكان ملك المجر قد أقسم بالإنجيل وأقسم مراد الثاني بالقرآن على عدم مخالفتهما شروط معاهدة الصلح ما داما على قيد الحياة.

وعلى أنقاض المعاهدة قام حلف صليبي تكون من المجر وبولونيا وألمانيا وفرنسا والبندقية والدولة البيزنطية، وحشدوا جيشا ضخما.

تحركت هذه الحشود الضخمة نحو الدولة العثمانية، ونزلت إلى ساحل البحر الأسود واقتربت من "فادنا" البلغارية الواقعة على ساحل البحر، وفي الوقت الذي كان تجري فيه هذه التحركات كان القلق والفزع يسيطر على كبار القادة في "أدرنة" عاصمة الدولة العثمانية، ولم يكن السلطان الصغير قادرا على تبديد هذه المخاوف والسيطرة على الموقف وانتزاع النصر من أعداء الدولة؛ من أجل ذلك اجتمع مجلس شورى السلطنة في "أدرنة"، واتخذ قرارا أبلغه إلى السلطان محمد الثاني، نصه: "لا يمكننا مقاومة العدو، إلا إذا اعتلى والدك السلطان مكانك.. أرسلوا إلى والدكم ليجابه العدو وتمتعوا براحتكم، تعود السلطنة إليكم بعد إتمام هذه المهمة".

وعلى الفور أرسل محمد الثاني في دعوة أبيه مراد الثاني الموجود في مغنيسيا، غير أن السلطان مراد أراد أن يبعث الثقة في نفس ولده، فبعث إليه قائلا: إن الدفاع عن دولته من واجبات السلطان.. فرد عليه ابنه بالعبارات التالية: "إن كنا نحن السلطان فإننا نأمرك: تعالوا على رأس جيشكم، وإن كنتم أنتم السلطان فتعالوا ودافعوا عن دولتكم".

أسرع السلطان مراد الثاني في السير إلى "فارنا" في اليوم الذي وصل فيه الجيش الصليبي، وفي اليوم التالي نشبت معركة هائلة، وقد وضع السلطان مراد المعاهدة التي

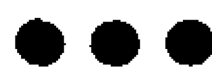
نقضها أعداؤه على رأس رمح ليشهدهم ويشهد السماء على غدر العدو، وفي الوقت نفسه يزيد من حماس جنده.

وبدأت المعركة بهجوم من "هونياد" قائد الجيش الصليبي على ميمنة الجيش العثماني وجناحه الأيسر، وترك السلطان مراد العدو يتوغل إلى عمق صفوف جيشه، ثم أعطى أمره بالهجوم الكاسح، فنجحت قواته في تطويق العدو، واستطاعت قتل ملك المجر "لاديسلاس" ورفعت رأسه على رمح وكان لهذا أثر مفزع في نفوس العدو حين رأوا رأس ملكهم مرفوعة على أحد الرماح، فاضطربت صفوفهم وتهاوت قواهم وخارت عزائمهم، ولم يلبث أن هرب القائد المجري "هونياد" تاركا جنوده تقع في الأسر، وقد بلغ عددهم ما بين ثمانين إلى تسعين ألف جندي، وتم هذا النصر في (٢٨ من رجب ٨٤٨هـ= ١٠ من نوفمبر ١٤٤٤م)، وفرح المسلمون بهذا النصر، ولم يقتصر الاحتفال به على تركيا وحدها، بل امتد إلى العالم الإسلامي.

مضت أربع سنوات على انتصار العثمانيين في "فارنا" لكن الألم كان يعتصر قلب "هونياد"، ورغبة الثأر تأكل قلبه، يريد الانتقام ومحو آثار هزيمته وهروبه من ساحة القتال، فقام بتجهيز الحملة الصليبية السادسة ضد العثمانيين، اشترك فيها مائة ألف جندي من المجر وألمانيا وبولونيا وصقلية، ونابولي، وتألف الجيش من ٣٨ كتيبة، معظمها لا تعرف لغة الأخرى.

تقدم هذا الجيش الجرار حتى صحراء كوسوفا والتقى بالجيش العثماني الذي كان يقوده مراد الثاني، واستمر اللقاء ثلاثة أيام، بدءا من (١٨ من شعبان ٨٥٢ هـ = ١٧ من أكتوبر ١٤٤٨م)، وفي اليوم الثالث نجح السلطان مراد في محاصرة العدو الذي أنهكه التعب وضربات القوات العثمانية المتتالية، وأغلق أمامه طريق العودة.

عجز "هونياد" عن المقاومة، حتى إذا حل الظلام تمكن من الهرب، تاركا خلفه ١٧ ألف قتيل وعشرات الآلاف من الأسرى، وأعاد هذا النصر ذكرى انتصار السلطان مراد الأول على "لازار" ملك الصرب في هذا المكان سنة (٧٩١ هـ = ١٣٨٩م) أي قبل ٥٩ عاما من النصر الثاني، كما قضى على آمال الأوربيين في إخراج العثمانيين من بلاد البلقان لعصور طويلة.



١٠

محمد الفاتح .. بطل معركة القسطنطينية
وقصة البشارة النبوية





بدأ التفكير في فتح القسطنطينية يراود خيال خلفاء المسلمين منذ بداية العصر الأموي؛ فعندما ولي الخليفة "معاوية بن أبي سفيان" خلافة المسلمين كان في مقدمة الأهداف التي وضعها نصب عينيه فتح القسطنطينية، تلك المدينة الجميلة الساحرة، أشهر مدن الدولة البيزنطية وعاصمتها المتألقة.

وكان لموقع القسطنطينية المتميز أكبر الأثر في اتجاه أنظار المسلمين إلى فتحها، وانتزاعها من الإمبراطورية البيزنطية التي كانت مصدر قلق دائم للدولة الإسلامية، وضم تلك اللؤلؤة العزيزة إلى عِقْد الإمبراطورية الإسلامية الواعدة.

كانت مدينة القسطنطينية محط أنظار المسلمين بجمالها وبهائها، كأنها درة قد احتضنها خليج البسفور من الشرق والشمال، وامتدت من جهة الغرب لتتصل بالبر، وتطل أبراجها وحصونها في شموخ وكأنها تتحدى الطامعين فيها، وقد برزت أسوارها العالية من حولها في كل اتجاه فتتحطم عندها أحلام الغزاة وتنهار آمال الفاتحين.

وبرغم تلك الأسوار المنيعة والأبراج الحصينة التي شيدها أباطرة البيزنطيين حول المدينة، فإن ذلك لم يفتّ في عضد معاوية، ولم يثنه عن السعي إلى فتح القسطنطينية.. وبدأ معاوية يستعد لتحقيق حلمه الكبير.

استطاع معاوية في مدة وجيزة أن يجهز لأول حملة بحرية إلى القسطنطينية (سنة ٤٩ هـ = ٦٦٩م) حشد لها جيشا ضخما، وشارك فيها عدد كبير من الصحابة منهم "عبد الله بن عمر" و"عبد الله بن عباس" و"أبو أيوب الأنصاري" – رضي الله عنهم– وجعل عليها "سفيان بن عوف"، وأخرج معه ابنه "يزيد بن معاوية".

ولكن تلك الحملة لم يكتب لها النجاح؛ فقد حال سوء الأحوال الجوية وبرودة الجو الذي لم يعتدْه العرب دون استمرار المسلمين في الحصار الذي فرضوه على المدينة، بالإضافة إلى قوة تحصين المدينة التي حالت دون فتحها. وعادت الحملة مرة أخرى بعد أن استشهد عدد من المسلمين، منهم الصحابي الجليل "أبو أيوب الأنصاري".

ولكن معاوية لم ييئس، ولم يخبُ حماسه وإصراره على مواجهة هذا التحدي الجديد؛ فراح يعد لحملة جديدة، ومهد لذلك بالاستيلاء على عدد من الجزر البيزنطية في البحر المتوسط، مثل: جزيرة "كريت" وجزيرة "أرواد" في سنة (٥٤ هـ = ٦٧٤م).

وكان معاوية يهدف من وراء ذلك إلى أن تكون هذه الجزر محطات للأسطول الإسلامي عند خروجه لغزو القسطنطينية.

فرض المسلمون الحصار على المدينة المنيعة لدفعها إلى الاستسلام، واستمر الحصار من عام (٥٤ هـ = ٦٧٤م) إلى عام (٦٠ هـ = ٦٨٠م)، وتحمل المسلمون طوال تلك

السنوات السبع كثيرا من الصعاب، وواجهوا العديد من المشاق والأخطار حتى فاجأهم البيزنطيون بسلاح جديد لم يألفه المسلمون من قبل وهو "النار الإغريقية"، وهي عبارة عن مزيج كيميائي من الكبريت والنفط والقار، فكان البيزنطيون يشعلونه ويقذفون به سفن الأسطول الإسلامي فتحترق بالنار وهي في الماء؛ مما اضطر المسلمين في النهاية إلى رفع الحصار عن المدينة والعودة مرة أخرى إلى دمشق بعد أن احترق عدد كبير من السفن واستشهد عدد كبير من الجنود.

أحجم المسلمون فترة من الزمان عن محاولة فتح القسطنطينية لمناعتها وتحصنها، حتى جاء الخليفة الأموي "سليمان بن عبد الملك" فبدأ يجهز جيشا ضخما بلغ نحو مائة ألف جندي، وزوده بنحو ألف وثمانمائة سفينة حربية، وجعل على رأسه أخاه "مسلمة بن عبد الملك".

وانطلق مسلمة نحو القسطنطينية عام (٩٨ هـ = ٧١٧م) فحاصرها مدة طويلة، وبرغم تلك الاستعدادات الكبيرة والإمكانات الضخمة الهائلة التي توافرت للجيش، فإن تلك المدينة استعصت عليه، وعجز عن فتحها، فبعث مسلمة أحد رجاله، ويدعى سليمان على رأس جيش يستطلع الطريق عبر آسيا الصغرى.

وسار سليمان حتى بلغ عمورية فحاصرها مدة، وعلم أن "ليون" حاكم هذه المدينة يناهض الإمبراطور البيزنطي "تاود أسيوس" فأراد أن يخدعه ويستميله معه، ويغريه بعرش الإمبراطورية الرومانية، ولكن ليون تظاهر بمساعدته وأضمر في نفسه شيئا آخر، فدخل في مفاوضات مع المسلمين وطلب منهم رفع الحصار عن عمورية، ثم صحب جيش المسلمين قاصدا القسطنطينية، وأصبح ليون موضع ثقة المسلمين، فسمحوا له بأن يسبقهم إلى القسطنطينية.

وسرعان ما كشف "ليون" عن حقيقة نواياه عندما احتل العاصمة البيزنطية واستطاع الوصول إلى العرش الإمبراطوري مستغلا وصول الحملة الإسلامية إلى القسطنطينية، فأسرع بتحصين المدينة وتدعيم أسوارها وتقويتها لمواجهة الحصار الإسلامي المرتقب.

بدأ الحصار البحري لمدينة القسطنطينية في (١٩ من المحرم ٩٩هـ = أول سبتمبر ٧١٧م) وعندما وصل إليها مسلمة بجيشه ضرب عليها حصارا شديدا قاسيا، واستمر

حتى الشتاء، وتحمل المسلمون البرد القارس؛ حيث عانوا كثيرا؛ وجاء أسطول من مصر وآخر من شمال إفريقيا، كما وصلت نجدات برية أخرى.

وأخذ المسلمون يهاجمون المدينة مستخدمين النفط، واستعانوا بسلاح جديد أشبه بالمدفع، وأظهر المقاتلون شجاعة نادرة وفدائية فريدة.

وفي تلك الفترة التي اشتد فيها حصار المسلمين لمدينة القسطنطينية توفي الخليفة سليمان بن عبد الملك، وتولى بعده الخليفة "عمر بن عبد العزيز"، واستقر رأى الخليفة الجديد على سحب القوات الإسلامية المحاصِرة للقسطنطينية للإفادة منها في تأمين الدولة الإسلامية وتنظيمها قبل الاستمرار في الفتح والتوسع. وأرسل الخليفة في (١٢ من المحرم ١٠٠ هـ = ١٥ من أغسطس ٧١٨م) يطلب من مسلمة العودة بجيوشه وأساطيله إلى الشام بعد حصار دام اثني عشر شهرًا كاملة، بعد أن أدت دورها في إعزاز دولة الإسلام، وحمل البيزنطيين على التخلي عن أحلامهم وأطماعهم السابقة في استعادة أراضيهم التي انضوت تحت لواء الإمبراطورية الإسلامية الجديدة.

وبرغم كل تلك المحاولات لفتح القسطنطينية، والتي لم يكتب لها النجاح؛ فقد ظل الاستيلاء على هذه المدينة حلما يداعب خيال المسلمين، وأملا يراود نفوسهم، وأمنية تجيش في صدورهم حتى استطاع السلطان العثماني "محمد الفاتح" أن يحقق ذلك الحلم بعد عدة قرون من الزمان، ويفتح القسطنطينية في سنة (٨٥٧هـ = ١٤٥٣م).

نعم انتظر المسلمون أكثر من ثمانية قرون حتى تحققت البشارة النبوية بفتح القسطنطينية، وكان حلمًا غاليا وأملا عزيزا راود القادة والفاتحين لم يُخب جذوته مر الأيام وكر السنين، وظل هدفا مشبوبا يثير في النفوس رغبة عارمة في تحقيقه حتى يكون صاحب الفتح هو محل ثناء النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله: "لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش".

وقد بدأت المحاولات الجادة في عهد معاوية بن أبي سفيان وبلغ من إصراره على فتح القسطنطينية أن بعث بحملتين الأولى سنة ٤٩ هـ = ٦٦٦، والأخرى كانت طلائعها في سنة ٥٤ هـ = ٦٧٣م، وظلت سبع سنوات وهي تقوم بعمليات حربية ضد أساطيل الروم في مياه القسطنطينية، لكنها لم تتمكن من فتح المدينة العتيدة، وكان صمود المدينة

يزيد المسلمين رغبة وتصميما في معاودة الفتح؛ فنهض "سليمان بن عبد الملك" بحملة جديدة سنة (٩٩ هـ = ٧١٩م) ادخر لها زهرة جنده وخيرة فرسانه، وزودهم بأمضى الأسلحة وأشدها فتكا، لكن ذلك لم يعن على فتحها فقد صمدت المدينة الواثقة من خلف أسوارها العالية وابتسمت ابتسامة كلها ثقة واعتداد أنها في مأمن من عوادي الزمن وغوائل الدهر، ونامت ملء جفونها رضا وطمأنينة.

ثم تجدد الأمل في فتح القسطنطينية في مطلع عهود العثمانيين، وملك على سلاطينهم حلم الفتح، وكانوا من أشد الناس حماسا للإسلام وأطبعهم على حياة الجندية؛ فحاصر المدينة العتيدة كل من السلطان بايزيد الأول ومراد الثاني، ولكن لم تكلل جهودهما بالنجاح والظفر، وشاء الله أن يكون محمد الثاني بن مراد الثاني هو صاحب الفتح العظيم والبشارة النبوية الكريمة.

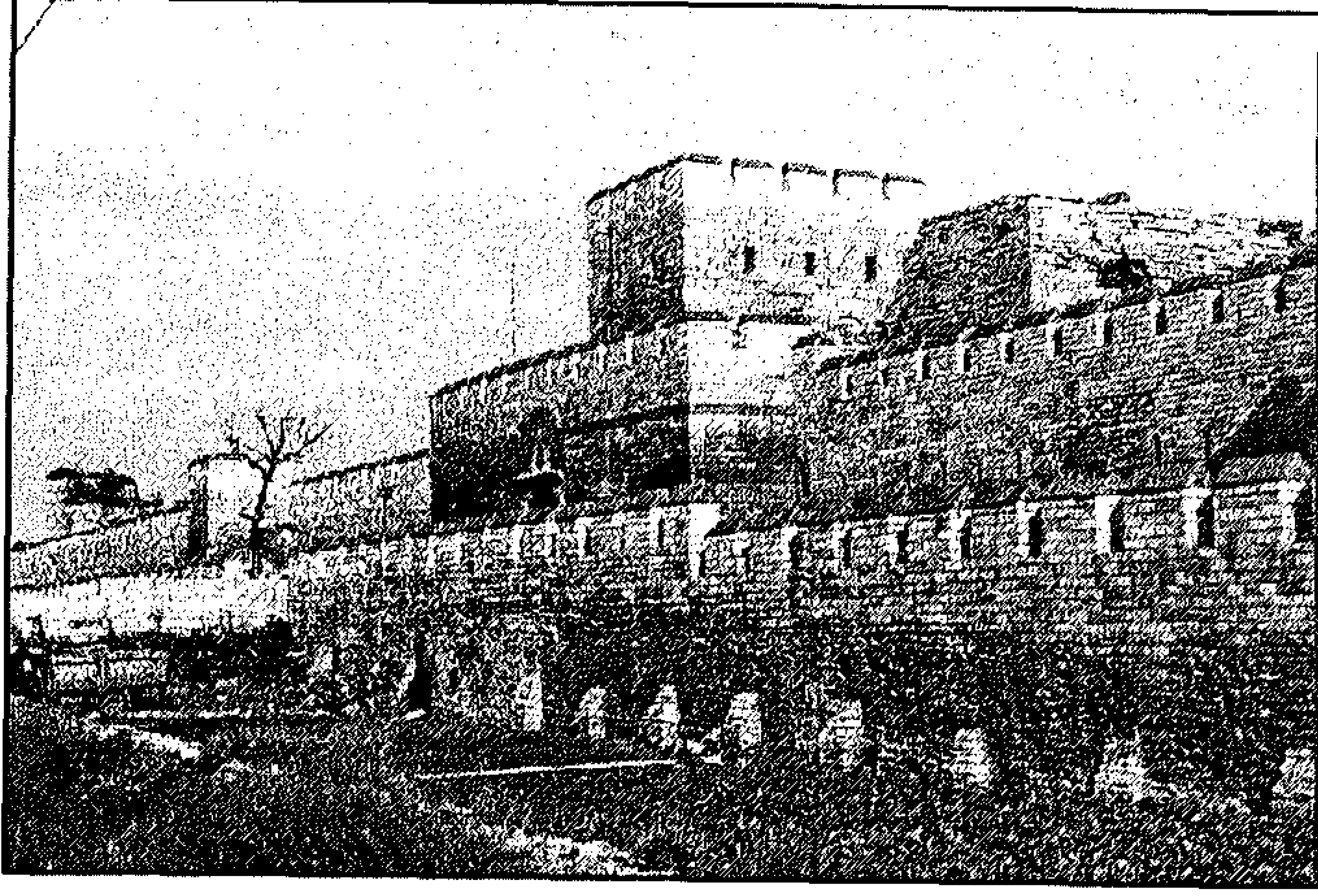
ولد السلطان محمد الفاتح في (٢٧ من رجب ٨٣٥ هـ= ٣٠ من مارس ١٤٣٢م)، ونشأ في كنف أبيه السلطان مراد الثاني سابع سلاطين الدولة العثمانية، الذي تعهده بالرعاية والتعليم؛ ليكون جديرا بالسلطنة والنهوض بتبعاتها؛ فحفظ القرآن وقرأ الحديث وتعلم الفقه ودرس الرياضيات والفلك، وأتقن فنون الحرب والقتال، وأجاد العربية والفارسية واللاتينية واليونانية، واشترك في الحروب والغزوات، وبعد وفاة أبيه في (٥ من المحرم ٨٥٥هـ = ٧ من فبراير ١٤٥١م) تولى الفاتح السلطنة فتى في الثانية والعشرين من عمره وافر العزم شديد الطموح.

كان السلطان بايزيد الأول قد أنشأ على ضفة البوسفور الآسيوية في أثناء حصاره للقسطنطينية حصنا تجاه أسوارها عُرف باسم قلعة الأناضول، وكانت تقوم على أضيق نقطة من مضيق البوسفور، وعزم محمد الفاتح أن يبني قلعة على الجانب الأوروبي من البوسفور في مواجهة الأسوار القسطنطينية، وقد جلب لها مواد البناء وآلاف العمال، واشترك هو بنفسه مع رجال دولته في أعمال البناء، وهو ما ألهب القلوب وأشعل الحمية في النفوس، وبدأ البناء في الارتقاع شامخ الرأس في الوقت الذي كان فيه الإمبراطور قسطنطين لا يملك وقف هذا البناء، واكتفى بالنظر حزنا وهو يرى أن الخطر الداهم سيحدق به دون أن يملك من دفعه شيئا.

ولم تمض ثلاثة شهور حتى تم بناء القلعة على هيئة مثلث سميك الجدران، في كل زاوية منها برج ضخم مغطى بالرصاص، وأمر السلطان بأن ينصب على الشاطئ مجانيق ومدافع ضخمة، وأن تصوب أفواهها إلى الشاطئ، لكي تمنع السفن الرومية والأوروبية من المرور في بوغاز البوسفور، وقد عرفت هذه القلعة باسم "روملي حصار"، أي قلعة الروم.

توسل الإمبراطور قسطنطين إلى محمد الفاتح بالعدول عن إتمام القلعة التي تشكل خطرًا عليه، لكنه أبي ومضى في بنائه، وبدأ البيزنطيون يحاولون هدم القلعة والإغارة على عمال البناء، وتطورت الأحداث في مناوشات، ثم لم يلبث أن أعلن السلطان العثماني الحرب رسميا على الدولة البيزنطية، وما كان من الإمبراطور الرومي إلا أن أغلق أبواب مدينته الحصينة، واعتقل جميع العثمانيين الموجودين داخل المدينة، وبعث إلى السلطان محمد رسالة يخبره أنه سيدافع عن المدينة لآخر قطرة من دمه.

وأخذ الفريقان يتأهب كل منهما للقاء المرتقب في أثناء ذلك بدأ الإمبراطور قسطنطين في تحصين المدينة وإصلاح أسوارها المتهدمة وإعداد وسائل الدفاع الممكنة، وتجميع المؤن والغلال، وبدأت تردد على المدينة بعض النجدات خففت من روح الفزع التي سيطرت على الأفئدة، وتسربت بعض السفن تحمل المؤن والغذاء، ونجح القائد الجنوبي "جون جستنياني" مع ٧٠٠ مقاتل محملين بالمؤن والذخائر في الوصول إلى المدينة المحاصرة؛ فاستقبله الإمبراطور قسطنطين استقبالا حسنًا وعينه قائدًا عامًا لقواته، فنظم الجيش وأحسن توزيعهم ودرب الرهبان الذي يجهلون فن الحرب تمامًا، وقرر الإمبراطور وضع سلسلة لإغلاق القرن الذهبي أمام السفن القادمة، تبدأ من طرف المدينة الشمالي وتنتهي عند حي غلطة.



أسوار القسطنطينية المنيعة التي اقتجمها بحسارة محمد الفاتح و حقق النصر.

كان السلطان محمد الثاني يفكر في فتح القسطنطينية ويخطط لما يمكن عمله من أجل تحقيق الهدف والطموح، وسيطرت فكرة الفتح على عقل السلطان وكل جوارحه، فلا يتحدث إلا في أمر الفتح ولا يأذن لأحد من جلسائه بالحديث في غير الفتح الذي ملك قلبه وعقله وأرقه وحرمه من النوم الهادئ.

وساقت له الأقدار مهندس مجري يدعى "أوربان"، عرض على السلطان أن يصنع له مدفعا ضخما يقذف قذائف هائلة تكفي لثلم أسوار القسطنطينية؛ فرحب به السلطان وأمر بتزويده بكل ما يحتاجه من معدات، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى تمكن أوربان من صنع مدفع عظيم لم يُر مثله قط، فقد كان يزن ٧٠٠ طن، ويرمي بقذائف زنة الواحدة منها ١٢ ألف رطل، ويحتاج جره إلى ١٠٠ ثور يساعدها مائة من الرجال، وعند تجربته سقطت قذيفته على بعد ميل، وسمع دويه على بعد ١٣ ميلا، وقد قطع هذا المدفع الذي سُمي بالمدفع السلطاني الطريق من أدرنة إلى موضعه أمام أسوار القسطنطينية في شهرين.

وصل السلطان العثماني في جيشه الضخم أمام الأسوار الغربية للقسطنطينية المتصلة بقارة أوروبا يوم الجمعة الموافق (١٢ من رمضان ٨٠٥هـ= ٥ من إبريل ١٤٥٣م) ونصب سرادقه ومركز قيادته أمام باب القديس "رومانويس"، ونصبت المدافع القوية البعيدة المدى، ثم اتجه السلطان إلى القبلة وصلى ركعتين وصلى الجيش كله، وبدأ

الحصار الفعلي وتوزيع قواته، ووضع الفرق الأناضولية وهي أكثر الفرق عددًا عن يمينه إلى ناحية بحر مرمرة، ووضع الفرق الأوروبية عن يساره حتى القرن الذهبي، ووضع الحرس السلطاني الذي يضم نخبة الجنود الانكشارية وعددهم نحو ١٥ ألفًا في الوسط.

وتحرك الأسطول العثماني الذي يضم ٣٥٠ سفينة في مدينة "جاليبولي" قاعدة العثمانيين البحرية في ذلك الوقت، وعبر بحر مرمرة إلى البوسفور وألقى مراسيه هناك.

وهكذا طوقت القسطنطينية من البر والبحر بقوات كثيفة تبلغ ٢٦٥ ألف مقاتل، لم يسبق أن طُوقت بمثلها عدة وعتادًا، وبدأ الحصار الفعلي في يوم الجمعة الموافق (١٣ من رمضان ٨٠٥هـ = ٦ من إبريل ١٤٥٣م)، وطلب السلطان من الإمبراطور "قسطنطين" أن يسلم المدينة إليه وتعهد باحترام سكانها وتأمينهم على أرواحهم ومعتقداتهم وممتلكاتهم، ولكن الإمبراطور رفض؛ معتمدًا على حصون المدينة المنيعة ومساعدة الدول النصرانية له.

تحتل القسطنطينية موقعا منيعا، حبته الطبيعة بأبدع ما تحبو به المدن العظيمة، تحدها من الشرق مياه البوسفور، ويحدها من الغرب والجنوب بحر مرمرة، ويمتد على طول كل منها سور واحد. أما الجانب الغربي فهو الذي يتصل بالقارة الأوروبية ويحميه سوران طولهما أربعة أميال يمتدان من شاطئ بحر مرمرة إلى شاطئ القرن الذهبي، ويبلغ ارتفاع السور الداخلي منهما نحو أربعين قدمًا ومدعم بأبراج يبلغ ارتفاعها ستين قدما، وتبلغ المسافة بين كل برج وآخر نحو مائة وثمانين قدما.

أما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه خمسا وعشرين قدما، ومحصن أيضا بأبراج شبيهة بأبراج السور الأول، وبين السورين فضاء يبلغ عرضه ما بين خمسين وستين قدما، وكانت مياه القرن الذهبي الذي يحمي ضلع المدينة الشمالي الشرقي يغلق بسلسلة حديدية هائلة يمتد طرفاها عند مدخله بين سور غلطة وسور القسطنطينية، ويذكر المؤرخون العثمانيون أن عدد المدافعين عن المدينة المحاصرة بلغ أربعين ألف مقاتل.

بعد ما أحسن السلطان ترتيب وضع قواته أمام أسوار القسطنطينية بدأت المدافع العثمانية تطلق قذائفها الهائلة على السور ليل نهار لا تكاد تنقطع، وكان دوي اصطدام القذائف بالأسوار يملأ قلوب أهل المدينة فزعا ورعبا، وكان كلما انهدم جزء من الأسوار

بادر المدافعون عن المدينة إلى إصلاحه على الفور، واستمر الحال على هذا الوضع.. هجوم جامح من قبل العثمانيين، ودفاع مستميت يبديه المدافعون، وعلى رأسهم جون جستنيان، والإمبراطور البيزنطي.

وفي الوقت الذي كانت تشتد فيه هجمات العثمانيين من ناحية البر حاولت بعض السفن العثمانية تحطيم السلسلة على مدخل ميناء القرن الذهبي واقتحامه، ولكن السفن البيزنطية والإيطالية المكلفة بالحراسة والتي تقف خلف السلسلة نجحت في رد هجمات السفن العثمانية، وصبت عليها قذائفها وأجبرتها على الفرار.

وكانت المدينة المحاصرة تتلقى بعض الإمدادات الخارجية من بلاد المورة وصقلية، وكان الأسطول العثماني مرابطا في مياه البوسفور الجنوبية منذ (٢٢ من رمضان ٨٠٥هـ = ١٥ من إبريل ١٤٥٣م)، ووقفت قطعة على هيئة هلال لتحول دون وصول أي مدد ولم يكد يمضي ٥ أيام على الحصار البحري حتى ظهرت ٥ سفن غربية، أربع منها بعث بها البابا في روما لمساعدة المدينة المحاصرة، وحاول الأسطول العثماني أن يحول بينها وبين الوصول إلى الميناء واشتبك معها في معركة هائلة، لكن السفن الخمس تصدت ببراعة للسفن العثمانية وأمطرتها بوابل من السهام والقذائف النارية، فضلا عن براعة رجالها وخبرتهم التي تفوق العثمانيين في قتال البحر، الأمر الذي مكنها من أن تشق طريقها وسط السفن العثمانية التي حاولت إغراقها لكن دون جدوى ونجحت في اجتياز السلسلة إلى الداخل.

كان لنجاح السفن في المرور أثره في نفوس أهالي المدينة المحاصرة؛ فانتعشت آمالهم وغمرتهم موجة من الفرح بما أحرزوه من نصر، وقويت عزائمهم على الثبات والصمود، وفي الوقت نفسه أخذ السلطان محمد الثاني يفكّر في وسيلة لإدخاله القرن الذهبي نفسه وحصار القسطنطينية من أضعف جوانبها وتشتيت قوى المدينة المدافعة.

محمد الفاتح بطل معركة فتح القسطنطينية الذي آل على نفسه إلا أن يحقق البشارة النبوية .

واهتدى السلطان إلى خطة موفقة اقتضت أن ينقل جزءًا من أسطوله بطريق البر من منطقة غلطة إلى داخل الخليج؛ متفاديا السلسلة، ووضع المهندسون الخطة في الحال وبُدئ العمل تحت جنح الظلام وحشدت جماعات غفيرة من العمال في تمهيد الطريق الوعر الذي تتخلله بعض المرتفعات، وغُطي بألواح من الخشب المطلي بالدهن والشحم، وفي ليلة واحدة تمكن العثمانيون من نقل سبعين سفينة طُويت أشرعتها تجرها البغال والرجال الأشداء، وذلك في ليلة (٢٩ من رمضان ٨٠٥هـ = ٢٢ من إبريل ١٤٥٣م).

وكانت المدافع العثمانية تواصل قذائفها حتى تشغل البيزنطيين عن عملية نقل السفن، وما كاد الصبح يسفر حتى نشرت السفن العثمانية قلوعها ودقت الطبول وكانت مفاجأة مروعة لأهل المدينة المحاصرة.

وبعد نقل السفن أمر السلطان محمد بإنشاء جسر ضخم داخل الميناء، عرضه خمسون قدما، وطوله مائة، وصُفَّت عليه المدافع، وزودت السفن المنقولة بالمقاتلين والسلالم، وتقدمت إلى أقرب مكان من الأسوار، وحاول البيزنطيون إحراق السفن العثمانية في الليل، ولكن العثمانيين علموا بهذه الخطة فأحبطوها، وتكررت المحاولة وفي كل مرة يكون نصيبها الفشل والإخفاق.

استمر الحصار بطيئا مرهقا والعثمانيون مستمرون في ضرب الأسوار دون هوادة، وأهل المدينة المحاصرة يعانون نقص المؤن ويتوقعون سقوط مدينتهم بين يوم وآخر، خاصة وأن العثمانيين لا يفتئون في تكرار محاولاتهم الشجاعة في اقتحام المدينة التي أبدت أروع الأمثلة في الدفاع والثبات، وكان السلطان العثماني يفاجئ خصمه في كل مرة بخطة جديدة لعله يحمله على الاستسلام أو طلب الصلح، لكنه كان يأبى، ولم يعد أمام السلطان سوى معاودة القتال بكل ما يملك من قوة.

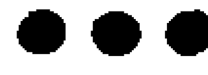
وفي فجر يوم الثلاثاء (٢٠ من جمادى الأولى ٨٥٧هـ= ٢٩ من مايو ١٤٥٣م)، وكان السلطان العثماني قد أعد أهبته الأخيرة، ووزَّع قواته وحشد زهاء ١٠٠ ألف مقاتل أمام الباب الذهبي، وحشد في الميسرة ٥٠ ألفًا، ورابط السلطان في القلب مع الجند الإنكشارية، واحتشدت في الميناء ٧٠ سفينة - بدأ الهجوم برًّا وبحرًا، واشتد لهيب المعركة وقذائف المدافع يشق دويها عنان السماء ويثير الفزع في النفوس، وتكبيرات الجند ترج المكان فيُسمع صداها من أميال بعيدة، والمدافعون عن المدينة يبذلون كل ما يملكون دفاعا عن المدينة، وما هي إلا ساعة حتى امتلأ الخندق الكبير الذي يقع أمام السور الخارجي بآلاف القتلى.

وفي أثناء هذا الهجوم المحموم جرح "جستنيان" في ذراعه وفخذه، وسالت دماؤه بغزارة فانسحب للعلاج رغم توسلات الإمبراطور له بالبقاء لشجاعته ومهارته الفائقة في الدفاع عن المدينة، وضاعف العثمانيون جهدهم واندفعوا بسلالمهم نحو الأسوار غير مبالين بالموت الذي يحصدهم حصدا، حتى وثب جماعة من الانكشارية إلى أعلى السور، وتبعهم المقاتلون وسهام العدو تنفذ إليهم، ولكن ذلك كان دون جدوى، فقد استطاع العثمانيون أن يتدفقوا نحو المدينة، ونجح الأسطول العثماني في رفع السلاسل الحديدية التي وُضعت في مدخل الخليج، وتدفق العثمانيون إلى المدينة التي سادها الذعر، وفر المدافعون عنها من كل ناحية، وما هي إلا ثلاث ساعات من بدء الهجوم حتى كانت المدينة العتيدة تحت أقدام الفاتحين.

ولما دخل محمد الفاتح المدينة ظافرا ترجل عن فرسه، وسجد لله شكرا على هذا الظفر والنجاح، ثم توجه إلى كنيسة "أيا صوفيا"؛ حيث احتشد فيها الشعب البيزنطي ورهبانه، فمنحهم الأمان، وأمر بتحويل كنيسة "أيا صوفيا" إلى مسجد، وأمر بإقامة

مسجد في موضع قبر الصحابي الجليل "أبي أيوب الأنصاري"، وكان ضمن صفوف الحملة الأولى لفتح القسطنطينية، وقد عثر الجنود العثمانيون على قبره فاستبشروا خيرًا بذلك.

وقرر الفاتح الذي لُقِّب بهذا اللقب بعد الفتح اتخاذ القسطنطينية عاصمة لدولته، وأطلق عليها اسم "إسلام بول" أي "دار الإسلام"، ثم حُرفت واشتهرت بـ "إستانبول"، وانتهج سياسة سمحة مع سكان المدينة، وكفل لهم حرية ممارسة عبادتهم، وسمح بعودة الذين غادروا المدينة في أثناء الحصار والرجوع إلى منازلهم، ومنذ ذلك الحين صارت إستانبول عاصمة للبلاد حتى سقطت الخلافة العثمانية في (٢٣ من رجب ١٣٤٢هـ= ١ مارس ١٩٢٤م)، وقامت دولة تركيا التي اتخذت من أنقرة عاصمة لها.



١١

معركة موهاكس.. أبادت جيشا
وحققت حلما وولَّدَتْ بطلا !!





ظهرت قوة إسبانيا كأعظم ما تكون في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني؛ فهي تملك أقوى الجيوش الأوربية وأكثرها كفاءة وقدرة على القتال، وأصبحت ماردًا يهدد الدولة العثمانية في البحر المتوسط حيث تهدد بلاد المغرب العربي، وفي وسط أوروبا حيث امتد نفوذها إلى ألمانيا بعد أن دخلت تحت تاج ملكها "شارل كوينت" الذي زاد من نفوذه زواج أخواته من ملوك البرتغال وفرنسا والدانمارك والنرويج والسويد والمجر؛ ولذلك أطلق على هذه الفترة من القرن السادس عشر الميلادي عهد شارل كوينت.

ولم يبق من ملوك أوربا خارج سيطرته وقبضته سوى إنجلترا، وفرنسا التي عزم ملكها على منازلة خصمه الإمبراطور شارل كوينت مهما كلفه الأمر، لكنه لم يقو على الصمود فخسر معه معركته، وسيق ذليلاً إلى مدريد حيث سجن في أحد قصورها، غير أن أم الملك الأسير "لويز سافوا" أرسلت إلى السلطان سليمان القانوني ترجوه تخليص ابنها من الأسر، فوجد السلطان في ذلك فرصة للانقضاض على شارل كوينت بعد أن صار معه حليف من الغرب الأوروبي، وامتلك مسوغًا للتحرك باسم الملف الفرنسي بصورة شرعية.

وكان ذلك أملاً يراود نفس السلطان لإعادة إسبانيا إلى سابق عهدها دولاً متفرقة لا دولة واحدة تهدد دولته، وكان السلطان قد عهد إلى خير الدين باربروسا بمهمة منازلة إسبانيا في البحر المتوسط ودفع خطرها فكفاه ذلك، وترك لنفسه مهمة منازلة إسبانيا في وسط أوروبا، وكان ينتظر الفرصة المناسبة للقيام بدوره، وما كادت تستنجد به أم الملك الفرنسي حتى استعد لتحقيق ما كان يصبو إليه.

ولما أفرج شارل كوينت عن الملك الفرنسي بعد شروط صعبة أجبره على قبولها في معاهدة مدريد في (٢٩ من ربيع الأول ٩٣٢هـ = ١٤ من يناير ١٥٢٦م)، عمد الملك الفرنسي إلى تقوية روابطه مع السلطان العثماني، وألح في طلب العون والمساعدة؛ لأن قواته العسكرية لم تكن كافية لمجابهة الملك الإسباني الذي انفتحت جبهته لملاقاة خصوم أشداء، فكان عليه أن يواجه سليمان القانوني، وخير الدين باربروسا، وفرانسوا الأول ملك فرنسا، ومارتن لوثر الذي تفاقمت دعوته وازداد أتباعه، وانتشر مذهبه البروتستانتي، وتمزقت بسببه الوحدة الكاثوليكية، وعجز الملك الإسباني عن القضاء على دعوته بعد أن دانت أقطار كثيرة بمذهبه، وانفصلت عن نفوذ البابا في روما.

وهكذا تهيأت الظروف للسلطان العثماني للقيام بضربته وتقليص نفوذ الملك الإسباني في المجر، وكانت إسبانيا أكبر كثيرًا مما هي عليه الآن؛ إذ كانت تتكون من اتحاد المجر وتشيكوسلوفاكيا السابقة، بالإضافة إلى الأقطار الشمالية ليوغسلافيا، مثل: سلوفينيا، وترانسلفانيا التي هي الآن تابعة لرومانيا.

سار السلطان سليمان من إستانبول في (١١ من رجب ٩٣٢هـ= ٢٣ من إبريل ١٥٢٦م) على رأس جيشه، الذي كان مؤلفًا من نحو مائة ألف جندي، وثلاثمائة مدفع وثمانمائة سفينة، حتى بلغ "بلجراد"، ثم تمكن من عبور نهر الطونة بسهولة ويسر بفضل الجسور الكبيرة التي تم تشييدها، وبعد أن افتتح الجيش العثماني عدة قلاع حربية على نهر الطونة وصل إلى "وادي موهاكس" بعد ١٢٨ يومًا من خروج الحملة، قاطعًا ١٠٠٠ كيلو من السير، وهذا الوادي يقع الآن جنوبي بلاد المجر على مسافة ١٨٥ كم شمال غربي بلجراد، و١٧٠ كم جنوبي بودابست. وكان في انتظاره الجيش المجري البالغ نحو مائتي ألف جندي، من بينهم ٣٨٠٠٠ من الوحدات المساعدة التي جاءت من ألمانيا، ويقود هذه الجموع الجرارة الملك "لايوش الثاني".

وفي صباح يوم اللقاء الموافق (٢١ من ذي القعدة ٩٣٢هـ= ٢٩ من أغسطس ١٥٢٦م) دخل السلطان سليمان بين صفوف الجند بعد صلاة الفجر، وخطب فيهم خطبة حماسية بليغة، وحثهم على الصبر والثبات، ثم دخل بين صفوف فيلق الصاعقة وألقى فيهم كلمة حماسية استنهضت الهمم، وشحذت العزائم، وكان مما قاله لهم: "إن روح رسول الله صلى الله عليه وسلم تنظر إليكم"؛ فلم يتمالك الجند دموعهم التي انهمرت تأثرًا مما قاله السلطان.

وفي وقت العصر هجم المجريون على الجيش العثماني الذي اصطف على ثلاثة صفوف، وكان السلطان ومعه مدافعه الجبارة، وجنوده من الإنكشاريين في الصف الثالث، فلما هجم فرسان المجر وكانوا مشهورين بالبسالة والإقدام أمر السلطان صفوفه الأولى بالتقهقر حتى يندفع المجريون إلى الداخل، حتى إذا وصلوا قريبًا من المدافع، أمر السلطان بإطلاق نيرانها عليهم فحصدتهم حصدًا، واستمرت الحرب ساعة ونصف الساعة في نهايتها أصبح الجيش المجري في ذمة التاريخ، بعد أن غرق معظم جنوده في مستنقعات وادي موهاكس، ومعهم الملك لايوش الثاني وسبعة من الأساقفة، وجميع القادة الكبار، ووقع في الأسر خمسة وعشرون ألفًا، في حين كانت خسائر العثمانيين مائة وخمسين شهيدًا، وبضعة آلاف من الجرحى.

كانت معركة موهاكس من المعارك النادرة في التاريخ، حيث هُزم أحد أطرافها على هذا النحو من مصادمة واحدة وفي وقت قليل لا يتجاوز ساعتين، وترتب عليها ضياع

استقلال المجر بعد ضياع جيشها على هذه الصورة في هزيمة مروعة، وبعد اللقاء بيومين في (٢٣ من ذي القعدة ٩٣٢هـ= ٣١ من أغسطس ١٥٢٦م) قام الجيش العثماني بعمل استعراض أمام السلطان سليمان، وقام بأداء التحية له وتهنئته، وقام القادة بدءًا من الصدر الأعظم بتقبيل يد السلطان.

ثم تحرك الجيش نحو الشمال بمحاذاة ساحل الطونة الغربي حتى بلغ بودابست عاصمة المجر، فدخلها في (٣ من ذي الحجة ٩٣٢هـ= ١٠ من سبتمبر ١٥٢٦م)، وشاءت الأقدار أن يستقبل في هذه المدينة تهاني عيد الأضحى في سراي الملك، وكان قد احتفل بعيد الفطر في بلجراد في أثناء حملته الظافرة.

مكث السلطان في المدينة ثلاثة عشر يومًا ينظم شؤونها، وعين جان "زابولي" أمير ترانسلفانيا ملكًا على المجر التي أصبحت تابعة للدولة العثمانية، وعاد السلطان إلى عاصمة بلاده بعد أن دخلت المجر للدولة العثمانية وتقلص نفوذ الملك الإسباني.



١٢

أتيلا الهوني ..
بطل معركة شالون



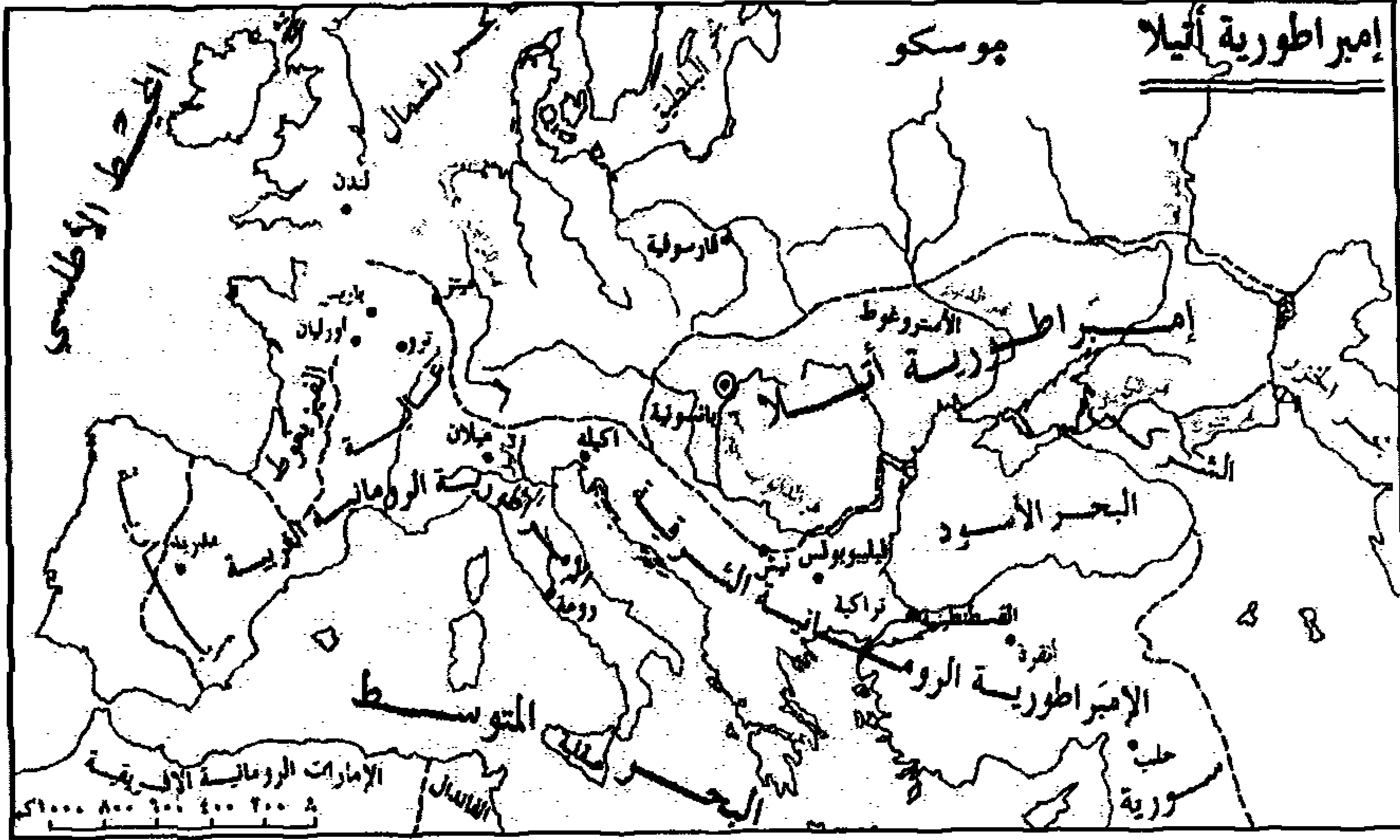


أتيلا

شعب الهون بقيادة أتيلا (في مقدمة الجهة اليمنى) في طريقهم إلى إيطاليا أتيلا الهوني ملك تركي قديم عاش ما بين العامين (٣٩٥-٤٥٣م) (Attila the Hun) كان آخر وأقوى حكام الهون والهون (HUNs) هم أجداد الأتراك . أسس في إقليم

روسيا و أوروبا إمبراطورية هائلة الاتساع ، عاصمتها في ما يسمى هنغاريا اليوم ، امتدت إمبراطوريته من نهر الفولغا شرقا و حتى شرقي باريس غرباً ومن نهر الدانوب جنوباً حتى بحر البلطيق شمالاً، وفرض الجزية على الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البزنطية) بعد أن غزا مدن البلقان مرتين، و حاصر القسطنطينية في اجتياحه الثاني لبيزنطة .

في عهده زحف إلى فرنسا حتى مدينة أورلينزو قد حاصرت جيوشه أيضاً مدينة باريس. و لذلك فقد أسرع الإمبراطور الروماني الغربي فالينتيان الثالث من عاصمته في عام ٤٥٢م و شكل ضد أتيلا تحالفاً عسكريّاً عظيماً من الرومان وكثير من القبائل الجرمانية و خاصة القوط الغربيين أملاً في إيقاف سيله الجارف نحو جنوب فرنسا، وفعلاً فقد وقعت معركة شرسة بين أتيلا و التحالف الروماني-الجرماني ضده في معركة من أعظم معارك التاريخ القديم و أشدها هولاً وهي معركة شالون خسر فيها أتيلا خسارة جزئية ، فقام بالانسحاب ليلاً من فرنسا نحو ألمانيا ، ليعود في العام القادم بحملة عسكرية عنيفة على إيطاليا (عقر بيت الرومان) ويجتاح أتيلا شمال إيطالياً و تسقط أمام جيوشه الباسلة مدنها تباعاً و قد بدا أن أتيلا سيتوجه جنوباً نحو روما، فلم يكن أمام الإمبراطور الروماني السابق الذكر سوى أن يرسل بابا روما آنذاك " البابا ليو الأول " كي يتوسل أمام أتيلا مقدماً له الهدايا الثمينة والأموال كي يرجع عن روما ، وفعلاً و تحت ظروف انتشار الطاعون في الإقليم ، قرر أتيلا أن يسحب جيوشه في عامه هذا و أن يقبل الهدايا التي قدمها له بابا روما. و لكن بعد شهور من حملته هذه يسارع الموت إلى أتيلا في ليلة زفافه على عروسه الجرمانية هيلديكو ، ويصبح ميتا بعد إصابته بنزيف حاد، مما أثار شكوكاً في عروسه الجرمانية (الألمانية) أن تكون قد دست له سمّاً في شرابه .. ولا سيما أنها كانت سبية من إحدى حملاته القاسية على الجرمان في الشمال .



وتبدو في أتيلا الصفات المميزة لشعبه فكان قصير القامة عريض الصدر داكن البشرة ضخم الرأس غائر العينين أفطس الأنف. لا يتميز في ثيابه عن رعيته إلا بالنظافة، وكان حريصاً على العدل بين أتباعه، هادئاً متزناً، ولكنه مخيف عندما يغضب. هداه ذكاؤه الفطري إلى ترك أتباعه يتمتعون بحياة مترفة أكثر مما أباحه لنفسه، ليدفعهم إلى تقديم أقصى ما باستطاعتهم في الحرب. وكان كذلك دبلوماسياً بارعاً في تقديم البراهين على صحة آرائه مما قلل الشعور عند بعض معاصريه بأنه بلاء الإله كما أشاع هو عن نفسه.

ويعد أتيلا النموذج الأول لزعيم بدائي قدم من السهوب ليقيم أول إمبراطورية بدوية في أواسط أوربة وقد ألهم جنكيز خان وتيمور لنك فكرة سيادة العالم والاستعلاء على الحكام، وتطبيق أسلوب القتل الشامل للأعداء، والاستعانة بالمهزومين من الأسرى لتحقيق انتصارات جديدة. وقد ثار الجرمان الخاضعون للهون بعد وفاته، فاستقل الأستروغوط (القوط الشرقيون) في بانونية والجيبيد في داسية (٤٥٤). واضطرت أغلبية الهون إلى الارتداد إلى سهوب شمال البحر الأسود حيث أخذت الدبلوماسية البيزنطية تعمل على تأليب بعضهم على بعض حتى قدوم الآفار Avares الآسيويين فأخضعوهم.

دفعت حركات الهون في أوربا بعض الجرمان إلى اللجوء إلى الأراضي الرومانية. وأسهمت في اتفاق الشعبين لدفع العدو المشترك. وتوقف استعمال الدانوب طريقاً للتجارة مدة طويلة لتكرر غارات الهون على الأراضي البيزنطية في أوربا الشرقية. وأدى استقرارهم هناك واختلاطهم بالسكان إلى ظهور الملامح المغوليةعلى بعض هؤلاء. وأثارت أعمال أتيلا الخارقة في قسوتها خيال الكتاب الجرمان في العصر الوسيط فظهرت أناشيد النيبلونغن Nibelungen الملحمية التي استمدت بعض أحداثها من أعمال بطل أسطوري رهيب يدعى إتزل Etzel (الشكل الجرماني لاسم أتيلا) . وأوحت مقابلته البابا للرسام الإيطالي رافائيلو موضوع لوحة في قصر الفاتيكان يظهر فيها أتيلا مبهوراً من ليون الأول وأرديته الكهنوتية.



١٣

نبوخذ نصر الثاني .. بطل معركة تطهير القدس من اليهود !!





نبوخذ نصر الثاني أو بختنصر أو بختتصر الكلداني هو نبوخذنصر بن نبوبلانصر ملك من ملوك بابل قاد الجيوش البابلية في معارك حاسمة ضد الجيوش المصرية وهزمها سنة ٦٠٩ ق.م و ٦٠٥ ق.م. عندما كان وليا للعهد، وسيطر على منطقة بلاد الشام ودمر عدة ممالك منها مملكة يهوذا في حملتين و سبا الكثيرين من سكان منطقة بلاد الشام إلى بابل.

اشتهر بناشطاته العمرانية في مدينة بابل بصورة خاصة، فأكمل عمل والده في إعادة إعمارها بعد أن خربت على يد " سنحاريب " و" اشوربعل " وكذلك توالى عمليات

التمرد و قد بنى الجنائن المعلقة في مدينة بابل لزوجته التي كانت تحن إلى موطنها الجبلي وهو العمل الذي قد خلد بجعله أحد عجائب الدنيا السبعه.والمعابد القديمة أعيدت جديدة في صروح في غاية الروعة نصبت لكثير من الآلهة البابليةوكذلك شهدت باقي مدن بلاد الرافدين الكثير من هذه الأعمال مثل بناء ميناء على الخليج العربى بالإضافة إلى تاسيس المدن وبناء التحصينات جهة الشمال.

يعتبر نبوخذ نصر قائدا عالميا عبر التاريخ ، كان يستفيد كثيراً باستخدام الشعوب التي يحتلها مستخدماً ذكاءه ، كان يستنفد كل الإمكانيات البشرية والمادية للشعوب التي يستولى عليها لحد التحكم بحياتهم ،إلا أنه امتاز بالديمقراطية وحرية الفكر وكان يسمح للشعوب المحتلة أن تعبد آلهتها، وكان يشارك الشعوب طقوسهم الدينية ويحترم آلهتهم، يعتبر أعظم ملوك بابل وقد اشتهر بلقب (مقيم المدن) فقد كان فاتحا للمدن لا غازياً، وقد امتاز بأنه يعتمد على مشورة مستشاريه وقد اعترف بمقولته المشهورة ((الكبرياء الزائدة مدمرة للنفس)).

نبوخذ نصر الثاني هو نبوخذنصر بن نبوبولصر ملك من ملوك بابل ويقال إنه كان قائد جيوشها كان لديه جيش قوي جدا قام بغزو القدس وإخراج اليهود منها وسبيهم ونسائهم وأولادهم وأخذ ثرواتها وأموالها معه وهنا كانت نهاية مملكة اليهود. لقد عاصر الملك نبوخذ نصر عدد من أنبياء اليهود ومنهم أرميا وحزقيال ودانيال ويهويا قيم ويهويا كين .

تعرف على الإله الواحد يوم غزى دولة يهوذا في جنوب فلسطين وقد بارك الله الملك نبوخذ نصر وكان يقوده من انتصار إلى أعظم ، يعتبر أعظم ملوك بابل وقد ساهم في نشر ديانة التوحيد ولكن من نقاط ضعفه إنه ظن نفسه شبه إله وقد دعاه حاشيته لعمل تمثال من الذهب ليسجد له الجميع فاغتر حتى وصل إلى نوبة من الجنون أبعدته عن العرش سبع سنوات ولكنه عاد إلى عقله وإلى توحيد الله فكانت الآية التوراتية بحقه "فالآن أنا نبوخذ نصر، أسبح وأمجد وأحمد ملك السماء الذي جميع أعماله حق، وطرقه عادلة، وقادر على إذلال كل من يسلك بالكبرياء "(دانيال ٤:٣٧)

حلم نبوخذ نصر حلما وأزعجته أفكاره فطلب من حكماء بابل أن لا أن يفسروا له الحلم فقط بل أن يحكوا له الحلم ولما عجز الحكماء طبعا في أن يخبروه بالحلم قرر أن يبيدهم لولا دانيال اليهودى المسبى الذى صلى إلى الرب إلهه والرب أخبره بالحلم وبتفسيره وهذا الحلم عبارة عن أعجوبه وإليك القصة كلها من سفر دانيال الإصحاح الثانى

١- وَفِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ مُلْكِ نَبُوخَذْنَصَّرَ، حَلَمَ نَبُوخَذْنَصَّرُ أَحْلاَمًا، فَانْزَعَجَتْ رُوحُهُ وَطَارَ عَنْهُ نَوْمُهُ.

٢- فَأَمَرَ الْمَلِكُ بِأَنْ يُسْتَدْعَى الْمَجُوسُ وَالسَّحَرَةُ وَالْعَرَّافُونَ وَالْكَلْدَانِيُّونَ لِيُخْبِرُوا الْمَلِكَ بِأَحْلاَمه. فَأَتَوْا وَوَقَفُوا أَمَامَ الْمَلِكِ.

٣- فَقَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ: «قَدْ حَلَمْتُ حُلْمًا وَانْزَعَجَتْ رُوحِي لِمَعْرِفَةِ الْحُلْمِ».

٤- فَكَلَّمَ الْكَلْدَانِيُّونَ الْمَلِكَ بِالأَرَامِيَّةِ: «عِشْ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِلَى الأَبَدِ. أَخْبِرْ عَبِيدَكَ بِالْحُلْمِ فَنُبَيِّنَ تَعْبِيرَهُ».

٥- فَأَجَابَ الْمَلِكُ وَقَالَ لِلْكَلْدَانِيِّينَ: «قَدْ خَرَجَ مِنِّي الْقَوْلُ: إِنْ لَمْ تُنْبِئُونِي بِالْحُلْمِ وَبِتَعْبِيرِهِ، تُصَيرونَ إِرْبًا إِرْبًا وَتُجْعَلُ بُيُوتُكُمْ مَزْبَلَةً.

٦- وَإِنْ بَيَّنْتُمُ الْحُلْمَ وَتَعْبِيرَهُ، تَنَالُونَ مِنْ قِبَلِي هَدَايَا وَحَلاَوِينَ وَإِكْرَامًا عَظِيمًا. فَبَيِّنُوا لِي الْحُلْمَ وَتَعْبِيرَهُ».

٧- فَأَجَابُوا ثَانِيَةً وَقَالُوا: «لِيُخْبِرِ الْمَلِكُ عَبِيدَهُ بِالْحُلْمِ فَنُبَيِّنَ تَعْبِيرَهُ».

٨- أَجَابَ الْمَلِكُ وَقَالَ: «إِنِّي أَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّكُمْ تَكْتَسِبُونَ وَقْتًا، إِذْ رَأَيْتُمْ أَنَّ الْقَوْلَ قَدْ خَرَجَ مِنِّي

٩- بِأَنَّهُ إِنْ لَمْ تُنْبِئُونِي بِالْحُلْمِ فَقَضَاؤُكُمْ وَاحِدٌ. لأَنَّكُمْ قَد اتَّفَقْتُمْ عَلَى كَلاَم كَذِبٍ وَفَاسِد لِتَتَكَلَّمُوا بِه قُدَّامِي إِلَى أَنْ يَتَحَوَّلَ الْوَقْتُ. فَأَخْبِرُونِي بِالْحُلْمِ، فَأَعْلَمَ أَنَّكُمْ تُبَيِّنُونَ لِي تَعْبِيرَهُ».

١٠- أَجَابَ الْكَلْدَانِيُّونَ قُدَّامَ الْمَلِك وَقَالُوا: «لَيْسَ عَلَى الأَرْضِ إِنْسَانٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبَيِنَ أَمْرَ الْمَلِك. لِذلِكَ لَيْسَ مَلِكٌ عَظِيمٌ ذُو سُلْطَانٍ سَأَلَ أَمْرًا مِثْلَ هذَا مِنْ مَجُوسِيٍّ أَوْ سَاحِرٍ أَوْ كَلْدَانِيٍّ.

١١- وَالأَمْرُ الَّذِي يَطْلُبُهُ الْمَلِكُ عَسِرٌ، وَلَيْسَ آخَرُ يُبَيِّنُهُ قُدَّامَ الْمَلِكِ غَيْرَ الآلِهَةِ الَّذِينَ لَيْسَتْ سُكْنَاهُمْ مَعَ الْبَشَرِ».

١٢- لأَجْلِ ذلِكَ غَضِبَ الْمَلِكُ وَاغْتَاظَ جِدا وَأَمَرَ بِإِبَادَةِ كُلِّ حُكَمَاءِ بَابِلَ.

١٣- فَخَرَجَ الأَمْرُ، وَكَانَ الْحُكَمَاءُ يُقْتَلُونَ. فَطَلَبُوا دَانِيآلَ وَأَصْحَابَهُ لِيَقْتُلُوهُمْ.

١٤-حِينَئِذٍ أَجَابَ دَانِيالُ بِحِكْمَةٍ وَعَقْلٍ لأَرْيُوخَ رَئِيسِ شُرَطِ الْمَلِكِ الَّذِي خَرَجَ لِيَقْتُلَ حُكَمَاءَ بَابِلَ، أَجَابَ وَقَالَ لأَرْيُوخَ قَائِدِ الْمَلِكِ:

١٥- «لِمَاذَا اشْتَدَّ الأَمْرُ مِنْ قِبَلِ الْمَلِكِ؟» حِينَئِذٍ أَخْبَرَ أَرْيُوخُ دَانِيآلَ بِالأَمْرِ.

١٦- فَدَخَلَ دَانِيآلُ وَطَلَبَ مِنَ الْمَلِكِ أَنْ يُعْطِيَهُ وَقْتًا فَيُبَيِّنَ لِلْمَلِكِ التَّعْبِيرَ.

١٧- حِينَئِذٍ مَضَى دَانِيآلُ إِلَى بَيْتِهِ، وَأَعْلَمَ حَنَنْيَا وَمِيشَائِيلَ وَعَزَرْيَا أَصْحَابَهُ بِالأَمْرِ،

١٨- لِيَطْلُبُوا الْمَرَاحِمَ مِنْ قِبَلِ إِلهِ السَّمَاوَاتِ مِنْ جِهَةِ هذَا السِّرِّ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ دَانِيآلُ وَأَصْحَابُهُ مَعَ سَائِرِ حُكَمَاءِ بَابِلَ.

١٩- حِينَئِذٍ لِدَانِيآلَ كُشِفَ السِّرُّ فِي رُؤْيَا اللَّيْلِ. فَبَارَكَ دَانِيآلُ إِلهَ السَّمَاوَاتِ.

٢٠- أَجَابَ دَانِيآلُ وَقَالَ: «لِيَكُنِ اسْمُ اللهِ مُبَارَكًا مِنَ الأَزَلِ وَإِلَى الأَبَدِ، لأَنَّ لَهُ الْحِكْمَةَ وَالْجَبَرُوتَ.

٢١- وَهُوَ يُغَيِّرُ الأَوْقَاتَ وَالأَزْمِنَةَ. يَعْزِلُ مُلُوكًا وَيُنَصِّبُ مُلُوكًا. يُعْطِي الحكَمَاءَ حِكْمَةً، وَيُعَلِّمُ الْعَارِفِينَ فَهْمًا.

٢٢- هُوَ يَكْشِفُ الْعَمَائِقَ وَالأَسْرَارَ. يَعْلَمُ مَا هُوَ فِي الظُّلْمَةِ، وَعِنْدَهُ يَسْكُنُ النُّورُ.

٢٣- إِيَّاكَ يَا إِلهَ آبَائِي أَحْمَدُ، وَأُسَبِّحُ الَّذِي أَعْطَانِي الْحِكْمَةَ وَالْقُوَّةَ وَأَعْلَمَنِي الآنَ مَا طَلَبْنَاهُ مِنْكَ، لأَنَّكَ أَعْلَمْتَنَا أَمْرَ الْمَلِكِ».

٢٤- فَمِنْ أَجْلِ ذلِكَ دَخَلَ دَانِيآلُ إِلَى أَرْيُوخَ الَّذِي عَيَّنَهُ الْمَلِكُ لإِبَادَةِ حُكَمَاءِ بَابِلَ، مَضَى وَقَالَ لَهُ هكَذَا: «لاَ تُبِدْ حُكَمَاءَ بَابِلَ. أَدْخِلْنِي إِلَى قُدَّامِ الْمَلِكِ فَأُبَيِّنَ لِلْمَلِكِ التَّعْبِيرَ».

٢٥- حينَئذ دَخَلَ أَرْيُوخُ بِدانيآلَ إِلَى قُدَّام المَلِك مُسْرِعًا وَقَالَ لَهُ هكَذَا: «قَدْ وَجَدْتُ رَجُلاً مِنْ بَني سَبْي يَهُوذَا الَّذي يُعَرِّفُ المَلِكَ بِالتَّعْبِير».

٢٦- أَجَابَ المَلِكُ وَقَالَ لِدَانيآل، الَّذي اسْمُهُ بَلْطَشَاصَّرُ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْتَ عَلَى أَنْ تُعَرِّفَني بِالحلْم الَّذي رَأَيْتُ، وَبِتَعْبِيرِه؟»

٢٧- أَجَابَ دَانيآلُ قُدَّامَ المَلِك وَقَالَ: «السِّر الَّذي طَلَبَهُ المَلِكُ لاَ تَقْدرُ الحكَمَاءُ وَلاَ السَّحَرَةُ وَلاَ المَجُوسُ وَلاَ المنَجِّمُونَ عَلَى أَنْ يُبَيِّنُوهُ لِلْمَلِك.

٢٨- لكنْ يُوجَدُ إِلهٌ فِي السَّمَاوَات كَاشِفُ الأَسْرَار، وَقَدْ عَرَّفَ المَلِكَ نَبُوخَذْنَصَّرَ مَا يَكُونُ فِي الأَيَّام الأَخيرَة. حُلْمُكَ وَرُؤْيَا رَأْسِكَ عَلَى فِرَاشِكَ هُوَ هذَا:

٢٩- أَنْتَ يَا أَيُّهَا المَلِكُ أَفْكَارُكَ عَلَى فِرَاشِكَ صَعِدَتْ إِلَى مَا يَكُونُ مِنْ بَعْدِ هذَا، وَكَاشِفُ الأَسْرَار يُعَرِّفُكَ بِمَا يَكُونُ.

٣٠- أَمَّا أَنَا فَلَمْ يُكْشَفْ لي هذَا السِّر لِحكْمَة فِي أَكْثَر مِنْ كُلِّ الأَحْيَاء، وَلكِنْ لِكَيْ يُعَرِّفَ المَلِكَ بِالتَّعْبِير، وَلِكَيْ تَعْلَمَ أَفْكَارَ قَلْبِكَ.

٣١-«أَنْتَ أَيُّهَا المَلِكُ كُنْتَ تَنْظُرُ وَإِذَا بِتِمْثَال عَظِيم. هذَا التِّمْثَالُ العَظِيمُ البَهِي جدا وَقَفَ قُبَالَتَكَ، وَمَنْظَرُهُ هَائِلٌ.

٣٢- رَأْسُ هذَا التِّمْثَال مِنْ ذَهَب جَيِّد. صَدْرُهُ وَذِرَاعَاهُ مِنْ فِضَّة. بَطْنُهُ وَفَخْذَاهُ مِنْ نُحَاس.

٣٣- سَاقَاهُ مِنْ حَديد. قَدَمَاهُ بَعْضُهُمَا مِنْ حَديد وَالبَعْضُ مِنْ خَزَف.

٣٤- كُنْتَ تَنْظُرُ إِلَى أَنْ قُطِعَ حَجَرٌ بِغَيْر يَدَيْن، فَضَرَبَ التِّمْثَالَ عَلَى قَدَمَيْه اللَّتَيْن مِنْ حَديد وَخَزَف فَسَحَقَهُمَا.

٣٥- فَانْسَحَقَ حينَئذ الحَديدُ وَالخَزَفُ وَالنُّحَاسُ وَالفضَّةُ وَالذَّهَبُ مَعًا، وَصَارَتْ كَعُصَافَة البَيْدَر فِي الصَّيْف، فَحَمَلَتْهَا الرِّيحُ فَلَمْ يُوجَدْ لَهَا مَكَانٌ. أَمَّا الحَجَرُ الَّذي ضَرَبَ التِّمْثَالَ فَصَارَ جَبَلاً كَبِيرًا وَمَلأَ الأَرْضَ كُلَّهَا.

٣٦- هذَا هُوَ الحلْمُ. فَنُخْبِرُ بِتَعْبِيره قُدَّامَ المَلِك.

٣٧-«أَنْتَ أَيها المَلِكُ مَلِكُ مُلُوك، لأَنَّ إِلهَ السَّمَاوَات أَعْطَاكَ مَمْلَكَةً وَاقْتدَارًا وَسُلْطَانًا وَفَخْرًا.

٣٨- وَحَيْثُمَا يَسْكُنُ بَنُو الْبَشَرِ وَوُحُوشُ الْبَرِّ وَطُيُورُ السَّمَاءِ دَفَعَهَا لِيَدِكَ وَسَلَّطَكَ عَلَيْهَا جَمِيعِهَا. فَأَنْتَ هذَا الرَّأْسُ مِنْ ذَهَبٍ.

٣٩- وَبَعْدَكَ تَقُومُ مَمْلَكَةٌ أُخْرَى أَصْغَرُ مِنْكَ وَمَمْلَكَةٌ ثَالِثَةٌ أُخْرَى مِنْ نُحَاسٍ فَتَتَسَلَّطُ عَلَى كُلِّ الأَرْضِ.

٤٠- وَتَكُونُ مَمْلَكَةٌ رَابِعَةٌ صَلْبَةٌ كَالْحَدِيدِ، لأَنَّ الْحَدِيدَ يَدُقُّ وَيَسْحَقُ كُلَّ شَيْءٍ. وَكَالْحَدِيدِ الَّذِي يُكَسِّرُ تَسْحَقُ وَتُكَسِّرُ كُلَّ هؤُلاَءِ.

٤١- وَبِمَا رَأَيْتَ الْقَدَمَيْنِ وَالأَصَابِعَ بَعْضُهَا مِنْ خَزَفٍ وَالْبَعْضُ مِنْ حَدِيدٍ، فَالْمَمْلَكَةُ تَكُونُ مُنْقَسِمَةً، وَيَكُونُ فِيهَا قُوَّةُ الْحَدِيدِ مِنْ حَيْثُ إِنَّكَ رَأَيْتَ الْحَدِيدَ مُخْتَلِطًا بِخَزَفِ الطِّينِ.

٤٢- وَأَصَابِعُ الْقَدَمَيْنِ بَعْضُهَا مِنْ حَدِيدٍ وَالْبَعْضُ مِنْ خَزَفٍ، فَبَعْضُ الْمَمْلَكَةِ يَكُونُ قَوِيا وَالْبَعْضُ قَصِمًا.

٤٣- وَبِمَا رَأَيْتَ الْحَدِيدَ مُخْتَلِطًا بِخَزَفِ الطِّينِ، فَإِنَّهُمْ يَخْتَلِطُونَ بِنَسْلِ النَّاسِ، وَلكِنْ لاَ يَتَلاَصَقُ هذَا بِذَاكَ، كَمَا أَنَّ الْحَدِيدَ لاَ يَخْتَلِطُ بِالْخَزَفِ.

٤٤- وَفِي أَيَّامِ هؤُلاَءِ الْمُلُوكِ، يُقِيمُ إِلهُ السَّمَاوَاتِ مَمْلَكَةً لَنْ تَنْقَرِضَ أَبَدًا، وَمَلِكُهَا لاَ يُتْرَكُ لِشَعْبٍ آخَرَ، وَتَسْحَقُ وَتُفْنِي كُلَّ هذِهِ الْمَمَالِكِ، وَهِيَ تَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ.

٤٥- لأَنَّكَ رَأَيْتَ أَنَّهُ قَدْ قُطِعَ حَجَرٌ مِنْ جَبَلٍ لاَ بِيَدَيْنِ، فَسَحَقَ الْحَدِيدَ وَالنُّحَاسَ وَالْخَزَفَ وَالْفِضَّةَ وَالذَّهَبَ. اَللهُ الْعَظِيمُ قَدْ عَرَّفَ الْمَلِكَ مَا سَيَأْتِي بَعْدَ هذَا. اَلْحُلْمُ حَق وَتَعْبِيرُهُ يَقِينٌ».

٤٦-حِينَئِذٍ خَرَّ نَبُوخَذْنَصَّرُ عَلَى وَجْهِهِ وَسَجَدَ لِدَانِيآلَ، وَأَمَرَ بِأَنْ يُقَدِّمُوا لَهُ تَقْدِمَةً وَرَوَائِحَ سُرُورٍ.

٤٧- فَأَجَابَ الْمَلِكُ دَانِيآلَ وَقَالَ: «حَقًّا إِنَّ إِلهَكُمْ إِلهُ الآلِهَةِ وَرَبُّ الْمُلُوكِ وَكَاشِفُ الأَسْرَارِ، إِذِ اسْتَطَعْتَ عَلَى كَشْفِ هذَا السِّرِّ».

٤٨- حِينَئِذٍ عَظَّمَ الْمَلِكُ دَانِيآلَ وَأَعْطَاهُ عَطَايَا كَثِيرَةً، وَسَلَّطَهُ عَلَى كُلِّ وِلاَيَةِ بَابِلَ وَجَعَلَهُ رَئِيسَ الشِّحَنِ عَلَى جَمِيعِ حُكَمَاءِ بَابِلَ. ٤٩ فَطَلَبَ دَانِيآلُ مِنَ

المَلِك، فَوَلَّى شَدْرَخَ وَمِيشَخَ وَعَبْدَنَغُوَ عَلَى أَعْمَالِ وِلاَيَةِ بَابِلَ. أَمَّا دَانِيآلُ فَكَانَ فِي بَابِ المَلِكِ.

حكم نبوخذ نصر ثلاثا وأربعين سنة وقد حلم حلماً إن الله سوف يعاقبه بسبب كبريائه وبالفعل أصيب الملك سبع سنوات بجنون العظمة فابتعد عن العرش سبع سنوات وعاش في الغابة ولكنه تاب إلى الله فعاد إلى الحكم وتبنى النبي دانيال الملك نبوخذ نصر ودعاه للتوحيد بالله ، قام نبوخذ نصر بغزو أورشليم عام ٦٠٥ ق.م قبل الميلاد وتوفي عام ٥٦٢ق.م قبل الميلاد ومن بعده حكم ابنه ابل مردوخ عامين من ٥٦٢ق.م إلى ٥٦٠ ق.م وبعده حكم صهره نريجلاصر لأربع سنوات من عام ٥٦٠ق.م حتى ٥٥٦ق.م ثم حكم الملك مردوخ لمدة شهرين عام ٥٥٦ق . م وحكم نبونيدوس من عام ٥٥٦ق.م حتى ٥٣٩ق. م . وكان النبي دانيال شيخاً يهوديا اعتمده الملك في تفسير أحلامه وكان يغدق عليه الهدايا وكان يفسر الحلم بكامل حقيقته حتى ما لم يتحقق سماعه .

وفي عهده كانت مدينة شوشان (الواقعة الآن في إيران) هي العاصمة البابلية الشتوية والتي كانت تسري فيها قوانين حمورابي التي كانت أول القوانين المعروفة في تاريخ البشرية. وقد كان غزو نبوخذ نصر لبني إسرائيل هو تأديب الله لهم لأنهم رفضوا أن يطيعوا الله رغم كل الكوارث التي مرت بهم وعصوا أمر خالقهم .



١٤

ماك آرثر .. مهندس استسلام اليابان في الحرب العالمية الثانية !!





يعتبر دوجلاس ماك آرثر أشد الجنرالات إثارة للجدل في القرن العشرين إنه بطل وطني وضع العالم على شفير حرب نووية، كان ماك آرثر ابنًا لبطل في الحرب الأهلية وكان عليه تحقيق الكثير. اشتهر في كلية واستبوينت العسكرية بأدواره المأساوية.

كان شابًا سريع الغضب، يميل إلى تغطية شعوره بعدم الأمان وهذا ما أظنه؛ لما عُرف فيه من أنانية وغرور ومأساوية كذلك.

عُرفت أمه بقبضتها الحديدية، عندما كان في وستبوينت أقامت في غرفة تطل على غرفته للتحقق من أنه يعمل كما يجب، وقد أمضت أربع سنوات في غرفة الفندق لمراقبة ابنها.

تفوق ماك آرثر في وستبوينت رغم مراقبة أمه له توجه لإثبات جدارته في ميادين الحرب العالمية الأولى فأصبح الضابط الأمريكي الأكثر تقلدًا للأوسمة، عين ماك آرثر في واشنطن في ثلاثينيات القرن العشرين مما جعله على اتصال بالصحافة.

أدركت أغلبية المؤسسات الأمريكية أن هناك شيئاً اسمه دعاية وعلاقات عامة وقد عمل ماك آرثر في مجالات الدعاية وخصوصا في العلاقات العامة في الجيش الأمريكي، أصبح مسؤولاً عن التحدث إلى الصحافة عن الأحداث العسكرية، وهذا ما منحه فكرة بناء واقع خاص به، عبر قدرته على الإقناع.

في عام ١٩٤٢ أعلن ماك آرثر بطلاً وطنيا عندما كان قائدًا في الفلبين على جبهات الحرب على اليابان، كانت الأمور في حالة سيئة، كان على قصف مرفأ بيرل أن يشكل تحذيرًا له ولكن بعد تسع ساعات تحطمت وحداته الجوية تماماً وهي على المدارج، بعد ذلك غزا اليابانيون.

أمرته واشنطن بالخروج من هناك لتفادي أسره فغادر المكان تاركًا جيشه وراءه مستحقا بذلك لقب جبان من اليابانيين.

كانت تلك مهانة وهزيمة نكراء لماك آرثر وعلم روسفيلد بالأمر فمنحه ميدالية شرف، لهذا يعتبر روسفيلد مسؤولاً عن صنع هالته ليعجز بعد ذلك عن التخلص منه.

صنع الجنرال نصرًا من الهزيمة من خلال براعته في استخدام الصحافة.

كان بارعًا في التحكم في الصحافة الشعبية، وكان يسميها جيشه، ولم يفكر في منح أحد المصداقية، إذا جاء صحفي ما ولم يكتب تقريرًا بالطريقة التي تعجبه كان يعمد إلى التخلص منه.

شكلت عودة ماك آرثر إلى الفلبين من أكثر صور الحرب العالمية الثانية حدة، أصبح شخصية لا تكبح، فوقع عليه الاختيار لترؤس المراسيم الرمزية لنهاية الحرب واستسلام اليابان.

لقد أصبح الجنرال ماك آرثر منذ تلك اللحظة الحاكمَ المطلقه لليابان وكأنه الإمبراطور أوكلت إليه مهمة إعادة بناء البلد، تحولت عائلة ماك آرثر إلى عائلة ملكية في جميع المجالات باستثناء اللقب ولا يسائلها أحد ولم يتمتع أمريكي بمثل هذه السلطة من قبل.

لقد تحول إلى حاكم إمبراطوري واسع الصلاحية في اليابان، فأخذ يدير البلاد، أحاط نفسه بحراس الشرف والشرطة العسكرية التي كانت تدفع الناس بعيدًا عند وصوله وهكذا أصبح مغمورًا بالسلطة وحبه لنفسه على ما أظن.

وصل النداء إلى ماك آرثر في اليابان لوقف التقدم الشيوعي، دُعي إلى قيادة قوات الأمم المتحدة هناك وهو جنيرال في السبعين من عمره وعلى كتفيه خمس نجوم أي أنه كان متفوقًا على قادته في واشنطن.

تحولت كوريا إلى امتحان لاختبار الإصرار الأمريكي على مواجهة الشيوعية ومعاقبتها وليس غريباً أن يعزز شهرته هناك كما فعل في الحرب العالمية الثانية.

لكن سرعان ما أخذ ماك آرثر يكشف عن تحولات مزاجه العنيفة التي تميز بها طوال حياته.

تحدث في إحدى المناسبات بطريقة متهورة قائلاً: " إنه يستطيع التغلب على كوريا الشمالية واضعا إحدى يديه خلف ظهره " وبعد يومين من ذلك وصف نفسه باليائس من انهيار جيش كوريا الجنوبية.

كانت مخاوفه في محلها، ففي سبتمبر تمكن جيش كوريا الشمالية من الاستيلاء على غالبية أراضي كوريا الجنوبية لكن ماك آرثر وضع خطة جريئة وخيالية إذ عمل على إنزال قوة هائلة على مسافة مائتي ميل خلف خطوط كوريا الشمالية في مستنقع ناءٍ اسمه "إنشون".

شكلت إنشون منطقة إنزال خطرة لما فيها من مد وجزر وبحار عالية ومناطق موحلة، أي إنها غير صالحة للإنزال، وصلت إليها الوحدات الأمريكية دون أي إصابة مما أكد براعته الاستراتيجية للكثيرين ولنفسه، قال قائد الأركان حينئذ: " إنه بعد إنزال إنشون أصبح من المستحيل مساءلة ماك آرثر في أي شيء ".

بدأت قوات كوريا الشمالية بالانسحاب فأصر ماك آرثر على مطاردهم أيًا كان مصير هذه المطاردة وسرعان ما توجه الأمريكيون مباشرة إلى الحدود مع الصين، أخذ الصينيون يطلقون التهديدات التي زادت من حماسة ماك آرثر.

قال لصديق له: لا أعر ف إن كان الصينيون سيتورطون في الحرب الكورية ولكنني أدعو الله كل ليلة أن يدخلوها لأتمكن من تحقيق النصر الذي تحتاج أمريكا إليه، وكانت كلمة أمريكا هنا تشكل مرادفًا لماك آرثر أيضاً.

آخر ما كان ينقص أميركا هو الحرب على الصين، تحسب الرئيس ترومان للخطر فدعا ماك آرثر للعودة وتفسير ما يجري، رفض ماك آرثر ذلك مما أجبر الرئيس على السفر إلى الشرق الأقصى لمقابل القائد العسكري العاصي.

أراد ترومان التحقق من أن الحرب أوشكت أن تنتهي فأوضح له ماك آرثر أنه يستطيع التعامل مع التدخل الصيني بسهولة إذا حصل، وأنه لا داعي للقلق.

أما على انفراد فقد أعرب كل منهما عن ازدرائه بالآخر تحدث ترومان عن الجنيرال المفاخر الذي لم يلق عليه التحية كما يجب، كان يرتدي بذة متسخة وقبعة متجعدة فيما تحدث ماك آرثر عن جهل ترومان وعدم كفاءته رغم إعلانهما عن توافق في الأفكار.

لم تقتصر عجرفة ماك آرثر على الطريقة التي عامل بها رئيسه، بل استهزأ أيضاً بالصينيين وزعيمهم ماوسي تون، استخدم الصينيون ذلك في صالحهم.

كان ماك آرثر متعجرفًا وقد اعتبر ماو أن العجرفة مهمة لنجاح القائد العسكري، ولكن العجرفة من جهة أخرى يمكن أن تصيب القائد العسكري بالعمى، اعتبر ماو أن عداء ماك آرثر للصين يثير غضبه شخصيًا، وقد زاد من غضبه ازدراء ماك آرثر وجهله باحتمالات التدخل الصيني فقال: " نحن سنجبرك بالقوة على ذلك "

تجاهل ماك آرثر التهديد بتوجه مائتي ألف صيني نحو الحدود حيث نهر اليالو المتجمد خاصة أنه لم يرَ أثرًا لهم في أي مكان .

تعمدوا الانسحاب من هناك، وأخفوا القوات في المناطق الجبلية وأوحوا إلى العدو بالتقدم إلى الأمان وأعدوا شركًا له.

كانت خُدعة محكمة إذ تدفق فجأة أربعمائة ألف جندي من وراء التلال تعرض الجيش الثامن لأحد عشر ألف إصابة في الأيام القليلة الأولى وبعد هذه الهزيمة النكراء انسحب الأمريكيون ثلاثمائة ميل إلى الخلف وهذا أطول انسحاب في التاريخ الأمريكي.

فجأة أخذ ماك آرثر يبعث برسالة تلو الأخرى إلى قيادة الأركان قائلاً: " إن القطعان الصينية بدأت تتسلل إلى كوريا الشمالية، وإن قيادته ستواجه الدمار إذا لم يمنح إذناً بقصف كل ما ينتصب على الحدود الصينية الكورية".

تحولت الحرب إلى مسألة شخصية، والاستراتيجية إلى نوبة غضب بعيدًا عن السياسة القومية والأهداف الكبرى في الحرب الباردة، بمعنى أن الأمور اقتصرت على ضرورة الانتقام من الجنرالات الصينيين.

طالب ماك آرثر باستخدام الأسلحة النووية، كانت الحرب. قد استقرت بنسبة عالية ولكن ماك آرثر وضع لائحة بمواقع صينية يمكن قصفها بالقنابل الذرية.

أراد قصف المدن الصنية والتخلص من العوائق البحرية أي أنه يريد تصعيد الحرب على نطاق واسع وتحويلها إلى حرب جديدة موجهة ضد الصين.

لكن ترومان لم يشأ أن يكون الرجل الذي يطلق الحرب العالمية الثالثة، أخذ يرسل دعوات سلام إلى الصينيين عارضا عليهم الانسحاب إلى حدود كوريا الجنوبية، كان الوضع هناك في غاية الدقة.

ما أغضب الرئيس ترومان أنه في الرابع والعشرين من مارس أي قبل يومين من تقديم الخطة إلى الصينيين عقد ماك آرثر مؤتمراً صحفيًّا أعلن فيه أن الجيش الصيني أثبت في كوريا أنه من وحوش الدرجة الثالثة، وأنه فشل في محاولته الاستيلاء على كوريا وأنه يمنحه فرصة أخيرة للاستسلام له شخصياً، لكنه إذا رفض الاستسلام فسيضطر إلى إرسال الطائرات والبوارج البحرية الأمريكية لقصف الأراضي الصينية.

منذ تلك اللحظة أخذ ترومان يكتب في مذكراته أن الوقت حان لنقل الجنيرال الكبير من الشرق الأقصى.

أخيراً هبت الرياح التي كانت تعصف بين واشنطن وماك آرثر بعد صدور نبأ إقالة القائد الأعلى من قبل الرئيس ترومان.

أرى ضرورة لوضع حد للحرب الكورية ولتفادي وقوع حرب عالمية ثالثة وتبين من الأحداث أن ماك آرثر لا يوافق على هذه السياسة مطلقاً.

ماك آرثر هو أول جنرال تتم إقالته من قبل رئيس أمريكي، النرجسية والغرور والعجرفة أقنعت الجنرال بأنه يستطيع حراسة الأمن القومي أكثر من الرئيس المنتخب علماً أن مواقفه كانت تختلف في ثلاثينيات القرن العشرين.

أنبهكم إلى حقيقة واضحة وهي أن الجندي لا يعلن الحرب، الكونجرس فقط يملك هذه المسؤولية وهذه السلطة وليس لجيشنا أي دور إلا حماية السلام.

في أبريل عام ١٩٥١ عاد ماك آرثر إلى الولايات المتحدة بعد غياب دام خمسة عشر عاماً وجرى للجنيرال العاصي أكبر استقبال عرفه التاريخ.

لم يبقَ أحد في بيته احتشدت الشوارع حوالي سبعة ملايين ونصف مليون رجل وطفل وامرأة وما زال الرأي العام يعتبره بطلاً وطنياً.

الأبطال ضروريون بالمعنى العسكري لأن الجنود بحاجة إلى مثال يسيرون على خطاه ويعبر المخاطر بهم ويحقق النصر .

تكمن المشكلة هنا في أن هذا الشخص أصبح محاطًا بضباط لا يجادلونه في شيء ومحاطًا بصحافة عمل على تجنيدها لمدحه، وأخذ يعتقد أنه لا يقهر وأنه دائماً على حق.

لدى الرومان طريقة للتعامل مع هذ الحالة في أثناء الاحتفاء بنصر أي جنرال في روما وكانوا يضعون شخصًا في العربة خلفه يهمس في أذنه قائلاً: "تذكر أنك فانٍ"

كادت المراقبة تنتهي على الحدود بين شمال كوريا وجنوبها، وفجأة اهتز السلام.

يوم الخامس والعشرين من حزيران-يونيو من عام ١٩٥٠ بدأت الحرب الكورية، هرب جنود كوريا الجنوبية حفاظًا على حياتهم مع تقدم الوحدات الشيوعية عبر خط العرض الثامن والثلاثين إلى داخل الجنوب.

بعد أن كانت جزءًا من الإمبراطورية اليابانية الكبرى تحررت كوريا على يد الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية، انشقت حينها إلى قسمين عبر حدود رسمت على طول خط العرض الثامن والثلاثين.

احتلت الوحدات السوفيتية شمال خط العرض، بينما استولت الولايات المتحدة على جنوبه.

رحب الكوريون بجميع الحلفاء بشقيهم الشيوعيين السوفييت في الشمال .. والأمريكيين في الجنوب.

بعد خمس وثلاثين عامًا من الاحتلال الياباني المجحف حصل الكوريون أخيرًا على حريتهم.

لعدم توقع حصول المشاكل في كوريا، سحبت الولايات المتحدة قواتها لتترك خلفها ديمقراطية يافعة معززة بجيش قليل العدة والعتاد.

أما في الشمال فقد ثبت السوفييت حكومة شيوعية مصرة على إعادة توحيد كوريا تحت سلطتها.

نهاية أسبوع الهجوم كان رئيس الولايات المتحدة "هاري ترومان" يستريح في منزله في "ميسوبيه".

وصلته مكالمة عاجلة من واشنطن أنباء سيئة، دخلت كوريا الشمالية الشيوعية إلى الجنوب عبر هجوم واسع النطاق، كان ترومان يعلم بأن هذا قد يشكل بداية لحرب عالمية ثالثة.

قبل خمسة أعوام من ذلك كان ترومان قد قرر استعمال أكثر الأسلحة التي عرفها الإنسان تدميرًا، وهو متأكد بأن الولايات المتحدة هزمت اليابان باستخدام القنبلة الذرية.

حقق السلاح النووي النصر لأمريكا .. ما سيغير طبيعة الحروب إلى الأبد.

استسلمت اليابان رسميًا للجنرال "دوجلاس ماك آرثر" القائد الأعلى لقوات الحلفاء في المحيط الهادئ.

كان آرثر يتخذ الجندية مهنة ورثها أبًا عن جد، تدرج عبر جميع الرتب بسرعة مدهشة، حتى أصبح الجنرال الأصغر سنًّا والأكثر شهرة في الحرب العالمية الثانية، وما إن أُعلن السلام حتى جرت ترقيته ليصبح أصغر قادة القوات سنًّا على الإطلاق.

كان الجميع معجب به كجندي، ولكن حتى في الأيام الأولى من تدرجه اتهمه الكثيرون بالعجرفة وعدم القدرة على تلقي النصائح.

بعد قصف اليابان لميناء بيرل هاربر، ودخول اليابان في الحرب العالمية الثانية .. تم اختيار آرثر لقيادة الحرب في المحيط الهادئ، لهذا كان ماك آرثر الشخصية التي قبلت استسلام اليابان على متن الميسور الأمريكية في آب-أغسطس من عام ١٩٤٥.

وقال: نجتمع اليوم هنا لنمثل القوى المحاربة الكبرى، ولنوقع على اتفاقية تضمن استعادة السلام، هذه تمنياتي وتمنيات البشرية جمعاء، أن ينبثق عن هذا اللقاء عالم أفضل يولد من دم ولحم الماضي.

لم ينس ماك آرثر القنبلة الذرية كانت عاملاً حاسمًا، بقي ماك آرثر في اليابان للإشراف على الاحتلال.

أما ترومان وماك آرثر فكانا يكره أحدهما الآخر بعضهما البعض بشدة، كان ماك آرثر يعتبر ترومان متملقًا انتهازيًا، أما ترومان فكان يعتبر ماك آرثر متعجرفًا يثير الحروب دون منطق سياسي.

لكن ماك آرثر كان أعلى قائد عسكري في الشرق الأقصى .. ما يجبر ترومان على استخدامه.

حين بلغ السبعين من عمره، وبعد أن أمضى خمسين عامًا في الخدمة العسكرية، كان على الجنرال ماك آرثر أن يعود إلى الحرب.

أصبح الدفاع عن كوريا رمزًا لاختيار العالم الحر في مقاومة الشيوعية.

اعتقد ماك آرثر أن قدره هو قيادة تلك الحرب، فالشيوعية بالنسبة له كانت رمزًا للشر المتجسد على الأرض.

ألزم ترومان الوحدات البحرية والجوية لدعم جيش كوريا الجنوبية، حينها فقط أبلغ الشعب الأمريكي بخطورة الوضع.

(نعرف أن ثمن الحرية باهظ جدًا، ولكننا مصرون على حماية حريتنا مهما كلف ذلك).

لم يكن هناك مجال لإضاعة الوقت، خلال أيام فقط كانت الوحدات الشيوعية على أبواب مدينة سيول العاصمة الجنوبية.

عقد مجلس الأمن التابع لهيئة الأمم المتحدة جلسة طارئة، وللمرة الأولى في التاريخ اتخذ قرارًا بالتدخل عبر قوات عسكرية مشتركة.

عين الجنرال ماك آرثر قائدًا على جميع قوات الأمم المتحدة وسارع إلى كوريا ليتفقد الوضع عن قرب.

صعد إلى سيارة جيب واتجه إلى الجبهة في سيول من على مسافة عشرين ميلاً، وقد تأثر بما رأى.

تخلى الكوريون الجنوبيون بالآلاف عن منازلهم، وهربوا بالاتجاه المعاكس لسيارته سعيًا إلى مناطق اللجوء، كان إلى جانبهم الجيش الكوري الجنوبي الضعيف وغير المجهز بالأسلحة اللازمة، كان الانسحاب بالنسبة لهم الخيار الوحيد أيضًا، وتمكن العدو من الاستيلاء على سيول عاصمة كوريا الجنوبية.

بعد خمسة أيام من الاجتياح في تمام الخامسة فجرًا .. كان الرئيس ترومان بالانتظار وهو مستعد لاتخاذ قراره وفق تقريرات ماك آرثر، وجاءت تقريراته تنذر بالخطر.

رأى ماك آرثر أنه سيتم الاستيلاء على كوريا الجنوبية إذا لم يتم التدخل الفوري للوحدات الأرضية لهيئة الأمم، قال: نرى أن الكارثة واقعة لا محالة.

بعد أسبوع من الاجتياح كانت الطائرات الأمريكية مجهزة من جديد للدخول في المعارك، استدعي آلاف الشبان.

سارعت القوات الأمريكية العاملة في اليابان لتعزيز مواقع جيش كوريا الجنوبية، اعتقد أول الرجال الذين وصلوا بأنهم سيمضون هناك بضعة أيام، وأن مجرد نظرة من أمريكا ستكفي لدب الرعب في قلوب الشيوعيين وإعادتهم إلى ما وراء خط عرض الثامن والثلاثين.

ولكن في الأسبوع الأول من تموز-يوليو من عام ١٩٥٠، وُزع بضع مئات من الجنود الأمريكيين يحملون أسلحة خفيفة على طول خط المواجهة.

تحتاج استعدادات الأمم المتحدة للكثير من الوقت، كانت الأوامر تؤكد على تأخير التقدم الشمالي حتى يتسنى للإمدادات أن تصل.

يوم السابع من تموز-يوليو أطلقت المدفعية الأمريكية أول قذيفة لها نحو خطوط العدو.

لكن الرد جاء ساحقًا، فبضعة جنود غير مجربين بدون دعم جوي لم يسببوا أية مشاكل للشيوعيين، كان ذلك أول يوم تقع فيه إصابات في الصفوف الأمريكية .

تعرضت الوحدة الأمريكية للتصفية الكاملة في أول معركة معها مع الشيوعيين.

تساءل الجنود الأمريكيين أثناء انسحابهم عما يفعلونه في ذلك البلد، ما الذي يقاتلون من أجله.

مع نهاية يوليو بعثت الأمم المتحدة بوحدات يتم إنزالها في الجنوب الشرقي لكوريا، كان الجيش الثاني يبذل كل ما في وسعه للصمود هناك.

أخذ ماك آرثر يوجه الضربات لأعماق العدو كي يقطع أوصاله ويوجه له ضربة حاسمة، أصبحت قوات الأمم المتحدة بكاملها محاصرة في منطقة بوسان، فعمل ماك آرثر للمجيء بوحدات جديدة مباشرة من اليابان للقيام بإنزال في إنشون، على بعد أميال خلف خطوط العدو.

عندما يستولى على إنشون يمكنه إعادة نشر القوات للاستيلاء على العاصمة سيول الواقعة على بعد عشرين ميلاً إلى الشرق.

في الثالث من سبتمبر أصبحت عملية "كرومايت" رهن التنفيذ، انطلقت وحدات هائلة لتبحر عبر عاصفة بحرية مخيفة، جاء على متن السفن سبعون ألف رجل.

الخامس عشر من سبتمبر هو اليوم الوحيد الذي يشهد فيه البحر هناك حالة مد تكفي للإنزال في إنشون، وكان المناخ يزداد سوءًا، أجبر ماك آرثر أولاً على احتلال جزيرة صغيرة تعرف بـ"ويل مي دو" التي تحمي كل أشكال التقدم من إنشون وكانت محصنة بشدة، ركزت البحرية الأمريكية قصفها المدمر على الجزيرة.

مع طلوع الفجر هدأت العاصفة وتحسن المناخ، مع توجه أول طائرة للإنزال على الشواطئ، وقف الجنرال ماك آرثر يراقب تنفيذ خطته.

كان يعلم أنهم يخاطرون بالوقوع ضحية الوحول إذا ما عاد الجزر، أُجبر ماك آرثر على الانتظار تسع ساعات حتى تتمكن قوات الأمم المتحدة الرئيسية من انتهاز فرصة المد للإنزال.

استسلمت الوحدات الكورية الشمالية بسرعة، وأفلحت عملية "كرومايت"، عملت قوات الأمم المتحدة على تفتيش أسراهم، سبق أن علموا بأن الشيوعي يستسلم وهو يخفي قنبلة يدوية يربطها بجسده.

سقطت مدينة إنشون دون عناء شديد، تكمن الخطوة التالية للجنرال آرثر باستعادة مدينة سيول.

على مدار خمسة أيام طويلة تحولت العاصمة إلى مجرد ركام، بعد أن أصبح كل مبنى ساحة قتال.

قاوم القناصون الشيوعيون حتى آخر فرد منهم، أخيرًا استولت الدبابات الأمريكية على الشوارع، أعاد ماك آرثر سيول إلى كوريا الجنوبية.

حقق ماك آرثر أحد الانتصارات الأمريكية، أما هدفه الثاني فكان النصر النهائي، طلب من واشنطن أن تمنحه إذنًا بعبور خط العرض ثمانية وثلاثين، ودخول كوريا الشمالية.

لكن ترومان أمره بأن لا يقترب أكثر من عشرين ميلاً من الحدود الصينية في أقصى الشمال الكوري.

كانت واشنطن متخوفة من دخول الصين الشيوعية في الحرب؛ لأن هذا بالمقابل سيحتم تدخلاً سوفيتيًا فيها.

أخيرًا بعد أربعة أشهر من دخول كوريا الشمالية إلى الجنوب، بدأت قوات الأمم المتحدة بدفع الحرب عبر خط العرض الثامن والثلاثين إلى داخل كوريا الشمالية.

في واشنطن كان ترومان يتعرض للانتقادات الشديدة من قبل الجناح اليميني لتساهله المزعوم مع الشيوعيين، على أمل أن يحوز على بعض من شعبية ماك آرثر، قام الرئيس بدعوته إلى اجتماع خاص في جزيرة "ويك" الواقعة وسط المحيط.

وصل ماك آرثر إلى الجزيرة أولاً بصحبة فريقه العسكري فقط، ولكن حين وصل ترومان، كان معه عدد كبير من الصحفيين والمصورين.

حين هبط ترومان إلى المدرج حيث يفترض أن يتلقى التحية العسكرية من القائد العسكري لقواته، لم يلق ماك آرثر بالتحية بل اكتفى بمصافحته كنظير له.

تفهم الجنرال مباشرة السبب الرئيسي لزيارة ترومان، إنها مجرد فرصة لأخذ الصور لرئيس يتعرض للضغوط.

كانت ابتساماتهما للصحافة فقط، أما الحقيقة فإنهما لم يحتملا التحدث إلى بعضهما البعض، شرح ماك آرثر على مدار أكثر من ساعة مضمون خطته للاستيلاء على كوريا الشمالية، لم يطرح ترومان إلا سؤالاً واحدًا، هل ستتدخل الصين؟

أكد له ماك آرثر أن التهديد غير وارد، كان غاضبًا لإضاعة الوقت، من الآن فصاعدًا سيستمر بالحرب على طريقته الخاصة.

الهدف التالي لآرثر هو الاستيلاء على بيونج يانج عاصمة كوريا الشمالية، من طائرته كان يراقب رجال المظلات يعملون من خلف خطوط العدو.

استولى على بيونج يانج بكل سهولة، ثم حسم أمره للتوجه مباشرة إلى الحدود مع الصين بجميع القوات العاملة تحت إمرته، وبتحد مباشر لأوامر الرئيس ترومان فقد ضاق ذرعًا بمحاذير واشنطن.

أصبحت قوات الأمم المتحدة قريبة جدًا من حدود جمهورية الصين الشعبية الشاسعة، مع استمرار التقدم عبر الشمال أخذ عدد الأسرى لديهم يتزايد باستمرار، ولكن مع اقتراب الشتاء الكوري المر بدأ يظهر خلف خطوط الوحدات الشمالية المنسحبة، نوع آخر من الأعداء بملابسهم الموحدة والمضادة لأحوال الطقس، بدا على هؤلاء الجنود قتاليتهم النظامية الواضحة.

من الواضح تمامًا أن مخاوف ترومان كانت مبررة، أصبحت الصين متورطة في الحرب.

يوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني-نوفمبر من عام ١٩٥٠ أطلت آلة القتل البشرية برأسها من خلف مرتفعات كوريا الشمالية.

حشدت الصين ربع مليون جندي من الجنود المدربين جيدًا على طول حدودها، وهي لا تكترث على ما يبدو بأي ميتة تنتظرهم.

لم تجد قوات الأمم المتحدة سوى خيار الانسحاب وحده، ولكن أصبح أمامها الآن الشتاء الكوري لتكافح ضده، فقد الآلاف حياتهم بمواجهة الأعداء، ولكن بغياب الجهوزية اللازمة لمواجهة الرياح وانخفاض الحرارة إلى خمس وعشرين درجة تحت الصفر مات الكثيرون من شدة البرد.

فُقدت كل الأراضي التي فاز بها ماك آرثر منذ إنزال إنشون.

يوم الخامس عشر من ديسمبر أُعيد الجيش الثامن إلى ما بعد خط العرض الثامن والثلاثين، تعرض ماك آرثر للإهانة لقد استهان بحجم العدو وسوء نواياه .. تعرضت سمعته للمساس، ولا بد من الانتقام.

وسط عاصفة غيظه طالب باستخدام السلاح النهائي، طالب بأن يُسمح له باستخدام القنبلة الذرية.

يوم الرابع والعشرين من ديسمبر انتهى من صياغة الخطة وتقديمها، حيث طالب بست وعشرين قنبلة ذرية.

أما أهدافه فكانت ضرب مدن في كوريا الشمالية ومنشوريا ومدن صينية أخرى بعيدة كـ" لوسان وبكين العاصمة" "وفلاديفوسدج" في الاتحاد السوفيتي كان يريد تصفيتها جميعًا. وجلس ماك آرثر ينتظر، كانت الخطة تخضع للدراسة.

في هذه الأثناء كان موتى الحرب الأمريكيون يصلون إلى الوطن، وسار الشعب الأمريكي متعبًا من الحرب، أصبحت الضغوط المتعلقة باستخدام السلاح النووي لا تحتمل المقاومة حتى إن الرئيس ترومان، كان يفكر جديًا باستخدام القنبلة الذرية.

أمر بتنفيذ مناورات نووية فوق كوريا الشمالية.

في شتاء عام ١٩٥٠ أصبح العالم على حافة نشوب حرب نووية.

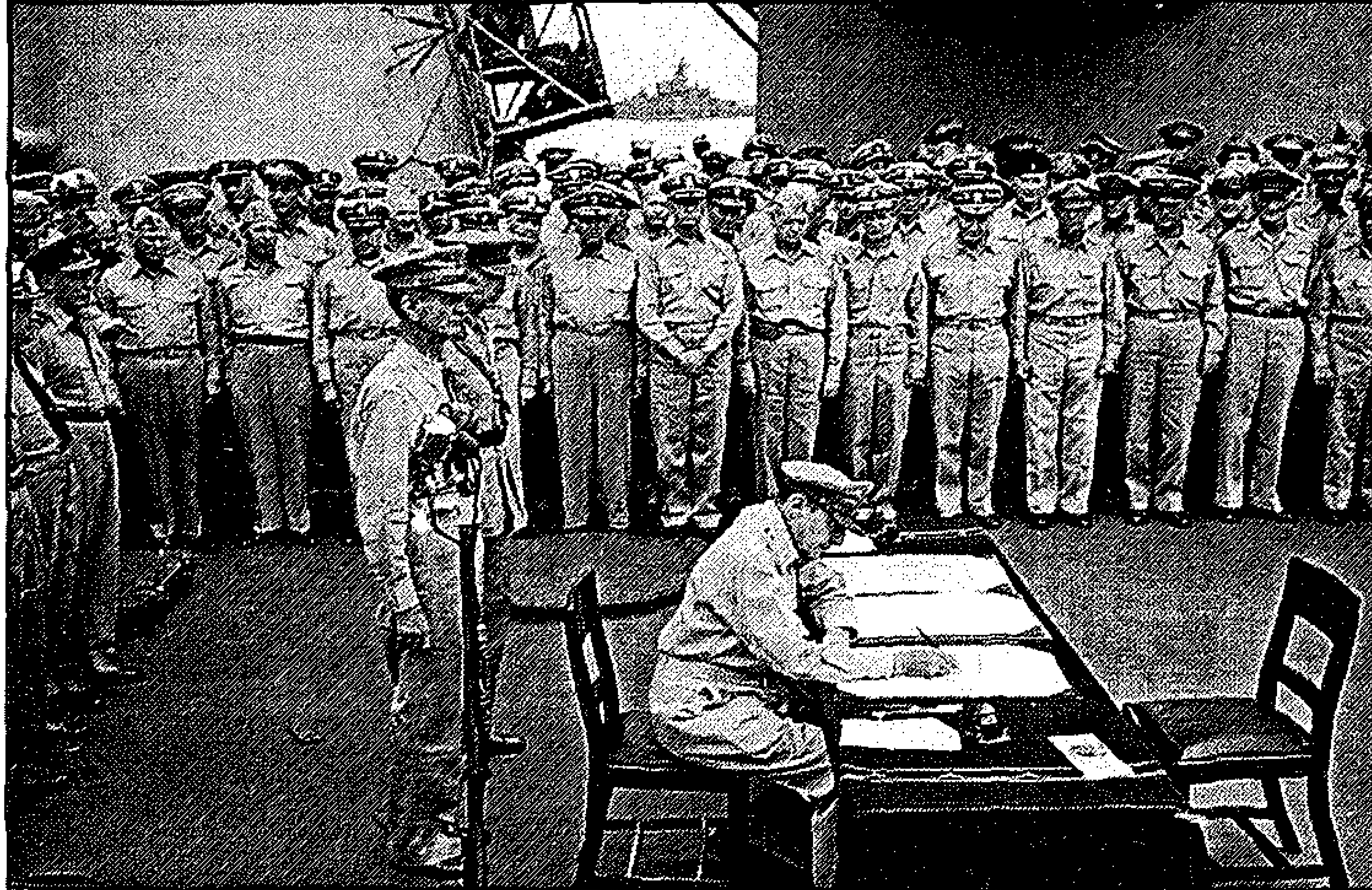
لكن الولايات المتحدة لم تعد القوة الوحيدة التي تملك القوة النووية فمنذ عام ١٩٤٩ كان ستالين على رأس الاتحاد السوفيتي يجري تجاربه النووية الخاصة.

سافر رئيس الوزراء البريطاني "أتلي" إلى واشنطن، لإقناع الرئيس ترومان بأن الحرب النووية ستعني نهاية البشرية.

وفجأة بدأت الظروف تتغير في ساحات القتال، بعد تضاءل سبل التمويل وتعرض وحداتها لخسائر جسيمة قررت الصين التوقف في كانون الثاني-يناير، تلا ذلك توقف حملة الأمم المتحدة مباشرة، وتوقف الانسحاب الأمريكي الأطول في التاريخ الأمريكي.

أخيرًا بدأت الأمم المتحدة تكسب الحرب في الجو، ولأول مرة في التاريخ كانت الطائرات النفاثة تشتبك في معارك مميتة.

عندما أدهشها أداء الطائرات الروسية المقاتلة "ميج ١٥"، عجلت قيادة الوحدات الجوية الأمريكية في استخدام مقاتلاتها الحديثة سايبر التي أثبتت أنها أكثر كفاءة.



الجنرال الأمريكي المنتصر يوقع وثيقة استسلام اليابان.

خلال جولة لماك آرثر على خطوط الجبهات، وصلته برقية تقول: إن ترومان يتمنى التفاوض على وقف لإطلاق النار، لا يمكن الدخول في حرب مع الصين، ولا يمكن اللجوء إلى استخدام الأسلحة النووية، رفضت الإدارة الأمريكية خطة آرثر.

استمر ماك آرثر بمحاولاته لتوريط الإدارة الأمريكية عبر تصريحاته الداعية لإخضاع الصين قائلاً بضرورة استسلامها، كي لا تتعرض لعواقب وخيمة.

جهز المسرح للمشهد الأخير له مع ترومان، الجنرال الكبير في الشرق الأقصى يتمادى كثيرًا، ولا بد من رحيله، اتفق مستشارو وطاقم الرئيس جميعًا على ذلك، سيبلغ بذلك رسميًا يوم الحادي عشر من إبريل.

سمع ماك آرثر الخبر عبر الموجات الإذاعية التي نشرته على الملايين قبل أن يصل إليه، تعرض بذلك لإهانة شعبية.

ترومان: (شعرت شخصيًا بكثير من الأسى حين وجدت نفسي مضطرًا لاتخاذ هذا القرار، الجنرال ماك آرثر هو أحد أهم القادة العسكريين لدينا، ولكن قضية السلام العالمي أهم بكثير).

بإقالة ماك آرثر أكد ترومان بأن لا مواجهة عسكرية مع الصين إطلاقًا، أما الشعب الأمريكي بغالبيته فكان يعتبر ماك آرثر بطلاً، وقف أمام الكونجرس ليلقي بخطاب حول حياته، فقال ماك آرثر:

(كجندي عجوز جئت اليوم؛ لأعلن نهاية حياتي العسكرية وأتلاشى بعيدًا .. كالجندي العجوز الذي حاول القيام بواجبه، كما يملي عليه ضميره .. من رؤية ذلك الواجب .. وداعًا).

استمرت الحرب الكورية لعامين آخرين، وفي هذه الأثناء ارتفعت خسائر الأمم المتحدة إلى مائة وأربعين ألف جندي من بينهم ثلاثة وثلاثون ألف أمريكي قتلى، سقط بالمقابل مليون ونصف مليون شيوعي، ولم ينتصر أي من الطرفين.

أما كوريا فكانت بحالة دمار شامل، ولكن عندما وقعت الهدنة في تموز-يوليو من عام ١٩٥٣ لم تنتقل الحدود عن خط العرض الثامن والثلاثين إلا قليلاً.

اليابان هي الرابع الوحيد، تحسن اقتصادها على حساب الجهود التي كانت تبذلها الأمم المتحدة لتصبح على وشك الانطلاق في مسيرتها فتتحول إلى واحدة من أهم القوى الاقتصادية في القرن العشرين.

شهدت حرب كوريا نهاية رجلين شهيرين، قبل ستة أشهر من وقف إطلاق النار انتهى عهد الرئيس ترومان.

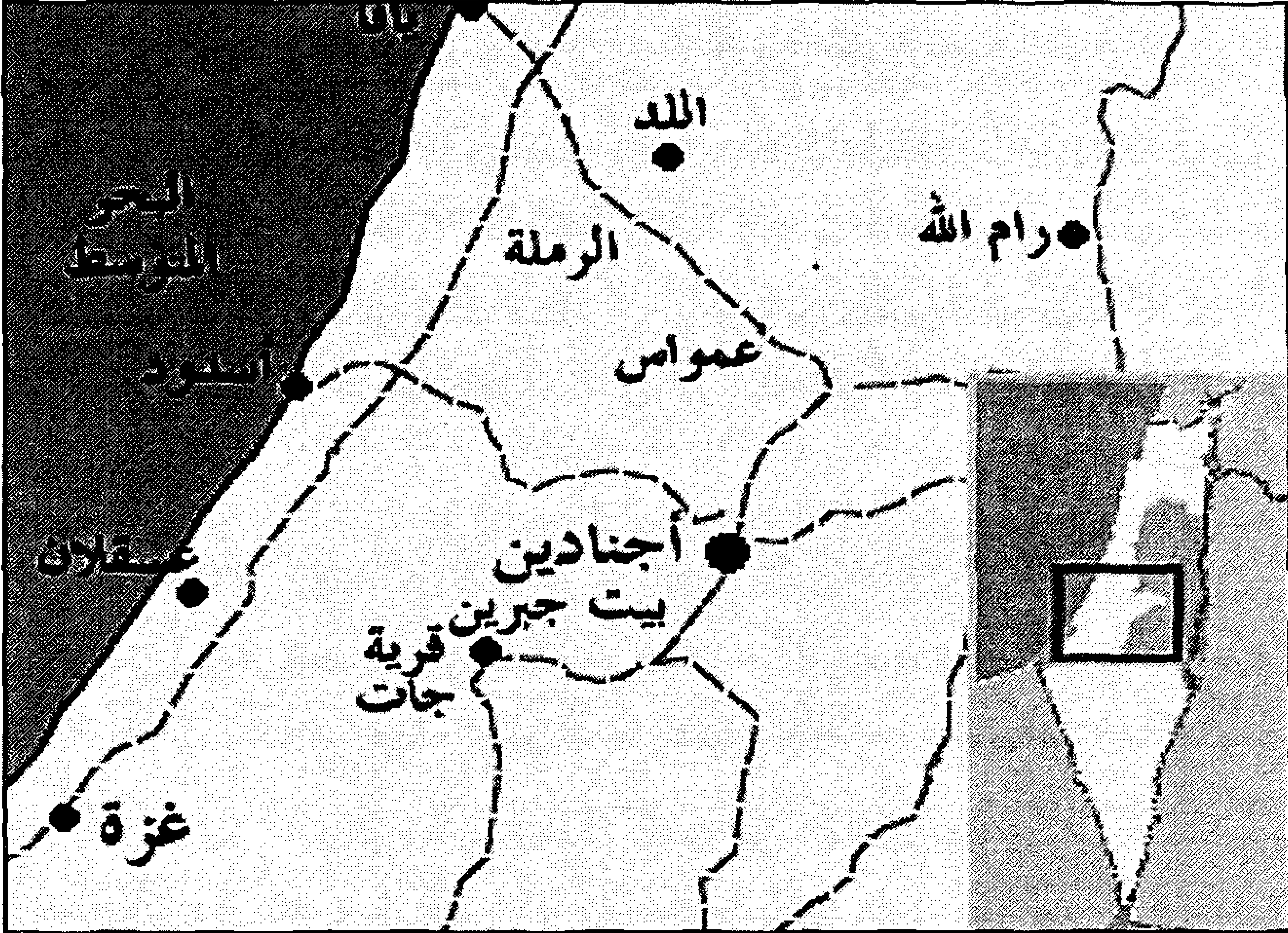
في الكلمة الوداعية التي ألقاها من البيت الأبيض، أكد أن قرار الدخول في الحرب الكورية كان الأهم خلال فترة حكمه حددت كوريا طبيعة الحرب الباردة.



١٥

معركــة أجنادين..
معمل لتفريخ الأبطال !!





كان الصحابي الجليل "خالد بن سعيد بن العاص"، أول قائد عقد له أبو بكر الصديق رضى الله عنه لواء فتح الشام، وأمره بأن يعسكر بجيشه في تيماء شمالي الحجاز، وأوصاه بعدم البدء في القتال إلا إذا قُوتل، وكان الخليفة الحصيف يقصد من وراء ذلك أن يكون جيش خالد عونًا ومددًا عند الضرورة، وأن يكون عينه على تحركات الروم لا أن يكون طليعة لفتح بلاد الشام.

وحدث ما كان منه بد ، فقد اشتبك خالد بن سعيد مع الروم التي استنفرت بعض القبائل العربية من بهراء وكلب ولخم وجذام وغسان لقتال المسلمين، ولم تكن قوات خالد تكفي لقتال الروم، فهُزم هزيمة قاسية في "مرج الصفر" في (٤ من المحرم ١٣ هـ = ١١ من مارس ٦٣٤م) واستشهد ابنه في المعركة، ورجع بمن بقي معه إلى "ذي مروة" ينتظر قرار الخليفة.

ولما وصلت أنباء الهزيمة إلى الخليفة أبي بكر الصديق أهمه الأمر، وجمع كبار الصحابة لتبادل الرأي والمشورة، واستقر الرأي على دفع العدوان، ورد الروم الذين قد يغرهم هذا النصر المفاجئ فيهددون أمن الدولة التي بدأت تستعيد أنفاسها بعد قضائها على حروب الردة، وتوالى أنباء النصر الذي تحقق في جبهة العراق.

جهّز الخليفة الصديق أربعة جيوش عسكرية، واختار لها أكفأ قواده، وأكثرهم مرانًا بالحرب وتمرسًا بالقتال، وحدد لكل جيش مهمته التي سيقوم بها.

أما الجيش الأول فكان تحت قيادة "يزيد بن أبي سفيان"، ووجهته "البلقاء"، وهي اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية، ويذكر "المدائني" أنه كان أول أمراء الشام خروجًا.

- وكان الجيش الثاني بقيادة "شرحبيل ابن حسنة"، ووجهته منطقة "بُصرى".

- وجعل أبو بكر الصديق قيادة الجيش الثالث لـ "أبي عبيدة بن الجراح"، ووجهته منطقة "الجابية"، وقد لحق خالد بن سعيد الذي ذكرناه آنفًا بجيش أبي عبيدة.

- أما الجيش الرابع فكان بقيادة "عمرو بن العاص"، ووجهته "فلسطين". وأمرهم أبو بكر الصديق بأن يعاونوا بعضهم بعضًا، وإذا اجتمعوا معًا فالقيادة العامة لـ أبي عبيدة بن الجراح.

وكان الصديق كلما خرج لتوديع جيش من الجيوش الأربعة يوصي قائده بوصايا جامعة، تبين سلوك الفاتحين المسلمين وأخلاقهم في التعامل مع أهالي البلاد القادمين إليها. وأقتطف من وصية الصديق لـ يزيد بن أبي سفيان هذه الكلمات: "وإني موصيكم بعشر كلمات فاحفظوهن: لا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا صبيًّا صغيرًا ولا امرأة، ولا تهدموا

بيتًا ولا بيعة، ولا تقطعوا شجرًا مثمرًا، ولا تعقروا بهيمة إلا لأكل، ولا تحرقوا نخلاً ولا تُغرقوه، ولا تعص، ولا تجبن..."

وجاء في وصيته لـ عمرو بن العاص: ".. اسلك طريق إيلياء حتى تنتهي إلى أرض فلسطين، وإياك أن تكون وانيًا عما ندبتك إليه، وإياك والوهن، وإياك أن تقول: جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به، واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر، فأكرمهم واعرف حقهم، ولا تتطاول عليهم بسلطانك.. وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك، والصلاة ثم الصلاة، أذن بها إذا دخل وقتها، واحذر عدوك، وأمر أصحابك بالحرس، ولتكن أنت بعد ذلك مطلعًا عليهم..".

وكان مجموع تلك القوات نحو ٢٤ ألف مقاتل، وقد نجحت تلك الجيوش في التوغل في جنوبي الشام، واشتبكت في مناوشات صغيرة مع الروم، واضطر قيصرهم إلى حشد ما يملك من قوات وعتاد حتى يدفع جيوش المسلمين التي أقبلت، ولا هم لها سوى فتح تلك البلاد ونشر العدل والمساواة فيها، ولما رأى المسلمون ما يحشده الروم من قوات ضخمة أرسلوا إلى الصديق يخبرونه بحالهم ويطلبون منه المدد، فأمدهم بعكرمة بن أبي جهل ومن معه من الرجال، وكان الصديق قد استبقاهم في المدينة تحسبًا لأي طارئ أو مفاجأة تحدث في أثناء الفتح، غير أن جبهة القتال لم يحدث فيها تغيير، ولم يغير المدد شيئًا مما يجري، وتجمد الموقف دون قتال يحسم الموقف في الوقت الذي كان فيه خالد بن الوليد في جبهة العراق ينتقل من نصر إلى نصر، والأبصار متعلقة بما يحققه من ظفر لا تكاد تصدق أن تتهاوى قوة الفرس أمام ضربات خالد حتى سقطت الحيرة في يديه.

هال الخليفة أبا بكر أن تبقى الأوضاع في الشام دون تحريك، وأن يعجز القادة المجتمعون على تحقيق النصر في أول الجولات بينهم وبين قوات الروم التي لم تكن ضعيفة الجانب قليلة الجند، وإنما كانت تعيش فترة زاهية بعد فوزها على الفرس وعودة الثقة إليها.

وعزم الصديق على بث روح جديدة تعودت الفوز والظفر، ومشى النصر في ركابها كأنه قدرها المحتوم، ولم يكن غير خالد من يمكنه تغيير الأوضاع، وإثارة الهمم، ووضع

الخطط التي تأتي بالنصر، وكان الصديق أكثر الناس ثقة في كفاءة خالد وقدرته العسكرية، فأطلق كلمته السائرة التي رددتها كتب التاريخ: "والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد".

وبعث الصديق إلى خالد بأن يقدم إلى الشام ومعه نصف قواته التي كانت معه في العراق، حتى يلتقي بأبي عبيدة بن الجراح ومن معه، ويتسلم القيادة العامة للجيوش كلها، وفي الوقت نفسه كتب الصديق إلى أبي عبيدة يخبره بما أقدم عليه، وجاء في كتابه: ".. فإني قد وليت خالدًا قتال الروم بالشام، فلا تخالفه، واسمع له وأطع أمره، فإني قد وليته عليك، وأنا أعلم أنك خير منه، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك، أراد الله بنا وبك سبل الرشاد والسلام عليك ورحمة الله".

امتثل خالد بن الوليد لأوامر الخليفة، وخرج من الحيرة بالعراق في (٨ من صفر ١٣ هـ = ١٤ من أبريل ٦٣٤م) في تسعة آلاف جندي، فسار شمالاً ثم عرج حتى اجتاز صحراء السماوة في واحدة من أجرأ المغامرات العسكرية في التاريخ، وأعظمها خطرًا؛ حيث قطع أكثر من ألف كيلو متر في ثمانية عشر يومًا في صحراء مهلكة حتى نزل بجيشه أمام الباب الشرقي لدمشق، ثم سار حتى أتى أبا عبيدة بالجابية؛ فالتقيا ومضيَا بجيشيهما إلى "بصرى".

تجمعت الجيوش كلها تحت قيادة خالد بن الوليد، وحاصر بصرى حصارًا شديدًا واضطرت إلى طلب الصلح ودفع الجزية، فأجابها خالد إلى الصلح وفتحها الله على المسلمين في (٢٥ من شهر ربيع الأول ١٣ هـ = ٣٠ من مايو ٦٣٤م)، فكانت أول مدينة فُتحت من الشام صلحًا على أن يؤمنوا على دمائهم وأموالهم وأولادهم، نظير الجزية التي سيدفعونها.

بعد سقوط بُصرى استنفر هرقل قواته، وأدرك أن الأمر جد لا هذر فيه، وأن مستقبل الشام بات في خطر ما لم يواجه المسلمين بكل ما يملك من قوة وعتاد، حتى تسلم الشام وتعود طيعة تحت إمرته، فحشد العديد من القوات الضخمة، وبعث بها إلى بصرى حيث شرحبيل ابن حسنة في قواته المحدودة، وفي الوقت نفسه جهّز جيشًا ضخمًا، ووجّهه إلى أجنادين من جنوب فلسطين، وانضم إليه نصارى العرب والشام.

تجمعت الجيوش الإسلامية مرة أخرى عند أجنادين، وهي موضع يبعد عن "بيت جبرين" بحوالي أحد عشر كيلو مترًا، وعن الرملة حوالي تسعة وثلاثين كيلو مترًا، وكانت ملتقى مهمًّا للطرق.

نظم خالد بن الوليد جيشه البالغ نحو ٤٠ ألف جندي، وأحسن صنعه وترتيبه على نحو جديد، فهذه أول مرة تجتمع جيوش المسلمين في الشام في معركة كبرى مع الروم الذين استعدوا للقاء بجيش كبير بلغ ٩٠ ألف جندي.

شكّل خالد جيشه ونظّمه ميمنة وميسرة، وقلبًا، ومؤخرة؛ فجعل على الميمنة "معاذ ابن جبل"، وعلى الميسرة سعيد بن عامر، وعلى المشاة في القلب "أبا عبيدة بن الجراح"، وعلى الخيل "سعيد بن زيد"، وأقبل خالد يمر بين الصفوف لا يستقر في مكان، يحرض الجند على القتال، ويحثهم على الصبر والثبات، ويشد من أزرهم، وأقام النساء خلف الجيش يبتهلن إلى الله ويدعونه ويستصرخنه ويستنزلن نصره ومعونته، ويحمسن الرجال.

وتهيأ جيش الروم للقتال، وجعل قادته الرجالة في المقدمة، يليهم الخيل، واصطف الجيش في كتائب، ومد صفوفهم حتى بلغ كل صف نحو ألف مقاتل.

وبعد صلاة الفجر من يوم (٢٧ من جمادى الأولى ١٣ هـ = ٣٠ من يوليو ٦٣٤م) أمر خالد جنوده بالتقدم حتى يقتربوا من جيش الروم، وأقبل على كل جمع من جيشه يقول لهم: "اتقوا الله عباد الله، قاتلوا في الله من كفر بالله ولا تنكصوا على أعقابكم، ولا تهنوا من عدوكم، ولكن أقدموا كإقدام الأسد وأنتم أحرار كرام، فقد أبيتم الدنيا واستوجبتم على الله ثواب الآخرة، ولا يهولكم ما ترون من كثرتهم فإن الله منزل عليهم رجزه وعقابه، ثم قال: أيها الناس إذا أنا حملت فاحملوا".

وكان خالد بن الوليد يرى تأخير القتال حتى يصلوا الظهر وتهب الرياح، وهي الساعة التي كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحب القتال فيها، ولو أدى ذلك أن يقف مدافعًا حتى تحين تلك الساعة.

أُعجب الروم بكثرتهم وغرتهم قوتهم وعتادهم فبادروا بالهجوم على الميمنة؛ حيث يقف معاذ بن جبل، فثبت المسلمون ولم يتزحزح أحد، فأعادوا الكرة على الميسرة فلم

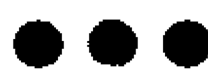
تكن أقل ثباتًا وصبرًا من الميمنة في تحمل الهجمة الشرسة وردها، فعادوا يمطرون المسلمين بنبالهم، فتنادى قادة المسلمين طالبين من خالد أن يأمرهم بالهجوم، حتى لا يظن الروم بالمسلمين ضعفا ووهنا ويعاودون الهجوم عليهم مرة أخرى، فأقبل خالد على خيل المسلمين، وقال: احملوا رحمكم الله على اسم الله" فحملوا حملة صادقة زلزلزت الأرض من تحت أقدام عدوهم، وانطلق الفرسان والمشاة يمزقون صفوف العدو فاضطربت جموعهم واختلت قواهم.

فلما رأى القبقلار قائد الروم أن الأمر خرج من يده، وأن الهزيمة واقعة لا محالة بجنوده قال لمن حوله: لفوا رأسي بثوب، فلما تعجبوا من طلبه قال: يوم البئيس لا أحب أن أراه! ما رأيت في الدنيا يومًا أشد من هذا، وما لبث أن حز المسلمون رأسه وهو ملفوف بثوبه، فانهارت قوى الروم، واستسلمت للهزيمة، ولما بلغ هرقل أخبار الهزيمة أسقط في يده وامتلأ قلبه رعبًا.

وفي هذه المعركة أبلى المسلمون بلاءً حسنًا، وضربوا أروع الأمثلة في طلب الشهادة، وإظهار روح الجهاد والصبر عند اللقاء، وبرز في هذا اليوم من المسلمين "ضرار بن الأزور"، وكان يومًا مشهودًا له، وبلغ جملة ما قتله من فرسان الروم ثلاثين فارسًا، وقتلت "أم حكيم" الصحابية الجليلة أربعة من الروم بعمود خيمتها.

وبلغ قتلى الروم في هذه المعركة أعدادًا هائلة تجاوزت الآلاف، واستشهد من المسلمين ٤٥٠ شهيدًا.

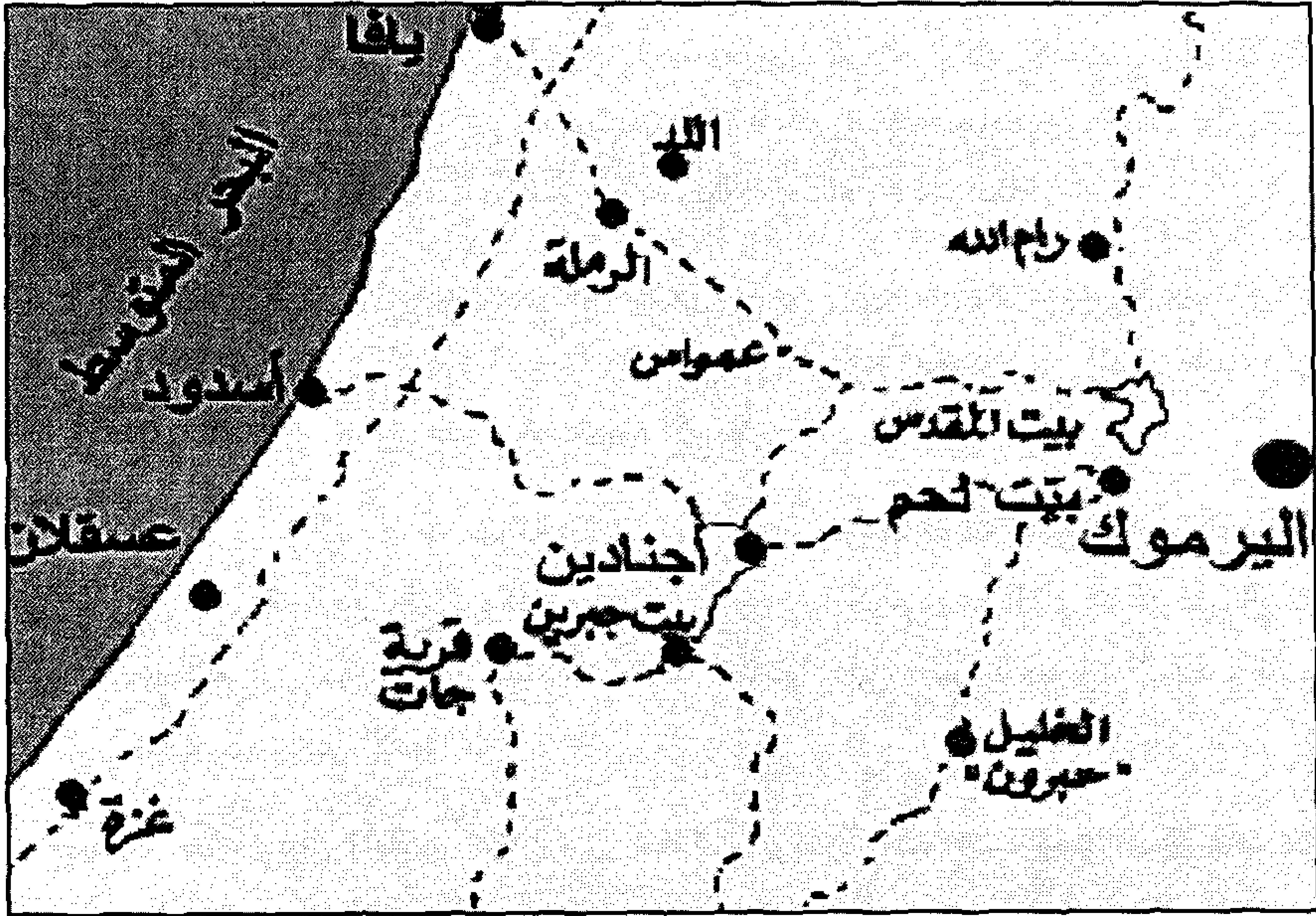
وبعد أن انقشع غبار المعركة وتحقق النصر، بعث خالد بن الوليد برسالة إلى الخليفة أبي بكر الصديق يبشره بالنصر وما أفاء الله عليهم من الظفر والغنيمة، وجاء فيها: ".. أما بعد فإني أخبرك أيها الصديق إنا التقينا نحن والمشركون، وقد جمعوا لنا جموعا جمة كثيرة بأجنادين، وقد رفعوا صلبهم، ونشروا كتبهم، وتقاسموا بالله لا يفرون حتى يفنوا أو يخرجونا من بلادهم، فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكلين على الله، فطاعناهم بالرماح، ثم صرنا إلى السيوف، فقارعناهم في كل فج.. فأحمد الله على إعزاز دينه وإذلال عدوه وحسن الصنيع لأوليائه"؛ فلما قرأ أبو بكر الرسالة فرح بها، وقال: "الحمد لله الذي نصر المسلمين، وأقر عيني بذلك".



١٦

ليست اليرموك وحدها ..
خالد بن الوليد.. المنتصر دومًا !!





خالد بن الوليد قائد إسلامي عظيم كان من المجاهدين المسلمين الذين عاصروا الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وأطلق الرسول عليه لقب " سيف الله المسلول " ، كانت بدايته في الجاهلية حتى مَنَّ الله سبحانه وتعالى عليه بنعمة الهداية، فدخل إلى الإسلام بعد غزوة الأحزاب، وبعد إسلامه قاتل بسيفه أعداءه من المشركين والمنافقين كان قائداً حربيّاً لا يشق له غبار، وتولى قيادة الجيش الإسلامي في العديد من المعارك الهامة والتي كللت بالنصر من عند الله.

قال عنه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام " ما مثل خالد من جهل الإسلام ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ولقدمناه على غيره"، وبعد الإسلام قال عليه الصلاة والسلام" الحمد لله الذي هداك ، لقد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير" .

القائد العبقري خالد بن الوليد الذي لا تزال خططه الحربية في معاركه مثار إعجاب الشرق والغرب هو "أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة"، ينتهي نسبه إلى "مرة بن كعب بن لؤي" الجد السابع للنبي (صلى الله عليه وسلم) و"أبي بكر الصديق" رضي الله عنه. فيلتقي معهما عند هذا الجد .

ينتمي خالد إلى قبيلة "بني مخزوم" أحد بطون "قريش" التي كانت إليها "القبة" والأعنة (الخيل)، وكان لها شرف عظيم ومكانة كبيرة في الجاهلية، وكانت على قدر كبير من الجاه والثراء، وكانت بينهم وبين قريش مصاهرة متبادلة.

وكان منهم الكثير من السابقين للإسلام؛ منهم: "أبو سلمة بن عبد الأسد"، وكان في طليعة المهاجرين إلى الحبشة، و"الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي " الذي كانت داره أول مسجد للإسلام، وأول مدرسة للدعوة الإسلامية.

وكانت أسرة "خالد" ذات منزلة متميزة في بني مخزوم؛ فعمه "أبو أمية بن المغيرة" كان معروفًا بالحكمة والفضل، وكان مشهورًا بالجود والكرم، وهو الذي أشار على قبائل قريش بتحكيم أول من يدخل عليهم حينما اختلفوا على وضع الحجر الأسود وكادوا يقتتلون، وقد مات قبل الإسلام.

وعمه "هشام بن المغيرة" كان من سادات قريش وأشرافها، وهو الذي قاد بني مخزوم في "حرب الفجار".

وكان لخالد إخوة كثيرون بلغ عددهم ستة من الذكور هم: "العاص" و"أبوقيس" و"عبد شمس" و"عمارة" و"هشام" و"الوليد"، واثنتان من الإناث هما: "فاطمة" و"فاضنة".

أما أبوه فهو "عبد شمس الوليد بن المغيرة المخزومي"، وكان ذا جاه عريض وشرف رفيع في "قريش"، وكان معروفًا بالحكمة والعقل؛ فكان أحدَ حكام "قريش" في الجاهلية، وكان ثَريًّا صاحب ضياع وبساتين لا ينقطع ثمرها طوال العام.

وفي هذا الجو المترف المحفوف بالنعيم نشأ "خالد بن الوليد"، وتعلم الفروسية كغيره من أبناء الأشراف، ولكنه أبدى نبوغًا ومهارة في الفروسية منذ وقت مبكر، وتميز على جميع أقرانه، كما عُرف بالشجاعة والجَلَد والإقدام، والمهارة وخفة الحركة في الكرّ والفرّ.

واستطاع "خالد" أن يثبت وجوده في ميادين القتال، وأظهر من فنون الفروسية والبراعة في القتال ما جعله فارس عصره بلا منازع.

وكان "خالد" -كغيره من أبناء "قريش"- معاديًا للإسلام ناقمًا على النبي (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين الذين آمنوا به وناصروه، بل كان شديد العداوة لهم شديد التحامل عليهم، ومن ثَم فقد كان حريصًا على محاربة الإسلام والمسلمين، وكان في طليعة المحاربين لهم في كل المعارك التي خاضها الكفار والمشركون ضد المسلمين.

وكان له دور بارز في إحراز النصر للمشركين على المسلمين في غزوة "أحد"، حينما وجد غِرَّة من المسلمين بعد أن خالف الرماة أوامر النبي (صلى الله عليه وسلم)، وتركوا مواقعهم في أعلى الجبل، ونزلوا ليشاركوا إخوانهم جمع غنائم وأسلاب المشركين المنهزمين، فدار "خالد" بفلول المشركين وباغَتَ المسلمين من خلفهم، فسادت الفوضى والاضطراب في صفوفهم، واستطاع أن يحقق النصر للمشركين بعد أن كانت هزيمتهم محققة.

كذلك فإن "خالدا" كان أحد صناديد قريش يوم الخندق الذين كانوا يتناوبون الطواف حول الخندق علهم يجدون ثغرة منه؛ فيأخذوا المسلمين على غرة، ولما فشلت الأحزاب في اقتحام الخندق، وولوا منهزمين، كان "خالد بن الوليد" أحد الذين يحمون ظهورهم حتى لا يباغتهم المسلمون.

وفي "الحديبية" خرج "خالد" على رأس مائتي فارس دفعت بهم قريش لملاقاة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه، ومنعهم من دخول مكة، وقد أسفر الأمر عن عقد معاهدة بين المسلمين والمشركين عرفت باسم "صلح الحديبية".

وقد تجلت كراهية "خالد" للإسلام والمسلمين حينما أراد المسلمون دخول مكة في عمرة القضاء؛ فلم يطِق خالد أن يراهم يدخلون مكة -رغم ما بينهم من صلح ومعاهدة- وقرر الخروج من مكة حتى لا يبصر أحدًا منهم فيها.

أسلم خالد في (صفر ٨ هـ= يونيو ٦٢٩م)؛ أي قبل فتح مكة بستة أشهر فقط، وقبل غزوة مؤتة بنحو شهرين.

ويروى في سبب إسلامه: أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال للوليد بن الوليد أخيه، وهو في عمرة القضاء: "لو جاء خالد لقدّمناه، ومن مثله سقط عليه الإسلام في عقله"، فكتب "الوليد" إلى "خالد" يرغبه في الإسلام، ويخبره بما قاله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيه، فكان ذلك سبب إسلامه وهجرته.

وقد سُرَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) بإسلام خالد، وقال له حينما أقبل عليه: "الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير".

وفرح المسلمون بانضمام خالد إليهم، فقد أعزه الله بالإسلام كما أعز الإسلام به، وتحول عداء خالد للإسلام والمسلمين إلى حب وتراحم، وانقلبت موالاته للكافرين إلى عداء سافر، وكراهية متأججة، وجولات متلاحقة من الصراع والقتال.

وكانت أولى حلقات الصراع بين خالد والمشركين -بعد التحول العظيم الذي طرأ على حياة خالد وفكره وعقيدته- في (جمادى الأولى ٨هـ = سبتمبر ٦٢٩م) حينما أرسل النبي (صلى الله عليه وسلم) سرية الأمراء إلى "مؤتة" للقصاص من قتلة "الحارث ابن عمير" رسوله إلى صاحب بصرى.

وجعل النبي (صلى الله عليه وسلم) على هذا الجيش: "زيد بن حارثة" ومن بعده "جعفر بن أبي طالب"، ثم "عبد الله بن رواحة"، فلما التقى المسلمون بجموع الروم، استشهد القادة الثلاثة الذين عينهم النبي (صلى الله عليه وسلم)، وأصبح المسلمون بلا قائد، وكاد عقدهم ينفرط وهم في أوج المعركة، وأصبح موقفهم حرجًا، فاختاروا "خالدًا" قائدًا عليهم.

واستطاع "خالد" بحنكته ومهارته أن يعيد الثقة إلى نفوس المسلمين بعد أن أعاد تنظيم صفوفهم، وقد أبلى "خالد" - في تلك المعركة - بلاء حسنًا، فقد اندفع إلى صفوف العدو يعمل فيهم سيفه قتلاً وجرحًا حتى تكسرت في يده تسعة أسياف.

وقد أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه باستشهاد الأمراء الثلاثة، وأخبرهم أن "خالدًا" أخذ اللواء من بعدهم، وقال عنه: "اللهم إنه سيف من سيوفك، فأنت تنصره". فسمي خالد "سيف الله" منذ ذلك اليوم.

وبرغم قلة عدد جيش المسلمين الذي لا يزيد عن ثلاثة آلاف فارس، فإنه استطاع أن يلقي في روع الروم أن مددًا جاء للمسلمين بعد أن عمد إلى تغيير نظام الجيش بعد كل جولة، فتوقف الروم عن القتال، وتمكن خالد بذلك أن يحفظ جيش المسلمين، ويعود به إلى المدينة استعدادًا لجولات قادمة.

وحينما خرج النبي (صلى الله عليه وسلم) في نحو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار؛ لفتح "مكة" في (١٠ من رمضان ٨هـ = ٣ من يناير ٦٣٠م)، جعله النبي (صلى الله عليه وسلم) على أحد جيوش المسلمين الأربعة، وأمره بالدخول من "الليط" في أسفل مكة، فكان خالد هو أول من دخل من أمراء النبي (صلى الله عليه وسلم)، بعد أن اشتبك مع المشركين الذين تصدوا له وحاولوا منعه من دخول البيت الحرام، فقتل منهم ثلاثة عشر مشركًا، واستشهد ثلاثة من المسلمين، ودخل المسلمون مكة - بعد ذلك - دون قتال.

وبعد فتح مكة أرسل النبي (صلى الله عليه وسلم) خالدًا في ثلاثين فارسًا من المسلمين إلى "بطن نخلة" لهدم "العزى" أكبر أصنام "قريش" وأعظمها لديها.

ثم أرسله - بعد ذلك - في نحو ثلاثمائة وخمسين رجلاً إلى "بني جذيمة" يدعوهم إلى الإسلام، ولكن "خالدًا" - بما عُرف عنه من البأس والحماس - قتل منهم عددًا كبيرًا برغم إعلانهم الدخول في الإسلام؛ ظنًّا منه أنهم إنما أعلنوا إسلامهم لدرء القتل عن أنفسهم، وقد غضب النبي (صلى الله عليه وسلم) لما فعله خالد وقال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد"، وأرسل "عليَّ بن أبي طالب" لدفع دية قتلى "بني جذيمة".

وقد اعتبر كثير من المؤرخين تلك الحادثة إحدى مثالب "خالد"، وإن كانوا جميعًا يتفقون على أنه أخطأ متأولاً، وليس عن قصد أو تعمد. وليس أدل على ذلك من أنه ظل يحظى بثقة النبي (صلى الله عليه وسلم)، بل إنه ولاه - بعد ذلك - إمارة عدد كبير من السرايا، وجعله على مقدمة جيش المسلمين في العديد من جولاتهم ضد الكفار والمشركين.

ففي "غزوة حنين" كان "خالد" على مقدمة خيل "بني سليم" في نحو مائة فارس، خرجوا لقتال قبيلة "هوازن" في (شوال ٨هـ = فبراير ٦٣٠م)، وقد أبلى فيها "خالد" بلاءً حسنًا، وقاتل بشجاعة، وثبت في المعركة بعد أن فرَّ من كان معه من "بني سليم"، وظل يقاتل ببسالة وبطولة حتى أثخنته الجراح البليغة، فلما علم النبي (صلى الله عليه وسلم) بما أصابه سأل عن رحله ليعوده.

ولكن هذه الجراح البليغة لم تمنع خالدًا أن يكون على رأس جيش المسلمين حينما خرج إلى "الطائف" لحرب "ثقيف" و"هوازن".

ثم بعثه النبي (صلى الله عليه وسلم) - بعد ذلك - إلى "بني المصطلق" سنة (٩هـ = ٦٣٠م)، ليقف على حقيقة أمرهم، بعدما بلغه أنهم ارتدوا عن الإسلام، فأتاهم "خالد" ليلاً، وبعث عيونه إليهم، فعلم أنهم على إسلامهم، فعاد إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فأخبره بخبرهم.

وفي (رجب ٩هـ = أكتوبر ٦٣٠م) أرسل النبي (صلى الله عليه وسلم) "خالدًا" في أربعمائة وعشرين فارسًا إلى "أكيدر بن عبد الملك" صاحب "دومة الجندل"، فاستطاع "خالد" أسر "أكيدر"، وغنم المسلمون مغانم كثيرة، وساقه إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فصالحه على فتح "دومة الجندل"، وأن يدفع الجزية للمسلمين، وكتب له النبي (صلى الله عليه وسلم) كتابًا بذلك.

وفي (جمادى الأولى ١٠هـ = أغسطس ٦٣١م) بعث النبي (صلى الله عليه وسلم) "خالدًا" إلى "بني الحارث بن كعب" بنجران في نحو أربعمائة من المسلمين، ليخيرهم بين الإسلام أو القتال، فأسلم كثير منهم، وأقام "خالد" فيهم ستة أشهر يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه، ثم أرسل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) يخبره بإسلامهم، فكتب إليه النبي يستقدمه مع وفد منهم.

وبعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) شارك "خالد" في قتال المرتدين في عهد "أبي بكر الصديق" - رضي الله عنه - فقد ظن بعض المنافقين وضعاف الإيمان أن الفرصة قد أصبحت سانحة لهم - بعد وفاة النبي - للانقضاض على هذا الدين، فمنهم من ادعى النبوة، ومنهم من تمرد على الإسلام ومنع الزكاة، ومنهم من ارتد

عن الإسلام. وقد وقع اضطراب كبير، واشتعلت الفتنة التي أحمى أوارها وزكّى نيرانها كثير من أعداء الإسلام.

وقد واجه الخليفة الأول تلك الفتنة بشجاعة وحزم، وشارك خالد بن الوليد بنصيب وافر في التصدي لهذه الفتنة والقضاء عليها، حينما وجهه أبو بكر لقتال "طليحة بن خويلد الأسدي" وكان قد تنبأ في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) حينما علم بمرضه بعد حجة الوداع، ولكن خطره تفاقم وازدادت فتنته بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) والتفاف كثير من القبائل حوله، واستطاع خالد أن يلحق بطليحة وجيشه هزيمة منكرة فر "طليحة" على إثرها إلى "الشام"، ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان له دور بارز في حروب الفرس، وقد استشهد في عهد عمر بن الخطاب.

وبعد فرار طليحة راح خالد يتتبع فلول المرتدين، فأعمل فيهم سيفه حتى عاد كثير منهم إلى الإسلام.

ثم سار خالد ومن معه إلى مالك بن نويرة الذي منع الزكاة بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم)، فلما علم مالك بقدومه أمر قومه بالتفرق حتى لا يظفر بهم خالد، ولكن خالدا تمكن من أسره في نفر من قومه، وكانت ليلة شديدة البرودة، فأمر خالد مناديًا أن أدفئوا أسراكم، وظن الحرس -وكانوا من كنانة- أنه أراد قتل الأسرى - على لغتهم- فشرعوا فيهم سيوفهم بالقتل، حتى إذا ما انتبه خالد كانوا قد فرغوا منهم.

وأراد خالد أن يكفّر عن ذلك الخطأ الذي لم يعمده فتزوج من امرأة مالك؛ مواساة لها، وتخفيفًا عن مصيبتها في فقد زوجها الفارس الشاعر.

وخرج خالد - بعد ذلك - لقتال مسيلمة الكذاب الذي كان من أشد أولئك المتنبئين خطرًا، ومن أكثرهم أعوانًا وجندًا، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين، انتهت بهزيمة "بني حنيفة" ومقتل "مسيلمة"، وقد استشهد في تلك الحرب عدد كبير من المسلمين بلغ أكثر من ثلاثمائة وستين من المهاجرين والأنصار، وكان أكثرهم من السابقين إلى الإسلام، وحفظة القرآن، وهو الأمر الذي دعا أبا بكر إلى التفكير في جمع القرآن الكريم؛ خوفًا عليه من الضياع بعد موت هذا العدد الكبير من الحفاظ.

ومع بدايات عام (١٢هـ = ٦٣٣م) بعد أن قضى أبو بكر على فتنة الردة التي كادت تمزق الأمة وتقضي على الإسلام، توجه الصديق ببصره إلى العراق يريد تأمين حدود الدولة الإسلامية، وكسر شوكة الفرس المتربصين بالإسلام.

وكان خالد في طليعة القواد الذين أرسلهم أبو بكر لتلك المهمة، واستطاع خالد أن يحقق عددًا من الانتصارات على الفرس في "الأبَلَّة" و"المذار" و"الولجة" و"أليس"، وواصل خالد تقدمه نحو "الحيرة" ففتحها بعد أن صالحه أهلها على الجزية، واستمر خالد في تقدمه وفتوحاته حتى فتح جانبًا كبيرًا من العراق، ثم اتجه إلى "الأنبار" ليفتحها، ولكن أهلها تحصنوا بها، وكان حولها خندق عظيم يصعب اجتيازه، ولكنَّ خالدًا لم تعجزه الحيلة، فأمر جنوده برمي الجنود المتحصنين بالسهام في عيونهم، حتى أصابوا نحو ألف عين منهم، ثم عمد إلى الإبل الضعاف والهزيلة، فنحرها وألقى بها في أضيق جانب من الخندق، حتى صنع جسرًا استطاع العبور عليه هو وفرسان المسلمين تحت وابل من السهام أطلقه رماته لحمايتهم من الأعداء المتربصين بهم من فوق أسوار الحصن العالية المنيعة.. فلما رأى قائد الفرس ما صنع خالد وجنوده، طلب الصلح، وأصبحت الأنبار في قبضة المسلمين.

واستخلف خالد "الزبرقان بن بدر" على الأنبار واتجه إلى "عين التمر" التي اجتمع بها عدد كبير من الفرس، تؤازرهم بعض قبائل العرب، فلما بلغهم مقدم "خالد" هربوا، والتجأ من بقي منهم إلى الحصن، وحاصر خالد الحصن حتى استسلم من فيه، فاستخلف "عويم بن الكاهل الأسلمي" على عين التمر، وخرج في جيشه إلى دومة الجندل ففتحها.

وبسط خالد نفوذه على الحصيد والخنافس والمصيخ، وامتد سلطانه إلى الفراض وأرض السواد ما بين دجلة والفرات.

ثم رأى أبو بكر أن يتجه بفتوحاته إلى الشام، فكان خالد قائده الذي يرمي به الأعداء في أي موضع، حتى قال عنه: "والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد"، ولم يخيب خالد ظن أبي بكر فيه، فقد استطاع أن يصل إلى الشام بسرعة بعد أن سلك طريقًا مختصرًا، مجتازًا المفاوز المهلكة غير المطروقة، متخذًا "رافع بن عمير الطائي"

دليلاً له، ليكون في نجدة أمراء أبي بكر في الشام: "أبي عبيدة عامر بن الجراح"، و"شرحبيل ابن حسنة" و"عمرو بن العاص"، فيفاجئ الروم قبل أن يستعدوا له.. وما إن وصل خالد إلى الشام حتى عمد إلى تجميع جيوش المسلمين تحت راية واحدة، ليتمكنوا من مواجهة عدوهم والتصدي له.

وأعاد خالد تنظيم الجيش، فقسمه إلى كراديس، ليكثروا في عين عدوهم فيهابهم، وجعل كل واحد من قادة المسلمين على رأس عدد من الكراديس، فجعل أبا عبيدة في القلب على (١٨) كردوسا، ومعه عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو، وجعل عمرو ابن العاص في الميمنة على ١٠ كراديس ومعه شرحبيل ابن حسنة، وجعل يزيد بن أبي سفيان في الميسرة على ١٠ كراديس.

والتقى المسلمون والروم في وادي اليرموك وحمل المسلمون على الروم حملة شديدة، أبلوا فيها بلاء حسنا حتى كتب لهم النصر في النهاية. وقد استشهد من المسلمين في هذه الموقعة نحو ثلاثة آلاف، فيهم كثير من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وكان جيش البيزنطيين يتألف من خمسة جيوش، حيث قاد ماهان (أو فاهان) ملك أرمينية جيشه الأرمني، وقاد الأمير "قناطير" (Buccinator) السلافي، أو الروسي، جيشه من الشعوب السلافية، وكان ملك الغساسنة جبلة بن الأيهم الغساني على رأس جيش المسيحيين العرب (كلهم من راكبي الخيول والجمال)، وكانت الجيوش الأوروبية كاملة تحت قيادة غريغوري ودريجان، حيث تولى دريجان قيادة الجيوش مجتمعةً. كما شارك تيودوروس، شقيق القيصر هرقل في المعركة، وهو "تذارق" بالمراجع العربية، وكذلك "دارقص أو سقلاب"، وكان خصيا لهرقل قاد الآلاف من مقاتلي الروم. كان جند غريغوري على ميمنة جيوش الروم وقد ربطوا أرجلهم بالسلاسل تعبيراً عن تصميمهم على الصمود تحت كل الظروف، ورمزا للشجاعة، كما أن السلاسل يمكن أن تستخدم ضد خيول المسلمين في حال حدوث خرق في صفوف جيش غريغوري. وهذا ماجعل حركة الجنود بطيئة على كل الأحوال.

أعاد خالد تنظيم الجيش بعد توليه لقيادة الجيش، فجعل ربع جيش المسلمين من الخيالة، وكانوا حوالي ١٠ آلاف فارس، وقسم الجيش إلى ٣٦ كتيبة "كراديس" من المشاة

وزعت على أربعة ألوية مشاة (اثنين في القلب بقيادة (أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل ابن حسنة)، وجناحين الميسرة بقيادة يزيد بن أبي سفيان والميمنة بقيادة عمرو بن العاص). وتشكل كل لواء منهم من تسعة سرايا كانت منظمة على أساس التجمع القبلي أو العشائري، بحيث يقاتل كل واحد إلى جانب أخيه المسلم من عشيرته أو قبيلته.

وجعل لكل لواء مجموعة من الاستطلاع بحيث يتم مراقبة أرض المعركة كاملة، وكانت خط الجبهة يمتد على ١١ ميلاً بحيث يتجه المسلمون غرباً في مواجهة الروم وإلى الجنوب إلى يمين الجيش الرومي يمر نهر اليرموك وشمالاً على بعد أميال باتجاه الجنوب الغربي هناك طرف وادي الرقاد.

وكلف كل من قيس بن حبيرة وأمير بن طفيل وميسرة بن مرزوق بقيادة فرق الخيالة التي تلعب دور الوحدات الاحتياطية للتدخل في حال أي تراجع ممكن للألوية الإسلامية.

وكان ضرار بن الأزور ينوب عن خالد بن الوليد بقيادة الوحدة المتنقلة في حال انشغال خالد في الأعمال القتالية في المعركة.

دامت المعركة ستة أيام، كان المسلمون فيها يردون هجمات الروم في كل يوم، حيث كان خالد بن الوليد يستخدم "سرية الخيالة المتحركة السريعة" التي يقودها بنفسه ليتحرك بسرعة خاطفة من مكان إلى آخر حيث يكون جيش المسلمين في تراجع تحت ضغط الروم، ويعود كل من الجانبين في نهاية النهار إلى صفوفه الأولية قبل القتال أو إلى معسكراته.

وجرى الأمر كذلك خلال الأربعة أيام الأولى كانت فيها خسائر الروم بالأعداد أكبر من خسائر جيش المسلمين، وفي اليوم الخامس لم يحدث الشيء الكثير بعد رفض خالد "هدنة ثلاثة أيام" التي عرضها الروم بقوله المشهور لرسول الروم "نحن مستعجلون لإنهاء عملنا هذا" حسب النسخة الإنكليزية من هذه الصفحة.

وفي اليوم السادس تحولت إستراتيجية خالد من الدفاع إلى الهجوم، وتمكن بعبقريته الفذة من شن الهجوم المجازف على الروم واستخدام الأسلوب العسكري الفريد من نوعه آنذاك وهو الاستفادة الصحيحة من إمكانيات "سرية الفرسان سريعة التنقل" ليحول الهزيمة الموشكة للمسلمين إلى نصر مؤزر لهم.

وقاتلت نساء المسلمين من خلف الجيوش (في معسكرات المسلمين الخلفية) في هذه المعركة، وقتلن عدداً كبيراً من الروم وقتلت خولة بنت الأزور على سبيل المثال، وكن يضربن من انهزم من المسلمين بالحجارة ويزجرنهم، وفق تعليمات خالد عند قدومه وتنظيمه لجيش المسلمين، ويصرخن قائلات: "أين تذهبون وتدعوننا للعلوج"، وعندئذ يرجع المنهزمون، وقد تكرر ذلك في كل يوم من أيام المعركة، حتى قيل إن بعض المقاتلين عندما كانوا يهمون بالفرار إلى الخلف كانوا يقولون "مواجهة الروم ولا مواجهة نسائنا" وبعدها يكر المسلمون لشن الهجوم المعاكس. وكان عمرو بن العاص من المنهزمين ومعه أربعة نفر حتى بلغوا النساء، فلما زجرنهم رجعوا إلى القتال (حسب ابن كثير).

بدأ اليوم الأول من معركة اليرموك بمبارزات كانت آنذاك أساليب متبعة بين مقاتلين أبطال من الجانبين، فمنهم من يخرج من بين الصفوف طوعاً ومنهم من يدعى من قبل القائد لمنازلة الخصوم. وقد دامت تلك المبارزات في اليوم الأول للمعركة لغاية منتصف النهار كان الشرف فيها لصالح المسلمين، حيث قتل عبدالرحمن بن أبي بكر، ابن الخليفة الراشد الأول، خمسة من قواد الروم البيزنطيين، مما دعا القائد العام للجيش البيزنطي "ماهان" لبدء القتال، حرصا على معنويات جيشه، وبدأ بتراشق النبال العنيف الذي تسبب بإصابات كبيرة في صفوف المسلمين ليلتحم الطرفان بعدها.

وتذكر الموسوعة العربية على الإنترنت أن أحد كبار أمراء الروم وكان يدعى "جورج"، وهو على الأرجح الأمير جرجة بن بوذيها، كان قد خرج يطلب خالد بن الوليد فخرج له خالد متأهباً للقتال وبدأ يسير بحركة دائرية مواجهاً الأمير الرومي متأهباً للمبارزة، ولكن "جورج" بدأه بالكلام وقال إنه يريد أولاً أن يسأله بعض الأسئلة ليجيبه بصراحة، فالحر لايكذب، كما قال، فسأله بعض الأسئلة مثل "لماذا سماه نبي الإسلام" سيف الله المسلول على المشركين، وفيما إذا كان الله قد أرسل سيفاً قلده الرسول محمد لخالد، فأجابه خالد على ذلك وعلى أسئلة عديدة، مثلاً إذا أسلم المرء اليوم ما موقعه بين المسلمين وأجاب خالد أن المسلمين سواسية، لا فرق بين المسلم قديماً والمسلم حديثاً وهم جميعاً إخوة، فما كان من "جورج" هذا إلا أن اعتنق الإسلام وصحبه خالد إلى خيمته ليصلي مع المسلم "جورج" ركعتين، وحارب مع المسلمين وقُتل في تلك المعركة شهيداً.

قرر ماهان شن الهجوم المباغت عند الفجر، عندما يكون جيش المسلمين غير مستعد ولكن خالد كان قد وضع نقاطا دفاعية قوية متقدمة خلال الليل سرّاً مما أفقد عنصر المفاجئة التي كان يخطط لها البيزنطيون، ودارت المعركة وتراجع كل من جانبي الجيش المسلم، الميمنة والميسرة،

المرحلة الأولى من الهجوم المعاكس حيث تدخل خالد بفرقته السريعة التنقل مرة في الميمنة ليوقف تقدم الروم، وبعدها في الميسرة،

المرحلة الثانية من الهجوم المعاكس حيث قسم خالد هنا وحدته المتنقلة السريعة ليرسل قسما منها بقيادة ضرار بن الأزور إلى قلب جيش الروم من الجهة اليمنى له، حيث تمكن ضرار في هذا الهجوم من قتل القائد البيزنطي دريجان رغم أن ألفين من الفرسان الروم البيزنطيين كانوا بحراسته.

وترك مقتل دريجان وفشل خطة ماهان الأثر المدمر على نفسية المقاتلين الروم بينما كان لنجاح خالد بصد الهجوم الأثر الأقوى لتعزيز معنويات الجند المسلمين.

بعد أحداث اليوم السابق ومقتل دريجان أحد كبار قادة الروم، تركز في هذا اليوم هجوم الروم على نقطة محددة لفصل الجيش الإسلامي، وهي النقطة بين الميمنة التي كانت تحت قيادة عمرو بن العاص يقابله "قناطر" قائد السلاف، وقلب الجيش الإسلامي من الجانب الأيمن تحت قيادة شرحبيل يقابله ماهان، وبدأ الهجوم على لواء عمرو بن العاص الذي استطاع في البداية الصمود قبل أن يلعب التفوق العددي للروم دوره ليتراجع جنود عمرو بن العاص إلى الوراء باتجاه معسكرهم، كما بدأ جنود شرحبيل في اللواء المجاور بالتراجع،

- **الهجوم المعاكس :** تدخلت سرايا الخيالة المسلمين لصد الهجوم بالالتفاف عن يسار الروم، أي من الطرف الشمالي لكل لواء، وبعدها تدخل خالد مجدداً بمجموعته سريعة التنقل ليهاجم جند ماهان المتقدمين ضد لواء شرحبيل. وتم صد الهجوم وتراجع الروم إلى أماكنهم الأصلية كما كانت قبل بداية المعركة. وجاء المساء لينتهي هذا اليوم.

تم صد هجوم مماثل على الجهة نفسها، بسبب إنهاكها في اليوم السابق، كما فكر وخطط ماهان، فقد تراجع شرحبيل أمام جيش الأرمن المدعم بشكل قوي من الخيالة

العرب المسيحيين بقيادة جبلة، كما تراجع عمرو بن العاص أمام جيش "قناطر" السلاف. وتعرض شرحبيل للضغط الشديد وبدأت علائم الإنهاك على جنده.

الهجوم البيزنطي في اليوم الرابع وقبل أن يتدخل خالد بفرقته السريعة التنقل ليشارك برد الزحف الرومي أمر أبا عبيدة بن الجراح ويزيد ببدء الهجوم على الجيش لإشغاله في القطاعين المقابلين لهما القسم الأيمن من القلب والميمنة الرومية وعدم تمكينهم من القيام بالهجوم الشامل.

وتمكن خالد بن الوليد من القيام بمناورات ذكية أدت إلى تراجع الأرمن، ودام ذلك طوال بعد الظهر، وبعد فقدان الدعم الأرمني تراجع كذلك السلاف بقيادة "قناطر" ليعود الجميع إلى أماكنهم.

على الجانب الآخر استعر قتال الروم مع جيشي أبي عبيدة بن الجراح ويزيد وتعرض الجند المسلمين إلى رمي عنيف بالنبال أدى إلى فقدان الكثير لبصرهم نتيجة إصاباتهم في عيونهم، منهم: أبو سفيان والمغيرة بن شعبة وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص والأشعث ابن قيس وعمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح والأشتر النخعي، وسمي ذلك اليوم بيوم خسارة العيون، وتراجع الجيشان المسلمان، جيش عبيدة وجيش يزيد إلى الخلف.

- **هجوم المسلمين المعاكس :** ولاحت علائم الهزيمة ولكن عكرمة بن أبي جهل نادي مجاهدين للقسم على النصر أو الشهادة، فلبى نداءه ٤٠٠ من المقاتلين المجاهدين وقاتلوا محاولين وقف الروم، وأوقفوا زحف الروم بعد مقتلهم جميعاً، ولكنهم قتلوا عدداً أكبر بكثير من ٤٠٠ مقاتل بيزنطي، وأصيب عكرمة وابنه عمرو إصابة مميتة في هذه الوقعة، وعرف عكرمة بنجاح المسلمين بصد الهجوم وحمد الله قبل أن يموت متأثراً بجراحه، ليحل الظلام وينتهي ذلك اليوم.

كما ذكرنا سابقاً فقد رفض خالد عرضا لـ "ماهان" بوقف القتال بضعة أيام، وعرف خالد بن الوليد أن عزيمة الروم على القتال لم تعد كالسابق، وكان المسلمون حتى الآن قد اتخذوا إستراتيجية دفاعية في الأعمال القتالية، فقرر الآن خالد التحول إلى الهجوم، وأجرى تغييرات على تشيكلاته، حيث جمع كافة فرق الخيالة إلى سرية قتالية موحدة، وجعل وحدته السريعة في قلبها، وخطط خالد باستخدام هذه السرية

الجديدة لمهاجمة الفرسان الروم بغرض عزلهم عن المشاة الروم، بحيث يصبح المشاة الذين يشكلون نواة الجيوش البيزنطية دون أي حماية من الفرسان تقيهم من الهجمات الجانبية والخلفية، وفي نفس الوقت خطط لشن هجوم على الميسرة البيزنطية لردها باتجاه الجرف إلى الغرب.

بينما بدأت ميسرة جيش المسلمين بقيادة يزيد بن أبي سفيان والقسم الأيسر من القلب بقيادة أبى عبيدة بن الجراح بالقتال على جبهتيهما هاجم خالد بسرية الخيالة الموحدة الميمنة البيزنطية، وفي الوقت نفسه شطر قسماً من مجموعة الخيالة لمهاجمة الطرف الأيسر من الميسرة البيزنطية .

المرحلة الأولى من الهجوم بينما قام عمرو بن العاص، قائد الميمنة، في الوقت نفسه بشن الهجوم على الميسرة الرومية البيزنطية ذات الأكثرية السلافية التي كانت بقيادة قناطر.

وقد صمدت الميسرة البيزنطية بقيادة قناطر أمام الهجومين من الأمام ومن اليسار، ولكن بفقدان الدعم من فرق الخيالة البيزنطيين، الذين انشغلوا بصد هجوم الفرسان المسلمين، تراجعت قوات قناطر باتجاه القسم الأيسر من قلب الجيش الرومي حيث يقاتل الأرمن بقيادة ماهان.

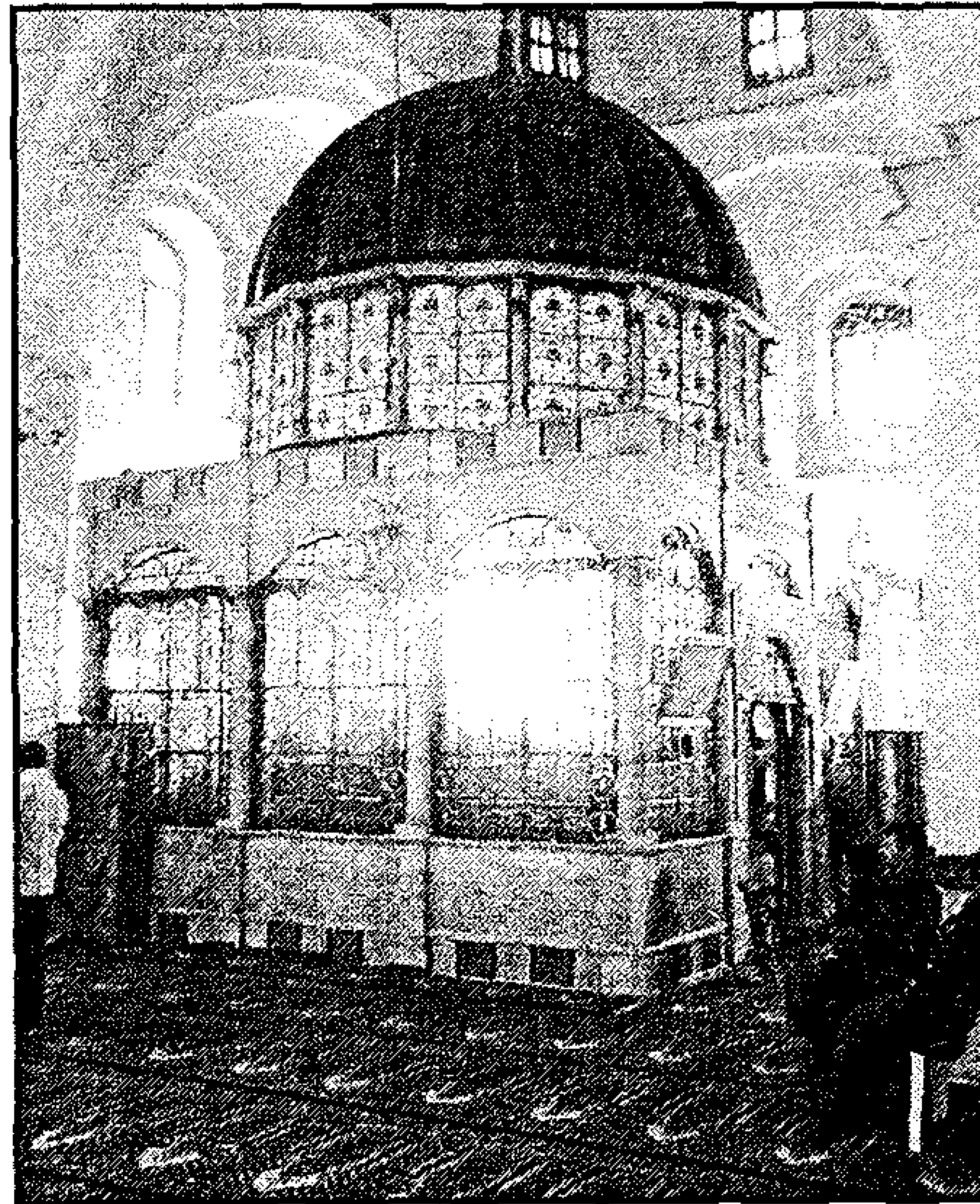
بعد رؤية هذا التحول استغل عمرو بن العاص قائد الميمنة الإسلامية تلك اللحظات ليشن هجوماً على الجانب الأيسر من قلب جيش الروم من جهته اليسرى، فوقع القسم الأيسر من قلب الجيش البيزنطي باختلال في التوازن بسبب ضغط أعداد الجنود السلاف المتراجعين.

المرحلة الثانية من الهجوم وفي الوقت نفسه شدد شرحبيل بن حسنة قائد القسم الأيمن من قلب الجيش الإسلامي من هجومه على القلب البيزنطي من الأمام.

المرحلة الثالثة من الهجوم الآن تقهقر الجناح الأيسر للجيش البيزنطي وراح المسلمون يستغلون ذلك ويتابعون تقدمهم، هنا، أوعز خالد للفرسان بترك القتال الرئيسي الدائر والعودة إلى الوحدة الرئيسية لعزل الخيالة البيزنطيين عن مشاتهم وإبعادهم عن الجيش البيزنطي بشكل كامل باتجاه الشمال.

المرحلة الرابعة من الهجوم عندما رأى ماهان ذلك دعى كافة الخيالة الروم للتجمع خلف قلب الجيش البيزنطي لتنظيم هجوم معاكس ضد الخيالة المسلمين، ولكن ماهان لم يكن سريعاً بالشكل الكافي فقد تقدم خالد سريعاً لمهاجمة الخيالة أثناء تجمعهم وذلك من الجهتين الأمامية والجانبية بينما كانوا في مناورات التحضير للهجوم المعاكس، وكان الفرسان المسلمون المسلحون بشكل خفيف مؤهلين أكثر بل متفوقين من حيث سرعة التحرك والمناورة، حيث كانوا يستطيعون الهجوم والتراجع بسرعة والعودة للهجوم مرة أخرى، وسارع الخيالة البيزنطيين إلى الهرب باتجاه الشمال في وسط من الفوضى والعشوائية تاركين المشاة لمصيرهم، وكان بينهم كذلك قوات جبلة الراكبة، حيث تشتت باتجاه دمشق.

المرحلة الخامسة من الهجوم بعد تشتت فرق الخيالة البيزنطيين، تحول خالد إلى نواة جيش الروم البيزنطيين، الأرمن بقيادة ماهان، لمهاجمتهم من الخلف. وكان الأرمن من المقاتلين الأشداء الذين كانوا على وشك النصر على المسلمين قبل يومين عندما قاموا باختراق جيش المسلمين، ولكن تحت هجمات من اتجاهات ثلاثة في آنٍ واحد، فرقة الخيالة بقيادة خالد من جهة الخلف، وجنود عمرو من اليسار وجنود شرحبيل من الأمام وبدون دعم من الفرسان الروم، إضافة إلى الاختلال الذي أحدثته في صفوفهم جنود السلاف بقيَّادة قناطر المتراجعة، لم يكن للأرمن أي فرصة بالصمود فهزموا.



قبر خالد بن الوليد بمدينة حمص بسوريا .

- **مرحلة الحصار بعد هزيمة الأرمن** هُزمت الآن كافة الجيوش البيزنطية، فتشتت البعض بشكل عشوائي مرعوبين، والبعض تراجع بانتظام باتجاه الغرب نحو وادي الرقاد.

ولكن عندما وصلت قوات البيزنطيين إلى المعبر الضيق على النهر واجهت مجموعة من فرسان المسلمين بقيادة ضرار بن الأزور بانتظارهم. كجزء من خطة خالد كان قد أرسل في الليلة السابقة سرية من الخيالة تقدر بـ ٥٠٠ رجل لسد المعبر الضيق الذي يبلغ عرضه ٥٠٠ متر فقط. في الحقيقة فقد كان هذا الطريق هو الذي كان يرغب خالد بن الوليد للروم أن يسلكوه في تراجعهم في حال ما إذا نجحت خطته.

- **المرحلة النهائية وحسم المعركة** والآن يتقدم جنود المشاة المسلمون من الشرق وفرسان خالد بن الوليد من جهة الشمال ليصلوا إلى وحدة الخيالة المسلمين التي تراقب المعبر الضيق من جهته الغربية. وإلى الجنوب كان هناك الجرف العميق التابع لنهر اليرموك والتي تراجعت إليه القوات البيزنطية وبدأ الانحصار.

وبدأت المرحلة النهائية من المعركة عندما اندحر القسم الأكبر من القوات البيزنطية باتجاه الجرف تحت تأثير القتال من جهة الأمام، بينما كانوا يتراجعون باتجاه المركز نتيجة الهجوم من الجانب، حيث نجم عن ذلك اختلال التوازن في الجيش.

عند ذلك فقد الجيش البيزنطي المتحالف كل المعلومات والارتباطات، ووصل إلى النقطة التي يتجنبها كل القواد العسكريين، وهي عندما تصبح وحداتهم عبارة عن حطام أو ركام مُسلح، فقد انحصر الجيش البيزنطي بشكل لم يعد يستطيع فيه الجنود استخدام سلاحهم بشكل طبيعي، ولذلك فقد هزموا بسرعة محاولين إيجاد طريق للهرب عبر الجرف وبدون نجاح، فبعضهم هوى في الجرف، بينما سقط الآخرون قتلى أو أسروا لتنتهي بذلك معركة اليرموك.

لم يتواجد خالد بن الوليد مساء اليوم السادس بعد إحراز النصر وانتهاء المعركة في معسكر المسلمين، بل شوهد مساء اليوم التالي في المعسكر، فقد تابع خالد بن الوليد وفريقه فلول ماهان المتجهة إلى دمشق واشتبك معهم ليقتل ماهان على يد أحد المقاتلين

المسلمين، فقد قطع رأسه وصرخ والله قد قتلت ماهان. وكانت العادة السائدة آنذاك أن المعركة تنتهي بهرب الجيش المنكسر، ولذلك فكان آخر ما توقعه هامان وجنوده المنهزمون هو متابعة خالد لهم.

كانت معركة اليرموك من أعظم المعارك الإسلامية، وأبعدها أثرا في حركة الفتح الإسلامي، فقد لقي جيش الروم (أقوى جيوش العالم يومئذ) هزيمة قاسية، وفقد زهرة جنده، وقد أدرك هرقل الذي كان في حمص حجم الكارثة التي حلت به وبدولته، فغادر سوريا نهائيا وقلبه ينفطر حزنا، وقد ترتب على هذا النصر العظيم أن استقر المسلمون في بلاد الشام، واستكملوا فتح مدنه جميعا، ثم واصلوا مسيرة الفتح إلى الشمال الإفريقي.

وتجلت حكمة خالد وقيادته الواعية حينما جاءه رسول برسالة من عمر بن الخطاب تحمل نبأ وفاة أبي بكر الصديق وتخبره بعزله عن إمارة الجيش وتولية أبي عبيدة بدلا منه، وكانت المعركة لا تزال على أشدها بين المسلمين والروم، فكتم خالد النبأ حتى تم النصر للمسلمين، فسلم الرسالة لأبي عبيدة ونزل له عن قيادة الجيش.

ولم ينته دور خالد في الفتوحات الإسلامية بعزل عمر له وتولية أبي عبيدة أميرا للجيش، وإنما ظل خالد يقاتل في صفوف المسلمين، فارسا من فرسان الحرب وبطلا من أبطال المعارك الأفذاذ المعدودين.

وكان له دور بارز في فتح دمشق وحمص وقنسرين، ولم يفت في عضده أن يكون واحدا من جنود المسلمين، ولم يوهن في عزمه أن يصير جنديا بعد أن كان قائدا وأميرا؛ فقد كانت غايته الكبرى الجهاد في سبيل الله، ينشده من أي موقع وفي أي مكان.

وتوفي خالد بحمص في (١٨ من رمضان ٢١هـ = ٢٠ من أغسطس ٦٤٢م). وحينما حضرته الوفاة، انسابت الدموع من عينيه حارة حزينة ضارعة، ولم تكن دموعه رهبة من الموت، فلطالما واجه الموت بحد سيفه في المعارك، يحمل روحه على سن رمحه، وإنما كان حزنه وبكاؤه لشوقه إلى الشهادة، فقد عزّ عليه -وهو الذي طالما ارتاد ساحات الوغى فترتجف منه قلوب أعدائه وتتزلزل الأرض من تحت أقدامهم- أن يموت على فراشه، وقد جاءت كلماته الأخيرة تعبر عن ذلك الحزن والأسى في تأثر شديد: "لقد

حضرت كذا وكذا زحفا وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وها أنا ذا أموت على فراشي حتف أنفي، كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء".

وحينا يسمع عمر بوفاته يقول: "دع نساء بني مخزوم يبكين على أبي سليمان، فإنهن لا يكذبن، فعلى مثل أبي سليمان تبكي البواكي"!!

●●●

١٧

قطز و عين جالوت
بطل أنهى أسطورة التتار !!





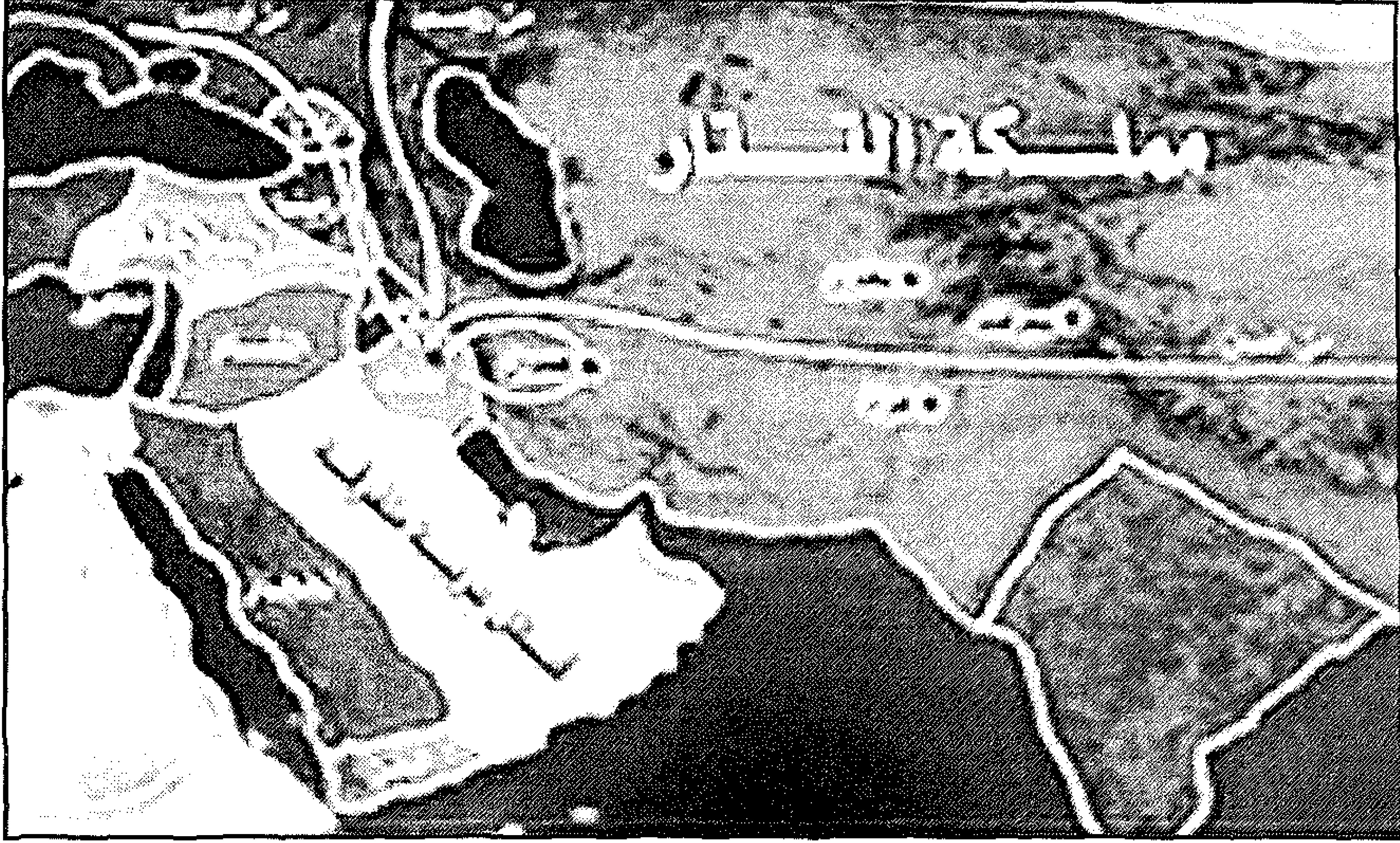
فتح التاريخ سجلاته ليظهر لنا إحدى شخصياته البارزة، هو فارس مسلم وأشهر سلاطين دولة المماليك قدر له الله سبحانه وتعالى أن يكون سبباً في رفعة الإسلام والمسلمين وذلك عندما تمكن بحنكته العسكرية وقيادته لجيش المسلمين من إلحاق الهزيمة بالتتار وكسر شوكتهم ووقف زحفهم، هو الفارس سيف الدين قطز الذي تمكن من ضم معركة عين جالوت الحاسمة إلى سجل الانتصارات التي أحرزها المسلمون

خلال التاريخ، وذلك خلال فترة حكم قصيرة تربع فيها على عرش سلطنة مصر، قبل أن يتم اغتياله غدراً على يد عدد من أمراء المماليك على رأسهم بيبرس البندقداري، ليلقى حتفه في الثالث والعشرين من أكتوبر ١٢٦٠م.

ولد قطز أميراً مسلماً في ظل الدولة الخوارزمية فهو محمود بن ممدود ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، الذي تم اختطافه عقب انهيار الدولة الخوارزمية عام ١٢٣١م على يد المغول، وحمل هو وغيره من الأطفال إلى دمشق وتم بيعهم في سوق الرقيق وأطلق عليه اسم "قطز"، ظل قطز عبدا يباع ويشترى إلى أن انتهى به المطاف في يد عز الدين أيبك أحد أمراء مماليك البيت الأيوبي بمصر.

تعلم قطز اللغة العربية والقرآن الكريم ومبادئ الفقه الإسلامي، وعندما وصل إلى مرحلة الشباب تدرب على الفروسية والمهارات القتالية واستخدام السيف والرمح وغيرهما من فنون الحرب، ونظراً لمهارته ارتقى قطز سريعاً حتى صار قائداً لجند أيبك، ثم قائداً للجيوش عقب تربع عز الدين أيبك على عرش السلطنة مع زوجته شجرة الدر.

بدأ دور قطز يتضح ويبرز أكثر عقب تولي عز الدين أيبك السلطنة في مصر وأصبح قطز يده اليمنى، ولكن لم تكن الأوضاع مستقرة بالبلاد فبالإضافة لتهديد التتار المستمر واستمرار زحفهم على الدولة الإسلامية، كانت تدب الكثير من الخلافات الداخلية والتي كان منبعها فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية، ومن حوله من رجال وفرسان المماليك، فقد كان أقطاي يرغب في التربع على عرش السلطنة وانتزاعه من أيبك، وشعر الأخير بالخطر الذي يشكله أقطاي فقرر التخلص منه وأوكل بهذه المهمة إلى قطز، كما قام بالقبض على عدد من المماليك البحرية وفر الباقون إلى الشام.



التوغل التتاري

ولم يدم الحال بالنسبة لعز الدين أيبك بعد ذلك كثيراً حيث مالبث أن قتل، وقتلت من بعده زوجته شجرة الدر ليصعد المنصور نور الدين على بن المعز أيبك إلى كرسي السلطنة وكان طفلاً صغيراً لا يصلح لأمور السلطنة والحكم، فعمت الاضطرابات البلاد والتي كان يثيرها عدد من المماليك البحرية الذين مكثوا في مصر، بالإضافة لأطماع أمراء الشام الأيوبيين في الاستيلاء على الحكم، وتهديد التتار، فوقف قطز بالمرصاد للثورات الداخلية والاضطرابات جميعاً وتمكن من القضاء على ثورات أمراء المماليك البحرية ففروا إلى الشام، كما قاد الجيش وصد أمراء الشام الذين أرادوا غزو مصر، وتمكن من بث الاستقرار ونشر الأمن.

أصبح الوضع في مصر لا يحتمل وجود سلطان ضعيف في سدة الحكم خاصة مع الزحف التتاري المستمر، حيث سقطت بغداد وقضي على الخلافة العباسية، وبدأ التتار في الاتجاه إلى الشام فأسقطوا المدن الواحدة تلو الأخرى حتى دخلوا دمشق، وأصبح خطرهم في طريقه إلى القاهرة هذا بالإضافة لوجود الصراعات الداخلية والخارجية للاستيلاء على الحكم، فقرر قطز عزل السلطان والإمساك بمقاليد الحكم وتمكن من إرجاع الاستقرار للدولة.

استمراراً للتوغل التتاري أرسل الزعيم التتاري هولاكو إلى قطز برسالة تمتلئ بالتهديد والوعيد مع عدد من رسله يدعوه للاستسلام، فما كان من قطز إلا انه قام بحبس رسل هولاكو وبعد التشاور مع الأمراء تم قتلهم وعلقت جثثهم على أبواب القاهرة، في إشارة لهلاكو بعدم خوف المسلمين وقدرتهم على تحدي التتار والوقوف بوجهه.

اتخذ قطز قراره بالخروج لملاقاة التتار وردع قوتهم، وبدأ التجهيز للحرب فاستدعى أمراء المماليك البحرية الفارين في الشام فأحسن استقبالهم وكان منهم بيبرس البندقداري الذي أقطعه قطز قليوب وأعطاه الأمان وولاه على قيادة الجيوش، وعين الآخرين كأمراء على جيش المسلمين، كما تشاور مع الشيخ العز بن عبد السلام في جمع الأموال من أجل الحرب، والذي قال له إنه لا يجب أخذ شيئاً من الناس إلا إذا كان بيت المال فارغاً، وأن يخرج الأمراء والتجار والأغنياء أموالهم وذهبهم وأن يتساوى الناس جميعاً في هذا، وبالفعل كان قطز أول شخص أخرج ماله من أجل التجهيز للحرب وأخرج باقي الأمراء أموالهم على مضض، ثم نادى قطز الجنود والأمراء للتكاتف من أجل مواجهة التتار.

بدأ تحرك قطز وجنوده لملاقاة التتار، والذين علموا بتقدم المسلمين فحشد القائد التتاري "كتبغا نوين" جنوده بعد مشاورة أعوانه وذهب لملاقاة المسلمين، فتلاقى الطرفان عند موقع "عين جالوت" من الأراضي الفلسطينية في الثالث من سبتمبر ١٢٦٠م، واشتعلت نيران الحرب بينهما، وانقض الفارس الشجاع قطز على جنود التتار يقاتل ببسالة باعثاً روح الحماس داخل جنوده، خالعاً خوذته شاهراً سيفه يسارع للشهادة، لا يبالي لسيوف الأعداء لا يبالي سوى لنصرة المسلمين صائحاً "واسلاماه" وثبت الله جنوده في أرض المعركة وكتب لهم النصر.

بهذا النصر الذي كتبه الله للمسلمين وقائدهم قطز تم إنقاذ الأراضي المسلمة وتراجع المغول من دمشق ودخلها قطز وفرض سيطرته على سائر بلاد الشام، وأعاد الاستقرار مرة أخرى إلى الأراضي الإسلامية ثم أخذ قراره بالعودة مرة أخرى إلى مصر في الرابع من أكتوبر ١٢٦٠م.

لكل بداية نهاية وبعد كل حياة موت، وكانت نهاية الفارس سيف الدين قطز عقب إحرازه لنصر عين جالوت ووقف الزحف التتاري وردعه عن أراضي المسلمين، وفي طريق عودته إلى مصر وقبل أن يحتفل مع شعبها بالنصر الذي أحرزه وأهداه للمسلمين، تآمر عليه عدد من الأمراء الذين أضمروا له الحقد وأوغلوا قلب بيبرس البندقداري نحوه، فقرر بيبرس التخلص منه والانفراد بالحكم، خاصة بعد أن أخلف قطز وعده له بتوليته على حلب، فقام بمراقبته مع غيره من الأمراء وتحينوا الفرصة للقضاء عليه وكان لهم ما أرادوا حيث انتهزوا فرصة خروج قطز بمفرده فتعقبوه وانقض عليه بيبرس وغيره من الأمراء واخترقت سيوفهم جسده ليقتل الفارس بعد أن أحرز النصر الذي لم يهنأ بالاحتفال به وسط شعبه، وكانت وفاته في الثالث والعشرين من أكتوبر ١٢٦٠م.



١٨

عمرو بن العاص.. القائد المظفر
بطل فتح مصر وحامل لواء الدين





عمرو بن العاص بن وائل السهمي قائد إسلامي عظيم تمتع بعقلية قيادية مميزة، بالإضافة لدهاء وذكاء مكنه من اجتياز العديد من المعارك والفوز بها، أعلن إسلامه في العام الثامن للهجرة مع كل من خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، وفي الإسلام كان ابن العاص مجاهداً وبطلاً، يرفع سيفه لنصرته، عندما أعلن إسلامه قال عنه رسول الله "صلى الله عليه وسلم" (أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص).

لقب "بداهية العرب" لما عرف عنه من حسن تصرف وذكاء، فما كان يتعرض إلى أي مأزق حتى كان يتمكن من الخروج منه، وذلك بأفضل الحلول الممكنة، فكان من أكثر رجال العرب دهاء وحيلة.

ولد عمرو بن العاص في الجاهلية والده هو العاص بن وائل أحد سادة العرب في الجاهلية، شرح الله صدره للإسلام في العام الثامن من الهجرة، ومنذ ذلك الحين كرس عمرو حياته لخدمة المسلمين فكان قائدا فذا تمتع بذكاء ودهاء كبير، قام الرسول "صلى الله عليه وسلم" بتوليته قائداً على الكثير من البعثات والغزوات، وكان أحد القادة في فتح الشام ويرجع له الفضل في فتح مصر.

قبل أن يعلن عمرو بن العاص إسلامه كانت له إحدى المواقف مع النجاشي حاكم الحبشة والذي كان قد هاجر إليه عدد من المسلمين فراراً بدينهم من المشركين واضطهادهم لما عرف عن هذا الحاكم من العدل، ولكن قام المشركون بإرسال كل من عمرو بن العاص - كان صديقاً للنجاشي - وعبد الله بن ربيعة بالهدايا العظيمة القيمة إلى النجاشي من أجل أن يسلم لهم المسلمين الذين هاجروا ليحتموا به، فرفض النجاشي أن يسلمهم لهم دون أن يستمع من الطرف الآخر وهم المسلمون ولما استمع لهم رفض أن يسلمهم إلى عمرو وصاحبه.

قال له النجاشي ذات مرة : يا عمرو، كيف يعزب عنك أمر ابن عمك؟ فوالله إنه لرسول الله حقًّا، قال عمرو: أنت تقول ذلك؟ قال: أي والله، فأطعني، فخرج عمرو من الحبشة قاصدًا المدينة، وكان ذلك في شهر صفر سنة ثمان من الهجرة، فقابله في الطريق خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، وكانا في طريقهما إلى النبي "صلى الله عليه وسلم لإعلان إسلامهما " فساروا جميعًا إلى المدينة، وأسلموا بين يدي رسول الله، وكان النجاشي قد أعلن إسلامه هو الآخر.

قال عمرو بن العاص عندما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال فقبضت يدي، فقال: مالك يا عمرو؟ قلت: أردت أن أشترط، قال: تشترط ماذا؟، قلت: أن يغفر لي، قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟، وما كان أحد

أحب إلى من رسول الله "ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأنني لم أكن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة".

كانت أولى المهام التي أسندت له عقب إسلامه، حينما أرسله الرسول "صلى الله عليه وسلم" ليفرق جمعاً لقضاعة يريدون غزو المدينة، فسار عمرو على سرية "ذات السلاسل" في ثلاثمائة مجاهد، ولكن الأعداء كانوا أكثر عدداً، فقام الرسول "صلى الله عليه وسلم" بإمداده بمائتين من المهاجرين والأنصار برئاسة أبي عبيدة بن الجراح وفيهم أبو بكر وعمر، وأصر عمرو أن يبقى رئيساً على الجميع فقبل أبو عبيدة، وكتب الله النصر لجيش المسلمين بقيادة عمرو بن العاص وفر الأعداء ورفض عمرو أن يتبعهم المسلمون، كما رفض حين باتوا ليلتهم هناك أن يوقدوا ناراً للتدفئة، وقد برر هذا الموقف بعد ذلك للرسول حين سأله أنه قال " كرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم، وكرهت أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم " فحمد الرسول الكريم حسن تدبيره.

بعد وفاة الرسول "صلى الله عليه وسلم و آله " وفي خلافة أبي بكر "رضي الله عنه"، قام بتوليته أميراً على واحد من الجيوش الأربعة التي اتجهت إلى بلاد الشام لفتحها، فانطلق عمرو بن العاص إلى فلسطين على رأس ثلاثة آلاف مجاهد، ثم وصله مدد آخر فأصبح عداد جيشه سبعة آلاف، وشارك في معركة اليرموك مع باقي الجيوش الإسلامية وذلك عقب وصول خالد بن الوليد من العراق بعد أن تغلب على جيوش الفرس، وبناء على اقتراح خالد بن الوليد تم توحيد الجيوش معاً على أن يتولى كل قائد قيادة الجيش يوماً من أيام المعركة، وبالفعل تمكنت الجيوش المسلمة من هزيمة جيش الروم في معركة اليرموك تحت قيادة خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم وتم فتح بلاد الشام، انتقل بعد ذلك عمرو بن العاص ليكمل مهامه في مدن فلسطين ففتح منها غزة، سبسطية، ونابلس ويبني وعمواس وبيت جيرين ويافا ورفح.

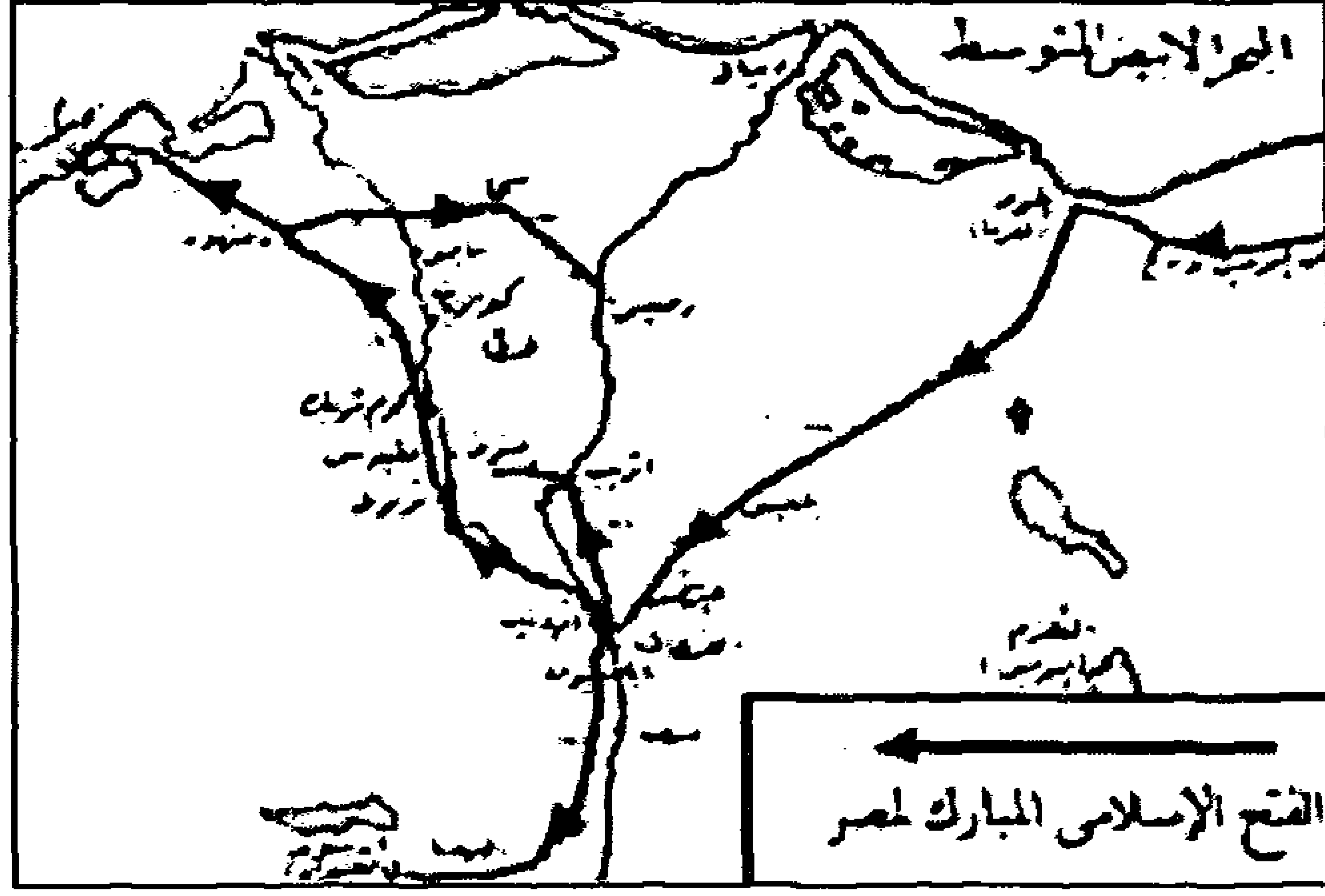
كان عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" إذا ذُكر أمامه حصار "بيت المقدس" وما أبدى فيه عمرو بن العاص من براعة يقول: لقد رمينا "أرطبون الروم" (داهية من قواد الروم) "بأرطبون العرب".

بعد أن توالت انتصارات وفتوحات عمرو بن العاص في الشام، توجه نظره إلى مصر، فرغب في فتحها فأرسل إلى الخليفة ليعرض عليه الأمر وكان حينها عمر بن الخطاب متولياً الخلافة، وبعد تفكير وتردد اقتنع عمر بن الخطاب بفكرة عمرو.

وبالفعل قام ابن العاص بإعداد العدد والعتاد من أجل التوجه لفتح مصر فسار على رأس جيش مكون من أربعة آلاف مقاتل فقط، ولكن بعد أن قام الخليفة باستشارة كبار الصحابة في الأمر رأوا ألا يدخل المسلمون في حرب قاسية، وقام عمر بن الخطاب بكتابة رسالة إلى عمرو بن العاص جاء فيها " إذا بلغتك رسالتي قبل دخولك مصر فارجع، و إلا فسر على بركة الله"، وحين وصل البريد إلى عمرو بن العاص وفطن إلى ما في الرسالة، فلم يتسلمها حتى بلغ العريش، فاستلمها وفضها ثم سأل رجاله: أنحن في مصر الآن أم في فلسطين؟، فأجابوا : نحن في مصر ، فقال : إذن نسير في سبيلنا كما يأمر أمير المؤمنين".

توالت انتصارات عمرو فدخل بجيشه إلى مدينة الفرما والتي شهدت أول اشتباك بين الروم والمسلمين، ثم فتح بلبيس وقهر قائدها الروماني أرطبون الذي كان قائداً للقدس وفر منها، وبعد أن وصل المدد لجيش عمرو تابع فتوحاته لأم دنين، ثم حاصر حصن بابليون حيث المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل، لمدة سبعة أشهر وبعد أن قبل المقوقس دفع الجزية غضب منه هرقل واستدعاه إلى القسطنطينية ونفاه، فانتهز المسلمون الفرصة وهاجموا حصون بابليون مما اضطر الروم إلى الموافقة على الصلح ودفع الجزية.

توالت فتوحات عمرو بن العاص بعد ذلك في المدن المصرية الواحدة تلو الأخرى حتى بلغ أسوار الإسكندرية فحاصرها وبها أكثر من خمسين ألفاً من الروم، وخلال فترة الحصار هذه مات هرقل وجاء أخوه بعده مقتنعاً بأن لا أمل له في الانتصار على المسلمين، فاستدعى المقوقس من منفاه وكلفه بمفاوضة المسلمين للصلح.



وجاءت عدد من البنود في اتفاقية الصلح هذه منها: أن تدفع الجزية عن كل رجل ديناران ماعدا الشيخ العاجز والصغير، وأن يرحل الروم بأموالهم ومتاعهم عن المدينة، وأن يحترم المسلمون حين يدخلونها كنائس المسيحيين فيها، وأن يرسل الروم مئة وخمسين مقاتلاً وخمسين من أمرائهم رهائن لتنفيذ الشروط، وقام عمرو بن العاص بإرسال رسول إلى الخليفة عمر ليبلغه بشارة الفتح، وقد مهد فتح الشام لفتح مصر وذلك بعد ما علمه الروم والأقباط من قوة المسلمين.

قضى عمرو بن العاص في فتح مصر ثلاث سنوات، وقد استقبله أهلها بالكثير من الفرح والترحيب لما عانوه من قسوة الروم وظلمهم، وقد كانوا خير العون لعمرو بن العاص ضد الروم، وكان عمرو يقول لهم: يا أهل مصر لقد أخبرنا نبينا أن الله سيفتح علينا مصر وأوصانا بأهلها خيرا، حيث قال الرسول الكريم "صلى الله عليه وسلم": ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا، فإن لهم ذمة ورحما.

وقد كان عهد ولاية عمرو على مصر عهد رخاء وازدهار فكان يحب شعبها ويحبونه وينعمون في ظل حكمه بالعدل والحرية، وفيها قام بتخطيط مدينة الفسطاط، وأعاد حفر خليج تراجان الموصل إلى البحر الأحمر لنقل الغنائم إلى الحجاز بحراً، وأنشأ بها جامعا سمي باسمه ولا يزال جامع عمرو بن العاص قائماً إلى الآن بمصر، وظل عمرو والياً على مصر حتى جاء عثمان على الخلافة وقام بعزله.

كان الأقباط في فترة حكم الروم يعانون من قسوتهم واضطهادهم، وإجبارهم على ترك مذهبهم واعتناق المذهب الرومي، فجاءت إحدى المواقف الهامة والتي أكدت على مدى احترام المسلمين للديانات الأخرى، فقد كان للأقباط رئيس ديني يدعى بنيامين حين تعرض للقهر من الروم اضطر للفرار، وعندما علم المسلمون بالأمر بعد الفتح أرسلوا إليه ليبلغوه أنه في أمان، وعندما عاد أحسنوا استقباله وأكرموه، وولوه رئاسة القبط، وهو الأمر الذي نال استحسان وإعجاب الأقباط بالمسلمين، فأحسنوا التعامل معهم.

جاءت المعركة الثانية بين المسلمين والروم بعد أن علم ملك الروم أن الحامية الإسلامية بالإسكندرية قليلة العدد، فانتهز هذه الفرصة وأرسل بثلاثمائة سفينة محملة بالجنود، وتمكن من اختراق الإسكندرية واحتلالها وعقد العزم على السير إلى الفسطاط، وعندما علم عمرو بن العاص بذلك عاد من الحجاز سريعاً وجمع الجيش من أجل لقاء الروم ودحرهم، وبالفعل تمكن عمرو من قيادة جيشه نحو النصر فكانت الغلبة لجيش المسلمين، ولم يكتفِ ابن العاص بهذا بل سارع بملاحقة الروم الهاربين باتجاه الإسكندرية، وفرض عليها حصاراً وفتحها، وكسر شوكة الروم وأخرجهم منها، كما قام بمساعدة أهل الإسكندرية لاسترداد ما فقدوه نتيجة لظلم الروم والفساد الذي قاموا به أثناء فترة احتلالهم للمدينة.

بعد معركة الإسكندرية، وأثناء خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه قام بعزل عمرو عن ولاية مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ثم في عهد معاوية بن أبي سفيان عاد إليها عمرو مرة أخرى واستمر والياً عليها حتى وفاته.

كانت آخر الكلمات التي انطلقت من فمه قبل وفاته " اللهم أمرتنا فعصينا .. ونهيتنا فما انتهينا .. ولا يسعنا إلا عفوك يا أرحم الراحمين"، وقد كانت وفاة عمرو بن العاص في مصر هذه البلد الذى فتح على يديه، وشهد أزهى عصوره عندما كان والياً عليه، فتوفى عام ٤٣هـ.



١٩

صلاح الدين الأيوبي
فارس في ميدان التاريخ





الناصر صلاح الدين الأيوبي قائد عربي مسلم ومؤسس الدولة الأيوبية، خاض العديد من المعارك والتي ظهرت من خلالها إمكانياته كفارس شجاع وقائد عسكري حكيم يتمتع بقدر وافر من الذكاء والحنكة السياسية والحربية، وتعد معركة حطين التي وقعت عام ٥٨٣هـ -١١٨٧م من أشهر المعارك التي خاضها والتي ارتبط اسمها دائماً باسمه وذكرتها كتب التاريخ كثيراً، والتي تمكن فيها من هزيمة أقوى الجيوش الصليبية محرزاً العديد من الانتصارات.

لم يتميز صلاح الدين فقط بكونه قائدا عسكريا عظيما بل تميز أيضاً بأخلاق رفيعة وشهامة منقطعة النظير فكانت له العديد من المواقف الإنسانية الرائعة سواء مع أفراد جيشه أو مع شعبه أو حتى مع الأسرى حيث تجلى كرم أخلاقه مع الجميع، هذا بالإضافة لعلمه الواسع وشغفه بالمطالعة وتشجيعه للعلم.

اسمه كاملاً يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان، أبو المظفر، الملقب بالناصر صلاح الدين الأيوبي، ولد صلاح الدين لعائلة كردية في عام ٥٣٢هـ، في تكريت بالقرب من بغداد، كان والده محافظاً لقلعة تكريت من قبل بهروز، وكان عمه أسد الدين شيركوه أحد القادة العظام في جيش نور الدين زنكي حاكم الموصل.

شهدت مدينة بعلبك نشأة صلاح الدين فترعرع بها وتلقى علومه المختلفة فدرس القرآن وسمع الحديث من الحافظ السلفي وابن عوف وقطب الدين النيسابوري، كما تعلم الصيد وفنون القتال وغيرها من المهارات والعلوم.

بدأت الحياة العسكرية تشق طريقها إلى صلاح الدين عندما ذهب مع عمه شيركوه بأمر من نور الدين زنكي لصد الهجمات الصليبية وتحقيق المساندة والدعم للخليفة الفاطمي في مصر، حيث كانت الحملات الصليبية تتوالي حينذاك، فحققا العديد من الإنجازات في صد هذه الهجمات، الأمر الذي دفع بالخليفة الفاطمي إلي تعيين شيركوه وزيراً له، وفي مصر قام صلاح الدين بالاختلاط بالمصريين وتقرب منهم وأحبه الشعب المصري أيضاً لما لمسوه فيه من سمات البطولة والعدل والحكمة مما أهله بعد ذلك لأن يحل محل عمه بعد وفاته فتم إسناد الوزارة إليه، وذلك بتأييد من المصريين وأيضاً لخبرته الواسعة سواء على المستوى الحربي أو الإنساني.

عندما مات الخليفة الفاطمي قام صلاح الدين بإعلان انتهاء الحكم الفاطمي ونصب نفسه حاكماً على مصر ونزل إلى قصر الخلافة جامعاً الأتباع والقواد فتعلق به الشعب المصري، وعندما علم نور الدين بنية صلاح الدين بالاستقلال بمصر قرر أن يسير إليه بجيش كبير ليسترجعها منه ولكنه مات في عام ٥٦٩هـ قبل أن يحقق ما سعى إليه وبموته زالت إحدى العقبات الكبيرة من طريق صلاح الدين.

وبعد وفاة نور الدين محمود تطلع صلاح الدين من أجل ضم الشام إلى حكمه فسار إلى دمشق وتمكن من إخماد الثورات التي قامت في الشام بسبب الطمع بملك

نور الدين، ومكث بها قرابة العامين من أجل أن يعيد الحكم إلى حالة من الاستقرار فضم إليه دمشق وحمص وحماة وبعلبك وغيرها ثم أعلن عن استقلاله عن بيت نور الدين محمود وتبعيته للخلافة العباسية التي منحته لقب سلطان، وأصبح حاكما على مصر، عاود حملته على الشام عام ٥٧٨هـ ، ونجح في ضم حلب وبعض المدن الشامية، وقد استغرقت هذه الفتوحات أكثر من عشر سنوات وبعد استقرار الأحوال في الشام وفلسطين عاد مرة أخرى إلى مصر.

اتجه صلاح الدين بعد استقرار الأمور الخارجية نحو الإصلاح الداخلي في مصر فعمل على إنشاء جيش قوي حقق به العديد من الإنجازات، مما عمل على تثبيت أقدامه في مصر، كما سعى من أجل نشر العلم فيها وتقوية المذهب السني بها فقام بإنشاء المدارس التي تدرس الفقه السني مثل المدرسة الناصرية والمدرسة الكاملية، كما عمل على عزل القضاة الشيعيين وإحلال قضاة من السنة محلهم، ومن الخطوات الشجاعة التي قام بها أنه أعلن في الجمعة الأولى من شهر المحرم عام ٥٦٧هـ قطع الخطبة للخليفة الفاطمي الذي كان مريضًا وجعلها للخليفة العباسي، فكان ذلك إيذاناً بانتهاء الدولة الفاطمية، وبداية عصر جديد، تمكن خلاله من القضاء على الفتن والمؤامرات التي اشتعلت لإعادة الحكم الفاطمي.

توسعت سلطة صلاح الدين في البلاد فامتدت من النوبة جنوباً وبرقة غرباً إلى بلاد الأرمن شمالاً وبلاد الجزيرة والموصل شرقاً.

بعد استقرار الأمور الداخلية التفت صلاح الدين إلى الحروب الصليبية وبدأ يسعى في تحضير جيش قوي من أجل القضاء عليها.

سعى صلاح الدين بعد أن تأكد من قوة جبهته الداخلية وتماسكها من أجل تكوين جيش قوي يقوم من خلاله بالقضاء على الصليبيين في معركة حاسمة وذلك بدلاً من الغارات التي تشن من آن لآخر لإضعاف العدو، فقام بشن سلسلة من المعارك الناجحة على الصليبيين وسقطت العديد من المناطق في يده مثل قلعة طبرية، عكا، قيسارية، ونابلس، وأرسوف، ويافا وبيروت بالإضافة لبيت المقدس، وكانت معركة حطين واحدة من أنجح المعارك الحربية والتي وقعت في عام ٥٨٣هـ حيث كللت رحلة الكفاح العسكرية لصلاح الدين بنجاح عظيم مازالت تذكره كتب التاريخ.

استفز ملوك أوربا وأثار غضبهم انتصارات صلاح الدين وسيطرته على بيت المقدس فقرروا شن حملة عظيمة لاستعادة بيت المقدس من يد صلاح الدين والجيش الإسلامي وتجمع لذلك عدد من ملوك أوربا والذين أتى على رأسهم ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد، بالإضافة إلى فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وفريدريك بربروسا ملك ألمانيا، ولم تسفر هذه الحملة عن أي نجاح بالنسبة إلى ملوك أوربا حيث رجعوا إلى بلادهم يجرون أذيال الخيبة وتم عقد صلح الرملة بين الطرفين في عام ٥٨٨هـ - ١١٩٢م .

عرف صلاح الدين سواء في البلاد العربية أو الأوربية كمحارب شهم كريم الأخلاق أبي النفس، وعرف كمسلم مؤمن، وشخص متواضع، وكانت له العديد من المآثر الإنسانية التي تجلت فيها رقة قلبه ولم يكن قائداً مقاتلاً عنيداً قوي الشكيمة فقط بل كان مثقفاً يحب العلم ويشجع العلماء عمر المساجد وأصلح الري وبنى القلاع والأسوار في القاهرة ودمشق.

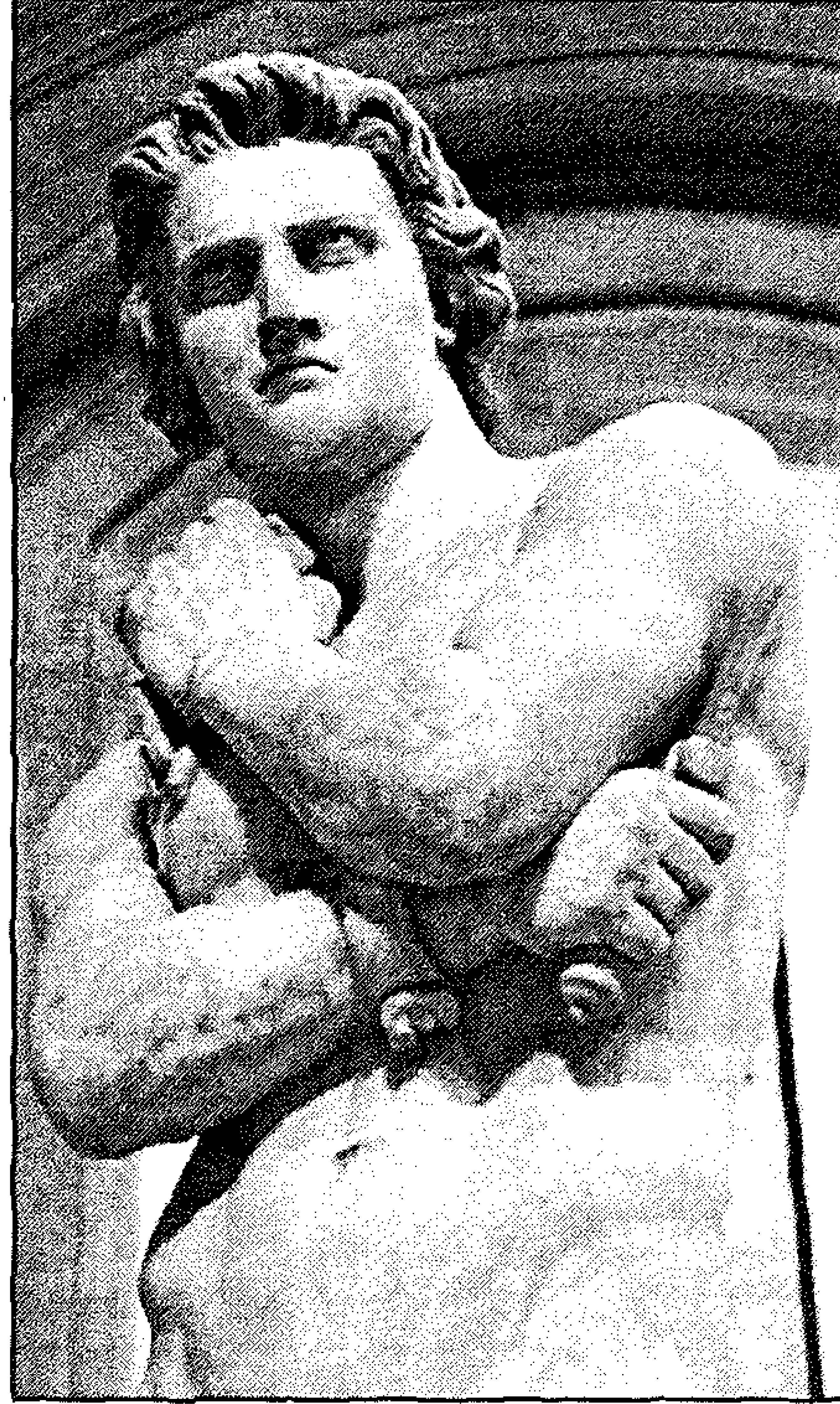
توفي صلاح الدين عام ١١٩٣ م بقلعة دمشق عن ٥٧ عاما، توفى ولكن مازال ولا يزال التاريخ يتذكره كثيراً كواحد من أهم الشخصيات التاريخية التي كان لها بالغ الأثر في أحد العصور الإسلامية القديمة.



٢٠

سبارتاكوس .. العبد
قائد معركة تحرير العبيد !!





سبارتاكوس Spartacus هو العبد الذي خاض الثورة ضد الرومان التي سميت "ثورة العبيد الثالثة " وكان قد أُسِرَ وبيع كعبد لأحد الرومان الذي كانت لدية مدرسة لتدريب العبيد لاستخدامهم كمبارزين ومصارعين في حلبات خاصة تقام لأجل المتعة.

ثار هو والعبيد الآخرون الذين كانوا معه. وألحقوا هزائم عديدة بالجيش الروماني إلى أن قتل في آخر معركة وبموته انتهت الثورة وصلب العبيد الآخرون في الساحات العامة.

وكان لنتولس بتياتس قد أنشأ في " كبوا " مدرسة للمصارعين ، رجالها من الأرقاء أو المجرمين المحكوم عليهم ، ودربهم على صراع الحيوانات أو صراع بعضهم بعضاً، في حلبة الصراع العامة أو في البيوت الخاصة. ولم يكن ينتهي الصراع حتى يُقتل المصارع.

وحاول مائتان من هؤلاء المصارعين أن يفروا ، ونجح منهم ثمانية وسبعون ، وتسلحوا واحتلوا أحد سفوح بركان فيزوف ، وأخذوا يغيرون على المدن المجاورة طلباً للطعام.

واختاروا لهم قائداً من أهل " تراقية " هو إسبارتكوس الذي ولد في ١٠٩ قبل الميلاد وتوفي في ٧١ قبل الميلاد. ويقول فيه أفلوطرخس إنه "لم يكن رجلاً شهماً وشجاعاً وحسب، بل كان إلى ذلك يفوق الوضع الذي كان فيه ذكاء في العقل ودماثة الأخلاق".

وأصدر هذا القائد نداء إلى الأرقاء في إيطاليا يدعوهم إلى الثورة ، وسرعان ما التف حوله سبعون ألفاً ، ليس منهم إلا من هو متعطش للحرية وللانتقام.

وعلمهم أن يصنعوا أسلحتهم ، وأن يقاتلوا في نظام أمكنهم به أن يتغلبوا على كل قوة سيرت عليهم لإخضاعهم.

وقذفت انتصاراته الرعب في قلوب أثرياء الرومان، وملأت قلوب الأرقاء أملاً، فهُرعوا إليه يريدون الانضواء تحت لوائه ، وبلغوا من الكثرة حدّاً اضطر معه أن يرفض قبول متطوعين جدد بعد أن بلغ عدد رجاله مائة وعشرين ألفاً لأنه لم يكن يسهل عليه أن يعنى بأمرهم. وصار بجيوشه صوب جبال الألب ، وغرضه من هذا "أن يعود كل رجل إلى بيته بعد أن يجتاز هذه الجبال".

ولكن أتباعه لم يكونوا متشبعين مثله بهذه العواطف الرقيقة السليمة ، فتمردوا على قائدهم ، وأخذوا ينهبون مدن إيطاليا الشمالية ، ويعيثون فيها فساداً. وأرسل مجلس الشيوخ قوات كبيرة بقيادة القنصلين لتأديب العصاة.

والتقى أحد الجيشين بقوة منهم كانت قد انشقت على إسبارتكوس وأفنتها عن آخرها. وهوجم الجيش الثاني قوة العصاة الرئيسية فهزمته وبددت شمله. ثم سار

إسبارتكوس بعدئذ صوب جبال الألب والتقى في أثناء سيره بجيش ثالث يقوده كاسيوس فهزمه شر هزيمة، ولكنه وجد جيوشا رومانية أخرى تقف في وجهه وتسد عليه المسالك فولى وجهه شطر الجنوب وزحف على روما.

كان نصف الأرقاء في إيطاليا متأهبين للثورة ، ولم يكن في وسع أحد في العاصمة نفسها أن يتنبأ متى تنشب هذه الثورة في بيته ، وكانت تلك الطائفة الموسرة المترفة التي تتمتع بكل ما في وسع الرق أن يمتعها به ، كانت تلك الطائفة كلها ترتعد فرائصها فرقاً حين تفكر في أنها ستخسر كل شيء- السيادة والملك والحياة نفسها.

ونادى الشيوخ وذوو الثراء يطالبون بقائد قدير ، ولكن أحداً لم يتقدم للاضطلاع بهذه القيادة ، فقد كان القواد كلهم يخافون هذا العدو الجديد العجيب .

ثم تقدم كراسس crassus آخر الأمر وتولى القيادة ، وكان تحت إمرته أربعون ألفاً من الجنود ، وتطوع كثير من الأشراف في جيشه لأنهم لم ينسوا كلهم تقاليد الطبقة التي ينتمون إليها .

ولم يكن يخفى على اسبارتكوس أنه يقاتل إمبراطورية بأكملها، وأن رجاله لا يستطيعون أن يصرفوا شؤون العاصمة بله الإمبراطورية نفسها إذا استولوا عليها.

فلم يعرج في زحفه على روما وواصل السير حتى بلغ ثورياي Thurii مخترقاً إيطاليا كلها من شمالها إلى جنوبها ، لعله يستطيع نقل رجاله إلى صقلية أو إلى إفريقيا. وظل سنة ثالثة يصد الهجمات التي يشنها عليه الرومان ، ولكن جنوده نفد صبرهم وسئموا القتال ، فخرجوا عليه وعصوا أوامره ، وأخذوا يعيثون فساداً في المدن المجاورة. والتقى كراسس بجماعة من أولئك النهابين وفتك بهم ، وكانوا اثنى عشر ألفاً وثلاثمائة ظلوا يقاتلون إلى آخر رجل فيهم.

وفي هذه الأثناء كان جنود بمبي قد عادوا من أسبانيا فأرسلوا لتقوية جيوش كراسس، وأيقن إسبارتكوس أن لا أمل له في الانتصار على هذه الجيوش ، فانقض على جيش كراسس وألقى بنفسه في وسطه مرحباً بالموت في وسط المعمعة ، وقتل بيديه ضابطين من ضباط المئين ، ولما أصابته طعنة ألقته على الأرض وأعجزته عن النهوض ظل يقاتل وهو راكع على ركبته إلى أن مات وتمزق جسمه ، ولم يكن من المستطاع أن يتعرف عليه.

وهلك معه معظم أتباعه. وفر بعضهم إلى الغابات ، وظل الرومان يطاردونهم فيها ، وصلب ستة آلاف من الأسرى في الطريق الأبياوي الممتد من كبوا إلى روما. وتركت أجسامهم المتعفنة على هذه الحال عدة شهور تطميناً لجميع السادة وإرهاباً لجميع العبيد.

وقد قام الممثل الأمريكي كيرك دوجلاس ببطولة فيلم سبارتاكوس عام ١٩٦٠م ، حيث جسد شخصية سبارتاكوس وقصة الثورة التي قادها ضد الرومان.

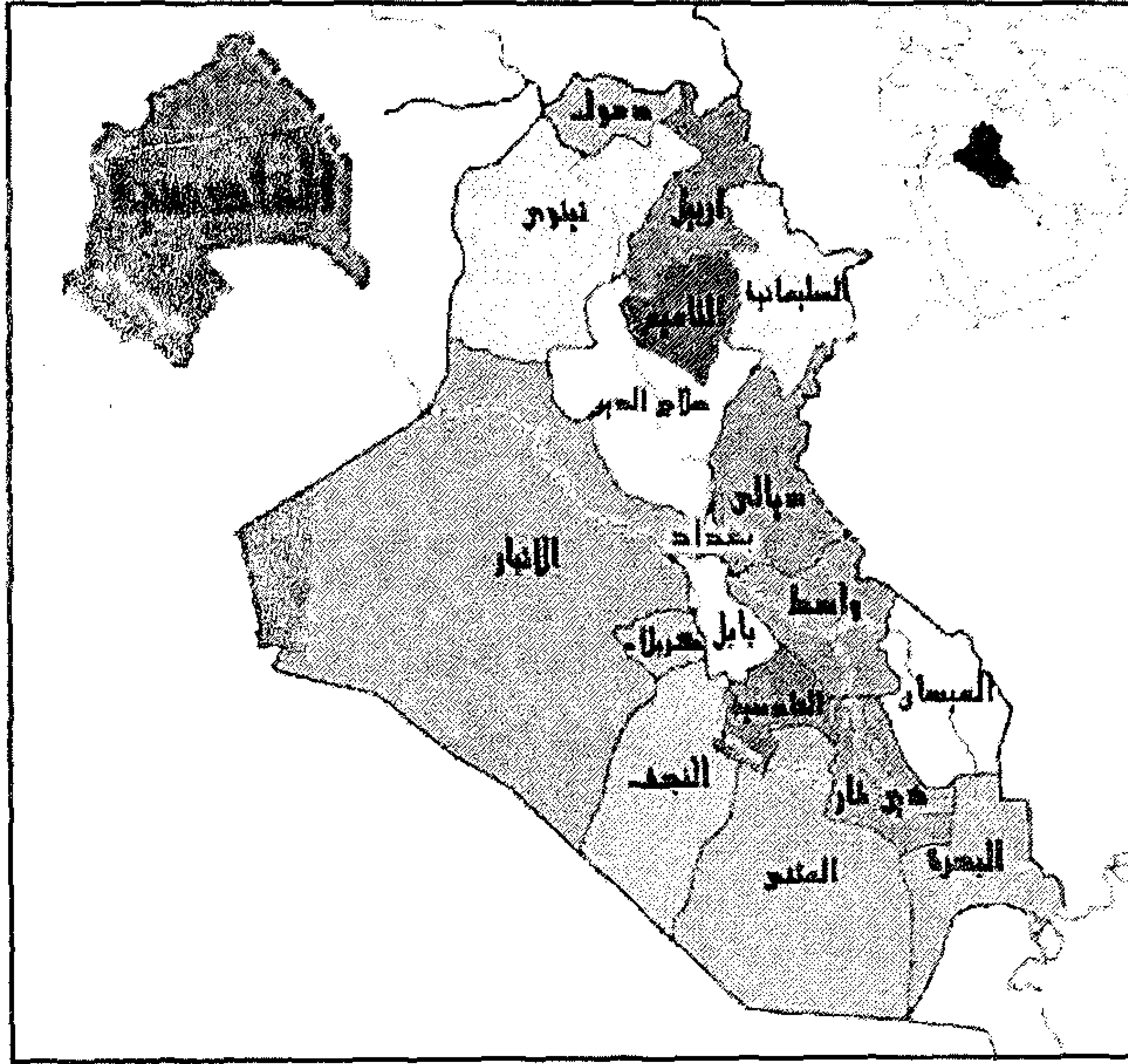
وهكذا انتفض عبيد روما ثائرين بقيادة سبارتاكوس — الذي لم تكن ثقافة العبودية قد ترسخت بعد في قلبه وروحه - حيث أسهمت ثورة العبيد تلك، مع عوامل أخرى، في تآكل الإمبراطورية الرومانية، فكان أن انقسمت أولاً إلى قسمين، ثم تحللت ثانياً إلى دويلات شبه مستقلة، يحكم كلا منها لورد ولا ينظر لسكانها نظرة روما القديمة لعبيدها .



٢١

معركة القادسية ..سعد بن أبي وقاص
وإذلال رستم فرّخزاد





معركة القادسية هي معركة وقعت في ١٣ شعبان ١٥هـ ٦٣٥م - وقيل في ١٦ هـ ٦٣٦م- بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص والفرس بقيادة رستم فرّخزاد في القادسية انتهت بانتصار المسلمين ومقتل رستم.

في عام ١٤ هـ جمع يزدجرد طاقاته ضد المسلمين، فبلغ ذلك المثنى بن حارثة الشيباني فكتب إلى عمر بن الخطاب فأعلن النفير العام للمسلمين أن يدركوا المسلمين في العراق واجتمع الناس بالمدينة المنورة فخرج عمر معهم إلى مكان يبعد عن المدينة ثلاثة أميال

على طريق العراق والناس لايدرون مايريد أن يصنع عمر، واستشار عمر الصحابة في قيادته للجيش بنفسه فقرروا أن يبعث على رأس الجيش رجلاً من أصحاب الرسول ويقيم هو ولا يخرج واستشارهم في من يقود الجيش فأشير إليه بسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

استدعى عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص وكان على صدقات هوازن فولاه الجيش وأمره بالسير ومعه أربعة آلاف ثم أمده بألفي يماني وألفي نجديّ وكان مع المثنى ثمانية آلاف ومات المثنى قبل وصول سعد وتتابعت الإمدادات حتى صار مع سعد ستة وثلاثون ألفاً.

كان منهم تسعة وتسعون بدرياً وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كان له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك وثلاثمائة ممن شهد الفتح وسبعمائة من أبناء الصحابة فنظم الجيش وجعل على الميمنة عبدالله بن المعتم وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي وجعل خليفته إذا استشهد خالد بن عرفطة وجعل عاصم بن عمرو التميمي وسواد بن مالك على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة وعلى الرجالة حمال بن مالك الأسدي وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمي وجعل داعيتهم سلمان الفارسي والكاتب زياد ابن أبيه وعلى القضاء بينهم عبدالرحمن بن ربيعة الباهلي.

أما الفرس فقد أجبر يزدجرد رستم على قيادة الجيش الفارسي بنفسه وأرسل سعد وفداً إلى رستم فيهم: النعمان بن مقرن المزني وبسر بن أبي رهم والمغيرة بن شعبة والمغيرة بن زرارة.

وسار رستم وفي مقدمته (الجالينوس) وجعل في ميمنته (الهرمزان) وعلى الميسرة (مهران بن بهرام) ثم سار رستم حتى وصل الحيرة ثم النجف حتى وصل القادسية ومعه سبعون فيلاً.

وعبر الفرس النهر في الصباح ونظموا جيشهم، ونظم سعد جيشه وحثهم على السمع والطاعة لنائبه خالد بن عرفطة لأن سعداً أصابته دمامل في فخذيه وإليتيه فكان ينام على وجهه وفي صدره وسادة، ويقود المعركة من فوق قصره، وصلى المسلمون الظهر وكبر سعد التكبيرة الأولى فاستعدوا، وكبر الثانية فلبسوا عدتهم، وكبر الثالثة فنشط الفرسان، وكبر الرابعة فزحف الجميع، وبدأ القتال والتلاحم.

ولما رأت خيل المسلمين الفيلة نفرت وركز الفرس ب (١٧) فيلاً على قبيلة بجيلة فكادت تهلك، فأرسل سعد إلى بني أسد أن دافعوا عن بجيلة فأبلوا بلاء حسناً وردوا عنهم هجمة الفيلة، ولكن الفيلة عادت للفتك بقبيلة أسد، فنادى سعد عاصم بن عمرو التميمي ليصنع شيئاً بالفيلة، فأخذ رجالاً من قومه فقطعوا حبال التوابيت التي توضع على الفيلة فارتفع عواؤها فما بقي لهم فيل إلا أعري وقتل أصحابه ونفّس عن قبيلة أسد، واقتتل الفريقان حتى الغروب وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة كانوا ردء للناس وهذا هو اليوم الأول من المعركة ويسمى أرماث وهو الرابع عشر من المحرم.

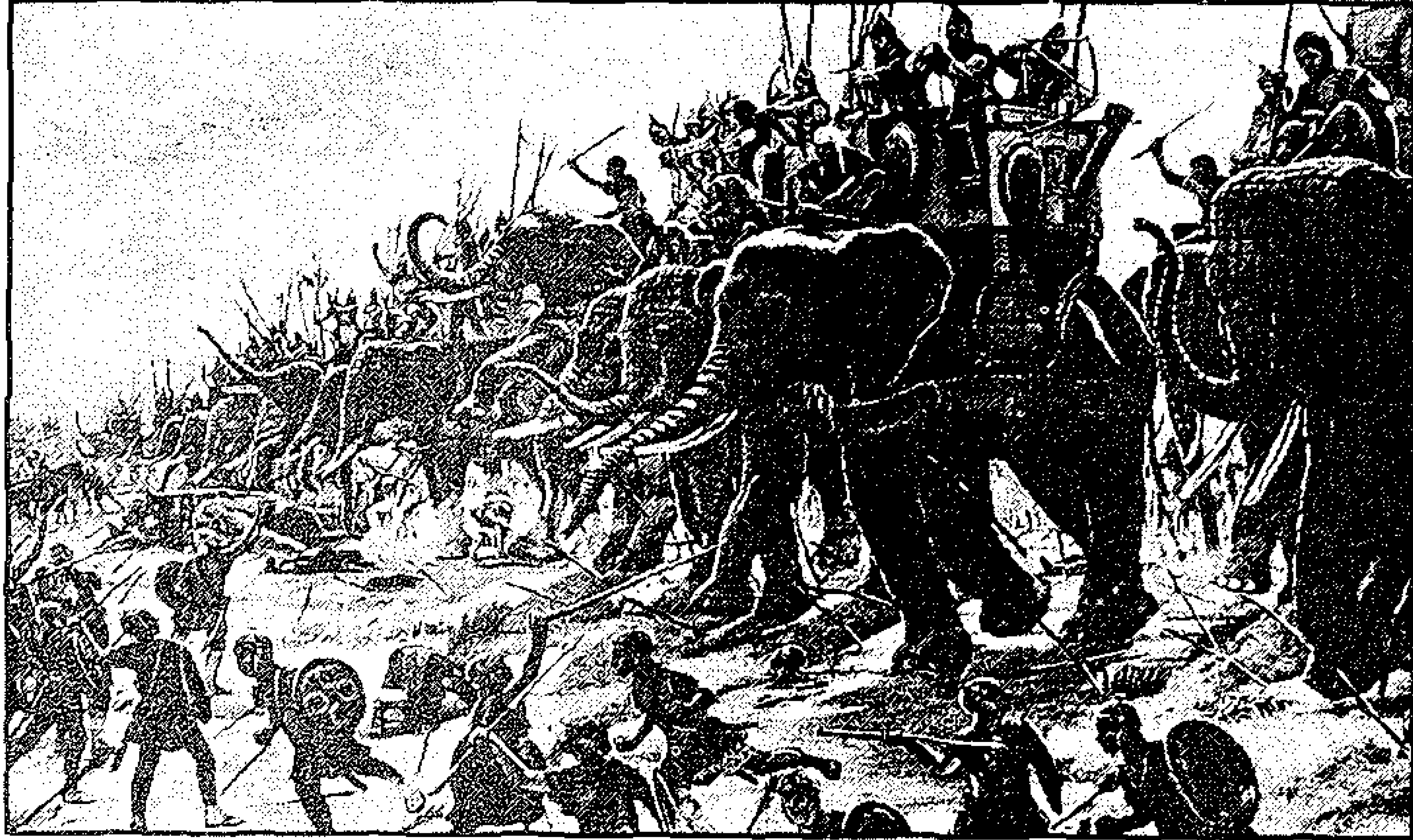
وفي اليوم الثاني أصبح القوم فوكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم وسلم الجرحى إلى النساء ليقمن عليهم، وفي أثناء ذلك طلعت نواصي الخيل قادمة من الشام وكان في مقدمتها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص والقعقاع بن عمرو التميمي، وقسم القعقاع جيشه إلى أعشار وهم ألف فارس وانطلق أول عشرة ومعهم القعقاع فلما وصلوا تبعتهم العشرة الثانية وهكذا حتى تكامل وصولهم في المساء، فألقى بهذا الرعب في قلوب الفرس فقد ظنوا أن مائة ألف قد وصلوا من الشام فهبطت هممهم ونازل القعقاع (بهمن جاذويه) أول وصوله فقتله ولم ير أهل فارس في هذا اليوم شيئاً يعجبهم فقد أكثر المسلمون فيهم القتل ولم يقاتل الفرس بالفيلة في هذا اليوم لأن توابيتها قد تكسرت بالأمس فاشتغلوا هذا اليوم بإصلاحها وألبس بعض المسلمين إبلهم فهي مجللة مبرقعة وأمرهم القعقاع أن يحملوا على خيل الفرس يتشبهون بها بالفيلة ففعلوا بهم هذا اليوم وهو يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرماث فجعلت خيل الفرس تفر منها وقاتلت الفرس حتى انتصف النهار فلما اعتدل النهار تزاحفوا من جديد حتى انتصف الليل فكانت ليلة أرماث تدعى الهدأة وليلة أغواث تدعى السواد.

أصبح القوم لليوم الثالث وبين الصفين من قتلى المسلمين ألفان وبين جريح وميت من الفرس عشرة آلاف، فنقل المسلمون قتلاهم إلى المقابر والجرحى إلى النساء، وأما قتلى الفرس فبين الصفين لم ينقلوا.

وبات القعقاع لاينام فجعل يسرب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه بالأمس وقال: إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة، ففعلوا ذلك في الصباح فزاد ذلك في هبوط معنويات الفرس.

وابتدأ القتال في الصباح في هذا اليوم الثالث وسمي يوم عمواس، والفرس قد أصلحوا التوابيت فأقبلت الفيلة يحميها الرجالة فنفرت الخيل، ورأى سعد الفيلة عادت لفعلها يوم أرماث فقال لعاصم بن عمرو والقعقاع: اكفياني الفيل الأبيض وقال لحمال والربيل: اكفياني الفيل الأجرب، فأخذ الأولان رمحين وتقدما نحو الفيل الأبيض فوضعا رمحيهما في عينيه فنفض رأسه وطرح ساسته ودلى مشفره فضربه القعقاع فوقع لجنبه، وحمل الآخران على الفيل الأجرب فطعنه حمال في عينه فجلس ثم استوى وضربه الربيل فأبان مشفره فأفلت الأجرب جريحاً وولى وألقى نفسه في النهر واتبعته الفيلة وعدت حتى وصلت المدائن، ثم تزاحف الجيشان فاجتلدوا وسميت هذه الليلة ليلة الهرير، وفي هذه الليلة حمل القعقاع وأخوه عاصم والجيش على الفرس بعد صلاة العشاء فكان القتال حتى الصباح، وانقطعت الأخبار عن سعد ورستم فلم ينم الناس تلك الليلة وكان القعقاع محور المعركة.

فلما جاءت الظهيرة كان أول من زال عن مكانه الفيرزان والهرمزان فانفرج القلب وأرسل الله ريحاً هوت بسرير رستم وعلاه الغبار ووصل القعقاع إلى السرير فلم يجد رستم الذي هرب واستظل تحت بغل فوقه حمله فضرب هلال بن علفة الحمل الذي تحته رستم وهو لايعرف بوجوده فهرب رستم إلى النهر فرمى نفسه ورآه هلال فتبعه وارتمى عليه فأخرجه من النهر ثم قتله ثم صعد طرف السرير وقال: قتلت رستم ورب الكعبة إليَّ إليَّ.



معركة القادسية .

فانهارت حينئذ معنويات الفرس فانهزموا وعبروا النهر فتبعهم المسلمون يخزونهم برماحهم فسقط من الفرس في النهر ألوف.

وقتل من المسلمين ليلة الهرير ويوم القادسية ألفان وخمسمائة، ومن الفرس في الليلة نفسها عشرة آلاف ولحق زهرة بن الحوية التميمي الجالينوس فقتله.

●●●

٢٢

معركة حلب ..
انتصار أبو عبيدة بن الجراح





جرت معركة حلب في سوريا في الأشهر بين يوليو وأكتوبر من عام ٦٣٧ ميلادي بين الروم البيزنطيين ، مع حلفائهم الغساسنة، وجيوش الخلافة الراشدة الإسلامية. وكان القائد العام للجيوش الإسلامية أبو عبيدة بن الجراح، وفي معركة حلب قاد عياض بن غنم القوات الإسلامية في الميدان، وكان خالد بن الوليد على الخيل على الأرجح.

بعد معركة اليرموك توجه المسلمون في عمق سوريا شمالاً، وبعد غزو مدن كبيرة وصغيرة اجتمع جيشا أبوعبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد مجددا في قنسرين ليتابعا

بعد فتحها زحفهما إلى حلب، حيث كانت هناك حامية رومية قوية بقيادة "يواخيم". وكانت حلب مؤلفة من مدينة كبيرة محاطة بالأسوار وحصناً صغيراً منيعاً خارج المدينة يقع على تل منعزل.

وقد اتبع يواخيم نفس الأسلوب الذي اتبعه "ميناس" قائد الحامية الرومانية في موقعة الحاضر بالقرب من قنسرين في يونيو من العام نفسه، حيث عمل يواخيم على لقاء المسلمين خارج المدينة في معركة مفتوحة واشتبك مع "سرية الخيالة سريعة التحرك"، البالغ حجمها ١٧ ألف فارس،على مسافة ستة أميال جنوبي المدينة، ووقعت معركة دموية في ذلك المكان انكسر فيها الروم، وتراجع يواخيم، الذي أصبح الآن أكثر حكمة، وقفل راجعاً بسرعة لحماية الحصن. وزحف المسلمون بعد ذلك ليفرضوا الحصار على الحصن. وبلغت خسائر الروم من ألف إلى ألفي قتيل، بينما كانت خسائر المسلمين ضئيلة جدّاً.

وكان يواخيم قائداً صلباً، وقام بعدة محاولات لكسر الحصار، ولكنه فشل في كل مرة متحملاً خسائر جسيمة. بعد عدة أيام من تلك الحالة قرر الروم البقاء في الحصن لانتظار المساعدات التي يمكن للقيصر هرقل أن يرسلها لهم، ولكن هرقل لم يرسل شيئاً.

وفي شهر أكتوبر من عام ٦٣٧ ميلادي استسلمت الحامية الرومية البيزنطية، حيث سُمح لها بالرحيل بسلام، ولكن القائد البيزنطي "يواخيم" لم يرغب بالمغادرة، بل أعلن إسلامه واختار أن يخدم تحت راية الإسلام. وبالفعل فقد أثبت ولاءه في الأسابيع اللاحقة بشكل مميز وقاتل تحت رايات العديد من القادة المسلمين.

وبعدها أرسل أبوعبيدة بن الجراح سريةً بقيادة مالك بن الأشتر لفتح بلدة إعزاز الواقعة على طريق روما. وكان المسلمون يطلقون على المناطق الواقعة جنوب تركيا إلى الشرق من جبال طوروس اسم أرض روما "أو بلاد الروم". وقد فتح مالك بمساعدة "يواخيم" القائد الرومي الذي اعتنق الإسلام بلدة إعزاز " أو حصن إعزاز" وعقد معاهدة مع سكانها المحليين ليعود بعدها إلى حلب.

وكان فتح إعزاز وتوقيع المعاهدة مع السكان أمرين جوهريين لضمان عدم بقاء قوات رومية كبيرة بالقرب من حلب يمكن أن تهدد المسلمين من الخلف أو الجانب عندما ينتقل المسلمون إلى تنفيذ عملية واسعة جديدة.

بعد وصول مالك بن الأشتر وانضمامه إلى الجيش المسلم بدأ أبو عبيدة بالتوجه لفتح أنطاكيا.

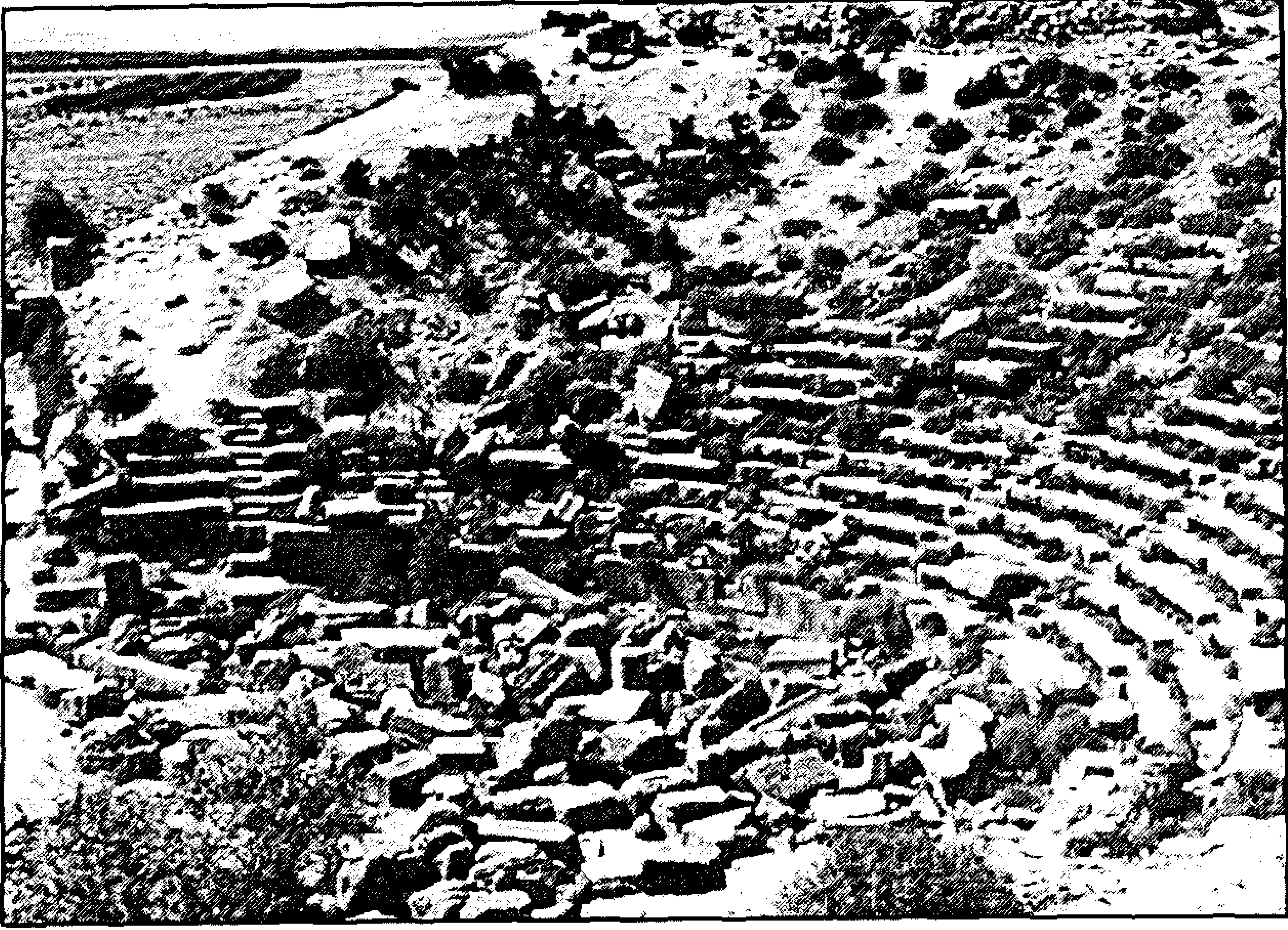
وأبو عبيدة بن الجراح هو عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري القرشي ويكنى بأبي عبيدة أمين هذه الأمة (أمة الإسلام).

أبوه: عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهَيّب بن ضَبّة بن الحارث بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة عامر بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وكان عبد الله هذا شقيّ من أعداء الله قتله ابنه أبو عبيدة في غزوة بدر

أمه : أمَيّمة بنت عثمان بن جابر بن عبد العزى بن عامرة بن عميرة بن وديعة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة عامر بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

أحد السابقين الأولين إلى الإسلام أسلم على يد أبي بكر الصديق في الأيام الأولى للإسلام. هاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية. وقال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لكل أمة أمينا وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح». يعد من أحد العشرة المبشرين بالجنة الذين ورد ذكرهم في حيث نبوي واحد .

قاد غزوة الخبط عندما أرسله النبي محمد صلى الله عليه وسلم أميرا على ثلاث مائة وبضعة عشر مقاتلا ومعهم قليل من الزاد وعندما نفد الزاد راحوا يضربون الخبط أي ورق الشجر ليتساقط فيسحقونه ويسفونه ويشربون عليه الماء لهذا سميت هذه الغزوة بغزوة الخبط. كما كان أحد القادة الأربعة الذين اختارهم أبو بكر لفتح الشام وهم: يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل ابن حسنة وعمرو بن العاص وأبو عبيدة ابن الجراح. عينه عمر بن الخطاب قائدا عاما على جيوش الشام. لاقى أباه مع صف المشركين في بدر فنازله وقتله.



موقع المعركة

شارك في معركة اليرموك وقد أمره الخليفة عمر بن الخطاب على الجيش بدلا من خالد بن الوليد ويقال إنه أخفى أمر الإمارة عن خالد إلى أن انتهى خالد من المعركة محرزا النصر ثم أعلمه بأمر عمر فسأله خالد: «يرحمك الله أبا عبيدة، ما منعك أن تخبرني حين جاءك الكتاب؟» فأجاب أبوعبيدة: «إني كرهت أن أكسر عليك حربك، وما سلطان الدنيا نريد، ولا للدنيا نعمل ، كلنا في الله إخوة».

قال عنه عمر بن الخطاب وهو يجود بأنفاسه: «لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته فإن سألني ربي عنه قلت: استخلفت أمين الله، وأمين رسوله». وقال عنه: «لو كنت متمنيا ما تمنيت إلا بيتا مملوءا برجال من أمثال أبي عبيدة».

من أشهر ما قال أبو عبيدة بن الجراح خطبته في أهل الشام وهو أميرهم:

«يا أيها الناس إني مسلم من قريش وما منكم من أحد، أحمر، ولا أسود، يفضلني بتقوى إلا وددت أني في إهابه» (جلده) ..

لقبه النبي محمد صلى الله عليه وسلم بـ(أمين الأمة) في حديثه:

روي عن أنس بن مالك في المسند الصحيح :

أن أهل اليمن قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا : ابعث معنا رجلا يعلمنا السنة والإسلام . قال ، فأخذ بيد أبي عبيدة فقال " هذا أمين هذه الأمة ".

مات بطاعون عمواس ودفن في قرية صغيرة حملت اسمه بالغور في الشام وكان عمره ٥٨ سنة.



٢٣

معركة نهاوند .. البطل النعمان ونهاية حكم الدولة الساسانية في إيران !!





معركة نهاوند من المعارك الفاصلة في الفتح الإسلامي لفارس. وقعت في خلافة عمر ابن الخطاب، سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) وقيل سنة ١٨ أو ١٩ هـ قرب بلدة نهاوند في فارس، وانتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً بقيادة النعمان بن مُقَرِن على الفرس الساسانيين، إلا أن النعمان قُتل في المعركة.

بانتصار المسلمين انتهى حكم الدولة الساسانية في إيران بعد أن دام حكمها ٤١٦ عاما.

عن السائب بن الأقرع قال : زحف للمسلمين زحفًا لم يُرَ مثله قط ، رجف له أهل ماه وأصبهان وهمذان والري وقومس ونهاوند وأذربيجان ، قال : فبلغ ذلك عمر فشاور المسلمين .

فقال علي : أنت أفضلنا رأياً و أعلمنا بأهلك . فقال : لأستعملن على الناس رجلاً يكون لأول أسنّة يلقاها ،-أي أول من يتلقى الرماح بصدره ،كناية عن شجاعته- ياسائب اذهب بكتابي هذا إلى النعمان بن مُقَرِن ، فليسر بثلثي أهل الكوفة ، وليبعث إلى أهل البصرة ، وأنت على ما أصابوا من غنيمة ، فإن قُتل النعمان فحذيفة الأمير ، فإن قُتل حذيفة فجرير بن عبد الله ، فإن قُتل ذلك الجيش فلا أراك .

لما انتصر المسلمون في القادسية على الفرس كاتب يزدجرد أهل الباب والسند وحلوان ليجتمعوا فيوجهوا ضربة حاسمة للمسلمين ، فتكاتبوا واجتمعوا في نهاوند .

وأرسل سعد بن أبي وقاص إلى عمر : (بلغ الفرس خمسين ومائة ألف مقاتل ، فإن جاؤونا قبل أن نبادرهم الشدة ازدادوا جرأة وقوة ، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلك) .

وأرسل عمر إلى سعد محمد بن مسلمة ليخبره أن يستعد الناس لملاقاة الفرس ، فغادر سعد الكوفة إلى المدينة ليخبر عمر بخطورة الموقف شفاهة ، فجمع عمر المسلمين في المدينة ، وخطب فيهم وشرح لهم خطورة الوضع ، واستشارهم ، وأشاروا عليه أن يقيم هو بالمدينة ، وأن يكتب إلى أهل الكوفة فليخرج ثلثاهم لمساعدة الجيش الإسلامي وأهل البصرة بمن عندهم . ثم قال عمر : أشيروا عليّ برجل يكون أوليه ذلك الثغر غداً، فقالوا : أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرة ، فقال : أما والله لأولين أمرهم رجلاً ليكونن أول الأسنة – أي : أول من يقابل الرماح بوجهه – إذا لقيها غداً ، فقيل : من يا أمير المؤمنين ؟ فقال : النعمان بن مقرن المزني ، فقالوا : هو لها .

ودخل عمر المسجد ورأى النعمان يصلي ،فلما قضى صلاته بادره عمر : لقد انتدبتك لعمل ، فقال : إن يكن جباية للضرائب فلا ، وإن يكن جهاداً في سبيل الله فنعم . وانطلق النعمان عام (٢١) للهجرة يقود الجيش ، وبرفقته بعض الصحابة الكرام .

وطرح الفرس حسك الحديد – مثل الشوك يكون من الحديد – حول مدينة نهاوند، فبعث النعمان عيوناً فساروا لايعلمون بالحسك، فزجر بعضهم فرسه فدخلت في يده حسكة، فلم يبرح الفرس مكانه، فنزل صاحبه ونظر في يده فإذا في حافره حسكة، فعاد وأخبر النعمان بالخبر، فاستشار جيشه فقال: ماترون؟ فقالوا: انتقل من منزلك هذا حتى يروا أنك هارب منهم، فيخرجوا في طلبك، فانتقل النعمان من منزله ذلك، وكنست الأعاجم الحسك فخرجوا في طلبه، فرجع النعمان ومن معه عليهم، وقد عبأ الكتائب ونظم جيشه وعدده ثلاثون ألفاً، وجعل على مقدمة الجيش نعيم بن مقرن، وعلى المجنبتين اليمنى واليسرى: حذيفة بن اليمان وسُويد بن مُقَرِن، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو، وعلى الساقة(المؤخرة) مجاشع بن مسعود، ونظم الفرس قواتهم تحت إمرة (الفيرزان)، وعلى مجنبتيه (الزردق) و(بهمن جاذويه) الذي ترك مكانه لـ(ذي الحاجب).

أنشب النعمان القتال يوم الأربعاء، ودام على شكل مناوشات حادة إلى يوم الخميس، والحرب سجال بين الفريقين، وكان الفرس خلالها في خنادق.

وخشي المسلمون أن يطول الأمر فاستشار النعمان أصحابه، فتكلم قوم فرُدَّتْ آراؤهم، ثم تكلم طليحة فقال: أرى أن تبعث خيلاً مُؤَدَّبة، فيحدقوا بهم، ثم يرموا لينشبوا القتال، ويحمشوهم – أي يغضبوهم –، فإذا أحمشوهم واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا – أي انضموا- إلينا استطراداً – أي خديعة - .. وأقر الجميع هذا الرأي فأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال فأنشبه، فخرج الفرس من خنادقهم، فلما خرجوا نكص القعقاع بجنده، ثم نكص ثم نكص، وخرج الفرس جميعاً فلم يبق أحد إلا حرس الأبواب، حتى انضم القعقاع إلى الناس، والنعمان والمسلمون على تعبيتهم في يوم جمعة في صدر النهار، وأقبل الفرس على الناس يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراحات، والمسلمون يطلبون من النعمان الإذن بالقتال، وبقي النعمان يطلب منهم الصبر.

فلما جاء الزوال وتفيأت الأفياء وهبت الرياح أمر بالقتال، كل ذلك إحياء لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يختار هذا الوقت للقتال، وعندئذ ركب فرسه وبدأ يحرض المسلمين على القتال، ثم قال: فإن قُتلت فالأمير بعدي حُذيفة، وإن قتل فلان .. وعد سبعة.

وكبر النعمان التكبيرة الأولى ثم الثانية ، ثم قال : اللهم اعزز دينك وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك ، اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عزالإسلام ، أمنوا رحمكم الله . فبكى الناس .

وكبر النعمان التكبيرة الثالثة ، وبدأ القتال ، وأثناء تقدم القائد بدأ الفرس يتركون الساحة وزلق بالقائد فرسه من كثرة الدماء في أرض المعركة ، فصرع بين سنابك الخيل ، وجاءه سهم في جنبه ، فرآه أخوه نعيم فسجاه بثوب ، وأخذ الراية قبل أن تقع وناولها حذيفة بن اليمان فأخذها ، وقال المغيرة : اكتموا مصاب أميركم حتى ننتظر ما يصنع الله فينا وفيهم ؛ لئلا يهن الناس .

ولما زلق فرس النعمان به لمحه معقل بن يسار فجاءه بقليل من الماء ، فغسل عن وجهه التراب ، فقال النعمان : من أنت ؟ قال : أنا معقل بن يسار ، قال : ما فعل الناس ؟ قال: فتح الله عليهم ، قال : الحمد لله ، اكتبوا بذلك إلى عمر ، وفاضت روحه .

ولما أظلم الليل انهزم الفرس وهربوا دون قصد فوقعوا في واد ، فكان واحدهم يقع فيقع معه ستة ، فمات في هذه المعركة مائة ألف أو يزيدون ، قتل في الوادي فقط ثمانون ألفاً ، وقتل ذو الحاجب ، وهرب الفيرزان ، وعلم بهربه القعقاع فتبعه هو ونعيم ابن مقرن فأدركاه في واد ضيق فيه قافلة كبيرة من بغال وحمير محملة عسلاً ذاهبة إلى كسرى ، فلم يجد طريقاً فنزل عن دابته وصعد في الجبل ليختفي ، فتبعه القعقاع راجلاً فقتله .

وحزن المسلمون على موت أميرهم وبايعوا بعد المعركة أميرهم الجديد حذيفة ، ودخلوا نهاوند عام ٢١هـ بعد أن فتحوها.

لقد أيّد الله عز وجل دينه بنوعية خاصة من الرجال، اصطفاهم المولى جل وعلا، واختارهم من بين خلقه لنيل شرف المهمة الجليلة، هؤلاء الرجال الأبطال تغلغل الإيمان في قلوبهم، وارتقت نفوسهم إلى أعلى عليين من أجل نصرة الدين، فلم يبق لهم همة ولا هدف ولا غاية في الحياة إلا لخدمة الإسلام ونشره بين الناس، إنهم رجال آثروا مرضات الله عز وجل بدعوة الناس للإسلام على متاع الحياة الدنيا، فودعوا الراحة والدعة والسكون وهجروا الفراش والسلامة وتركوا الديار والأهل والأحباب، وصارت

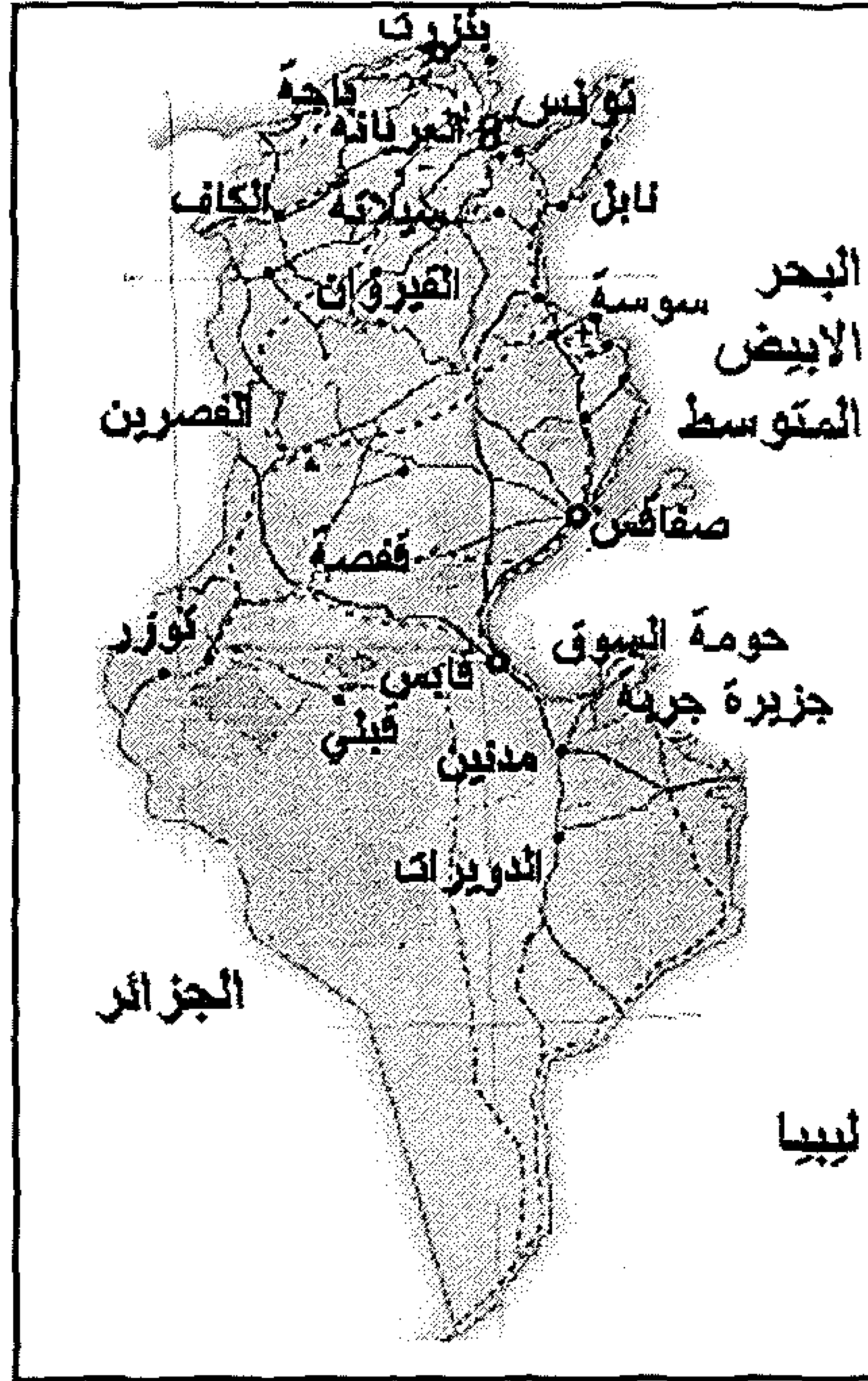
ظهور الخيل مساكنهم، وآلات الجهاد عيالهم، وإخوان الجهاد رفقاءهم، فلا عجب إذا أن تنتهي حياتهم في آخر بقاع الدنيا، فهذا يموت في بلاد الصين وهذا في أدغال إفريقيا وذاك في أحراش الهند، وكلهم راض بهذه الحياة وهذه النهاية، طالما تُوجت حياته بأسْمَى ما يريد : الشهادة في سبيل الله، وهكذا فهذه قصة واحد من أئمة هؤلاء الأبطال .



٢٤

عقبة بن نافع ..
بطل القيروان





هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري، ولد قبل الهجرة بسنة، وكان أبوه قد أسلم قديماً، أمه من قبيلة عَنَزة بن ربيعه العدنانية لذلك فقد ولد عقبة ونشأ في بيئة إسلامية خالصة، وهو صحابي بالمولد، لأنه ولد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهو يمت بصلة قرابة للصحابي الجليل عمرو بن العاص من ناحية الأم، وقيل إنهما ابني خالة .

ولقد برز اسم "عقبة بن نافع" مبكراً على ساحة أحداث حركة الفتح الإسلامي التي بدأت تتسع بقوة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث اشترك هو وأبوه "نافع" في الجيش الذي توجه لفتح مصر بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه، ولقد توسم فيه "عمرو" أنه سيكون له شأن كبير ودور في حركة الفتح الإسلامي على الجبهة الغربية، لذلك أسند إليه مهمة صعبة وهى قيادة دورية استطلاعية لدراسة إمكانية فتح الشمال الإفريقي، ومعلوم عند العسكريين أن سلاح الاستطلاع هو أخطر وأهم سلاح في أي جيش، لأنه هو الذي يحدد طريقة الهجوم بين الشجاعة والقوة والذكاء الشديد وحسن التصرف في المواقف الصعبة، وكلها خصال توفرت في عقبة وأدركها عمرو فيه، لذلك عندما عاد عمرو إلى مصر بعد فتح تونس، جعل عقبة بن نافع والياً عليها على الرغم من وجود العديد من القادة الأكفاء والصحابة الكبار، مما يدل على نجابة هذا البطل الشاب .

أرسل "عمرو بن العاص" والى مصر البطل الشاب عقبة بن نافع إلى بلاد النوبة لفتحها، فلاقى هناك مقاومة شرسة من النوبيين، ولكنه مهد السبيل أمام من جاء بعده لفتح البلاد، ثم أسند إليه عمرو مهمة في غاية الخطورة، وهي تأمين الحدود الغربية والجنوبية لمصر ضد هجمات الروم وحلفائهم البربر، فقاد عقبة كتيبة قتالية على أعلى مستوى قتالي للتصدي لأي هجوم مباغت على المسلمين وتعاقبت عدة ولاة على مصر بعد عمرو بن العاص منهم عبد الله بن أبى السرح ومحمد بن أبى بكر ومعاوية بن حديج وغيرهم، كلهم أقر عقبة بن نافع في منصبه كقائد لحامية برقة .

ظل "عقبة" في منصبه الخطير كقائد للحامية الإسلامية" ببرقة" خلال عهدي عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب رضي الله عنهما، ونأى بنفسه عن أحداث الفتنة التي وقعت بين المسلمين، وجعل شغله الشاغل الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام بين قبائل البربر ورد عادية الروم، فلما استقرت الأمور وأصبح معاوية رضي الله عنه خليفة للمسلمين، أصبح "معاوية بن حديج" والياً على مصر، وكان أول قرار أخذه هو إرسال عقبة بن نافع إلى الشمال الإفريقي لبداية حملة جهادية قوية وجديدة لمواصلة الفتح الإسلامي الذي توقفت حركته أثناء الفتنة وذلك سنة ٤٩ هجرية .

كانت هناك عدة بلاد قد خلعت طاعة المسلمين بعد اشتعال الفتنة بين المسلمين، منها "ودان" و"إفريقية" و"جرمة" و"قصور خاوار"، فانطلق الأسد العنيف عقبة ورجاله الأشداء على هذه القرى الغادر أهلها وأدبهم أشد تأديب، فقطع أذن ملك ودان وأصبع ملك "قصور كوار" حتى لا تسول لهم أنفسهم محاربة المسلمين مرة أخرى (مع العلم أن هذا الأمر لا يجوز شرعاً لأنه مُثْلَةٌ ولكن عقبة اجتهد في تأديبهم بما يردعهم عن المعاودة للخلاف) لأن ما فعلوه أيضا كان إجراما منهم.

بعد أن طهر عقبة المنطقة الممتدة من حدود مصر الغربية إلى بلاد إفريقية تونس من الأعداء والمخالفين، أقدم عقبة على التغلغل في الصحراء بقوات قليلة وخفيفة لشن حرب عصابات خاطفة في أرض الصحراء الواسعة ضد القوات الرومية النظامية الكبيرة التي لا تستطيع مجاراة المسلمين في حرب الصاعقة الصحراوية، واستطاع عقبة وجنوده أن يطهروا منطقة الشمال الإفريقي من الحاميات الرومية المختلفة ومن جيوب المقاومة البربرية المتناثرة.

لم يكن عقبة بن نافع قائداً عسكريًّا محضاً فقط، بل كان صاحب عقلية مبدعة وفكر استراتيجي فذ وهو يصح أن يطلق عليه خبير بشؤون المغرب والشمال الإفريقي، ومن خلال حملاته الجهادية المستمرة على الشمال الإفريقي، **أدرك أهمية بناء مدينة إسلامية في هذه البقاع وذلك لعدة أسباب من أهمها :-**

١- تثبيت أقدام المسلمين والدعوة الإسلامية هناك وذلك أن عقبة قد لاحظ أمراً هامًّا أن أهل الشمال الإفريقي إذا جاءهم المسلمون يظهرون الإسلام وإذا انصرفوا عنهم رجعوا مرة أخرى إلى الكفر، فكان بناء مدينة إسلامية خير علاج لهذه الظاهرة الناجمة عن غياب قاعدة إسلامية ثابتة للإسلام لنشر الهدى والنور وسط ظلمات البربر.

٢- ضرورة تكوين قاعدة حربية ثابتة في مواجهة التهديدات الرومية المتوقعة بعد فتح الشمال الإفريقي.

٣- أن تكون هذه المدينة دار عزة ومنعة للمسلمين الفاتحين، ذلك لأنهم تفرقوا في البلاد كحاميات على المدن المفتوحة، وهذا التفرق قد يورث الضعف والوهن مع مرور الوقت خاصة لو دهم عدو كبير العدد هذه البلاد.

لهذه الأسباب وغيرها قرر "عقبة بن نافع" بناء مدينة القيروان في القرن الشمالي لإفريقية في مكان تتوافر فيه شروط الأمن الدَّعَوِيّ والحركي للمسلمين بحيث تكون دار عزة ومنعة وقاعدة حربية أمامية في القتال، ومنارة دعوية علمية لنشر الإسلام، وانطبقت كل الشروط المطلوب توافرها في منطقة أحراش مليئة بالوحوش والحيات، فقال له رجاله: "إنك أمرتنا بالبناء في شعاب وغياض لا ترام، ونحن نخاف من السباع والحيّات وغير ذلك من دواب الأرض"، وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمعهم وقال "إني داع فأمّنوا"، وبالفعل دعا الله عز وجل طويلاً والصحابة والناس يأمّنون، ثم قال عقبة مخاطباً سكان الوادي: "أيتها الحيَّات والسباع، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فارتحلوا عنا فإنا نازلون، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه".

فحدثت بعدها كرامة هائلة حيث خرجت السباع من الأحراش تحمل أشبالها والذئب يحمل جروه، والحيّات تحمل أولادها، في مشهد لا يُرَى مثله في التاريخ، فنادى عقبة في الناس: "كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا" وهكذا يصل الإيمان والثقة بالله عز وجل لهذا المستوى الفائق من اليقين بنصرة الله عز وجل وتأييده ومدده، فهذا هو البطل المجاهد يصل به الإيمان والكرامة لئن يتكلم مع الحيوانات البهائم التي لا تعقل ولا تفهم، فيطيعونه ويسمعون أوامره، وهكذا يصبح الكون كله ومن فيه مسخراً لخدمة المجاهدين وغايتهم السامية.

استمر بناء مدينة القيروان قرابة الخمس السنوات، حتى أصبحت القيروان درة المغرب، وشيّد عقبة بها جامعاً كبيراً أصبح منارة العلم وقبلة طلاب العلم والشريعة من كل مكان، وملتقى للدعاة والعلماء والمجاهدين، وأصبح جامع القيروان أول جامعة إسلامية على مستوى العالم وذلك قبل الأزهر بعدة قرون.

بعدما انتهى عقبة بن نافع من بناء القيروان ومسجدها الجامع، جاءه الأمر الخليفي بالتنحي عن ولاية إفريقية، وتولية رجل من جنود عقبة اسمه أبو المهاجر دينار، وهو رجل مشهور بالكفاءة وحسن القيادة.

فما كان رد فعل القائد المظفر الذي فتح معظم الشمال الإفريقي وحقق بطولات فائقة عندما جاءه خبر العزل ؟ هل تمرّد ؟ هل امتنع أو حتى تذمر ؟

كلا والله.. إنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فلا المناصب تبهرهم ولا الدنيا تفتنهم ولا الأحقاد تعرف إلى قلوبهم طريقاً، إنهم خالصين مخلصين لا يريدون إلا وجه الله عز وجل، امتثل عقبة فوراً للأمر وانتظم في سلك الجندية.

استطاع أبو المهاجر القائد الجديد أن يحقق عدة مكاسب إستراتيجية في الشمال الأفريقي على حساب التواجد الرومي بهذه المناطق، واستطاع أيضاً، أن يستميل زعيم قبائل البربر كسيلة بن لمزم وكان كسيلة شديد التأثير على قومه، قوى الشخصية،محبوباً في قومه، مطاعاً منهم، وكان نصرانيا متمسكاً بدينه وكان نجاح أبى المهاجر في إقناعه بالإسلام مكسباً كبيراً للإسلام والمسلمين، ولكن القائد المحنك عقبة صاحب النظرة الثاقبة الخبيرة بطبائع البربر، لم يطمئن لإسلام كسيلة خاصة وأنه قد أسلم بعد وقوعه في أسر المسلمين وبعدما ذاق حر سيوفهم، وقد صدق هذا الحدس فيما بعد كما سنعلم .

لم يمض كثير من الوقت حتى عاد الأسد الضاري عقبة بن نافع إلى قيادة الجهاد ببلاد المغرب وانتقل أبو المهاجر في صفوف الجنود مجاهداً مخلصاً، وهكذا نرى خير الأمة ينتقل الواحد منهم من الرئاسة إلى عامة الجند بمنتهى اليسر والسهولة، بلا مشاكل أو اعتراض، وبلا أحقاد وأضغان، وذلك لأن الكل يبتغى مرضات الله ولا يريد شيئاً من عرض الدنيا الزائل .

قرر عقبة بن نافع استئناف مسيرة الفتح الإسلامي من حيث انتهى أبو المهاجر، وكانت مدينة طنجة هي آخر محطات الفتح أيام أبي المهاجر، وهنا أشار أبو المهاجر على عقبة ألا يدخل مدينة طنجة لأن كسيلة زعيم البربر قد أسلم، ولكن عقبة كان يشك في نوايا وصحة إسلام كسيلة، فقرر الانطلاق لمواصلة الجهاد مروراً بطنجة وما حولها، خاصة وأن للروم حاميات كثيرة في المغرب الأوسط .

انطلق عقبة وجنوده من مدينة القيروان، لا يقف لهم أحد ولا يدافعهم أي جيش، فالجميع يفرون من أمامهم، وكلما اجتمع العدو في مكان، انقض عقبة ورجاله عليهم كالصاعقة المحرقة ففتح مدينة باغاية، ثم نزل على مدينة تلمسان، وهي من أكبر المدن

في المغرب الأوسط، وبها جيش ضخم من الروم وكفار البربر، وهناك دارت معركة شديدة استبسل فيها الروم والبربر في القتال وكان يوماً عصيباً على المسلمين، حتى أنزل الله عز وجل نصره على المؤمنين، واضطر الأعداء للتراجع حتى منطقة الزاب.

سأل عقبة عن أعظم مدينة في الزاب فقيل له أربة، وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية عامرة، ففتحها عقبة، والروم يفرون من أمامه كالفئران المذعورة، ورحل عقبة بعدها إلى مدينة تاهرت فأرسلت الحامية الرومية استغاثة لقبائل البربر الوثنية فانضموا إليهم فقام عقبة في جيشه خطيباً بارعاً بعبارات فائقة تلخص رسالة المجاهد في سبيل الله فقال: "أيها الناس إن أشرفكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه، بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان على قتال من كفر بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرفكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم في دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى، وربكم لا يسلمكم فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل قد جعل بأسه على القوم المجرمين". وبهذه الكلمات الموجزة استثار عقبة حمية رجاله، وأعطى درساً بليغاً للأجيال من بعده عن حقيقة دعوة المجاهد.

التقى المسلمون بأعدائهم وقاتلوهم قتالاً شديداً، وكانت نتيجته معروفة بعدما وصلت معنويات المسلمين لقمم الجبال، وانتصر المسلمون كما هي عادتهم، وسار عقبة حتى نزل على طنجة فلقيه أحد قادة الروم واسمه جوليان فخضع لعقبة وأرسل له الجزية، فسأله عقبة عن مسألة فتح الأندلس فقال له جوليان أتترك كفار البربر خلفك وترمى بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ؟ فقال عقبة وأين كفار البربر ؟ فقال في بلاد السوس وهم أهل نجدة وبأس فقال عقبة وما دينهم ؟ قال ليس لهم دين فهم على المجوسية.

حقق عقبة غايته من حركة الفتح الإسلامي بالشمال الإفريقي، فلقد أخضع قبائل البربر وأوقع بها بأساً شديداً، حتى وصل إلى أقصى بلاد المغرب واقتحم المحيط بفرسه، وبعدها قرر عقبة العودة إلى القيروان، فلما وصل إلى طنجة أذن لمن معه من

الصحابة أن يتفرقوا ويقدموا القيروان أفواجاً ثقة منه بما نال من عدوه، ومال عقبة مع ثلاثمائة من أصحابه إلى مدينة تهوذة، فلما رآه الروم في قلة من أصحابه طمعوا فيه، وأغلقوا باب الصحن وشتموه وهو يدعوهم إلى الإسلام وعندها أظهر كسيلة مكنون صدره الذي كان منطوياً على الكفر والغدر والحسد، واستغل قلة جند عقبة واتفق مع الروم على الغدر بعقبة وأرسل إلى إخوانه البربر الوثنيين وجمع جموعاً كثيرة للهجوم على عقبة ومن معه.

ففك عقبة وقال له: "أنا أغتنم الشهادة"، فقال أبو المهاجر: "وأنا أيضا أريد الشهادة". وكسر عقبة والمسلمين أجفان سيوفهم واقتتلوا مع البربر حتى استشهد عقبة وكل من معه في أرض الزاب بتهوذة وذلك سنة ٦٣ هجرية.

كان عقبة بن نافع رضي الله عنه مثالاً في العبادة والأخلاق والورع والشجاعة والحزم والعقلية العسكرية الإستراتيجية الفذة، والقدرة الفائقة على القيادة بورع وإيمان وتقوى وتوكل تام على الله عز وجل فأحبه رجاله وأحبه أمراء المؤمنين، وكان مستجاب الدعوة، ميمون النقيبة، مظفر الراية، فلم يهزم في معركة قط، طبق في حروبه أحدث الأساليب العسكرية الجديدة في تكتيكات القتال مثل مبدأ المباغتة وتحشيد القوات وإقامة الحاميات وتأمين خطوط المواصلات واستخدام سلاح الاستطلاع.

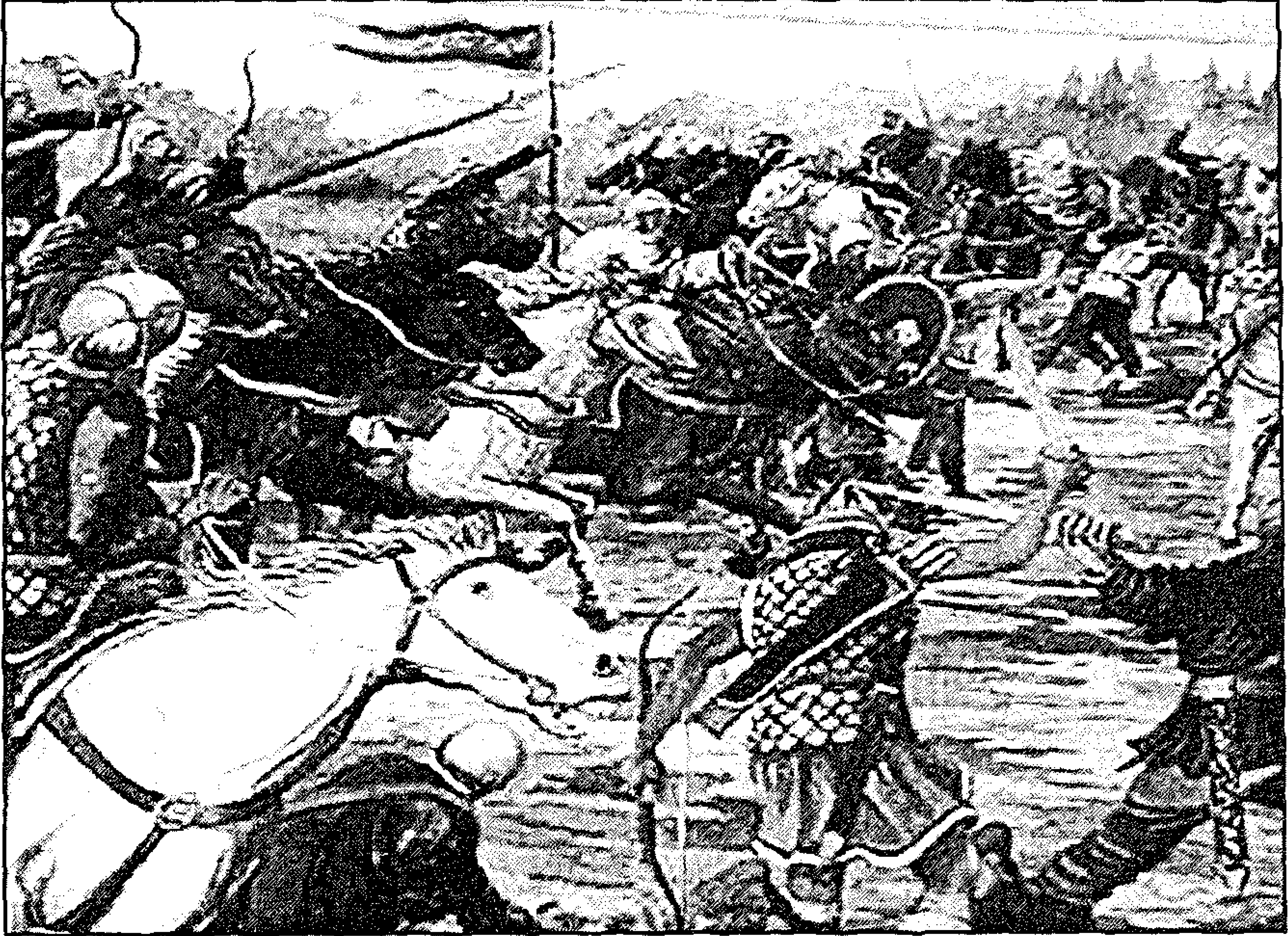
ونستطيع أن نقول بمنتهى الحيادية أن البطل عقبة بن نافع قد حقق أعمالاً عسكرية باهرة بلغت حد الروعة والكمال وأنجز في وقت قليل ما لا يصدقه عقل عند دراسته من الناحية العسكرية البحتة، وترك باستشهاده أثراً كبيراً في نفوس البربر وأصبح من يومها يلقّب بـ "سيدي عقبة".



٢٥

عبد الرحمن الغافقي..
بطل معركة بلاط الشهداء





البلاط في اللغة العربية تعني القصر أو الرخام، وحسب رأي سميت هذه المعركة ببلاط الشهداء في التاريخ الإسلامي لأن المعركة وقعت بالقرب من قصر مهجور وحسب رأي آخر سميت المعركة ببلاط الشهداء بسبب الطريق المعبد من زمان الرومان الذي قاتل الجانبان عليه وأضيفت كلمة الشهداء لكثرة ما وقع في تلك المعركة من قتلى للمسلمين. أما الأوروبيون فينسبون المعركة لمدينة تورز التي وقعت المعركة بالقرب منها

فيسمونها معركة تورز وتسمى كذلك معركة بواتييه لوقوعها أيضا بالقرب من بلدة بواتييه في فرنسا.

بعد أن ان استولى العرب المسلمون على أسبانيا و وطدوا حكمهم فيها عبروا جبال البرانس وبدأوا في غزو الأراضي الإفرنجية (فرنسا في الوقت الحاضر) على يد السمح ابن مالك الخولاني وتم على يده غزو مدن منطقة سبتمانيا أربونة وبيزارس وآجده ولوديفيه وماغيولون ونييمس.

ورجع السمح إلى الأندلس ليجمع جيشا يحاصر به مدينة تولوز ويقال إنه جمع أكثر من ١٠٠ ألف شخص من الفرسان والمشاة. قام المسلمون بحصار تولوز طويلا حتى كاد أهلها أن يستسلموا إلا إن الدوق أودو دوق أقطانيا (أكوينتين) باغته بإرسال جيش ضخم فقامت هنالك معركة عرفت في التاريخ باسم (معركة تولوز) وقاوم المسلمون فيها وقتل قائدهم السمح بن مالك فاضطرب الجيش وانسحب المسلمون لقاعدتهم في بلاد الإفرنج مدينة أربونة وكان ذلك في ٩ يونيو ٧٢١ م.

كان السمح هو والي الأمويين في بلاد الأندلس وبعد وفاته قام الأندلسيون بتعيين عبد الرحمن الغافقي كوالٍ مؤقت حتى ينظر الخليفة في من سيعين عليهم.

عين عنبسة بن سحيم الكلبي كوال للأندلس فقام بإكمال ما بدأ به السمح بن مالك وقد توغل كثيرا في الأراضي الفرنسية حتى بلغ مدينة أوتون في شرق فرنسا وفي طريق عودته إلى الأندلس فاجأته قوات إفرنجية فأصيب إصابة بليغة لم يلبث أن مات على إثرها في ديسمبر ٧٢٥ م. ثم جاء أربعة ولاة للأندلس لم يحكم أغلبهم أكثر من ٣ سنوات حتى عين عبد الرحمن الغافقي عام ٧٣٠ م.

قام عبد الرحمن بإخماد الثورات القائمة في الأندلس وعمل على تحسين وضع البلاد الأمني والثقافي. وفي تلك الأثناء قام الدوق أودو بالتحالف مع حاكم إقليم كاتالونيا المسلم عثمان بن نيساء وعقد صلحا بينه وبين المسلمين وتوقفت الغزوات الإسلامية في بلاد الإفرنج. كان الدوق أودو يعلم أن عدوه الأبرز هو تشارلز مارتل -وخاصة بعد معركة طولوشة- وأنه إذا صالح المسلمين فإنه سيأمن هجماتهم من جهة وسيشكلون قوة ورادعا في وجه تشارلز مارتل من جهة أخرى إذ لن يفكر تشارلز في مهاجمته خوفا من المسلمين.

قام عثمان بن نيساء في مالم يكن في الحسبان فقد قام بإعلان استقلال إقليم كاتلونيا عن الدولة الأموية فما كان من عبد الرحمن الغافقي إلا أن أعلن الحرب ضده بصفته خائنا ولم يستثن عبد الرحمن الدوق أودو من هذا الأمر فجهز جيشه وأخضع كاتلونيا لدولته ثم اتجه صوب أراض أودو وحاصر مدينة البردال (بوردو) وغزاها المسلمون وقتلوا من جيش أودو الكثير حتى قال المؤرخ إسيدورس باسينسيز "إن الله وحده يعرف عدد القتلى".

وجد تشارلز مارتيل الوضع في بلاده مناسبا لإخضاع الأقاليم الجنوبية التي طالما استعصت عليه وكان يعلم أن العقبة الوحيدة في طريقه هي جيش المسلمين. كان الجيش الإسلامي قد انتهى بعد زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتي بواتييه وتور بعد أن استولى على المدينتين، وفي ذلك الوقت كان جيش تشارلز مارتل قد انتهى إلى نهر اللوار دون أن ينتبه المسلمون بقدوم طلائعه، وحين أراد الغافقي أن يقتحم نهر اللوار لملاقاة خصمه على ضفته اليمنى قبل أن يكمل استعداده فاجأه مارتل بقواته الجرارة التي تفوق جيش المسلمين في الكثرة، فاضطر عبد الرحمن إلى الرجوع والارتداد إلى السهل الواقع بين بواتييه وتور، وعبر تشارلز بقواته نهر اللوار وعسكر بجيشه على أميال قليلة من جيش الغافقي.

لقد اختار مارتل بحنكته مكان المعركة وتوقيتها أي أنه أجبر المسلمين على التواجد في المكان الذي يريده لهم.

حصلت بعض المناوشات بين الجيشين وكأن المعركة حرب استنزاف، أي أن من يصمد أكثر من الطرفين ينتصر. ومكث الطرفان على هذه الحال من ٦ إلى ٩ أيام (هناك اختلاف بين المؤرخين على مدة المعركة) وفي اليوم الأخير قامت معركة قوية بين الجيشين ولاح النصر للمسلمين. رأى مارتل شدة حرص جنود المسلمين على الغنائم التي جمعوها فأمر بعض أفراد جيشه بالتوجه لمخيم المسلمين والإغارة عليه لسلب الغنائم فارتدت فرقة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة لرد الهجوم المباغت وحماية الغنائم، فاضطربت صفوف المسلمين واستطاع الإفرنج النفاذ في قلب الجيش الإسلامي. ثبت عبد الرحمن مع قلة من جيشه وحاولوا رد الهجوم بلا جدوى وقتل عبد الرحمن فازداد اضطراب المسلمين وانتظروا نزول الليل حتى ينسحبوا لقاعدتهم أربونة قرب جبال البرانس.

تضافرت عوامل كثيرة في هذه النتيجة المخزية، منها أن المسلمين قطعوا آلاف الأميال منذ خروجهم من الأندلس، وأنهكتهم الحروب المتصلة في فرنسا، وأرهقهم السير والحركة، وطوال هذا المسير لم يصلهم مدد يجدد حيوية الجيش ويعينه على مهمته، فالشقة بعيدة بينهم وبين مركز الخلافة في دمشق، فكانوا في سيرهم في نواحي فرنسا أقرب إلى قصص الأساطير منها إلى حوادث التاريخ، ولم تكن قرطبة عاصمة الأندلس يمكنها معاونة الجيش؛ لأن كثيرًا من المسلمين تفرقوا في نواحيها.

وتبالغ الروايات في قصة الغنائم وحرص المسلمين على حمايتها، في الوقت التي تذكر فيه الروايات أن الجيش الإسلامي ترك خيامه منصوبة والغنائم مطروحة في أماكنها.

أدت المعركة إلى توقف الزحف العربي الإسلامي في أوروبا الغربية و أعطي تشارلز لقب مارتل (أي المطرقة) بعد المعركة. وقد اختلف المؤرخون، قديمون أو معاصرون، مسلمون أو مسيحيون في أهمية تلك المعركة فالبعض وصفها بأنها حفظت المسيحية من الفناء فيقول المؤرخ إدوارد جيبون في كتابه اضمحلال الإمبراطورية الرومانية:

«خط انتصار (المسلمين) طوله ألف ميل من جبل طارق حتى نهر اللوار كان غير مستبعد أن يكرر في مناطق أخرى في قلب القارة الأوروبية حتى يصل بالساراكنز (يقصد المسلمين) إلى حدود بولندا ومرتفعات أسكتلندا، فالراين ليس بأصعب مرورا من النيل والفرات وإن حصل ما قد ذكرت كنا اليوم سنرى الأساطيل الإسلامية تبحر في التايمز بدون معارك بحرية ولكان القرآن يدرس اليوم في أوكسفورد ولكان وعاظ الجامعة اليوم يشرحون للطلاب باستفاضه عن الوحي النازل على محمد.»



رسم للفنان كارل فان ستوبين لمعركة بلاط الشهداء.

يختلف العديد من المؤرخين مع وجهة نظر جيبون فيخبرون عن توسعات المسلمين أنها لم تكن تتوقف لهزيمة أو خسارة معركة فللمسلمين العديد من المحاولات للسيطرة على القسطنطينية قبل أن تسقط في عهد العثمانيين وقد هزم المسلمون أكثر من مرة في الهند وبلاد ما وراء النهرين إلا أن ذلك لم يكن ليمنعهم من مواصلة القتال. ويشير أولئك المؤرخون أن المسلمين لم يكونوا طامحين في مواصلة القتال في القارة الأوروبية لأن تلك الأراضي كانت تعيش في وضع اجتماعي وثقافي وحضاري منحط.

مؤرخو القرن الحالي يرون بأن المعركة سواءإذا أوقفت المد الإسلامي أم لم تفعل لكنها وضعت الأسس الأولى لبناء الإمبرطورية الشارلكانية وهيمنة الفرنجة لقرن من الزمان. وإنشاء قوة الفرنجة بغرب القارة حددت مصير أوروبا والمعركة أثبتت ذلك.

كما أن الأمويين في الأندلس عانوا الأمرين بسبب وجود جيوب المقاومة المسيحية في شمال البلاد والتي أرهقتهم وأشغلتهم عن مواصلة القتال في القلب الأوروبي وعانوا كذلك بسبب العباسيين الذين كانوا يتحينون الفرصة لإزالة دولتهم والحصول على أراضيها .

وهكذا كان عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر الغافقي - نسبة إلى قبيلة غافق اليمنية- قائدا عربيا مسلما و أمير الأندلس أيام عصر الولاة فيها، شارك في فتح الأندلس في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وتولى إمارتها مرتين عام ٧٢١م ثم في عام ٧٣٠ م بعد تعيين ٤ ولاة للأندلس لم يستطيعوا أن يثبتوا أنفسهم فيها وسادت الأندلس فترة من الاضطرابات ذلك الوقت، قام عبد الرحمن بإخماد الثورات والفتن القائمة في الأندلس بين العرب والبربر و بين العرب أنفسهم وعمل على تحسين وضع البلاد الأمني. مات في معركة بلاط الشهداء سنة (٧٣٢ م الموافق ١١٤ هـ) قرب مدينتي تور وبواتييه الفرنسيتين وذلك بعد أن توغل بجيشه داخل أراضي الفرنجة (فرنسا اليوم).

يذكر أن أولى غزواته في فرنسا عندما شارك في قيادة الجيش العربي الإسلامي مع أمير الأندلس السمح بن مالك الخولاني، عندما قام السمح لأول مرة بعبور جبال البرتات (البرانس) الواقعة في الحدود الأسبانية الفرنسية و غزوه لجنوب فرنسا، كانت فرنسا في ذلك الوقت لم تكن موجودة كاصطلاح جغرافي كذلك لم تكن موجودة كوحدة سياسية، كما أن اللغة الفرنسية لم تكن قد تكونت بعد.

حاول السمح بن مالك فتح إمارة سبتمانيا الواقعة في جنوب فرنسا لتأمين الحدود الشمالية للأندلس، فحاصر عاصمتها أربونة (ناربون) واستولى عليها، ثم اتجه نحو الشمال الغربي نحو نهر الغارون واستولى على مدينة تولوز، ثم توغل في دوقية أكيتانيا، فواجهه دوق أكيتانيا يودو بجيشه بالقرب من تولوز عام ٧٢١ م ١٠٢ هـ، فدارت معركة بين الجيشين انتهت بهزيمة السمح و استشهاده، و انسحاب جيشه بقيادة عبد الرحمن الغافقي إلى مدينة ناربون التي أصبحت قاعدة عربية لغزو ما وراء جبال البرتات.

بعد توليه إمارة الأندلس للمرة الثانية عام ٧٣٠ م، خرج عبد الرحمن عام ٧٣٢ م الموافق لعام ١١٤ هـ بجيش كبير لمواصلة الفتوحات الإسلامية في فرنسا، فهاجم أكيتانيا، و عبر نهر الغارون و استولى على مدينة بوردو، و كان العرب يسمونها برديل أو بردال، و قد اشتهرت بسيوفها التي عرفها الأندلسيون باسم (البردليات)، و عندما عجز دوق أكيتانيا يودو من مقاومة عبد الرحمن، استنجد بالدولة الميروفنجية الفرنجية، و كانت هذه الدولة ملكية في نظامها، و يحكمها المتأخرون من ملوكها الذين كانوا في ذلك

الوقت ملوكا ضعفاء، أما السلطة الحقيقية في البلاد فكانت بيد رئيس القصر المعروف باسم شارل مارتل أي شارل المطرقة. و عندما رأى شارل مارتل انتصار العرب بقيادة عبد الرحمن على أكيتانيا معناه اقتراب خطرهم من الدولة الميروفنجية، لبى دعوة دوق أكيتانيا، و خرج بجيش فرنجي كبير لصد الزحف العربي، والتقى الجيشان في منطقة قرب مدينتي تور و بواتييه ليستشهد في معركة بلاط الشهداء و عدد كبير من رجاله، وانسحب الجيش العربي الإسلامي أثناء الليل، و بذلك توقفت الفتوحات الاسلامية في أوروبا الغربية.



٢٦

يوسف بن تاشفين
بطل معركة الزلاقة





يوسف المغرب هو يوسف بن تاشفين ناصر الدين بن تالاكاكين الصنهاجي (١٠٠٦-١١٠٦) ثاني ملوك المرابطين بعد عمه وابن عمه أبي بكر بن عمر القادمَيْن من بلاد موريتانيا . و اتخذ لقب "أمير المسلمين" أعظم ملك مسلم في وقته. أسس أول إمبراطورية في الغرب الإسلامي من حدود تونس حتى غانا جنوبا و الأندلس شمالا وأنقذ الأندلس من ضياع محقق و هو بطل معركة الزلاقة و قائدها. وحد وضم كل ملوك الطوائف في الأندلس إلى دولته بالمغرب (١٠٩٠) بعدما استنجد به أمير أشبيلية.

عرف بالتقشف و الزهد رغم اتساع إمبراطوريته كان شجاعا وأسدا هصورًا. قال "الذهبي" في "سير أعلام النبلاء":

كان ابن تاشفين كثير العفو، مقربًا للعلماء، وكان أسمر نحيفًا، خفيف اللحية، دقيق الصوت، سائسًا، حازمًا، يخطب لخليفة العراق... ووصفه كتاب "الكامل في التاريخ" لابن الأثير بقوله:

كان حليمًا كريمًا، دينًا خيرًا، يحب أهل العلم والدين، ويحكّمهم في بلاده، ويبالغ في إكرام العلماء والوقوف عند إشارتهم، وكان إذا وعظه أحدُهم، خشع عند استماع الموعظة، ولان قلبُه لها، وظهر ذلك عليه، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام.

يعتبر يوسف بن تاشفين بحق واحداً من عظماء المسلمين الذين جدّدوا للأمة أمر دينها ولم يأخذ حقه من الاهتمام التاريخي إلا قليلاً.

وشخصية يوسف بن تاشفين شخصية إسلامية متميزة استجمعت من خصائل الخير وجوامع الفضيلة ما ندر أن يوجد مثلها في شخص مثله. فيوسف بن تاشفين أبو يعقوب لا يقل عظمة عن يوسف بن أيوب الملقب بصلاح الدين الأيوبي، وإذا كان الأخير قد ذاع صيته في المشرق الإسلامي وهو يقارع الصليبيين ويوحد المسلمين، فإن الأول قد انتشر أمره في المغرب الإسلامي وهو يقارع الإسبان والمارقين من الدين وملوك الطوائف ويوحد المسلمين في زمن كان المسلمون فيه أحوج ما يكونون إلى أمثاله. نشأ يوسف بن تاشفين في موريتانيا نشأة إيمانية جهادية، وأصله من قبائل «صنهاجة اللثام» البربرية.

كانت الظروف السياسية السائدة في زمنه غاية في التعقيد وغلب عليها تعدد الولاءات وانقسام العالم الإسلامي وسيطرة قوى متناقضة على شعوبه. ففي بغداد كانت الخلافة العباسية من الضعف بمكان بحيث لا تسيطر على معظم ولاياتها، وفي مصر ساد الحكم الفاطمي، وفي بلاد الشام بدأت بواكير الحملات الصليبية بالنزول في سواحل الشام، وفي الأندلس استعرت الخصومة والخيانة وعم الفساد بين ملوك طوائفها، وأما في بلاد المغرب الإسلامي حيث نشأ وترعرع فكانت قبائل مارقة من الدين تسيطر على الشمال المغربي، وتحصن مواقعها في ا لمدن الساحلية كسبتة وطنجة

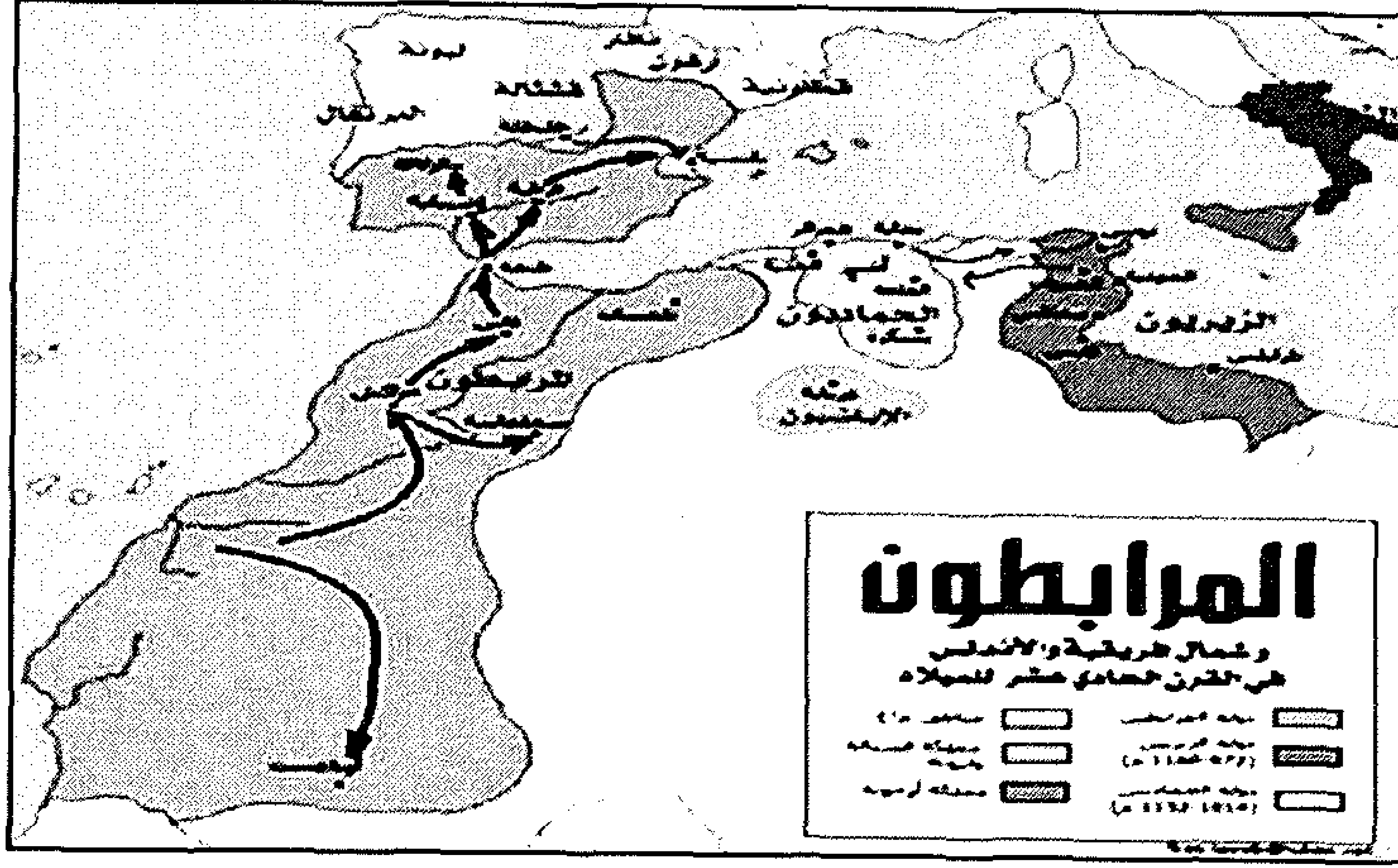
ومليلة، وهي من آثار الدولة العبيدية الفاطمية تمثلت في جزء منها بإمارة تسمى الإمارة البرغواطية سيطرت على شمال المغرب وبنت أسطولاً قوياً لها وحصنت قواتها البحرية المطلة على مضيق جبل طارق. وفي عام ٤٤٥هـ أسّس عبد الله بن ياسين حركة المرابطية (الرباط في سبيل الله)، وبعد عشر سنوات تسلم قيادة الحركة يوسف بن تاشفين، فبدأ بتعمير البلاد وحكمها بالعدل، وكان يختار رجالاً من أهل الفقه والقضاء لتطبيق الإسلام على الناس، واهتم ببناء المساجد باعتبارها مراكز دعوة وانطلاق وتوحيد للمسلمين تحت إمارته، ثم بدأ يتوسع شرقاً وجنوباً وشمالاً فكانت المواجهة بينه وبين الإمارة البرغواطية أمراً لا مفر منه. استعان ابن تاشفين في البداية بالمعتمد بن عباد - وهو أحد أمراء الأندلس الصالحين - لمحاربة البرغواطيين، فأمدّه المعتمد بقوة بحرية ساعدته في القضاء على تلك الإمارة، وهكذا استطاع أن يوحد كل المغرب حتى مدينة الجزائر شرقاً، وحتى غانة جنوباً، وكان ذلك عام ٤٧٦هـ.

وبعد أن قوي ساعده واستقرت دولته وتوسعت، لجأ إليه مسلمو الأندلس طالبين الغوث والنجدة، حيث كانت أحوال الأندلس تسوء يوماً بعد يوم، فملوك الطوائف لقبوا أنفسهم بالخلفاء، وخطبوا لأنفسهم على المنابر، وضربوا النقود بأسمائهم، وصار كل واحدٍ منهم يسعى للاستيلاء على ممتلكات صاحبه، لا يضره الاستعانة بالإسبان النصارى أعداء المسلمين لتحقيق أهدافه، واستنابوا الفساق، واستنجدوا بالنصارى وتنازلوا لهم عن مداخل البلاد ومخارجها. وأدرك النصارى حقيقة ضعفهم فطلبوا منهم المزيد. ولقد استجاب ابن تاشفين لطلب المسلمين المستضعفين، وفي ذلك يقول الفقيه ابن العربي: «فلبّأهم أمير المسلمين ومنحه الله النصر، وألجم الكفار السيف، واستولى على من قدر عليه من الرؤساء من البلاد والمعاقل، وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقي للأندلس تحالفوا مع النصارى، فدعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد والدخول في بيعة الجمهور، فقالوا: لا جهاد إلا مع إمام من قريش ولستَ به، أو مع نائبه وما أنت ذلك، فقال: أنا خادم الإمام العباسي، فقالوا له: أظهر لنا تقديمه إليك، فقال: أو ليست الخطبة في جميع بلادي له؟ فقالوا: ذلك احتيال، ومردوا على النفاق».

وحتى يكون ابن تاشفين أميراً شرعيًّا أرسل إلى الخليفة العباسي يطلب منه توليته. ويقول السيوطي في كتابه " تاريخ الخلفاء " : «وفي سنة تسع وسبعين أرسل يوسف بن

تاشفين صاحب سبتة ومرَاكش إلى المقتدي يطلب أن يسلطنه وأن يقلده ما بيده من البلاد فبعث إليه الخُلَعَ والأعلام والتقليدَ ولقَّبه بأمير المسلمين، ففرح بذلك وسُرَّ به فقهاء المغرب». وبعد أن زاد ضغط النصارى الإسبان القادمين من الشمال استنجد بابن تاشفين المعتمد بن عَبَّاد، ونُقِلَ عنه في كتاب دراسات في الدولة العربية في المغرب والأندلس أنه قال: «رعي الجِمال عندي خير من رعي الخنازير» وذلك كناية عن تفضيله للسيادة الإسلامية، ودخل المعتمد مع ابن تاشفين الأندلس شمالاً وقاد ابن تاشفين الجيوش الإسلامية وقاتل النصارى قتالاً شديداً وكانت موقعة الزلّاقة من أكبر المعارك التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً على الإسبان، وهُزم ملكهم الفونسو السادس هزيمة منكرة. وعلى أثر هذه الموقعة خَلَعَ ابنُ تاشفين جميعَ ملوك الطوائف من مناصبهم ووحّد الأندلس مع المغرب في ولاية واحدة لتصبح: أكبر ولاية إسلامية في دولة الخلافة.

يقول صاحب الحُلَل الموشيّة: (ولما ضخمت مملكة يوسف بن تاشفين واتسعت عمالته، اجتمعت إليه أشياع قبيلته، وأعيان دولته، وقالوا له: أنت خليفة الله في أرضه، وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير، بل ندعوك بأمير المؤمنين. فقال لهم: حاشا لله أن نتسمى بهذا الاسم، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة، وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم، فقالوا له: لا بد من اسم تمتاز به، فأجاب إلى «أمير المسلمين وناصر الدين» وخطب له بذلك في المنابر وخوطب به من العُدْوَتَيْن - أي المغرب والأندلس -).يقول السلامي الناصري في الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: «إنما احتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة العباسي مع أنه كان بعيداً عنه، وأقوى شوكة منه، لتكون ولايته مستندة إلى الشرع... وإنما تسمى بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين أدباً مع الخليفة حتى لا يشاركه في لقبه، لأن لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة، والخليفة من قريش».



ومن علامات التقوى والتمسك بأهداب الدين تمسك الأمراء والحكام بالنقود الشرعية، وفي ذلك يقول ابن الخطيب في كتابه الإحاطة: (كان درهمه فضة، وديناره تبراً محضاً، في إحدى صفحتيه «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وتحت ذلك «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين»، وفي الدائر . ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، وفي الصفحة الأخرى «الإمام عبد الله أمير المؤمنين» وفي الدائرة «تاريخ ضربه وموضع سكه»). وعبد الله اصطلاحاً هو كنية يصلح لاسم كل خليفة عباسي.

واتخذ يوسف السواد شعاراً للمرابطين، وهو نفس شعار الدولة العباسية، ورفع شعار السواد يدل على التمسك بالسنة والتمسك بالوحدة وعدم شق جماعة المسلمين، إضافة إلى أن راية رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت سوداء. لقد ذاع صيت ابن تاشفين بين العلماء والقضاة بشكل خاص وبين الناس بشكل عام فتناقلوا أخباره وصفاته، وتواتر عنهم نقل صفات الجهاد والعدل والزهد والإخلاص والتمسك بالإسلام وبدولة المسلمين الشرعية، حتى أثنى عليه معظم العلماء والفقهاء.

وجاء في الخطاب المطول الذي رفعه الفقيه المعروف بابن العربي واسمه عبد الله ابن عمر: الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين المتحرك بالجهاد، المتجهز إلى المسلمين باستئصال فئة العناد، وملة الفساد، قام بدعوة الإمامة العباسية والناس أشياع.

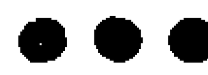
وقد غلب عليهم قوم دعوا إلى أنفسهم ليسوا من الرهط الكريم ولا من شعبه الطاهر الصميم، فتنبّه جميع من كان في أفق قيامه بالدعوة الإمامية العباسية، وقاتل من توقف عنها منذ أربعين عاماً إلى أن صار جميع من في جهة المغارب على سعتها وامتدادها له طاعة، واجتمعت بحمد الله على دعوته الموفقة الجماعة، فيخطب الآن للخلافة، بسط الله أنوارها، وأعلى منارها على أكثر من ألفي منبر وخمسمائة منبر، فإن طاعته ضاعفها الله من أول بلاد الله الإفرنج، استأصل الله شأفتهم، ودمّر جملتهم إلى آخر بلاد السوس مما يلي غانة، وهي بلاد معادن الذهب، والحافة بين الحدين المذكورين مسيرة خمسة أشهر، وله وقائع في جميع أصناف الشرك من الإفرنج وغيرهم، قد فللت غربهم، وقللت حزبهم، وألفت مجموعة حربهم، وهو مستمر على مجاهدتهم ومضايقتهم في كل أفق، وعلى كل الطرق، ولقد وصل إلى ديار المشرق في هذا العام قاضٍ من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم، ذكر من حال هذا الأمير ما يؤكد ما ذكرته، ويؤيد ما شرحته.

وقد خصّه الله بفضائل، منها الدين المتين، والعدل المستبين، وطاعة الإمام، وابتداء جهاده بالمحاربة على إظهار دعوته، وجمع المسلمين على طاعته، والارتباط بحماية الثغور، وهو ممن يقسم بالسوية، ويعدل في الرعية، ووالله ما في طاعته مع سعتها دانٍ منه، ولا ناءٍ عنه من البلاد ما يجري فيه على أحد من المسلمين رسم مَكْسٍ، وسبل المسلمين آمنة، ونقوده من الذهب والفضة سليمة من الشرب، مطرزة باسم الخلافة ضاعف الله تعظيمها وجلالها. هذه حقيقة حاله والله يعلم أني ما أسهبت ولا لغوت بل لعلي أغفلت أو قصرت». وجاء رد الخليفة بخط يده ويمداد ممسك: «... إن ذلك الولي الذي أضحى بحبل الإخلاص معتصماً، ولشرطه ملتزماً، وإلى أداء فروضه مسابقاً، وكل فعله فيما هو بصدده للتوفيق مساوقاً، لا ريبة في اعتقاده، ولا شك في تقلده من الولاء، طويل نجاده، إذا كان من غدا بالدين تمسكه، وفي الزيادة عنه مسلكه، حقيقاً بأن يستتب صلاح النظام على يده، ويستشف من يومه حسن العقبى في غده، وأفضل من نحاه، وعليه من الاجتهاد دار رحاه، جهاد من يليه من الكفار، وإتيان ما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار، اتباعاً لقول القرآن: (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) فهذا هو الواجب اعتماده، الذي يقوم به الشرع عماده».

وللغزالي قول فيه رد على طلب ابن العربي منه لفتوى بحقه نقتبس منه: «لقد سمعت من لسانه -ابن العربي- وهو الموثوق به، الذي يستغنى مع شهادته عن غيره، وعن طبقة من ثقاة المغرب الفقهاء وغيرهم من سيرة هذا الأمير أكثر الله في الأمراء أمثاله، ما أوجب الدعاء لأمثاله، فلقد أصاب الحق في إظهار الشعار الإمام المستظهري، وإذا نادى الملك المستولي بشعار الخلافة العباسية وجب على كل الرعايا والرؤساء الإذعان والانقياد، ولزمهم السمع والطاعة، وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هي طاعة الإمام، ومخالفته مخالفة الإمام، وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة فحكمه حكم الباغي، وقد قال الله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله) .

والفيئة إلى أمر الله الرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاء الإمام الحق المنتسب إلى الخلافة العباسية، فكل متمرد على الحق فإنه مردود بالسيف إلى الحق، فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة عن طاعته لا سيما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين أوليائهم، وهم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله، فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية، ومهما تركوا المخالفة وجب الكف عنهم، وإذا قاتلوا لم يجز أن يتبع مدبرهم، ولا أن (ينزف) على جريحهم.

وأما من يظفر به من أموالهم فمردود عليهم أو على ورثتهم، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم في القتال مهدرة لا ضمان فيها ويجب على حضرة الخليفة التقليد فإن الإمام الحق عاقلة أهل الإسلام، ولا يحل له أن يترك في أقطار الأرض فتنة ثائرة إلا ويسعى في إطفائها بكل ممكن. قال عمر رضي الله عنه: «لو تركت جرباء على ضفة الفرات لم تُطل بالهناء -القطران- فأنا المسؤول عنها يوم القيامة». فقال عمر بن عبد العزيز: «خصماؤك يا أمير المؤمنين»، يعني أنك مسؤول عن كل واحد منهم إن ضيعت حق الله فيهم أو أقمته فلا رخصة في التوقف عن إطفاء الفتنة في قرية تحوي عشرة فكيف في أقاليم».



٢٧

" معركة وادي لكة "
و انتصار طارق بن زياد على الملك لذريق

■ ■ ■



معركة وادي لكة معركة وقعت في ١٩ يوليو ٧١١ م بين المسلمين بقيادة طارق بن زياد وجيش الملك القوطي الغربي رودريغو الذي يعرف في التاريخ الاسلامي باسم لذريق. انتصر الأمويون انتصارا ساحقا أدى لسقوط دولة القوط الغربيين وبالتالي سقوط معظم أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية تحت سلطة الخلفاء الأمويين.

تسمى المعركة باسم النهر التي وقعت بالقرب منه وعلى ضفافه وهو نهر وادي لكة الذي يسمى بالإسبانية جواديليتي. يطلق بعض المؤرخين على المعركة مسمى معركة "سهل البرباط أو معركة شذونة". أيضا، تسمى المعركة بالإسبانية بمعركة دي لا جونا دي لا خاندا والتي تعني معركة بحيرة لا خندا الواقعة بالقرب من ميدان المعركة.

عين موسى بن نصير من قبل الدولة الأموية واليا للمغرب خلفا لحسان بن النعمان وواجه في بداية فترة حكمه العديد من الثورات من قبل البربر عمل على قمعها واستعادة ما استولى عليه من مدن المغرب كطنجة التي حررت واختار موسى طارق بن زياد واليا لها.

بعد أن قضى موسى على الفتن المنتشرة ودانت له جميع أراضيها لم تبق له سوى مدينة سبتة التي كان يحكمها الكونت يوليان التي تقول بعض المصادر أنه كان مواليا لحكام أيبيريا القوطيين وتيزا الذي يعرف في التاريخ العربي باسم غيطشة وابنه أخيلا الثاني وكان أن قام لذريق بانقلاب على غيطشة مما أثار حنق يوليان وأراد الانتقام وبالتالي استعان بالقوة الإسلامية المتنامية لدحر لذريق.

تذكر بعض المصادر الأخرى أمورا أخرى بأنه كانت ليوليان ابنة أرسلها لبلاط لذريق -كما كان يفعل جميع النبلاء في ذاك العصر- لتخدم عنده فأعجب بها لذريق وراودها عن نفسها وفض بكارتها مما أثار غضب يوليان وعزم على الأخذ بالثأر.

أخبر يوليان موسى بن نصير برغبته وأنه سيساعده إذا أراد احتلال أسبانيا خاصة وأن موسى كان يرنو لذلك ويطمح إليه، وتم الاتفاق بينهما على تسلم مدينة سبتة مقابل معاونة المسلمين ليوليان ضد لذريق، وبذلك تم موافقة كلا الطرفين على هذا الاتفاق. استشار موسى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك فأجابه قائلا «خضها بالسرايا حتى تختبرها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال». أرسل موسى سرية للاستطلاع قوامها ١٠٠ فارس و٤٠٠ من المشاة تحت قيادة طريف بن مالك الذي قام بالتوغل في الأندلس حتى وصل الجزيرة الخضراء.

بعد الحملة بعام تقريبا انطلقت قوات المسلمين تحت قيادة طارق بن زياد وفي سفن الكونت يوليان حاكم طنجة حتى وصلت للمنطقة الصخرية الساحلية التي تعرف اليوم باسم جبل طارق. وتقدم طارق وجيشه المقدر بحوالي ٧٠٠٠ شخص من العرب والبربر

نحو قادس التي احتلها والجزيرة الخضراء التي قاوم حاكمها سانتشو مقاومة عنيفة الأمر الذي ألحق بعض الخسائر في صفوف المسلمين مما استدعى من موسى بن نصير إرسال ٥٠٠٠ جندي لمعونة طارق بن زياد.

في هذه الأثناء كان لذريق يقوم بإخماد ثورة في بمبلونة في شمال البلاد التي كانت غارقة في الحروب والنزاعات الأهلية وبمجرد أن سمع بتحركات طارق اتجه مباشرة جنوبا صوب قرطبة بجيش قوامه ٤٠ ألف مقاتل ليواجه المسلمين عند وادي لكة قرب مدينة قادس.

انضم لجيش طارق بن زياد الكونت يوليان وبعض كبار الدولة القوطية من أعداء لذريق وعدد من جنودهم. تلاقى الجمعان قرب نهر وادي لكة. دامت المعركة ٨ أيام وقاوم القوط مقاومة عنيفة في بادئ الأمر إلا أن انسحاب لوائين (أحدهما بقيادة أخيه الأرشيدوق أوباس) من أصل ٣ ألوية من جيش لذريق أدى لضعضعة الأمور وإرباك الجيش).

يذكر أن لذريق اختفى أثره بعد المعركة، ويجمع أغلب الرواة على أنه مات كما يجمع أغلب المؤرخين على مقتل كل وجهاء البلاد ما عدا بِلَاي (أو بيلايو الأستورياسي، لدى الغرب) الذي هرب دون أن يشارك في القتال واتجه شمالا وقام بتأسيس مملكة أستورياس في الركن الشمالي الشرقي مما يعرف الآن بإسبانيا وهي مناطق قام المسلمون بغزوها مرات عديدة وانسحبوا منها..

بعد هذا النصر تعقب طارق فلول الجيش المنهزم الذي لاذ بالفرار، وسار الجيش مستوليا على بقية البلاد، ولم يلق مقاومة عنيفة في مسيرته نحو الشمال، وفي الطريق إلى طليطلة بعث طارق بحملات صغيرة لاحتلال المدن، فأرسل مغيثًا الرومي إلى قرطبة في سبعمائة فارس، فاقتحم أسوارها الحصينة واستولى عليها دون مشقة، وأرسل حملات أخرى إلى غرناطة والبيرة ومالقة، فتمكنت من احتلالها.

وسار طارق في بقية الجيش إلى طليطلة مخترقًا هضاب الأندلس، وكانت تبعد عن ميدان المعركة بما يزيد عن ستمائة كيلومتر، فلما وصلها كان أهلها من القوط قد فروا منها نحو الشمال بأموالهم، ولم يبق سوى قليل من السكان، فاستولى طارق عليها، وأبقى على من ظل بها من أهلها وترك لأهلها كنائسهم، وجعل لأحبارهم ورهبانهم

حرية إقامة شعائرهم، وتابع طارق زحفه شمالا فاخترق قشتالة ثم ليون، وواصل سيره حتى أشرف على ثغر خيخون الواقع على خليج بسكونية، ولما عاد إلى طليطلة تلقى أوامر من موسى بن نصير بوقف الغزو حتى يأتي إليه بقوات كبيرة ليكمل معه الغزو.

عبور ابن نصير إلى الأندلس

كان موسى بن نصير يتابع سير الجيش الإسلامي في الأندلس، حتى إذا أدرك أنه في حاجة إلى مدد بعد أن قتل منه في المعارك ما يقرب من نصفه، ألزم طارقًا بالتوقف؛ حرصًا على المسلمين من مغبة التوغل في أراض مجهولة، وحتى لا يكون بعيدًا عن مراكز الإمداد في المغرب، ثم عبر هو في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر إلى الجزيرة الخضراء في (رمضان ٩٣هـ= يونيه ٧١٢م)، وسار بجنوده في غير الطريق الذي سلكه طارق، ليكون له شرف احتلال بلاد جديدة، فاستولى على شذونة، ثم اتجه إلى قرمونة وهي يومئذ من أمنع معاقل الأندلس فاحتلها، ثم قصد إشبيلية وماردة فسقطتا في يده، واتجه بعد ذلك على مدينة طليطلة حيث التقى بطارق بن زياد في سنة (٩٤هـ= ٧١٣م).

وبعد أن استراح القائدان قليلا في طليطلة عاودا الغزو مرة ثانية، وزحفا نحو الشمال الشرقي، واخترقا ولاية أراجون، واستوليا على سرقطة وطركونة وبرشلونة وغيرها من المدن، ثم افترقا، فسار طارق ناحية الغرب، واتجه موسى شمالا، وبينما هما على هذا الحال من التوغل، وصلتهما رسالة من الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، يطلب عودتهما إلى دمشق، فتوقف الغزو عند النقطة التي انتهيا إليها، وعادا إلى دمشق، تاركين المسلمين في الأندلس تحت قيادة عبد العزيز بن موسى بن نصير، الذي شارك أيضا في الغزو، بضم منطقة الساحل الواقعة بين مالقة وبلنسية، وأخمد الثورة في إشبيلية وباجة، وأبدى في معاملة البلاد المفتوحة كثيرًا من الرفق والتسامح.

وبدأت الأندلس منذ أن سقطت في يد المسلمين تاريخها الإسلامي، وأخذت في التحول إلى الدين الإسلامي واللغة العربية، وظلت وطنا للمسلمين طيلة ثمانية قرون، كانت خلالها مشعلا للحضارة ومركزًا للعلم والثقافة، حتى سقطت غرناطة آخر معاقلها في يدي الإسبان المسيحيين سنة (٨٩٧هـ = ١٤٩٢م).

لم يبق في الأندلس مقاومة تذكر سوى من بيلايو الأستورياسي الذي أسس مملكة أستورياس في الركن الشمالي الشرقي من البلاد ويجعله مؤرخو الغرب قائد حروب الاسترداد وأول من بدأ بها حيث خاض معركة كوفادونجا مع نفر قليل من رجاله وانتصر فيها.

●●●

٢٨

معركة النمارق .. ثورة الأسد
وبطل اسمه أبو عبيدة الثقفي





عندما أصدر الخليفة أبو بكر أوامره لخالد بن الوليد القائد العام على الجبهة العراقية بالتحرك لإنجاد المسلمين بالجبهة الشامية لوصول جحافل رومية تقدر أكثر من مائتي ألف مقاتل ، كان على الخليفة تعويض النقص الحادث في صفوف المسلمين بالجبهة العراقية وكان أبو بكر قد جعل عليها المثَنَّى بن حارثة خليفة لخالد بن الوليد لمقدرة المثنى على القيادة بجانب خبرته العسكرية والواقعية بتلك البلاد لأنه من قبيلة ربيعة أجرأ الناس على الفرس .

وكان خروج خالد من العراق فرصة ذهبية للفرس الذين تنفسوا الصعداء بعد خروج خالد وفرحوا فرحاً عظيماً وقويت عزائمهم ضد المسلمين ،وخلال هذه الفترة حدثت فتنة دامية داخل البلاط الملكي الفارسي بعد مقتل كسرى شهر براز وتولي أخته دخت والتي كانت ضعيفة فخلعت ثم تولى سابور بن شهر براز وكان هو الآخر ضعيفاً فتآمرت عليه بنت عمه آزر ميدخت وقتلته هو وقائده فرخراز بن مبذوان وهو والد القائد الشهير رستم الذي سارع وكان حاكم خراسان وتحالف مع بوران بنت كسرى ودخلا المدائن وقتلوا آزر ميدخت وعين رستم بوران على ملك فارس .

لم يغتر المثنى بن حارثة القائد الجديد للجبهة العراقية بنزاعات البلاط الدامية في المدائن وشعر أن حجم جيوش المسلمين تسعة آلاف فقط في وضع حرج على الجبهة العراقية خاصة أنهم متناثرون في نقاط متفرقة مما يسهل على عدوهم المتربص الوثوب عليهم والفتك بهم ، فقرر المثنى التحرك سريعاً والتوجه للمدينة لشرح خطورة الموقف وطلب إمدادات سريعة وكبيرة للحفاظ على مكاسب المسلمين فوصل المثنى المدينة والخليفة أبو بكر في النزع الأخير ولكنه استطاع أن يجتمع مع أبي بكر وشرح له خطورة موقف المسلمين في العراق وضرورة إرسال إمدادات للمسلمين ، وما لبث أبو بكر حتى مات من غد بعدما أوصى الخليفة بعده عمر بن الخطاب بندب الناس للجهاد ضد الفرس ، وبالفعل من أول يوم لولاية الفاروق جمع الناس في المسجد وقام فيهم خطيباً ومعه المثنى بن حارثة يندب الناس للجهاد ضد الفرس فتلكأ الناس لكرههم لحرب الفرس المشهورين بالبأس والشدة وحاول المثنى أن يبين لهم ضعف أمر الفرس وخطأ الصورة الكاذبة المرسومة في أذهان الناس عن الفرس وظل عدة أيام يدعو الناس للجهاد ولكن الاستجابة كانت معدومة حتى بادر رجل من عامة الصحابة بالتطوع وهو أبو عبيدة الثقفي ثم قام آخر وهو سعيد بن عبيد الأنصاري ثم آخر وآخر حتى بلغ عددهم في النهاية ألف رجل لا غير وأثر هذا الموقف في نفسية الفاروق وحزن لضعف استجابة الصحابة للجهاد في سبيل الله لذلك عندما اجتمع عنده المتطوعون للقتال بقى أن يؤمر عليهم أميراً للجهاد فاختار لتلك المهمة الخطيرة والحساسة أول الناس انتداباً للجهاد : أبا عبيد الثقفي ولما قيل له هلا اخترت أحداً من كبار الصحابة أو السابقين رفض بشدة وقال وهو متأثر لا والله لا أفعل يا أصحاب النبي لا أندبكم وينتدب غيركم فأؤمركم عليهم والله لا أؤمر عليكم إلى أولهم انتداباً ثم أمر أبا عبيد الثقفي ووصاه

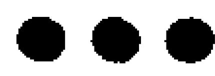
بوصايا نافعة ، ولاشك أن أبا عبيد كان من الأبطال الشجعان المشهورين بذلك ولكن القيادة تحتاج بجانب الشجاعة إلى الخبرة الحربية والدهاء والصبر والمناورة وهذه أمور لم تكن متوفرة في أبي عبيد البطل الشجاع .

انطلق المثنى إلى العراق ليلحق بجنوده لرفع معنوياتهم أمام عدوهم ولم ينتظر حتى يتم المتطوعون استعدادهم للسير فوصل المثنى إلى الحيرة في ٥ رجب ١٣ هـ وفي هذه الأثناء كان أهل فارس قد اصطلحوا فيما بينهم على تولية يزدجرد من ولد كسرى وهو ابن خمس عشرة سنة على أن يكون مشيره وأستاذه القائد الكبير رستم الذي فوض إليه أهل فارس الأمر لمدة عشر سنوات يكون فيها الحاكم الفعلي لفارس فأعد رستم خطة شريرة للقضاء على الوجود الإسلامي في العراق تقوم على إشعال الثورات وتأليب رعايا الدولة الفارسية الذين دخلوا في ذمة المسلمين وعهدهم لخلع هذه الأمة ونقض عهد المسلمين في كل مكان وحتى يشعل رستم حماس الثائرين قال لهم إن الأميرعليكم في العراق هو أول من يعلن الثورة على المسلمين في السواد ولكن هذه الخطط الشريرة لم تكن لتغيب عن ذهن القائد العسكري الفذ المثنى بن الحارثة الذي أدرك خطورة الموقف وقرر الانسحاب من كل المناطق الخاضعة للمسلمين وعن العراق كله والانحياز إلى حدود الجزيرة العربية وكان المثنى لا تهمه الأرض بقدر ما تهمه أرواح جنوده فنفذ الانسحاب بسرعة ولم يخسر رجلاً واحداً وتألم رستم جدّاً لفشل خطته التي رسمها لإبادة المسلمين بفضل الله ثم ذكاء المثنى رحمه الله .

قدم المسلمون المتطوعون للجهاد ضد الفرس بقيادة أبي عبيد الثقفي الذي اطلع على خطة الانسحاب التي قام بها المثنى بن حارثة فأعجبته وأقرها ، وأما على الجبهة الفارسية فقد طاش سهمها إذ تمكن المسلمون من الانسحاب دون أن ينال أحد منهم أي أذى ، وكان جابان كبير القادة المكلفين بتصفية المعسكر الإسلامي وكان يمني نفسه بأن يكون أمير العراق لأنه أول من ثار على المسلمين عملاً بوعد رستم ولما لم يقدر على تنفيذ خططه الشريرة بالفتك بالمسلمين شجعه حزنه وطمعه في الرياسة على الإقدام على مطاردة المسلمين حتى الصحراء لتدمير جيشهم الصغير الذي لا يزيد على عشرة آلاف بعد انضمام المدد إليهم ومما شجعه على ذلك أيضاً موافقة الأمير نرسي المغرور على فكرة المطاردة تلك فأرسلا إلى رستم يخبرانه بعزمهم وفي نفس الوقت يطلبان إمدادات جديدة لتكون سنداً لهم في تصفية القوات المسلمة بصحراء خفان .

نقل سلاح الاستخبارات الإسلامية الخبر للقائد أبي عبيد وذكروا ضخامة الجيش الفارسي وذلك قبل أن يشرع هذا الجيش بالتحرك إلى المسلمين وعندها قرر أبو عبيد ومعه المثنى مبادأة الفرس قبل أن يقبلوا عليهم ، وكان جابان واثقاً من النصر فجيشه يجاوز المائة ألف وسلاحهم جيد مما جعله يسير بسرعة ولكن في نفس الوقت بلا حذر، وتحرك أبو عبيد بجيشه الصغير وعبأه جيداً وسارع للصدام مع الفرس ليأخذ زمام الهجوم من يد القائد الفارسي جابان الذي وصل إلى منطقة النمارق وعسكر بها وعبأ جنده فلم يمهله أبو عبيد ومن معه فوقع المسلمون كالصاعقة على جيش الفرس الذين أخذتهم الدهشة والذهول من هجوم المسلمين السريع والخاطف عليهم فحاولوا في بادئ الأمر مقاومة الصعقة ولكن ولات حين مناص فقد كان المسلمون في هجومهم يتهافتون على الموت طمعاً في الشهادة ، فلم يطق الفرس ذلك وأخذت صفوفهم في التصدع وحاول القائد جابان الانسحاب بشكل منظم ولكن الفوضى عمت جيشه بصورة كبيرة أدت في النهاية لوقوع جابان نفسه في الأسر عندما تخلى عنه حراسه وفروا عنه فأسره رجلان من المسلمين وكان جابان شيخاً متقدماً في السن فزهد المسلمان في قتله واتفقا معه وهم لا يعرفانه على أخذ الفدية وكان جابان يخاف القتل جدّاً فاشترط عليهما أن يعطيهما الجزية في خيمة القائد لأنه يعرف أن العرب مشهورون بالوفاء بالعهد فوافقاه على شرطه ، فلما دخلوا على أبي عبيد وأخبروه بالقصة قال أوفيا للرجل بعهده بعد دفع ما عليه وكان أبو عبيد لا يعرف جابان وقبل أن يخرج جابان من خيمة أبي عبيد جاء قوم من ربيعة فعرفوا جابان وقالوا لأبي عبيد هذا الملك جابان الذي لقينا بهذا الجمع وأشاروا بقتله فقام أحد المسلمين اللذين أسر جابان وقال أسرته أنا وصاحبي من غير أمان وهم بقتله فمنعه أبو عبيد من ذلك وقال لهم لا تفعل ما ترونني فاعلاً معاشر ربيعة أيؤمنه صاحبكم وكان المسلم الآخر من قبيلة ربيعة وأقتله أنا؟ معاذ الله من ذلك إني أخاف أن أقتله وقد أمنه رجل من المسلمين ، المسلمون في التواد والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزمهم كلهم فقالوا إنه الملك فقال أبو عبيد لا أغدر

هكذا تكون أخلاق الإسلام وفرسان الإسلام التي جعلت الأعداء يشهدون والفضل ما شهد به العدا ويقولون بأعلى صوت إن دولة الظلم ساعة ودولة العدل إلى قيام الساعة.



٢٩

موقعة فارنا ..
وقصة بطولة مراد الثاني





تعجب كثير من المسلمين في أيامنا عندما أعلن الرئيس الأمريكي بوش قيام قوات التحالف المزمع عقده بحرب صليبية جديدة على المسلمين ، ذلك لأن هذا الاسم قد غاب عن ذهن المسلمين وتفكيرهم وظنوا أن الحرب الصليبية قد انتهت من أمد بعيد ولكن

الحق الغائب عن المسلمين أن الحرب الصليبية لم ولن تنته أبداً في يوم من الأيام حتى ينزل المسيح عليه السلام فيقتل الدجال وترفع الجزية ويقتل الخنزير ويكسر الصليب فلا ترفع راية صليبية بعدها وقبل ذلك فما زال وسيظل الصليب مرفوعاً في قلوب أتباعه يجعلونه راية وعنواناً لحروبهم ضد المسلمين ، والغفلة التي تحيط بالمسلمين تجعلهم دائماً لا يفهمون البعد الديني في تفكير النصارى ظنّاً منهم أن الحرية والانفلات والفجور التي تحياها أوروبا وغيرها من دول الصليب قد قضى تماماً على عقيدتهم وحبهم للصليب فما زال الدين يحكم ويسيطر ويوجه تصرفات النصارى.

عندما بدأت الدولة العثمانية في الظهور اعتمدت سياسة توسيع الرقعة الأفقية للدولة بضم إمارات الأناضول في آسيا الصغرى فلما تم لها ذلك اتجهت ناحية أوروبا لفتح البلاد ونشر دين الإسلام وتحقيق وصية جدهم الأول عثمان مؤسس الدولة العثمانية وبالفعل استطاعت الدولة ضم إمارات الأناضول ووحدت تحت راية العثمانيين سنة ٧٩٣هـ وبدأت الدولة تلتفت لأوروبا واستطاع السلطان بايزيد الثاني الملقب بالصاعقة أن يضم أجزاءً كبيرة من أوروبا ولكنه ما لبث أن اصطدم مع جحافل جيوش التتار بقيادة تيمور لنك والتي قدرت بـ ٨٠٠٠٠٠ مقاتل وأسفر هذا الصدام عن تجزؤ الدولة العثمانية مرة أخرى وانفراط عقدها وانفصلت إمارات الأناضول مرة أخرى وظلت الدولة من سنة ٨٠٤ هـ تكافح لإعادة البناء مرة أخرى حتى استطاع السلطان مراد الثاني إعادة إمارات الأناضول لسيادة الدولة العثمانية وذلك في سنة ٨٢٥هـ وتفرغ بعدها مراد الثاني للجهاد في أوروبا .

كانت أكثر الحروب التي خاضها السلطان مراد الثاني في أوروبا مع ملك المجر الذي كان يعتبر نفسه حامي الصليبية في أوروبا لأنه كان أقوى ملوك أوروبا وتقلبت نتائج هذه الحروب بين انتصار وهزيمة هكذا تارة وتارة ، فعند بدء القتال انتصر السلطان على طاغية المجر انتصاراً باهراً جعل ملك المجر يطلب عقد هدنة على أن يتنازل للعثمانيين عن أملاكه شرقي نهر الدانوب الذي أصبح حدّاً فاصلاً بين الدولتين ، وهذا الانتصار أدخل الرعب على باقي ملوك أوروبا وأمرائها فسارع أمير الصرب جورج برنكوفتش خوفا على ملكه فعقد معاهدة مع العثمانيين تنازل فيها عن بعض المواقع للعثمانيين مع دفع جزية سنوية وأيضاً مع التعهد بقطع صلاته مع ملك المجر .

شجع هذا الانتصار السلطان مراد الثاني على مواصلة الجهاد في أوروبا ففتح مدينة سالونيك وبلاد الأرنؤوط ألبانيا وسلم أميرها أبناءه الأربعة كرهينة لسلطان وعندما مات هذا الأمير سنة ٨٣٤هـ ضم السلطان بلاده إليه ، واعترف أمير الأفلاق جنوب رومانيا بالسيادة العثمانية سنة ٨٣٦هـ ، ثم استعد السلطان مراد الثاني لفتح القسطنطينية وعندها عادت الدولة الصليبية لنقض العهود والتمرد وكان أول المتمردين أمير الصرب جورج برنكوفتش الذي أعلن العصيان فهاجمه السلطان وقتله وفتح جزءاً من بلاد الصرب وحاصر بلجراد ستة أشهر ولكنه لم يتمكن من فتحها ثم أرسل السلطان جيشا إلى غرب رومانيا وكان يتبع ملك المجر لتأديب الخائنين فأرسل المجر جيوشاً ضخمة بقيادة أشهر قادة أوروبا الحربيين وهو رينالد المجري والذي استطاع الانتصار على العثمانيين واستشهد منهم عشرون ألفاً فأعاد السلطان مراد الثاني الكرة وأرسل جيشاً آخر ولكن رينالد المجري انتصر عليه واستشهد من العثمانيين ثمانون ألفاً وذلك سنة ٨٤٥هـ وتوالت الهزائم على السلطان مراد الثاني مما اضطره ذلك إلى توقيع معاهدة تنازل بمقتضاها عن الأفلاق للمجر ورد للصرب بعض المواقع وقامت هدنة لمدة عشر سنوات ووقع حادث أثر في نفسية السلطان مراد جداً وهو وفاة ولده الأكبر علاء الدين فنزل عن السلطنة لولده الآخر محمد الثاني الفاتح وكان عمره أربعة عشر سنة واعتزل مراد الثاني الدنيا واعتكف في ولاية أيدين غربي الأناضول .

اطمأن مراد الثاني على ولده محمد الثاني لأن بينه وبين أوروبا معاهدة عشر سنوات يكون ولده قد كبر واشتد عوده أمامهم ولم يعلم أن الروح الصليبية تشتعل ناراً على المسلمين دائماً حيث استغل البابا هزائم المسلمين الأخيرة واعتزال مراد الثاني السلطة وحث ملك المجر على نقض العهود مع المسلمين وأوفد إليه الكاردينال سيرازيني لإقناعه بأن نقض العهد مع المسلمين واجب وطاعة للرب وبالفعل اقتنع ملك المجر وتنادى نصارى أوروبا بحرب صليبية جديدة ضد المسلمين وانضم للمجريين ألمان وفرنسيون وإيطاليون وبولنديون وصرب ورومان وحمى الصليب في قلوب الجميع وقرروا القضاء نهائيا على أمة الإسلام ، وعندها قرر السلطان مراد الثاني الخروج من عزلته والتغلب على أحزانه لإحساسه بخطورة الموقف وتعرض الإسلام للخطر فقاد السلطان الجيوش المسلمة بنفسه ، وكان جميع ملوك أوروبا قد هجموا على بلاد بلغاريا والتقى الجمعان في مدينة فارنا البلغارية في ٢٨ رجب سنة ٨٤٨هـ فأنزل الله عز وجل نصره على المسلمين

وانكسر الصليب وهزم حزب الشيطان وحلف البابا شر هزيمة وقتل ملك المجر في المعركة . كما قتل مندوب البابا الكاردينال سيرازيني في المعركة ، واستولى السلطان على معسكرهم كله وكان فتحاً عظيماً هائلاً أعز الله عز وجل فيه الإسلام وأهله وأذل الصليب وأهله .



٣٠

جنكيز خان ..
قائد احتل مكانته في التاريخ





جنكيز خان أو تيموجين عاش ما بين عامي ١١٦٥ و ١٢٢٧ ميلادية . كان جنكيز ملك منغوليا و قائدا عسكريا استطاع أن يوحد القبائل المنغولية و إنشاء الإمبراطورية المغولية وذلك بغزوه معظم آسيا - بما في ذلك الصين ، روسيا ، فارس ، الشرق الأوسط و شرق أوروبا - . وهو جد كوبلاي خان أول إمبراطور لعهد اليوان Yuan في الصين.

يُعتَقَد أن جنكيز ولد – حين ولادته سمى باسم تيموجنن – مابين عامي ١١٦٢ و١١٦٧، وقد كان الابن البكر ليسويه Yesügei شيخ قبيلة كياد Kiyad و تكتب مفردا ب كيان Kiyan . وتسمى عائلة يسويه Yesügei بـ بورجين Borjigin ومفردها هو بورجييد Borjigid .

وعُرف والد تيموجين بالشدة والبأس حيث كانت تخشاه القبائل الأخرى، وقد سمى ابنه "تيموجين" بهذا الاسم تيمنًا بمولده في يوم انتصاره على إحدى القبائل التي كان يتنازع معها، وتمكنه من القضاء على زعيمهم الذي كان يحمل هذا الاسم.

ولم تطل الحياة بأبيه،فقد قتل على يد التتار المجاورين لهم في عام ١١٧٥ ميلادية، تاركًا حملا ثقيلا ومسئولية جسيمة لـ"تيموجين" الابن الأكبر الذي كان غض الإهاب لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، وما كان ليقوى على حمل تبعات قبيلة كبيرة مثل "كياد"، فانفض عنه حلفاء أبيه، وانصرف عنه الأنصار والأتباع، واستغلت قبيلته صغر سنه فرفضت الدخول في طاعته، على الرغم من كونه الوريث الشرعي لرئاسة قبيلته، والتفّت حول زعيم آخر، وفقدت أسرته الجاه والسلطان، وهامت في الأرض تعيش حياة قاسية، وتذوق مرارة الجوع والفقر والحرمان، بعد ذلك أصبح مطاردا هو وعائلته ، فتنقلوا من مكان إلى آخر حتى لا يتم القبض عليهم .

وفي حوالي العشرين من عمره ، زار تيموجن زوجته المستقبلية بورته Börte واستلم معطفا اسود من قبيلتها. وكان ذلك الأساس لثروته المتزايدة.

نجحت أم تيموجين في أن تجمع الأسرة المستضعفة وتلم شعثها، وتحث أبناءها الأربعة على الصبر والكفاح، وتفتح لهم باب الأمل، وتبث فيهم العزم والإصرار، حتى صاروا شبابًا أقوياء، وبخاصة تيموجين الذي ظهرت عليه إمارات القيادة، والنزوع إلى الرئاسة، مع التمتع ببنيان قوي جعله المصارع الأول بين أقرانه.

تمكن تيموجين بشجاعته من المحافظة على مراعي أسرته؛ فتحسنت أحوالها، وبدأ يتوافد عليه بعض القبائل التي توسمت فيه القيادة والزعامة، كما تمكن هو من إجبار المنشقين من الأتباع والأقارب على العودة إلى قبيلتهم، ودخل في صراع مع الرافضين للانضواء تحت قيادته، حسمه لصالحه في آخر الأمر، حتى نجح في أن تدين قبيلته

"قيات" كلها بالولاء له، وهو دون العشرين من عمره. في يوم من الأيام تم القبض على تيموجين ، و تمت معاملته كحيوان ، في إحدى الليالي هرب تيموجين و اختبأ في نهر مجاور ، و عندما انتبه الجنود لهروبه قاموا بالبحث عنه ، فقد كان غنيمة لا تقدر بثمن ، فوجده أحد الجنود ولكنه قال له : اهرب ، لن أخبرهم أني وجدتك ،إنهم يغارون منك انهم يقولون ان عينيك تشعان نورا. و لنقص في الموارد التاريخية لا نعلم ماذا حدث بعد هروبه و لكنه عاد و معه رزمة بسيطة من الجيش و زوجته بورتيه ذهب بها لمقابلة صديق أبيه بالدم ليقدم له الدعم في اعاده توحيد قبيلته ، فرحب به و أعطاه جيشا لم يسبق له مثيل ، فقدكان مدربا و مزودا بأسلحة حديثة.

وواصل تيموجين خطته في التوسع على حساب جيرانه، فبسط سيطرته على منطقة شاسعة من إقليم منغوليا، تمتد حتى صحراء جوبي، حيث مضارب عدد كبير من قبائل التتار، ثم دخل في صراع مع حليفه رئيس قبيلة الكراييت، وكانت العلاقات قد ساءت بينهما بسبب الدسائس والوشايات، وتوجس "أونك خان" زعيم الكراييت من تنامي قوة تيموجين وازدياد نفوذه؛ فانقلب حلفاء الأمس إلى أعداء وخصوم، واحتكما إلى السيف، وكان الظفر في صالح تيموجين سنة (٦٠٠هـ= ١٢٠٣م)، فاستولى على عاصمته "قره قورم" وجعلها قاعدة لملكه، وأصبح تيموجين بعد انتصاره أقوى شخصية مغولية، فنودي به خاقانا، وعُرف باسم "جنكيز خان"؛ أي إمبراطور العالم.

وبعد ذلك قضى ثلاث سنوات عُني فيها بتوطيد سلطانه، والسيطرة على المناطق التي يسكنها المغول، حتى تمكن من توحيد منغوليا بأكملها تحت سلطانه، ودخل في طاعته الأويغوريون.

في الحقيقة.. إنه كعبقريّة عسكرية يعيش جنكيز خان في ذاكرة التاريخ .

وهو من هذه الزاوية يضارع كبار الفاتحين مثل الإسكندر العظيم أو نابليون ؛ علماً بأنه ولا واحد من هذين الأخيرين أنجز فتوحاتٍ تماثل فتوحاته في اتساعها و بقائها .

- أولاد جنكيز خان حكموا إمبراطوريةً امتدّت من أوكرانيا إلى كوريا.

وأسّس أحفاده سلالات ملكية في الصين، و بلاد فارس، و روسيا، و من سلالات أحفاده ملوك حكموا في آسيا الوسطى لقرون عدة.

يحدّثنا المؤرخ الألماني (بيرتولد شبولر) عن شخصية جنكيز خان فيقول في :

"إن صفات جنكيز خان الفائقة وشخصيته الفذّة لا تظهر في انتصاراته العسكرية فحسب؛ بل في ميادين أخرى ليست أقل أهمية إذ لا يسعنا إلا أن ننظر بإكبار وإعجاب إلى منجزاته كمشرع قانوني ، ومنظم للأمة المغولية" .

●●●

٣١

معركة مارون الراس .
حمام النار وساحة الدم !!





عندما خرج الإسرائيليون في ثامن أيام عدوان يوليو ٢٠٠٦ من مستوطنة أفيفيم في الجليل الفلسطيني المحتل، في مهمة وصفها قادتهم وجنودهم ب البسيطة، كانوا يستهدفون إسكات الصواريخ القريبة المدى التي كانت تطال أفيفيم وحقول المستوطنات القريبة التي أنشئ بعضها على أراضي القرى السبع المحتلة.

خرجوا إلى جل الدير في مارون الراس، وهي منطقة تبعد أمتارا قليلة عن الثكنة العسكرية الإسرائيلية التي تحتوي مركز قيادة المنطقة، وهي المنطقة نفسها التي أطلق عليها الإسرائيليون بعد عدوانهم، وما شهدوه فيها من مقاومة شرسة، تسمية المحمية الطبيعية في مارون الراس. وأفاد مراسل القناة الثانية الإسرائيلية لشؤون الكنيست أثناء المعركة أن نجل رئيس الوزراء الإسرائيلي أصيب في المعارك التي جرت في مارون الراس مضيفا أن رئيس الوزراء أولمرت قطع اجتماعاته مع لجنة الشؤون الخارجية والأمنية أكثر من مرة للاتصال بالمستشفى الذي يعالج ابنه فيه كما عبر أولمرت عن عدم رضاه عن سير المعارك التي تدور مع حزب الله.

في مارون الراس دارت المواجهة البرية الأولى داخل الأراضي اللبنانية وعلى بعد أمتار من مركز للقيادة الإسرائيلية داخل فلسطين المحتلة.. وفي مارون كان لهزيمة إسرائيل وقع الصاعقة على مستويات معنويات الجنود والإرباك الذي تركته في صفوف قادتهم.

عبرها تحطمت معنويات الغازي وانكشف لجنوده بعض مما يخبئه له المقاومون. في مارون، أوهمت بسالة مواجهات المقاومين الإسرائيليين بأنها تدور داخل الجليل الفلسطيني المحتل، بينما كان المقاومون على بعد أمتار قليلة من الحدود.

لم يتوقع الغزاة أن يلاقيهم رجال المكان إلى عقر الدار التي احتلوها وتمركزوا فيها وأقاموا ثكنتهم ومركز قيادتهم الشمالية، وهم الذين اعتقدوا ربما أن الأرض ستخلو من أهلها لمجرد إدارتهم محركات دباباتهم والتوجه بها نحو الشمال، نحو الجنوب اللبناني.

لمارون التي ترتفع ٩١٧ مترا عن سطح البحر، موقعها الإستراتيجي العسكري الكبير. تمسك البلدة، التي تمتد على جبل مارون، بالجليل الفلسطيني وقراه بيد بينما تطال بيدها الأخرى المقلب اللبناني وفيه بنت جبيل وعيترون ويارون والمواقع المحيطة بها. موقع يخول المسيطر عليه التحكم إلى درجة كبيرة بهذه القرى كلها، ويمنع المقاومة النيل المباشر من المستوطنات الإسرائيلية التي تقع عند سفحها.

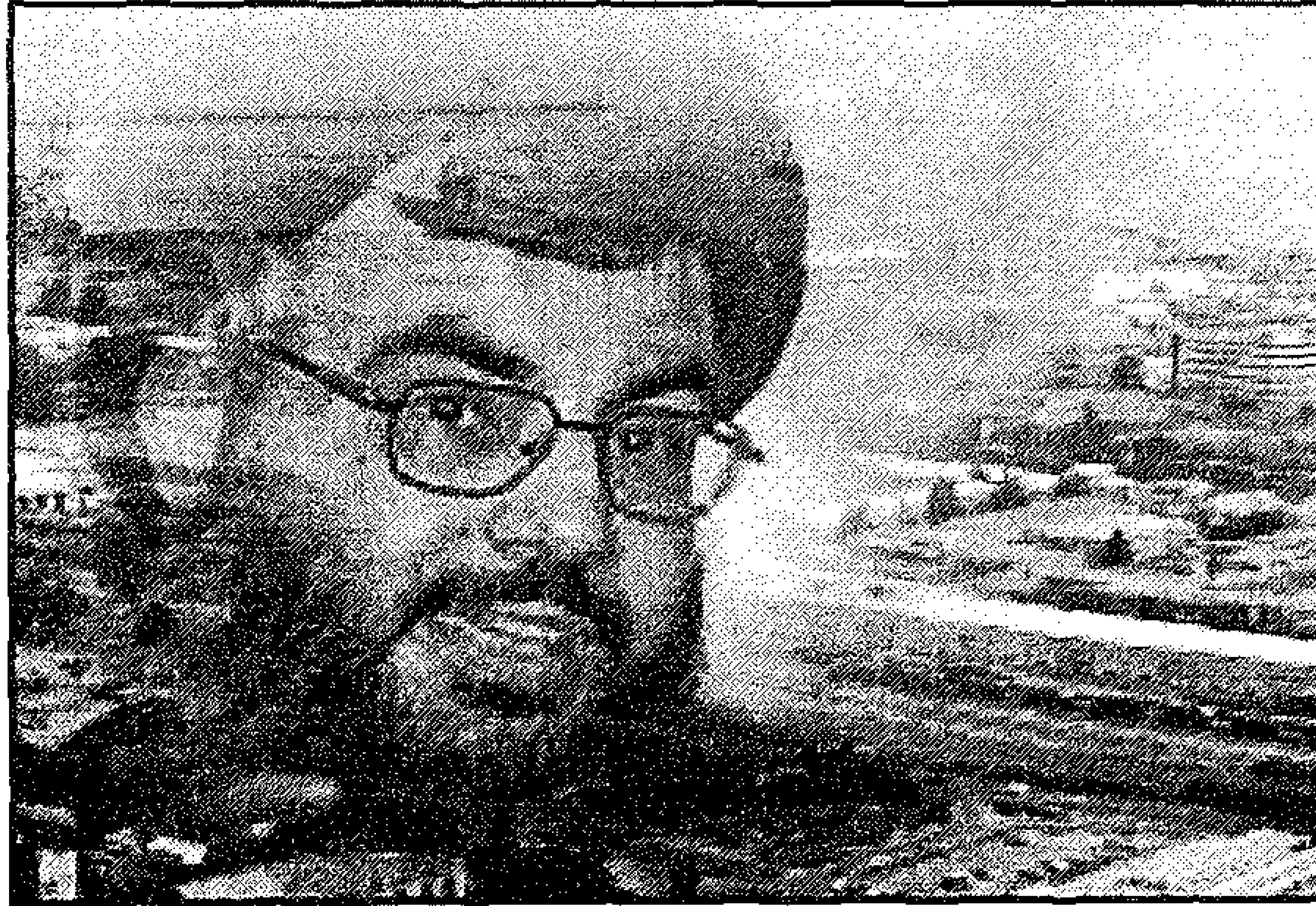
يقول نائب الجنوب في «حزب الله» حسن فضل الله عن معركة مارون الراس : «سياسة المقاومة لا تقوم على الحرب الكلاسيكية بين جيشين ولا تعتمد على خطوط دفاعية ثابتة. الجيش الاسرائيلي بما يمتلك من قدرات تسليحية وغطاء جوي يستطيع أن يتقدم على الأرض ولكنه بالتأكيد سيدفع أثمانا باهظة. ونموذج مارون الراس صورة مصغرة عما يمكن أن يواجهه في بقية مناطق الجنوب. وما جرى في مارون الراس معركة

بطولية في الميزان الميداني ومن دون مبالغات». ويضيف: «نحن أمام عدوان شامل على لبنان والجيش الإسرائيلي عليه أن يتوقع مقاومة في كل قرية وتلة وواد.

وليس مهما أن يجتاح ولكن هل يستطيع الصمود؟ فاحتلال الأرض سيؤدي إلى عمليات من قبل المقاومة.

وقد سادت هذه المعادلة سابقا. وهذا الاحتلال للبلدة يؤكد الأطماع الإسرائيلية في لبنان ويؤكد بالتالي شرعية المقاومة وحقها في تحرير الارض بمعزل عن مساحتها. أما عن إمكانية الاستمرار. نحن في اليوم الثاني عشر ولا نزال في بدايات المواجهة البرية».

أما العميد المتقاعد في الجيش اللبناني أمين حطيط فيجيب عن هذه الأسئلة فيقول: «قراءة المعركة البرية لا تخضع لمعادلة تتم أو لا تتم، وإنما لمدى قدرة إسرائيل على تحمل ثمن المواجهة البرية. وقد قدم النموذج منها في بلدة مارون الراس الاستراتيجية الموقع. والتي كلفت الجيش الإسرائيلي حتى الآن سقوط ستة قتلى و ١٧ جريحا بينهم ستة جروحهم خطرة. وإذا أخذنا بالحسبان أن في الجنوب ١٧٥ قرية، نظمت فيها المقاومة على ما يبدو دفاعاتها بشكل منفصل ومستقل وباكتفاء ذاتي من المقاتلين ومن الإمدادات، فإنه بالتالي لن يؤدي احتلال قرية إلى سقوط جبهة وإنما يبقى في إطار القرية ولا يمكن تجاوز ما عداه. ما يعني أن الجبهة ليست على غرار جبهات الجيوش النظامية. وانهيار قرية لا يؤدي إلى نتائج سلبية على غيرها من القرى».



حسن نصر الله أمين حزب الله يعلن أن حزب الله قتل أربعة جنود إسرائيليين ودمر دبابتين وأسقط مروحية وقصف حيفا من مارون الراس المحتلة قبل تحريرها .

وينفي حطيط أي تأثير استراتيجي لسقوط مارون الراس قبل أن تضطر للانسحاب المذل فيما بعد لأن إسرائيل تسيطر على لبنان من خلال الطيران والأقمار الصناعية مقابل عدم وجود هذه الإمكانات لدى المقاومة. ويعتبر انطلاقا من هذا الواقع «أن البلدة ليست مقصودة بحد ذاتها كموقع استراتيجي وإنما لجس النبض من قبل الجيش الإسرائيلي لمعرفة مقدار الثمن الذي يتكلفه في المعركة البرية. وبالتالي يمكن أن نستنتج أنه عاجز عن دفع أثمان مماثلة في ١٧٥ قرية».

ويقول: «نتيجة معركة مارون الراس أوضحت للقيادة العسكرية الإسرائيلية أن ثمن الاجتياح باهظ، وسوف تتخذ القرار التالي على ضوء خسائرها. ولا أظن أن إسرائيل مستعدة لتحمل هذا القدر من الخسائر لأن لديها جيش محترف وتدرس خطواتها واحدة تلو الأخرى. وأنا كعسكري لا أقيم أهمية لهذا النصر لأن المقاومة كمفهوم لا تمنع الاحتلال وإنما تمنع استمراره. كما أن أداءها بقي تصاعديا لأنها نظمت نفسها بشكل يسمح لها أن تقاتل إلى زمن غير محدود عبر مربعات منفصلة ومكتفية ولا تفتقر إلى العتاد والعديد بمعزل عن قطع الطرق والحصار».

ولمارون أهمية أخرى، فهي الحد الأول مع فلسطين المحتلة شأنها في ذلك شأن الكثير من القرى الممتدة على الخط الأزرق وإن كانت تتفوق عليها بالارتفاع.

من يقرأ الرواية الإسرائيلية لموقعة جل الدير وكيف قلبت قيادتهم وقواتهم رأسا على عقب، وفقا للتفاصيل التي نشرتها صحفهم، وكيف كان الجنود يبكون وراء أقنان الدجاج في مستوطنة أفيفيم بعدما وصلتهم الأخبار المأساوية لما آلت إليه أحوال رفاقهم في مواجهات الأمتار القليلة على الحدود.. لن يخطر بباله أن مقاوما واحدا قام بذلك كله وأن مخلفات القتلى التي تركوها في الميدان قد سحبت إلى خارج مارون الراس بعد ساعات على الواقعة وتحت نيران كثيفة، وخرجت تلاقيهم على شاشة تلفزيون المنار مساء اليوم ذاته كغنائم حرب.

في تقرير لموقع صهيوني معروف وهو http://www.debka.com/ عن معركة مارون الراس بين مقاتلي حزب الله والصهاينة يصف هذا الموقع المعادي مجريات المعركة بشكلٍ يفوق ما كنا نراه على قناة "المنار" الناطقة بلسان حزب الله يقول الموقع:

" لم نصدق مدى تطور تكتيكات حزب الله القتالية ومدى استعداده المسبق للمواجهة بشكل منهجي ومدروس " ..

هذا هو اعتراف العدو نفسه.

وسوف نسوق هنا وصف الموقع الصهيوني ما حدث في مارون الراس يوم الأربعاء ١٩ يوليو٢٠٠٦ :

بعدما أعلن رئيس هيئة الأركان الصهيوني دان حلوتز أن تحصينات خط الدفاع الأول لحزب الله قد سويت بالأرض، وبعدما توهم العدو أن تلك التحصينات قد انتهت وأفرغت بفعل عنف الضربات الجوية ضدها، تقدمت مجموعة من نخبة القوات الخاصة الصهيونية لتسيطر عليها وتحتلها في بلدة مارون الراس المقابلة لصفد، فاكتشفت أن مقاتلي حزب الله كان يخادعون، وأنهم كانوا يختبئون طوال الوقت في شبكة من الأنفاق السرية تلقت القوة الصهيونية المتقدمة باتجاه مواقع حزب الله في مارون الراس ضربة عنيفة بعدما وقفت فوق شبكة من الأنفاق السرية كان مقاتلو حزب الله يتحركون عبرها بكل أريحية ليضربوا من هنا، ولينسحبوا من هناك، وليظهروا من مكان ثالث عبر فتحات مموهة معدة مسبقاً!

واكتشف الصهاينة وهم يدفعون بتعزيزاتهم إلى مارون الراس أن مقاتلي حزب الله لا يتبعون تكتيكاً قتاليا تقليديا، ولا يدافعون عن مواقع ثابتة، في خنادق، بل يتحركون بمرونة فائقة عبر منطقة كاملة، تحت الأرض. هكذا، تحولت المعركة التي ابتدأت في الثانية عشرة ظهراً في مارون الراس إلى معارك واشتباكات عبر أقسام طويلة من "الحدود" اللبنانية-الفلسطينية عبر المزيد من الأنفاق السرية والفتحات المموهة التي لم يكن يعرف عنها العدو شيئاً.





انسحاب مذل لجنود العدو الصهيوني من " مارون الراس " !!

وكان القتال يدور على مسافات قريبة إلى درجة حرمت العدو من ميزة استخدام مروحياته ومدافع دباباته خوفاً من إصابة جنوده. واشتعلت الجبهة في ثلاثة أماكن مختلفة، ولكن مقاتلي حزب الله لم يكتفوا بالدفاع ضد المحاولات الصهيونية اليائسة لاختراق مواقعهم، بل قاموا بمحاولات متكررة، حسب المصدر الصهيوني نفسه، لاختراق "الحدود الإسرائيلية" وللسيطرة على أراضٍ في الجليل الغربي، مما اضطر القوات الصهيونية للتركيز على اختراقات حزب الله المضادة باتجاه الجنوب.

وفي خضم المعركة، ألقى حزب الله أكثر من ثمانين صاروخاً في أقل من ساعة واحدة على نهاريا وحيفا والجليل الأعلى ووادي الحولة وطبريا وصفد والكرمل" .

هنا ينتهي تقرير الموقع الصهيوني المذكورسابقا .

وقد اعترف العدو بعد معركة مارون الراس، عبر وسائل الإعلام، بسقوط ستة قتلى و١٣ جريحاً في صفوف جنوده.

ولا شك أن تكتيكات حزب الله القتالية المتقدمة في معركة مارون الراس سوف تدرسها كل حركات التحرر العربية وغير العربية كتجربة متميزة تحمل في طياتها، خاصة من حيث استخدام الأنفاق السرية، الكثير من ملامح التجربة الفيتنامية.

وكتب عمير ربابورت في صحيفة " معاريف " الإسرائيلية نشر يوم الإثنين ٢ يوليو ٢٠٠٧ يقول :

المعلومات الاستخبارية عن «المحميات الطبيعية»، أي الملاجئ تحت الأرض التي أقامها نصر الله في جنوب لبنان بعيدا عن أي مكان سكن، بقيت داخل صناديق. كُتب على كل صندوق أي الملفات يشتمل عليها. حظيت كل محمية بملف يخصها. كانت التفصيلات كثيرة، وإن لم تكن كاملة أو حديثة تماما، بيد أنها بقيت مخزونة في مكاتب قسم الاستخبارات في قيادة الشمال.

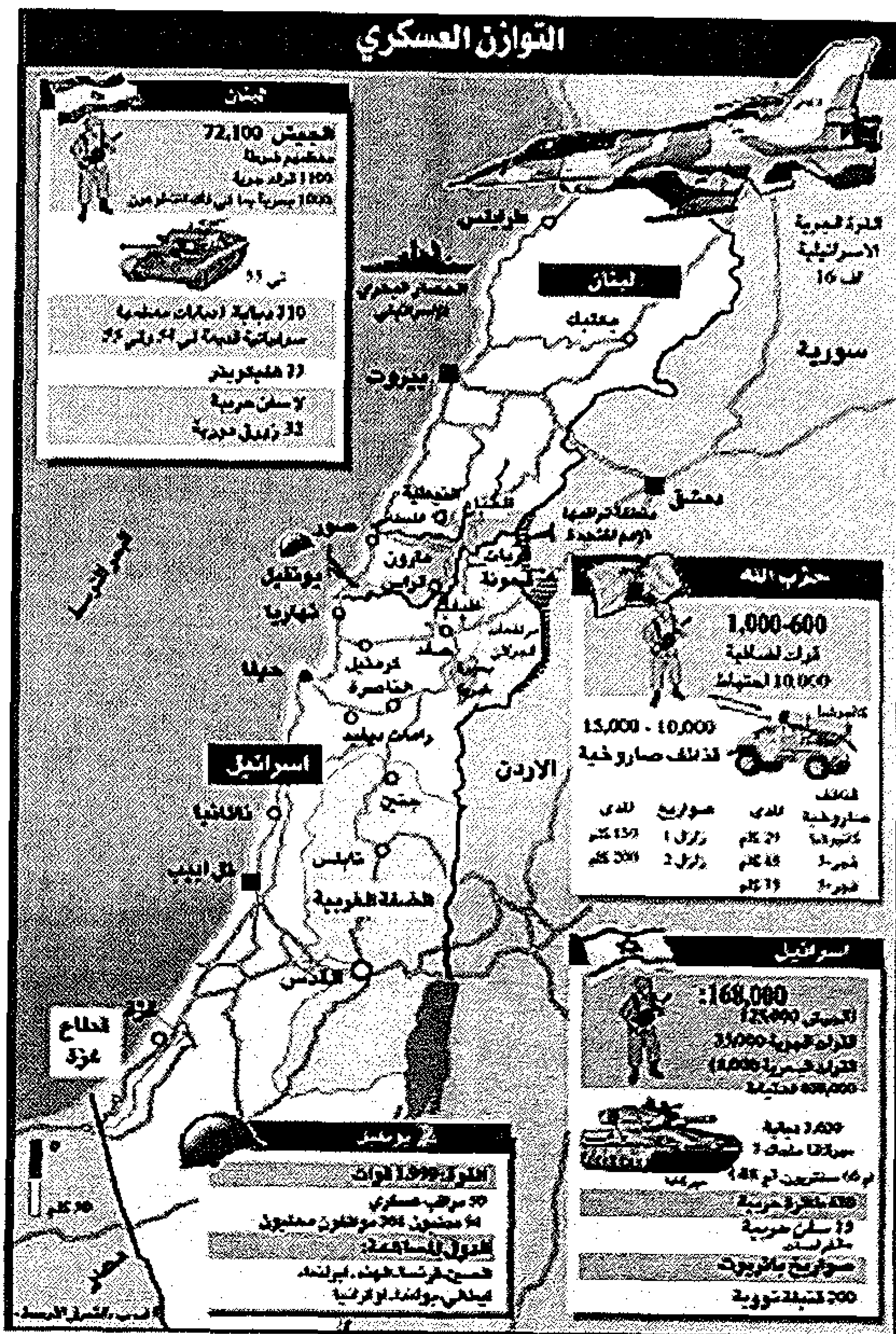
حرصت شعبة الاستخبارات في هيئة القيادة العامة (أمان) على ألا تنشر المعلومات الحساسة بين المستويات الميدانية تحت مستوى القيادة. خوفا أنه إذا تسربت المعلومات وتبين لحزب الله أنها وصلت إلى الجيش الاسرائيلي، فإنه يبحث عن مصادره حتى ينجح

في «إحراقها». كان الحذر شديدا جدا، إلى حد أنه لم يُسلم المحللون الذين فحصوا عن الصور الجوية التي تمت في جنوب لبنان من أجل احتياجات استخبارية، نقاط التعيين الدقيقة للمحميات الطبيعية. لم يعرف قائد المدفعية في قيادة الشمال، العقيد يوسي سار، الذي طُلب اليه أن يستعمل النار لمحاولة التشويش على إطلاق القذائف الصاروخية، لم يعلم حتى أن جزءاً كبيراً من الإطلاقات يتم من داخل المحميات الطبيعية.

في الحقيقة أن شعبة الاستخبارات طورت نظماً حاسوبية للنشر السريع للمعلومات الحساسة ساعة الحاجة، لكن بسبب الأفضلية التي أُعطيت للقتال في المناطق لم تُرتب في الشمال. الحذر الشديد في الحفاظ على المعلومات مخصص بالطبع للأوقات العادية فقط. لم يكن هناك نية أن تظل المعلومات المهمة مخزونة ساعة الحرب عندما يكون الأمر ضروريا للقوات. لكن هذا بالضبط ما حدث.

وهكذا، في يوم الأربعاء التاسع عشر من تموز، بعد أسبوع من نشوب الحرب، وجدت قوة صغيرة من الوحدة الممتازة «مغلان» نفسها فجأة في قلب موقع كهذا لحزب الله، لم تعلم بتفصيلاته ومجرد وجوده. كانت القوة في إحدى العمليات البرية الأولى في الحرب، في إطار سلسلة من العمليات القريبة من الحدود. كان الهدف المتواضع جدا وقف إطلاق قذائف الرجم وقذائف المدافع التي أطلقت بلا انقطاع نحو بيوت القرية الزراعية «أفيفيم» وقيادة الجيش الإسرائيلي المجاورة للقرية الزراعية. تم الإطلاق من تل داخل لبنان على بعد بضع مئات من الأمتار عن الحدود، واسمه جل ـ الدير كان عليه حتى الانسحاب من الشريط الأمني موقع «شكيد» للجيش الإسرائيلي.

أُرسلت القوة الصغيرة، ثمانية عشر جندياً فقط، لإقامة برج مراقبة يحدد مصادر إطلاق النار لحزب الله. كان بالصدفة أحد الضباط في القوة، رجل احتياط وقائد سرية في ماضيه، ابناً للواء احتياط اهارون زئيفي ـ فركش الذي أنهى عمله رئيسا لـ«أمان» قبل الحرب بنصف سنة.



تحت غطاء الظلام حلّ المحاربون بجوار تل شكيد وغطوا أنفسهم بشبكات إخفاء وبأغصان. وخُصصت أربع دبابات للتغطية من بعيد. عندما طلع النهار بدأت القوة تحاول أن تحدد من أين يطلقون النار على أفيفيم. في الساعة ١١٠٤ فقط أدرك الجنود أنهم موجودون داخل موقع لحزب الله فيه مواقع كثيرة، ليست أقل تغطية من مواقعهم. القنبلة اليدوية التي ألقاها الجنود على إحدى الآبار أصابت شبكة تغطية. مُطت الشبكة وعادت القنبلة اليدوية إلى القوة وعند ذلك فُتحت النار من عدة اتجاهات.

اتصل قائد «مغلان»، المقدم اليعيزر هاتفيا بقائد فرقة الجليل، العميد غال هيرش. «إقطع كل كابل تراه في الميدان»، أمره هيرش. استعمل محاربو حزب الله الكوابل للاتصال من نقطة إلى نقطة.

ساد الخوف في التل، لكن لم يكن هناك وقت فراغ للتفكير فيه. دار القتال بين الصخور. كان الرقيب أول يونتان هداسي والرقيب أول يوتام غلبوع أول قتيلين من الجيش الاسرائيلي في عملية برية منذ اتخاذ قرار الخروج للحرب. وأصيب تسعة محاربين آخرين.

أخافت أصوات الانفجار الدجاج في أخمام القرية الزراعية أفيفيم. قصفت طائرات ومروحيات قتالية الوادي بين شكيد وأفيفيم للتغطية على تخليص الجرحى. وأمطر الجنود الذين جروا مع الحمالات بقذائف الرجم، وكان رفاقهم النازفون عليها. ابتدأت النباتات الصيفية الجافة تشتعل، وغطى دخان كثيف ميدان القتال. في غرفة عمليات «مغلان»، من وراء أخمام الدجاج في القرية الزراعية، احتضنت الجنديات بعضهن بعضا وبكين.

في تلك اللحظات خطرت فكرة في قيادة فرقة الجليل: أدركوا فجأة هناك أن الانذارات التي لا تنقطع التي تم الحصول عليها في الفترة قبل الحرب من «لينكولن»، الجهاز الذي خُصص لتحديد مواقع سقوط قذائف الرجم على حسب دوي الانفجار، شهدت في الحقيقة على عمليات الحفر داخل تل شكيد. أصر لينكولن على أن يُبلغ لأشهر عن القذائف التي لم توجد، وفي مرحلة ما كفوا عن البحث عن آثار إطلاق النار. تبين في ظهيرة التاسع عشر من تموز ٢٠٠٦ فقط أن الانفجارات التي عرفها لينكولن كانت أصوات الحفر في المحمية الطبيعية جل - الدير.

المحمية، التي تبينت تفصيلاتها في المادة الاستخبارية المخزونة في القيادة، كان يسيطر عليها نحو من عشرين من أفراد حزب الله. أكثرهم محاربو مشاة ذوو كفاءة عالية من القوة الخاصة للمنظمة.

في تل شكيد بدأ الجيش الإسرائيلي القتال البري في لبنان بداية سيئة. لقد فعل ذلك على نحو متردد، بغير إظهار تصميم وبغير تظاهر بمضاءلة إطلاق الصواريخ نحو الشمال ولو قليلا. تخلى الجيش الإسرائيلي عن امتياز كبره كجيش يعد مئات آلاف المحاربين وواجه منظمة عددها على حسب التقديرات من ثلاثة آلاف حتى أربعة آلاف شخص في جنوب لبنان. بدل أن يُغرق المنطقة بقوات عظيمة مع استغلال التفوق الجوي

التام أو الاكتفاء بأهداف محدودة يمكن إحرازها بعملية من الجو فقط، زحف الجيش الإسرائيلي إلى أهداف غير مهمة كان لحزب الله فيها امتياز واضح، لأنه يعرف المنطقة معرفة أفضل وهو في مواقع محمية.

سلك الجيش الإسرائيلي سلوكا يخالف أكثر مبادئ القتال أساسية: تركيز الجهد في قطاع ما، والحفاظ على توالي القتال واستمراره، ونقل ساحة المعارك إلى أرض العدو وتقصير أمد الحرب قدر المستطاع للتخفيف من معاناة الجبهة الداخلية. كانت هذه المبادئ سائدة في أيام وزير الدفاع الأول دافيد بن غوريون، الذي أسس الجيش الإسرائيلي، وبقيت سائدة عشرات السنين بعد موته. وهي تُدرس في دورات القيادة التعليمية الأقل شأنا لكنها أُهملت في هذه الحرب على علم.

يجب تغيير القرص

في اليوم الذي دفعت فيه وحدة «مغلان» دماً عن العملية في شكيد، كان الجمهور والقيادة ما يزالان لم يدركا كامل معنى حقيقة أن الجيش الاسرائيلي موجود في قتال شديد لعدو ذي خبرة وتدريب، مزود بوسائل متقدمة. أنشأ الإعلام الإحساس بأن كل قتيل يشهد بالتقصير. في هيئة القيادة العامة صعب عليهم أن يفهموا كيف تورطت عملية برية سهلة نسبيا للسيطرة على منطقة بقرب أفيفيم. ولم يفهم وزير الدفاع عمير بيرتس أيضا لماذا يُقتل الجنود، وخاب أمل رئيس الحكومة ايهود أولمرت.

على رغم ذلك، في نقاش في المجلس الوزاري السياسي- الأمني المصغر، أُجري في ذلك اليوم، عُرضت صورة متفائلة. بعد الجلسة فقط تبين للوزراء النتائج الشديدة للمعركة في شكيد. اتصل وزير المواصلات شاؤول موفاز، الذي اضطر أن يترك حقيبة الأمن قبل ذلك ببضعة أشهر، برئيس الفريق في ديوان رئيس الحكومة، يورام توربوفيتش، وطلب الحديث إلى أولمرت. رجع أولمرت إليه عند منتصف الليل تقريبا.

«قُل لي، ما هذه العملية؟»، تحرش وزير المواصلات.

دافع رئيس الحكومة عن نفسه قائلا: «أجزت لهم أن يدخلوا ١,٥ كيلومتر فقط».

موفاز: «في ١,٥ كيلومتر مئات من أفراد حزب الله».

أولمرت: «لا أستطيع أن أُراقب هذه العملية. سأتحدث إلى رئيس الأركان الذي سيفحص مرة ثانية عن عمليات كهذه».

في الحقيقة أن رئيس الأركان دان حلوتس طُلب اليه أن يُقدم تفسيرات، لكن العميد غال هيرش قائد الفرقة ٩١ هو الذي كان موجودا في هذا الوضع الأعوج. كان الضابط القصير القامة ما زال لم يشُب إليه رشده من اختطاف جنود الاحتياط ومن الأحداث الشديدة التي صاحبت ذلك. وكان قد شعر انهم في الأعلى في القيادة غير راضين عنه بقدر كبير. وأنهم وضعوا عليه علامة. الحقيقة أن الأمر كان كذلك. كانت العملية في شكيد يمكن أن تنتهي من غير أن يعلم حزب الله بها وبغير طلقة واحدة. لكن التورط فجر كل شيء.

سبقتها نقاشات بين قائد الفرقة ٩١ وبين قائد المنطقة الشمالية أودي أدام. كان توجهاهما مختلفين. في اليوم الثاني للقتال علق هيرش وراء ظهره في غرفة العمليات بخط يدوي: «حرب». وقد دفع إلى تنفيذ إجراءات برية على أرض لبنان وإلى تجنيد رجال الاحتياط في الفرقة. «دعونا نعبر الحدود، دعونا على الأقل ننفذ عملية «جلسات صحيحة» (خطة لقيادة الشمال للسيطرة على مناطق وراء الحدود لمنع إطلاق نار مباشر على البلدات ولكي تصبح قاعدة لهجوم واسع وقت الحاجة)»، طلب هيرش من القيادة. واشتكى من أنهم يُقيدون يديه وشعر بأن قائد منطقة الشمال لا يدرك أنه نشأ وضع جديد وأنه يجب تغيير القرص.

أدام، من جهته، خاف جدا مبادرات هيرش. بعد التورط في شكيد وُجد في القيادة الشمالية شعور بأن هيرش يستخف مرة أخرى بالمستويات فوقه، كما حدث أكثر من مرة في الماضي. زعموا في القيادة أنه وعد بعملية هادئة وقاد إلى معركة صعبة. كان الضغط على هيرش عظيماً. بدا كئيباً، لكن مزاجه النفسي أصبح أكثر هجومية مما كان قبل المعركة على التل وراء الحدود.

فكر هيرش في الهدف القادم: السيطرة على قرية مارون الراس، التي تقع على جبل ارتفاعه ٩١٧ مترا فوق سطح البحر ويسيطر على تل شكيد وعلى منطقة أفيفيم. قبل التورط في شكيد نجح هيرش في إقناع القيادة بالحاجة إلى السيطرة على مارون

الراس. وُلدت هذه الخطة نتيجة أمر عسكري وجهته هيئة القيادة العامة إلى قيادة المنطقة الشمالية في السابع عشر من تموز، في اليوم الذي خطب فيه ايهود أولمرت في الكنيست خطبته «إلى هنا». طُلب إلى القيادة أن تنفذ إجراءين يدخلان أرض لبنان في كل ليلة. في ليل المعركة على شكيد خرج محاربو لواء المظليين بقيادة العقيد حاغي مردخاي إلى منطقة قرية عيتا الشعب، قرب مكان اختطاف ريغف وغولد فاسر، أما كتيبة الاستطلاع الدرزية المسماة «حيرف» فأرسلت إلى قرية مروحين، ولم تلق هناك مقاومة ذات شأن.

سقط الأمر العسكري باحتلال مارون الراس من القيادة على الفرقة ٩١ في يوم الأربعاء في الساعة السابعة والنصف صباحا، قبل أربع ساعات من المواجهة في شكيد. في أثناء النهار فُرض على فرقة هيرش مهمة أخرى: أن يُرسل محاربي وحدة أغوز لاحتلال المحمية الطبيعية التي أقيمت عند سفح قرية يارون، غربي أفيفيم، تجاه القرية الزراعية دوفاف. من هناك أيضا أُطلقت نار متوالية على إسرائيل. بادر إلى هذه العملية خاصة فرقة المظليين المنتخبة «عمود هإيش» التي يقودها العميد إيال أيزنبيرغ بتنسيق مع القيادة. لكن في اللحظة الأخيرة تقريبا تقرر نقلها لتكون من مسؤولية فرقة هيرش، بعد أن اشتكى هذا على مسامع أدام من أنه «لا يمكن أن تتم عملية على مبعدة عدة عشرات من الأمتار عن الجدار وألا تكون لفرقتي».

هيرش، الذي جرى ذهابا وإيابا في المنطقة الواسعة التي تحت مسؤوليته (بعد أربعة أيام من طلب نائب رئيس الأركان اللواء موشيه كابلنسكي من أدام أن يقسم المنطقة بين الفرقة ٩١ وبين الفرقة ٢٦٢، وما زال الأمر لم يتم)، دخل عمق العملية في محمية يارون قبل وقت قصير من خروج القوة في طريقها. كان العقيد داني كاس، قائد لواء الاحتياط المنتخب ٥٥١، الذي كان محاربوه لم يُجندوا بعد، كان يفترض أن يقود العملية من قبل مفرزة «عمود هإيش». تحمل المسؤولية عن وحدة أغوز النظامية وأمر قادتها بتخطيط العملية.

كان العميد إيرز تسوكرمان، وهو قائد فرقة احتياط مدرعة في قيادة الشمال، ضابطاً آخر وجد نفسه مشاركاً في الخطة لاحتلال محمية يارون. تسوكرمان، وهو قصير القامة وخشن، نشأ في الكوماندو البحري. كان القائد الأول لوحدة أغوز التي

أُقيمت في ١٩٩٥، وقائدا للوحدة البحرية ١٣، وقائدا للواء غولاني زمن الانفصال. في أعماله السابقة قاد تسوكرمان عددا لا يُحصى من أعمال الغزو في جنوب لبنان وعرف كل سبيل في المنطقة تقريبا.

كان تسوكرمان خائب الأمل لأن فرقته لم تُطرح في المعركة. حاول أن يُدفع إلى القتال، لكنهم في قيادة القيادة الشمالية رأوه ملحاحاً لا شفاء له. ومع أسفه انضم إلى قائد منطقة الشمال السابق عميرام لفين وإلى العميد موشيه تامير، الذي حل محله في قيادة أغوز. حاولوا أن يفكروا معا في خطط لقيادة الشمال، لكنهم لم ينجحوا في تسويق أفكارهم وتلاشت المبادرة.

يوم الأربعاء ظهرا، بعد أن خلص محاربو مغلان أنفسهم من شرك المحمية الطبيعية في موقع شكيد، اتصل تسوكرمان بقائد الوحدة المقدم اليعيزر. «أنا فخور بكم»، قال له بالهاتف المحمول المشفر للجيش الإسرائيلي. شعر اليعيزر بأن التعزيز غير المتوقع أعطاه قوة لـ١٢ ساعة أخرى من القتال. بعد ذلك بوقت قصير تلقى تسوكرمان أيضا مكالمة هاتفية مفاجئة. كان على الخط ضابط في الوحدة. هو وإيرز يعرف بعضهما بعضا جيدا من الأيام التي كان فيها تسوكرمان قائدا لأغوز وللواء غولاني.

قال الضابط لأيرز: «هل أنت في الشمال؟ أنا بحاجة إلى أن تأتي». وجاء إيرز. انحنى قادة أغوز فوق خرائط في مرأب في غابة برعام، بقرب أفيفيم. أصبحت الطاولات الخشبية للكيرن كييمت مقاعد لغرفة العمليات الحربية. كان هناك الضابط الذي اتصل بايرز، وقائد أغوز أيضا المقدم مردخاي كهانا وضباط آخرون. لم يبدُ عليهم أنهم فوجئوا بزيارة قائد الوحدة وقائد اللواء سابقا.

في الساعة الرابعة بعد الظهر كان الجو ما يزال حارا، لكن الأشجار القديمة ظللتهم. شحبت وجوه ضباط أغوز الذين انحنوا فوق الخرائط كلما تعمقوا في تفصيلات خطة السيطرة المخطط لها على المحمية الطبيعية. فقد عرفوا جيدا أن الخبرة الأساسية لأغوز بالحرب في لبنان ضعفت ضعفا شديدا في السنين التي عملت فيها الوحدة، كالجيش الإسرائيلي كله، في محاربة «الارهاب الفلسطيني» -كما يقولون- في المناطق. أثبتت المعركة في شكيد مبلغ كون احتلال مواقع حزب الله مهمة خطرة، وإن كانوا في

هذه المرحلة ما زالوا يعتقدون أن المحمية الطبيعية هي في الأكثر كهف أو ملجأ أرضي. الآن أيضا، بعد تورط مغلان، بقيت المعلومات المفصلة عن المحميات الطبيعية مخزونة في صناديق القيادة. ما زالت القوات لم تعلم بأن كل واحدة من المحميات هي نظام ملاجئ أرضية من الأسمنت وفيها أبواب فولاذية، وسلالم، ومنافذ طوارئ، ومنافذ هرب وشبكة وسائل تضمن اتصالا متواصلا، بعضها محوسب.

إلى جانب تحدي احتلال المحمية الطبيعية أقلق قادة أغوز الخوف من أن تتكشف القوات في الطريق، لأن مسار الوصول إلى قرية يارون مر في منطقة منخفضة من ناحية طوبوغرافية. أوضح تحليل المنطقة أن المحاربين في الهدف نفسه سيكونون مكشوفين لإطلاق النار عليهم من الخلف. قال المقدم كهانا: «هذه مهمة انتحارية».

كان العميد تسوكرمان قلقا. «جيئوني بدرع»، طلب. «أنا صاعد إلى الفرقة من أجل التنظيم لأدخل مع القوات في الميدان. من ذا يعلم كم من الوقت سنكون في الداخل». كان يبدو قائد الفرقة كمن وجد هدفه في الحرب آخر الأمر.

لم يعتمد الضباط في أغوز البتة على غال هيرش، القائد الذي رأوا أنه أرسلهم إلى المهمة. على رغم أنه شارك في عمليات كثيرة في لبنان كقائد لوحدة شلداغ وفي طائفة من المناصب التي شغلها في لواء المظليين، شعروا بأنه لا يعيش مثلهم الميدان في لبنان، وكانوا يرون أن من نشأ في أغوز فقط يعرف حقا كل تل وكل نقب معرفة حميمة. بدل إشراك غال في الضائقة التي كانوا فيها ومشاورته في ما يتعلق بصعوبة احتلال محمية يارون، فضل القادة الاتصال بتسوكرمان وبالعميد موشيه تامير، الذي انتظر في ذلك الوقت تعيينه قائدا لفرقة غزة، لسماع رأييهما. استمرت الهواتف المحمولة ترن. بعد أن ترك تسوكرمان غابة برعام تلقى مكالمة هاتفية أخرى، من حاغي بيلغ، القائد الثالث لأغوز، الذي حل لحينه محل موشيه تامير. ترك بيلغ الجيش الإسرائيلي بعد انتهاء عمله في أغوز وعُين قائدا للوحدة الشرطية الخاصة لمحاربة الإرهاب. حاول الآن أيضا أن يندمج في الجهد القتالي. حدد الضابطان، تسوكرمان وبيلغ، اللذان تجولا في الشمال بلا عمل محدد، موعدا للجلوس على فنجان قهوة. في اللقاء تحدث تسوكرمان لبيلغ عن المهمة الانتحارية المعدة لأغوز. قررا أن يخطوَا خطوات لإحباط العملية المخطط لها.

اقترح بيلغ قائلا «تحدث إلى كابلان». فنائب رئيس الأركان اللواء موشيه كابلنسكي (كابلان) ينتمي مثلهما إلى ما يُسمى «الكتلة العسكرية الحاكمة من (خريجي) غولاني» في الجيش الإسرائيلي. قبل تسوكرمان النصيحة. توجه إلى كابلنسكي واقترح هذا: قُل لكهانا (قائد أغوز) إنه إذا كان يرى أن المهمة إشكالية، فليقل إنه لا يستطيع تنفيذها. أنت تعلم حال قادة الكتائب، أجاب تسوكرمان، فهم ينفذون الأوامر العسكرية دائما. وقرر أن كهانا لن يرفض أبدا.

على رغم ذلك ساعد هذا الإجراء. نُقلت رسالة أنه يجب وقف العملية في يارون من هيئة القيادة العامة إلى قائد المنطقة أودي أدام. فحص هو نفسه عن خطة احتلال يارون وألغاها. عندما حصل هيرش على إعلام بأن العملية في يارون ملغاة اعتقد بسذاجة أن الحديث عن قرار ينبع من تقلب القيادة. فقد ضباط أغوز، من جهتهم، الثقة بتقدير هيرش، وبلغت شائعات إلى فرقة الجليل أن أفراد غولاني يكيدون له. وتم الحديث عن أنهم «مشتاقون إلى درجة الموت» إلى استبدال موشيه تامير بهيرش، وهو الذي يلقبونه «دوبرمان»، لكي ينقض أمامهم على حزب الله (مع سكين بين أسنانه).

إن انعدام الإطراء إلى حد العداء في القيادة العسكرية تجاوز كثيرا حدود القيادة الشمالية. وجه ضباط مظليون كبار أيضا في تلك الأيام نقدا لاذعا إلى عمل قائد الفرقة ٩١. إن جزءا من الاقوال التي صدرت عن الضباط عن هيرش وجدت طريقها إلى الإعلام. كانت الحملة عليه تعبيرا متطرفا عن أن الصداقة، والرفقة العميقة في كل ظرف التي قدسها جيل البالماخ، قد اختفت من قيادة الجيش الإسرائيلي، فقد نشأت العداوة بدل الصداقة الحقيقية، كما قال حلوتس في خطبة استقالته.

لكن على رغم التشاحن، كان يجب الاستمرار في القتال. سُلمت قيادة العملية البرية المهمة الأولى، احتلال مارون الراس، إلى قائد اللواء ٣٠٠، اللواء الغربي على حدود لبنان، العقيد حين لفني. كانت غرفة العمليات الحربية قائمة في أحد الكيبوتسات، قرب الجدار الحدودي.

بدأت العملية في مارون الراس في الليلة بين الأربعاء والخميس، بين ١٩-٢٠ تموز. سيطر محاربو كتيبة استطلاع المظليين، بقيادة المقدم نمرود ألوني على الجزء الشمالي

من القرية. على رغم أن اسم «مارون الراس» يشهد بأن المكان كان في الماضي متصلا بالمسيحيين الموارنة في لبنان، فإن الحديث اليوم عن قرية شيعية فيها عدد قليل من السكان المسيحيين. قامت القرية الصغيرة، وعددها نحو من ثلاثة آلاف ساكن في الحصيلة العامة، في مركز معارك الجيش الاسرائيلي في أيام حرب التحرير، واحتُلت أيضا في عملية الليطاني في ١٩٧٨ وفي حرب لبنان الاولى. أبرز مبنى في القرية هو المسجد بالطبع. كان النظام القتالي الذي أقامه حزب الله قبل ذلك محصوراً في قلب القرية، في جزئها الأعلى. وكان هناك أيضا موقع استخباري مغطى عمل في التنصت على قوات الجيش الإسرائيلي. المدرسة المحلية، التي كانت مغلقة أصلا في شهور الصيف، لعبت دورها كموقع قتالي في أوقات الطوارئ. احتشد نحو من ٢٥ مقاتلا من حزب الله هناك، ٢٥ فقط. وكان بضع عشرات آخرون منتشرين في مناطق أخرى في القرية.

بدأت المعركة على نحو ناجح. وجه قائد الكتيبة نمرود نار الصواريخ التي أُطلقت من الجو ومن البر نحو ٣٤ هدفا في القرية. بدأ حزب الله ينقل جرحاه بذعر نحو بلدة اللواء المجاورة لبنت جبيل. وبدأت تصل أنباء عن أن قائد قواتهم في مارون الراس قُتل. في مقابلة ذلك انقطع آخر الأمر إطلاق نار حزب الله على منطقة أفيفيم. حقق محققون مع أسرى من الوحدة ٥٠٤ من «أمان» مع أحد السكان المحليين اعتُقل وهو يتجول. قاده الجنود إلى مبنى كانت فيه محطة تنصت لحزب الله، موصولة بهوائي مدني في ظاهر الأمر.

كانت المعدات التي تم الكشف عنها داخلها مفاجئة بنوعيتها. وتبين أن حزب الله من هذا المكان العالي تنصت على الجيش الاسرائيلي ٢٤ ساعة في اليوم، لا على شبكات الاتصال وهواتف الوحدات في الحدود الشمالية، بل على القوات التي عملت في المناطق أيضا.

كانت تجارب الانتفاضة ما تزال تكوي رؤوس القادة. أرادوا في الجيش الإسرائيلي أن يروا في مارون الراس صورة نصر بارزة، مثل صورة مئات الفلسطينيين يرفعون أيديهم خاضعين ويُسلمون سلاحهم في قلب طولكرم في أثناء عملية «السور الواقي» في نيسان ٢٠٠٢ بل إن الشرطة العسكرية تلقت أمرا بأن تُعد إعدادا سريعا موقع سجن في معسكر فيلون بقرب روش بينا لاستيعاب مئات من أفراد حزب الله الأوائل الذين سيقعون في الأسر، هناك.

عندما طلع صباح جديد على مارون الراس، في يوم الخميس، تحدث هيرش بالهاتف إلى قائد الكتيبة نمرود، وقال له هذا إن جنوده عدوا ١٣ جثة للمخربين. أسرع هيرش إلى إبلاغ رئيس الأركان بذلك بفخر غير خفي: «تدور المعركة على نحو ممتاز! هناك ١٣ جثة!». كانت هذه بشرى ممتازة لحلوتس. لقد أراد أن يعرض على الجمهور وعلى المستوى السياسي الجيش الإسرائيلي في أفضل حالاته.

اتصل رئيس الأركان باللواء أدام وحثه على أن ينقل صور أسرى وقتلى من حزب الله. اتصل قائد المنطقة بالمقدم نمرود لطلب صور. كان عدد من المحاربين مزودين بآلات تصوير رقمية، في إطار إجراء يسمى «توثيقا عملياتيا». لم يتحمس قائد الكتيبة للفكرة: «أيها القائد، نحن غير مستعدين لتعريض الجنود للخطر من أجل جلب صور جثث». «إذا كان الحديث عن تعريض جنود للخطر من أجل التصوير، فلا حاجة إذاً. أنت على حق»، أجابه أدام. لم يُسهم فشل مهمة الإتيان بصور قتلى في العلاقات المتعكرة بين أدام وحلوتس. ولا في صورة هيرش أيضا. وقد شكوا في الكرياه (مقر وزارة الدفاع) في تل أبيب في أن تكون عُدت في الميدان ١٣ جثة واعتقدوا أن أدام تبجح فقط. وغضبوا ايضا لأنه لم يُعتقل في مارون الراس أسرى ما عدا مارة عارضين أطلقوا فورا.

آنذاك بدأت الأمور تتعقد. قلة مقابل كثرة، لكن أفراد حزب الله الأحسن تدريبا وتجهيزا من «المخربين» الفلسطينيين في المناطق، رفضوا الاستسلام في مارون الراس. أصيبت دبابتان للجيش الإسرائيلي بصواريخ أطلقت عليهما في قلب القرية. كان ذلك كما يبدو السبب في أن شعر قائد اللواء حين لفني بالضيق وطلب تعزيزات. قرر غال هيرش، الذي كان في قيادة الفرقة في بيرانيت، أن يُرسل إلى الميدان وحدة أغوز. بعد ذلك زعم هيرش أن التعزيز كان يرمي من جهته إلى «استغلال النجاح» ومن أجل «تعميق الإنجاز». بيد أن قادة أغوز وجنودها لم يفهموا حقا أنهم ماضون في مهمة «استغلال النجاح». بل العكس.

تلقى قائد الوحدة المقدم مردخاي كهانا رسالة: «أسرع إلى قيادة اللواء ٣٠٠، هناك تورط في مارون الراس». عندما وصل غرفة العمليات الحربية تقدم مباشرة إلى قائد اللواء لفني. «القوة متورطة. يجب علينا أن نحاول مساعدتها»، قال لفني. «إنهم موجودون في نقطة في الجزء الشمالي من القرية. ادخل واحسم المعركة». واحتج كهانا

بقوله «هل أدخل في وضح النهار؟». «أجل. في أسرع وقت ممكن. لا مناص. يجب علينا تخليصهم. لن يكون ذلك ذا صلة في الليل». أجاب قائد اللواء.

كانت الساعة العاشرة صباحا. لم يزن كهانا، وهو أحد القادة الشجعان في الجيش الإسرائيلي، يضع على رأسه قبعة دينية صغيرة غير مرئية تقريبا وهو ابن أخ قائد حركة «كاخ» ، لم يزن إمكانية رفض الأمر العسكري. فقد كان حزينا جدا لأنه قبل ذلك بيوم لم يبادر إلى الخروج في مهمة احتلال المحمية الطبيعية في يارون.

في الساعة الواحدة ظهرا كان محاربو أغوز تحت قيادته مُركزين في ساحة الكنيس القديم في برعام. في اليوم الثامن من الحرب كانت الوحدة الأكثر خبرة في الجيش الاسرائيلي بالقتال في لبنان، وإن لم تكن مدربة بقدر كاف أيضا، توشك أن تُطرح لأول مرة في المعركة. ثلاث سرايا. حقائب على الظهر، وأجهزة اتصال، وحمالات جرحى، وأسلحة. ثم توجيه أخير من القائد وخروج في الطريق. سيرا على الأقدام. بعد ساعتين ونصف كانوا موجودين داخل وطيس المعركة.

شاهد مراقبو حزب الله في المنطقة دخول أغوز مارون الراس في ظهيرة اليوم. البُعد بين المباني داخل القرية كبير. لا أرصفة أو نباتات. لم يكد قائد أغوز كهانا وقائد المظليين ألوني يتبادلان كلمة، على رغم أنهما عملا على مبعدة بضع مئات من الأمتار بعضهما عن بعض.

قرابة الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر بدأت المعركة الشديدة. قُتل محارب السرية «ب» من أغوز في لقاء لمخرب في مدخل بيت في القرية. لاحظت قوة السرية «ج»، التي تولى قيادتها الرائد بنيامين هيلمان، حركة سيارة مريبة سافرت إلى الشمال نحو بنت جبيل لنقل الجرحى. فتح الجنود النار عليها ويبدو أنهم أصابوها، لكنهم استوعبوا فجأة أنهم موجودون على منحدر مُعرضين لنار من مدى بعيد من حزب الله. بعد مرور بضع ثوان أُطلق عليهم صاروخ ساغر مضاد للدبابات. سرعة الصاروخ قليلة، يمكن أن يُرى مقتربا، تاركا وراءه مسارا دقيقا من النار، لكن لا وقت كافيا للهرب منه.

كانت الإصابة قاتلة. قُتل بنيامين هيلمان، وقُتل معه اثنان من جنوده. استمر الهجوم. اختفى فجأة الرقيب أول يهونتان فولسيوك، الذي حاول الوصول إلى الجرحى.

العدد الكبير من المصابين وبخاصة الجندي المفقود سبب الجنون. غمرت هاتف غال هيرش مكالمات من القيادة. نُقلت أوامر انسحاب مذعورة إلى القوات في الميدان لكنها ألغيت فورا. منذ تلك اللحظة أصبحت المهمة الرئيسة تخليص المصابين وتحديد موقع الجندي المفقود.

هبط الظلام. طلب كهانا تجميد الوضع. لم يكن مستعدا لأن يترك بغير المحارب المفقود. كان الخوف الكبير من أن يكون بهونتان قد قُتل وأن تقع جثته في يد حزب الله. زحف محاربون مع تعريض أنفسهم لخطر كبير نحو بيوت انهارت لإصابة صواريخ مضادة للدبابات ذاتها للبحث عن رفيقهم. منحت قنابل مضيئة أطلقت من قذائف نورا خافتا لكنه ضروري. شعر قائد المنطقة أدام بأن العملية قد خابت. وصل إلى غرفة العمليات الحربية ورأى قائد اللواء لفني يجلس فاغر العينين موحيا بالذعر. من غير أن تكون أمامه خرائط مكبرة للقرية أو مخططات معركة.

في الخلف في خط النار قنابل مضيئة، سقطت فوق مارون الراس على نحو لا ينقطع. «لماذا تطلقون قذائف رجم؟»، سأل اللواء بحيرة. «لسنا نحن بل حزب الله»، أجابته غرفة العمليات من غير معرفة صورة الوضع الحقيقية. «إذا كان هذا حزب الله فاقتلوهم»، قال أدام. اتصل مذعوراً بقائد الفرقة هيرش. «لا تقلق، كل شيء تحت السيطرة»، قال هيرش، الذي لم يعلم من أين يتحدث القائد. «تعال إلى غرفة العمليات في الحال»، سمع من الجانب الآخر من الخط.

«سأُخرج لك القوات من مارون الراس»، قال أدام عندما وصل هيرش. بغير مقدمات لا حاجة إليها. كانت تلك لحظة الحسم في العلاقات بين القائدين الكبيرين. رواسب اجتمعت في أثناء أيام توالت فيها الإخفاقات أوشكت أن تثور.

«أودي، أودي، أودي»، تلفظ هيرش باسم قائد المنطقة. ابتعد كلاهما مهتاجين عن خيمة غرفة العمليات ووقفا وراء حاوية معدنية ضخمة يستعملها مزارعو الكيبوتس. لم يرفع هيرش وأدام صوتيهما لتعبهما وألمهما. «كُف عن الحديث إلي عن كل جريح وكل قتيل»، قال هيرش. «ستنتهي الحرب مع ٢٥٠ قتيلا و١٥٠٠ جريح، وستكون طويلة. يجب التصرف كما في الحرب»، أضاف. «أوكي، سيكون قتلى، لكن لا داعي إلى التبرع بهم الآن إذا كان يمكن الانتظار»، أجابه قائد المنطقة.

لم يكن الضغط على أدام من الأعلى أقل ثقلا مما هو على هيرش. في أثناء المحادثة بقرب الحاوية رن الهاتف المحمول المشفر. كان رئيس الاركان على الخط. عندما تحدث اليه أدام لم يعرف أن مكبر الصوت في جهاز الهاتف في وزارة الدفاع في تل أبيب يعمل. لم يكن حلوتس المستمع الوحيد. فقد أحاطت به جماعة من الضباط من هيئة القيادة العامة. طُلب إلى أدام أن يُبلغ عن إجراءاته القادمة. «هناك إمكانية أن نحتل بنت جبيل وعيترون من أجل إعطاء رد أوسع، وهناك إمكانية أن نُكمل فقط احتلال مارون الراس»، قال أدام لحلوتس. «أعطني وقتا أقرر. أنا أعالج هذا». بعد أن قُطعت المكالمة سخر نائب رئيس الأركان كابلنسكي من أدام وقال «انه يقترح احتلال جنوب لبنان كله».

في نهاية المكالمة مع أدام بقي هيرش في غرفة العمليات الحربية وجعل حين لفني ينام، ببساطة كما تسمعون. كان قائد اللواء مرهقا تماما، بعد ثمانية أيام متتالية بلا نوم تقريبا. قاده هيرش نحو سيارة جيب هامر مع تدريع فولاذي وقفت وراء غرفة العمليات. «اسمع، أنا على ما يرام»، حاول لفني أن يعارض بصوت واهن. لكن قائد الفرقة ألح. «يجب عليك أن تنام»، قال واحتضن لفني بحرارة. غطاه بكيس نوم وأصدر أمرا برجل اتصاله الخاص قائلا: «لا يهم من يتصل، لا تُمكّن أي أحد من إيقاظ حين».

بعد ذلك عاد إلى غرفة العمليات الحربية، وأرسل أيضا ضابط الاستخبارات اللواء لينام وقال للضباط الذين بقوا: «عندنا بعض مهمات ننفذها، لكن قبل كل شيء يجب أن نجد الجندي المفقود».

بعد مضي ساعتين تكلم أدام مرة أخرى إلى رئيس الأركان بالهاتف. «قررت أن آخذ إلى مارون الراس اللواء ٣٥ (المظليين). أقمت في غرفة العمليات الحربية قائد الفرقة هيرش»، أبلغ. في هذه المرحلة فقد حلوتس صبره.

«ما الذي دهاك حتى أتيت بقائد اللواء ٣٥ وبقائد الفرقة أيضا؟ لماذا هناك مستويا قيادة؟»، وجه رئيس الأركان القول بغضب إلى قائد المنطقة.

«أنت لا تفهم»، أجاب أدام. «أتيت بقائد الفرقة لينظم الأمر هنا، لأنه سيتولى قيادة المعركة شخصيا. هذا وضع تدخل قائد، لا مستوى قيادة آخر».

عندما استيقظ لفني من نومه لم تكن القوات المحاربة في مارون الراس تحت قيادته. أمر القائد أدام بنقل قيادة القتال في المعركة إلى قائد لواء المظليين العقيد حاغي مردخاي. تلقى مردخاي النبأ عندما كان مع جنوده على تل عند ضواحي عيتا الشعب وكان يخطط كيف يستولي على قلب القرية. اضطره تغيير المهمة إلى أن يطوي قوات اللواء عن منطقة القرية بعد يومين من الاستعدادات، من غير أن يحدث أي غزو ومن غير أن تُهاجَم أهداف حزب الله بالصواريخ كما تم التخطيط.

على رغم أن القوات لم تبلغ قلب قصبة عيتا الشعب، أُصيب أحد محاربي المظليين إصابة شديدة في تبادل إطلاق نار مع حزب الله. كان تخليص الجريح مصحوباً بلحظات طويلة من التوتر. استدعى قائد اللواء مردخاي بشبكة الاتصال مساعدة سلاح الجو. بسبب الوضع الشديد للجريح، تم الحصول لأول مرة منذ بدء الحرب على إذن بإدخال مروحية تخليص داخل أرض لبنان. حلقت مروحية بلاك هوك مصحوبة بمروحية مقاتلة من طراز كوبرا، أمطرت نارا لا تنقطع في محاولة لإبعاد أفراد حزب الله عن منطقة الهبوط المحددة. لكن تبين أن قطعة الأرض التي كان الجريح ملقى بقربها أضيق من أن تُمكّن البلاك هوك من الهبوط.

قرر الطيار، بقرارٍ سريع، تنفيذ التخليص بغير هبوط على الأرض. غرس ذيل المروحية في شجيرة وأُدخلت حمالة الجرحى إلى المروحية وعليها الجريح، وهو يحلق على ارتفاع متر عن سطح الأرض. بعد ذلك بجزء من الثانية ارتفعت البلاك هوك متجهة إلى المستشفى في إسرائيل. في ذلك الليل كله، في وحدة الطيران التي تستعمل طائرات بلا طيار في مركز البلاد، دأب طيار احتياط ورجلٌ من وحدة تحديد مواقع المفقودين، الرائد حين على عشرات الصور الجوية التي أُرسلت من مارون الراس، محاولا أن يحدد موقع الجندي يهونتان فولسيوك. أرسل الجنود للفحص عن علامات تثير الريبة ظهرت في الصور. بعد ١٨ ساعة من الجهد المتوالي تبينت في الصورةٍ بقعة ربما كانت تبدو مثل قدم جندي تظهر من بين أنقاض سور انهار في القرية. أُرسل الجنود إلى نقطة تعرّف عليها حين، وحفروا بأيديهم بين طوب السور المنهدم، ووجدوا هناك ذاهلين جثة يهونتان. تبين أنه أصيب بصاروخ عندما جرى لتخليص جرحى قرب السور، وانهار السور عليه.

في ليل السبت فقط، عندما أُعيدت جثة يهونتان إلى إسرائيل، انتهى كابوس أغوز. لم يُسهم المحاربون كثيرا في الجهد القتالي العام في مارون الراس لكنهم عادوا مذهولين. وافق قائد الوحدة على الانسحاب فقط بعد أن حصل من قائد لواء المظليين على مهمة أن يحتل لمدة عدة ساعات منطقة في القرية كي لا يشعر جنوده بأنهم حاربوا عبثا.

«تعالوا لا نشغل أنفسنا باعتبارات من ذا أدخلنا»، قال المقدم كهانا لجنوده بعد ذلك، عندما نزعوا سلاحهم داخل اسرائيل. «تلقينا مهمة، أمرا عسكريا. فعلنا أفضل ما كنا نستطيع فعله».

جعلت المعركة في مارون الراس النقد الذي وجه إلى كبار قيادة الشمال، من الكرياه في تل أبيب يبلغ ذروته. عاد نائب رئيس الأركان كابلنسكي وقال لحلوتس: لا يمكن أن يستمر الوضع على هذه الحال. طلب حلوتس أن يعلم ما هو نظام العلاقات بين قائد المنطقة وقائد الفرقة ٩١. اتصل باللواء إيال بن رؤوفين، نائب قائد منطقة الشمال في الحرب، الذي كان في ذلك اليوم في قيادة الفرقة ٩١ ليساعد غال هيرش.

«صحيح، هناك توتر بين أودي وغال»، صدق بن رؤوفين الأمر على مسامع رئيس الأركان. «لكن لا تقلق. أنا هنا. سيكون الأمر على ما يرام».

على رغم ذلك فقد حلوتس صبره. قرر أن يعمل خلافا لتصوره، الذي يقول إنه يجب منح القادة التعزيز في كل وضع تقريبا. وخلافا كذلك لإحدى القواعد الأقدم، التي كانت مستعملة منذ أيام الرومان، وهي فعل كل شيء من أجل الامتناع عن عزل القادة في منتصف الحرب من أجل عدم المس بالروح المعنوية وعدم جعل قادة آخرين يشغلون أنفسهم بالبقاء الشخصي بدل إدارة المعركة. في غد ذلك صباحا أعلن حلوتس بالهاتف إلى قائد منطقة الشمال: «قررت عزل غال هيرش».

صعب على أدام أن يدافع عن هيرش من أعماق قلبه، بعد أن اشتكى هو نفسه من وجود مشكلات معه وأنه غير منضبط. طلب إلى إيال بن رؤوفين، الذي كان قد عاد إلى قيادة المنطقة، أن ينزل اليه إلى الوكر وهناك بشره بقرار رئيس الأركان.

غضب بن رؤوفين. «لا توافق على العزل على أي حال من الأحوال»، قال لأدام. فقد اعتقد أنه برغم جميع النقد الموجه إلى هيرش، فإنه من القادة الجيدين في الجيش

الإسرائيلي. «لا يمكن أن يُقيلوا غال، ليس هذا محقا»، أضاف بن رؤوفين. من الإحباط عزل هيرش. لم يمض حلوتس إلى النهاية. لم يكن من المفترض أن يعلم هيرش بهذا الحدث من وراء ظهره، لولا رسالة هاتفية تلقاها من ابنته البِكر أوري. «أبي، انتبه»، كتبت الفتاة وتحدثت عن رموز تلقتها من الإعلام تقول إن منزلة أبيها مختلة. اتصل هيرش باللواء بن رؤوفين لاستيضاح هل إشاعة نية عزله صحيحة. «وُجد شيء كهذا»، أجاب بن رؤوفين من غير أن يسخو بالتفصيلات. «دع ذلك، هذا وراءنا. المهم الآن استمرار القتال».

خاف قائد الفرقة أن يفقد الجبهة الخلفية الوحيدة التي بقيت له. لأول مرة في أثناء الحرب طار إلى بيته في مروحية. أقام مع زوجته دونا ومع بناته الثلاث أربعين دقيقة ثم قال لهن «أصغين جيدا، لم أفقد صبري، ولم أفقد قدرتي على القيادة، ولم أخطئ أخطاء كلفت حياة ناس»، وآنذاك ودع أبناء العائلة وعاد إلى الشمال، وحيدا كما لم يكن قط.

ويروي جنود «ايغوز»، الوحدة المختارة والمدربة من أجل القتال في لبنان، لـ«هآرتس»، بعضاً من وقائع معركة مارون الراس، التي غيّرت وجه الحرب، كما ترى الصحيفة، فأصابت الأركان العامة للجيش الإسرائيلي بالصدمة، وحوّلت المعركة إلى حرب لبنان الثانية.

يقول عميرام بركات وعاموس هرئيل : اليوم السابع من عملية «تغيير الاتجاه»، يوم الخميس ٢٠ تموز، وفي وقت الظهيرة، بدأ جنود وحدة «ايغوز» يتسلقون قمة الجبل تسلقاً مرهقاً. الهدف كان قرية مارون الراس الواقعة في قمة الجبل. شق المقاتلون المحملون بالعتاد طريقهم إلى داخل الحرج، على بعد مئات الأمتار شرقي المكان الذي قتل فيه اثنان من وحدة «مغلان» في مواجهة مع مقاتلي حزب الله، وهو ما تبعه إرسال دورية من جنود المظليين لاحتلال مواقع مسيطرة على منطقة مارون الراس، إلا أن هؤلاء عادوا وأرسلوا إشارات عن وقوعهم في أزمة، وهو ما أدى أيضاً إلى قرار متعجل ومصيري بإلقاء وحدة «ايغوز» في المعركة.

اعترف ضابط رفيع المستوى في الأركان العامة بأننا «احتللنا مارون الراس من دون أن ننوي ذلك، وهي عملية حدثت في وقت مبكر جداً، ولم نكن مضطرين للوصول إلى هناك». باللغة العسكرية الدارجة، اعتُبرت المعركة حادث «كيّ وعي» للجيش الإسرائيلي،

لأن القتال في لبنان أشد صعوبة من القتال في المناطق (الفلسطينية). لكن للمعركة آثاراً اكثر استثنائية من ذلك. وإذا كانت هناك حادثة استطاعت أن تغير عملية «تغيير الاتجاه» إلى حرب لبنان الثانية، فإنها معركة مارون الراس.

قبل المعركة، اقتصر الوجود البري للجيش الاسرائيلي في لبنان على نشاطات متفرقة لمجموعات صغيرة من وحدات النخبة، في عمق بضع مئات من الأمتار داخل الأراضي اللبنانية. فبموجب أوامر الأركان العامة، امتنع الجيش عن دخول منطقة القرى لعمق كيلومترات معدودة، وهي المنطقة التي اصطلح على تسميتها بـ«القشرة». إلا أن سلسلة من التطورات، التي بلغت ذروتها في معركة مارون الراس، وضعت الأركان العامة في مواجهة واقع جديد. وبعد يوم من انتهاء المعركة (مارون)، أصبح في جنوب لبنان ثلاثة ألوية من ألوية الجيش الإسرائيلي.

بدأت الورطة بشكل محدود. الأربعاء ١٩ تموز، أرسلت فرقة من وحدة «مغلان» في مهمة مراقبة على بعد مئات الأمتار داخل الأراضي اللبنانية، داخل حرج على سفوح مارون الراس. وتوقع جنود الفرقة الـ١٢ أن يتصادموا مع اثنين أو ثلاثة من مقاتلي حزب الله على الاكثر، ولم يخطر في بالهم أن يجدوا نظام ملاجئ محصنة تحت الأرض وأنفاقاً لحزب الله، تُسمى «محمية طبيعية».

قرابة الساعة ١١، لاحظ جنود وحدة «مغلان» نشاطاً مريباً، واستحصلوا على الإذن بإطلاق النار، لكن تبيّن أنهم محاصرون بمواقع لحزب الله، وفي وقت قصير، سقط تسعة منهم جرحى وقتل اثنان.

تملكت الصدمة الأركان العامة بعد سماعهم عن معركة «مغلان»، وبحسب ضابط رفيع المستوى «لم يقصد أحد أن يمشط المحمية الطبيعية في هذه المرحلة، فقد وافقنا على إدخال قوة لمنع إطلاق الصواريخ على «افيفيم»، من دون دخول المحمية، وهو ما لم يُبلغ إلى وحدة مغلان».

في أعقاب حادثة «مغلان» الأليمة، صودق على إدخال قوة أكبر إلى المنطقة، والهدف السيطرة على أعلى نقطة فيها لتمكين الجيش من القيام بنشاطات على نحو مجد على امتداد السياج. وبين الأربعاء والخميس، دخلت دورية من المظليين إلى المنطقة الشمالية من مارون الراس، وهي جبل يرتفع ٩١٧ متراً فوق مستوى سطح البحر.

صباح الخميس صرخ قائد ايغوز، المقدم مردخاي كهانا، وقال لقائد المنطقة العميد حام لفني إن «القوة في ورطة ويجب مساعدتها»، فأجابه «عليك أن تدخل إلى هناك وأن تحسم المعركة».

نشأت وحدة «ايغوز» التابعة للواء «غولاني» عام ١٩٩٥ من اجل القتال في لبنان، وبعد انسحاب الجيش الإسرائيلي (عام ٢٠٠٠)، تابعت الوحدة تدريباتها استعداداً للقتال في الأراضي اللبنانية، إلا أن انشغال مقاتلي الوحدة كان في تنفيذ عمليات في المناطق (الفلسطينية) ولم يصطدموا قط مع مقاتلي حزب الله.

رغم أن قائد «ايغوز» كان متعطشاً لعملية تنفيذية، إلا أنه عارض بقوة إدخال جنوده نهاراً إلى مارون الراس، وقال، كما ورد في مقابلة له مع «يديعوت احرونوت»، إنه حاول مرتين إقناع لفني (قائد المنطقة) بتأجيل الدخول لليلة واحدة، لكنه لم ينجح. وبحسب قائد «ايغوز»، فإن لفني قال له «لا اهمية ان حصل ذلك ليلاً او نهاراً»، علماً بأن وضع المظليين لم يكن فظيعاً، فقد خرجوا من مارون الراس غير مصابين وقالوا إنهم قتلوا ١٣ من مقاتلي حزب الله.

كان أفراد «ايغوز» يجهلون ما كان ينتظرهم في القرية، وقال ضابط في الوحدة «قالوا لنا إن المظليين في وضع كارثي، وإن القرية مهجورة من سكانها وفيها مقاتلون من حزب الله، عرفنا أن لديهم صواريخ مضادة للدبابات، لكننا لم نكن نعرف ما الذي يمكننا عمله عندما يطلقون الصواريخ علينا».

حوالى الساعة ١٥:٠٠، طوّق جنود «ايغوز» قرية مارون الراس وقطعوا الطريق بينها وبين بلدة بنت جبيل، ولاحظ الجنود داخل القرية سيارة وفيها منصة للصواريخ، فتم تدميرها، الا ان صاروخ «ساغر» أطلق على القوة من جهة بنت جبيل دمر حائطاً كان يحمي الجنود، وبعدها أصابهم صاروخ ثان، فقتل قائد السرية بنيامين هيلمان، والرقيب أول رفنئيل موسكال وعامل الإشارة الرقيب اول ليران سعاديه.

بعد ذلك، جرى استدعاء جنود سرية ثانية في الوحدة، للمساعدة في إنقاذ الجرحى وإخلاء القتلى، فقتل أحد المنقذين بصاروخ «ساغر»، ولم يشاهد مرافقه جثته التي دفنت تحت أنقاض حائط انهار عليه.

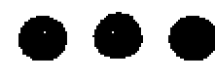
في موازاة ذلك، بدأ الجنود بالسيطرة على منازل القرية، من دون إطلاق نار تمهيدي على المنازل كما هي الأوامر من المستويات الأعلى، ولدى دخولهم منزلاً في القرية، لاحظ أحد الجنود حركة مريبة فيه، فصاح بالعربية «قف»، وأطلق النار إلى داخل المنزل، لكن رشقة رصاص من الداخل أصابته فقتل بعد وقت قصير من ذلك. عاد الجنود وفجروا المنزل، وتبيّن لهم أن الصواريخ التي أطلقها حزب الله، والتي أصابت هيلمان وجنوده، كان مصدرها هذا المنزل بالتحديد.

نجح جنود «ايغوز» حتى المساء في إنقاذ خمسة جرحى وسحب جثث أربعة من الجنود إلى داخل أحد المنازل في القرية، ولم تكن حياة الجرحى في خطر، لكن الخطر كان في تعرقل وصول الدبابات وسيارات الإسعاف للإنقاذ. بقي الجنود حتى الساعة الرابعة قبيل الفجر.

في هذه الاثناء، تبيّن أن أحد الجنود كان مفقوداً، فأمر قائد الوحدة أن يبقى الجنود في القرية إلى أن يتم العثور على جثته، وبعد تحديد مكانها نُقلت إلى إسرائيل ليل الجمعة ـ السبت.

دخلت قوات كبيرة من لواء المظليين إلى مارون الراس مساء الجمعة، وحتى صباح اليوم التالي، تبيّن أن إطلاق النار مستمر من بنت جبيل، فتقرر المضي قدماً نحو البلدة، ولم يكن لجنود إيغوز الكثير من الوقت لإعادة الاستعداد من جديد بعد يوم صعب في تاريخ الوحدة.

طيلة الوقت والقتال، بقي الإحساس لدى وحدة ايغوز، الوحدة الأكثر «لبنانية» في الجيش الإسرائيلي، بأنها لا تحظى بالتقدير الذي تستحقه. وقال ضابط في الوحدة إن «الجيش قد استخدمنا للسيطرة على مناطق، في مهمات شبيهة بمهمات سلاح المشاة العادي، ومن المؤسف أننا لم نحصل على فرصة لإثبات قدراتنا المتميزة».



٣٢

معركة بنت جبيل .. يوم ظن الإسرائيليون أن الزيتون يطلق النار عليهم !!





معركة بنت جبيل وهي معركة وقعت في شهر يوليو من العام ٢٠٠٦ خلال الحرب الإسرائيلية على لبنان تفاصيل المعركة شن الجيش الإسرائيلي الهجوم على مدينة بنت جبيل من أجل احتلالها بعد أن مهد لها بقصف بري وجوي لكنه فوجئ بمقاومة عنيفة على أطرافها كبدته خسائر فادحة في دباباته وجنوده واستبسل مقاتلو حزب الله في صد الهجوم على المدينة وارتدت القوات الإسرائيلية خائبة عن المدينة بعد أن كانت تحلم باحتلالها ورفع علمها عليها وإلقاء خطاب النصر فيها .

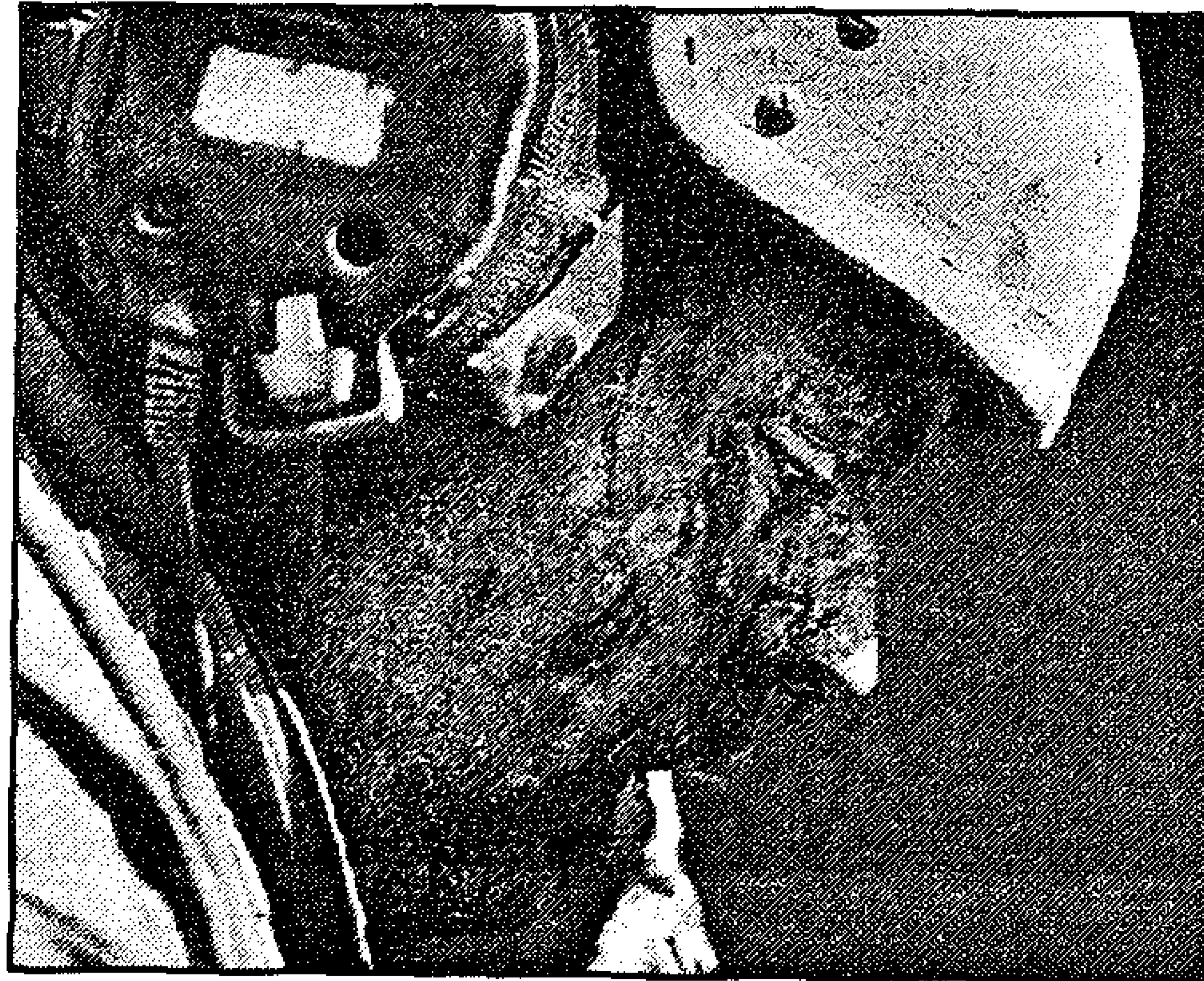
وقد كان لبنت جبيل حصة كبرى من الدمار. ولها أيضا حصة كبرى من حكايات الاستبسال في صد العدو. ففي بنت جبيل جرت واحدة من أكبر المعارك وأعنفها في

عدوان تموز ٢٠٠٦ الإسرائيلي على لبنان. بنت جبيل استهدفت لمكانتها، وبنت جبيل قاومت فعززت مكانتها.

و سوف أبدأ هنا بتقرير مراسل صحيفة " واشنطون بوست الأمريكية " الذي نشرته في ٢٧ يونيو عام ٢٠٠٦ أثناء العدوان الإسرائيلي على لبنان ، و نقلت فيه اعترافات جنود الجيش الإسرائيلي في بنت جبيل :

"كان الضباط الإسرائيليون على الحدود يؤكدون، قبل يومين، أنهم يسيطرون على بنت جبيل، أكبر معاقل حزب الله، على مرمى إطلاق النار عبر الحدود والهدف الرمزي الهام. فهناك احتفل حسن نصر الله زعيم حزب الله بانسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان قبل ٦ سنوات. ولكن عندما بعثت إسرائيل بلواء قوات المشاة الخاصة المعروفة باسم غولاني لتأمين البلدة ، حوصر مئات من الجنود الإسرائيليين بكمين لحزب الله. وقتل ٨ جنود إسرائيليين تقريبا على الفور، واستغرق الأمر حتى فترة مبكرة من بعد ظهر نفس يوم الهجوم لنقل القتلى والمصابين لمسافة ميلين تحت إطلاق نار شديد، إلى منطقة آمنة حيث التقطتهم طائرات الهليكوبتر ونقلوا إلى مستشفيات في حيفا."

وقال الميجور جنرال عودي أدام الذي كان يتولى القيادة الشمالية ويقود العمليات في لبنان بالاشتراك مع الميجور جنرال بني غانتس رئيس الحملة البرية «لقد كان يوما صعبا». واعترف الجنرال أدام، الذي التقى بالصحفيين في غابة صنوبر مغرب ، بأنه بعد يومين من القتال المرير الذي أدى إلى مقتل ١٠ جنود، لم تقع بنت جبيل تحت السيطرة الإسرائيلية.



آثار المعركة على وجه جندي إسرائيلي أُصيب في بنت جبيل .

وتكشف تفاصيل المعركة، التي تم تجميعها من مناقشات مع عدة ضباط إسرائيليين لديهم معلومات عن المعركة، ما يجب على إسرائيل القيام به لإبعاد حزب الله من التلال والوديان في جنوب لبنان، ولماذا تغيرت أهداف إسرائيل بسرعة من القضاء على حزب الله إلى تأمين شريط ضيق، عرضه ميلين من حدود إسرائيل الشمالية.

وفي اطار الصعوبات التي كان يواجهها الإسرائيليون في بنت جبيل، فإن تطهير العديد من القرى المتناثرة في جنوب لبنان من شبكات حزب الله من المخابئ ومخازن الأسلحة والمقاتلين كانت تبدو مهمة شاقة للغاية بدون احتلال المنطقة مرة أخرى، وهو ما تعهدت إسرائيل بعدم القيام به.

وقد تم إضعاف مقاومة المدينة بطلقات مدفعية ويومين من المعارك قادها اللواء السابع الإسرائيلي المدرع طوال يومي الاثنين والثلاثاء. وتمكن لواء مهندسين من تطهير مخابئ والغام وغيرها من المتفجرات، بينما قتل لواء من المظليين العديد من مقاتلي حزب الله. وكان من المفروض أن يتمكن المشاة من تأمين المنطقة والتوسع في الحملة طبقا لما ذكره الضباط.

وذكر ميجور إسرائيلي، لم يحصل على تصريح بالكشف عن اسمه، «كانت مهمة لواء المشاة هي الدخول والسيطرة على هذه المناطق». وقال إن الجيش كان يتوقع أن يستغرق الأمر وقتا لأن خطة المهمة كانت تشمل البحث من منزل إلى منزل عن مقاتلي حزب الله، في المدينة شبه المهجورة، التي يصل عدد سكانها إلى ٢٠ الف نسمة.

وطبقا للمعلومات الاستخبارية التي كانت القوات تستخدمها، كان من المتوقع أن تواجه القوات ما يقرب من ٣٠ إلى ٤٠ من مقاتلي حزب الله، طبقا لما ذكره الضباط. إلا أنه من الواضح أن حزب الله تمكن من دعم قواته خلال الليل.

وأضاف ضابط برتبة ليفتنانت، طلب عدم الإشارة إلى اسمه، «لقد ضاعفوا عدد قواتهم أو زادوها ثلاث مرات. وبحلول يوم الأربعاء، ذكرت الإذاعة الإسرائيلية نقلا عن مسؤولين عسكريين، أن عدد المقاتلين بلغ ٢٠٠ شخص.

وأوضح الضباط أن مائة من هؤلاء كانوا ينتظرون قوات المشاة الإسرائيلية، وكان عددهم بالمئات، إذ داخلوا المدينة قبل فجر يوم الأربعاء.

وذكر الميجور «فور دخولهم المدينة تعرضوا لإطلاق النار من كل المباني حولهم». وقال إن الهجوم شمل الأسلحة الصغيرة والآر بي جي وصواريخ مضادة للدبابات وقذائف الهاون. وقد اختبأ الجنود وحوصروا على الفور. ومن بين الإسرائيليين القتلى نائب قائد ميداني لم يكشف عن اسمه.

وقال الجنرال آدم إن قواته قتلت على الأقل ٢٠ من مقاتلي «حزب الله» في المعارك. وقال الرائد والملازم اللذان أوردا القصة بالكثير من التفاصيل إن الجنود المحاصرين في بنت جبيل لم يستطيعوا الرد على النيران إلا بعد حوالي ساعة بسبب عدم تمكنهم من تحديد مصدر النيران في البنايات المحيطة بهم. واستغرقت عمليات التعزيزات وإخلاء الجرحى والمصابين جزءا كبيرا من اليوم، علما بأن طائرات الهليكوبتر الإسرائيلية كانت تهبط على بعد ميلين كي تكون بعيدة عن مرمى نيران مقاتلي «حزب الله».

كان على الجنود إخلاء زملائهم الجرحى وحملهم مسافة ميلين تحت نيران مقاتلي «حزب الله» ووعورة المنطقة لإيصالهم إلى طائرات الهليكوبتر التي هبطت تحت غطاء القنابل الدخانية. وصرح الضباط بعدم وقوع قتلى خلال عمليات إخلاء القتلى والجرحى. وأضاف الجنرال آدم، الذي قتل والده خلال غزو اسرائيل للبنان عام ١٩٨٢، ان عملية إخلاء الجرحى كانت صعبة وجرت تحت وابل من النيران الثقيلة مؤكدا أن حياة طياريهم تعرضت للخطر في سبيل إخلاء القتلى والجرحى.

وقال جنود خاضوا هذه المعارك إن مقاتلي «حزب الله» قاتلوا بقوة وإنهم أظهروا رغبة في الموت، وقال ضابط إسرائيلي برتبة رائد إنه قاد وحدة جرافات مصفحة عبر الحدود صباح يوم الأربعاء لنقل دبابة إسرائيلية أعطبت في المنطقة.

وأضاف الضابط الإسرائيلي، الذي أشار إلى اسمه الأول فقط (ساحار)، أن القتال كان ضاريا واستغرق وقتا طويلا، وأضاف أن الدبابة أعطبت يوم الاثنين خلال كمين أسفر عن جرح قائد كتيبة، وتركت الدبابة في بنت جبيل لأن استعادتها خلال ساعات اليوم عملية محفوفة بالمخاطر. وقال عدد من الضباط الإسرائيليين أن الخسائر في صفوف الجيش الإسرائيلي يجب النظر إليها بالمقارنة مع الخسائر التي وقعت في صفوفه خلال غزو لبنان عام ١٩٨٢ عندما قتل حوالي ١٠٠ من أفراده خلال الأيام الأولى للحرب.

وكان عشرات الآلاف من الجنود والضباط الإسرائيليين قد عبروا الحدود إلى داخل لبنان خلال الغزو وعبروا مدنا رئيسية وقرى إلى أن وصلوا إلى نهر الليطاني وتوغلوا أكثر من عشرين ميلا في بعض المناطق. وكانت منطقة افيفيم الاسرائيلية المحاذية للحدود اللبنانية قد ازدحمت بالجنود والدبابات التابعة للواء غولاني الذي برز اسمه خلال حربي اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ ويونيو (حزيران) ١٩٦٧.

وظهر عقب معركة بنت جبيل عدد من الجنود الإسرائيليين يبدو عليهم الإرهاق واضحا، فيما بدا آخرون منشغلين وقلقين وقد دهنوا وجوههم للتمويه تمهيدا لعبور الحدود إلى داخل لبنان. بنهاية اليوم كان شارع افيفيم خاليا تقريبا، وفيما عاد عدد من أفراد اللواء إلى داخل إسرائيل، كان آخرون يستعدون للدخول إلى لبنان. ويعتقد الجنرال آدم أن هذه العمليات ستستمر لعدة أسابيع مقبلة. " إلى هنا ينتهي تقرير صحيفة " واشنطن بوست ".

ويروى قيادي مقاتل تفاصيل معركة بنت جبيل فيقول :

يقول أحد أبطال معركة بنت جبيل و هو أحد قادة حزب الله إن من بين أسباب الدمار العظيم الذي ألحقه العدو بالمدينة هو الانتقام منها تحديدا لأن الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله ذهب إليها بعد التحرير في عام ٢٠٠٠ ومنها ألقى خطاب النصر.

ويروي القيادي إن المعارك البرية بدأت ضمن مرحلة الخط النقي (وهو مصطلح عسكري) ثم يستدرك ضاحكا: يعني ذلك أن الجيش الإسرائيلي بدأ الهجوم البري انطلاقا من مرتفعات مارون، باتجاه بنت جبيل القريبة جداً.

يبدأ برسم المواقع المحيطة ببنت جبيل وهي تشكل مرتفعات المدينة الطبيعة، ثم يوضح عدد المرات التي حاولت فيها القوات الإسرائيلية الدخول إلى تلك المواقع من أجل الإطباق على المدينة.

استطاع من خلال تمهله وتوضيحه أن يروي ما حصل عند كل موقع،... هنا تلة مارون... هنا تلة مسعود... هنا مثلث عيناتا- بنت جبيل- مارون... هنا الفريز وهنا الغراند بالاس.

تعرضت مدينة بنت جبيل خلال الحرب لثلاث مراحل من الهجوم: المرحلة الأولى بدأت بعد عملية "أسر الجنديين الإسرائيليين" مباشرة واستمرت من الثالث عشر من تموز حتى الرابع والعشرين منه، وقد جرى خلال تلك المرحلة قصف المدينة من دون القيام بهجوم بري. المرحلة الثانية استمرت من الرابع والعشرين من تموز حتى التاسع والعشرين منه، وجرت خلالها محاولات التقدم لاحتلال بنت جبيل، عبر تلة مارون وبلدة عيناتا وتلة مسعود. المرحلة الثالثة استمرت من التاسع والعشرين من تموز حتى الثامن من آب، وتعرضت خلالها بنت جبيل للقصف التدميري الانتقامي.

أما الهجوم البري على بنت جبيل فقد بدأ في الرابع والعشرين من تموز عندما حاولت كتيبة مشاة من الجيش الإسرائيلي التقدم نحو المدينة عبر تلة مارون الراس. سبق ذلك محاولة قوة من الجيش معززة بالدبابات الدخول من الناحية الشرقية لمارون، فدمر المقاومون ثلاث دبابات، الأمر الذي منعها من الاستفادة من سلاح الدبابات واستقدمت كتيبة مشاة بدأت التسلل على بعض أطراف بنت جبيل، لكن سرعان ما جرى اكتشافها تحت تلة مارون، وبالقرب من مهنية بنت جبيل، حيث يوجد انتشار كثيف للمقاومين.

كان المقاومون في بعض المواقع ينتظرون اقتراب القوات الإسرائيلية منهم قبل مهاجمتهم وفي مواقع أخرى كانوا يهاجمون الإسرائيليين مباشرة بعد اكتشافهم، كما حصل بالقرب من المهنية.

قتل في الاشتباك الأول بالقرب من المهنية جنديان إسرائيليان وأصيب عدد آخر بجروح، بناء لاعتراف إسرائيل. لكن الذين شاهدوا قوة الإخلاء الإسرائيلية وهي تسحب الإصابات نقلوا أن أفرادها كانوا يبكون ويضربون على رؤوسهم.

في السادس والعشرين من يوليو حاولت القوات الإسرائيلية الالتفاف على بنت جبيل من المدخل الجنوبي لبلدة عيناتا، جاءت القوات من مستوطنة أفيميم إلى مارون ثم عيناتا.

تسللت القوة ليلا وكان الإسرائيليون يعتمدون أسلوب التسلل الليلي ظنا منهم أنه لن يتم اكتشافهم. لكن انتشار المقاومين أدى إلى وقوع القوة في كمائن المقاومة في المنطقة،

تعرض أفرادها للقصف بالقنابل والأسلحة الرشاشة المتوسطة والخفيفة. واستخدام القنابل يعني أن الاشتباك وقع فيما كان الطرفان على بعد أمتار كل من الآخر.

وقد جرى التحام بين المقاومين وبين الجنود الإسرائيليين،فقتل معظم أفراد القوة أو جرحوا ، وقد اعترفت إسرائيل بسقوط ثمانية قتلى وإصابة واحد وثلاثين بجروح. بعدها، سيطر المقاومون على المنطقة وأعادوا انتشارهم وتموضعهم، في الوقت الذي كان فيه الإسرائيليون يعملون على إخلاء الإصابات.

وبالتزامن مع اشتباكات عيناتا حاولت قوة إسرائيلية التقدم من جهة تلة مسعود. وقد أخذت القوات الإسرائيلية تعتمد في معركة بنت جبيل على تحريك كتيبة بعد الخسائر التي لحقت بها في معركة مارون لدى اعتمادها على تحريك سرية. لذلك تبين من خلال المشاهدات أن الأعداد التي حاولت الدخول إلى المناطق المحيطة ببنت جبيل كانت كبيرة.

استطاعت القوة الإسرائيلية الوصول إلى تلة مسعود عبر التسلل ليلا، لكن جرى اكتشافها واستمرت الاشتباكات معها حتى الصباح، ثم انكفأت بعد وقوع إصابات جمة في صفوفها، لم تحدد إسرائيل حجمها، وإن تبين من خلال المشاهدات وقوع قتيلين وخمسة عشر جريحا.

تمركزت القوة بعد تراجعها في بعض المنازل الكبرى المبنية على تلة مسعود. بعد ظهر اليوم نفسه تسللت مجموعة استطلاع قتالية من المقاومة إلى تلك المنازل واشتبكت مع مجموعة من تلك القوات عند مدخل إحدى الفيللات، الأمر الذي دفع بالقوات الإسرائيلية إلى الفرار من المنازل ليلا.

بعدها مباشرة أغار الطيران على المنازل، ويرجح القيادي أن يكون سبب الغارات هو وجود تجهيزات ووسائل عسكرية مهمة تركها جنود العدو خلفهم. وقد أدت الغارات إلى محو المنازل كليا.

في التاسع والعشرين من تموز، ونتيجة الخسائر التي منيت بها القوات الإسرائيلية في اشتباكات كل من تلة مارون وعيناتا وتلة مسعود أعلنت خروجها من منطقة بنت جبيل، وحصل ما يشبه الهدنة استمرت خلال الأيام الفاصلة بين التاسع والعشرين من تموز وبين السابع من آب.

بدأت المرحلة الثالثة من الهجوم الإسرائيلي بالقصف التدميري لمدينة بنت جبيل واستخدمت في الغارات طائرات اف ١٦ تساندها الأسلحة المدفعية. كان يصل عدد الغارات أحيانا إلى مائة غارة خلال ساعتين، وقد جرى خلال تلك المرحلة استكمال تدمير المدينة القديمة تدميرا كليا، بعد قصفها على مراحل عدة.

يقول القيادي إن الحديث الذي راج في حينها هو اعتقاد الإسرائيليين بوجود رجال المقاومة داخل المدينة القديمة، لكن تفسيرنا أن تدميرها كان عملية انتقامية، لما تختزنه المدينة من معان رمزية بعدما صنفت على أنها عاصمة المقاومة ودخلها الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله.

بعد فشل الإسرائيليين في دخول بنت جبيل عبر تلتي مارون ومسعود ومدخل عيناتا، حاولوا الالتفاف عليها، لناحية عيترون- عيناتا عند منطقة تدعى الفريز وعبر صف الهوا قرب مستشفى صلاح غندور.

جرب الإسرائيليون في المحاولة الجديدة تطويق المدينة ضمن مساحة أكثر اتساعا. تقدموا باتجاه منطقة الفريز، مستخدمين المشاة والآليات فحصلت المواجهات مع المشاة وجرى تدمير دبابات عدة، ثم حاولوا الدخول إلى عيناتا من منطقة الفريز، لكن المحاولة فشلت مجددا، ويروي أن الجرافات الاسرائيلية أخذت ترفع السواتر ليلا خلال تقدمها من أجل حماية الدبابات من الاستهداف. لكن تم استهداف ما يقارب الاثنتي عشرة دبابة.

في الوقت نفسه حاولت قوة أخرى الدخول من تلة مسعود إلى صف الهوا للقول من جديد إن الجيش الاسرائيلي سيطر على بنت جبيل، وحصلت الاشتباكات معهم عند التلة.

جربت القوة الدخول إلى أحد المنازل قرب مطعم الغراند بالاس لكن المقاومين اشتبكوا معها بالأسلحة الرشاشة والقذائف الصاروخية، فر الجنود باتجاه تلة مسعود مجددا، ولدى دخولهم إلى أحد المنازل هناك كان المقاومون داخل المنزل وفي محيطه، فأطلقوا عليهم النيران وسقط المزيد من القتلى والجرحى في صفوفهم، ثم فروا إلى موقع آخر عند التلة.

في التاسع من آب حاولت القوات الإسرائيلية الدخول إلى بنت جبيل مجددا من مدخل عيناتا الشمالي، تقدمت قوة كبيرة قدر عددها بناء للمشاهدات بمائتي جندي. لدى دخولها إلى أرض تصنف عسكريا بأنها مقتل، أي في مرمى نيران المقاومين من دون أن يكون هناك أي إمكانية للاحتماء، جرى إطلاق النار عليهم من جميع الجهات.

بعد تلك المعركة قال الجنود الاسرائيليون الذين نجوا منها: "كنا نشعر بأن الزيتون يطلق النار علينا وأن خلف كل حجر يوجد (مخرب)". دام الاشتباك ساعات عدة وسقط خلاله العديد من الجنود بين قتلى وجرحى، فيما فر الباقون تاركين العتاد في أرض المعركة.

لدى وصولهم إلى بركة عيناتا حاملين معهم عددا من المصابين على الحمالات (شاهد المقاومون سبع حمالات) وقعوا في كمين للمقاومة، فجرى قصفهم بالأسلحة والقذائف الصاروخية ومدافع الهاون، وزادت الإصابات في صفوفهم، كما تم تدمير دبابتين جرى استقدامهما لتأمين عملية الانسحاب.

يقول القيادي في المقاومة إنه خلال تلك المعركة ترك الجنود الحمالات والمصابين على الأرض، حتى تدخلت الطائرات والمدفعية وأقامت عازلا دخانيا حول المصابين، فحملوا وسحبوا إلى تلة الفريز.

لم تكتف القوات الإسرائيلية بتلك المحاولات الفاشلة. حاولت مرة ثالثة وأخيرة الدخول من تلة مسعود إلى منطقة صف الهوا- مستشفى صلاح غندور، بعدما اعتقدت أن حجم القصف الجوي والمدفعي للمنطقة والدمار الذي حصل فيها لن يبقي على أي مخلوق فيها. لكن طريقة تواجد المقاومين، جعلتهم محميين نسبيا. جربت قوات العدو رفع العلم الاسرائيلي ولو على منزل واحد في التلة، لكنها كانت عرضة للنيران من جديد، وسقط عدد من الجنود بين قتيل وجريح.

يوضح القيادي أن غالبية شهداء المقاومة في بنت جبيل استهدفوا بالقصف، بينما استشهد عدد قليل منهم خلال المعارك، لأن الغلبة كانت لهم في المواجهات الميدانية. يعتبر أن سبب الغلبة هو شجاعة المقاومين وثباتهم ومعرفتهم بطبيعة الأرض التي كانوا يقاتلون فيها، لأن المدافع يملك دائما ميزة معرفته بأرض المعركة. بالمقابل كان أداء الجنود الاسرائيليين مخيبا على المستوى الميداني.

يقدر عدد الجنود الإسرائيليين الذين قتلوا في معارك بنت جبيل، بخمسة وثلاثين جنديا، بالإضافة إلى تدمير ما يقارب العشرين دبابة، بينما قدرت القوات التي شاركت في المعركة بلواء أي ثلاث كتائب.

بلغت نسبة المقاومين الذين واجهوا تلك القوة ما بين خمسة إلى عشرة من عدد الجنود، استشهد ثمانية عشر مقاوما من أبناء بنت جبيل وأربعة عشر مقاوما من أبناء عيناتا، يضاف إليهم ثمانية عشر مواطنا من بنت جبيل.

ومن بين الشهداء كان القيادي قاسم بزي الذي بقيت إسرائيل تلاحقه عشرين عاما كما يقول أهل مدينته. استشهد خلال قصف أحد المنازل في الحارة القديمة وتدميره. واستشهد معه مسؤول حزب الله في بنت جبيل سيد أبو طعام والمقاوم كفاح شرارة.

عندما سئل القيادي لماذا كان قاسم في وسط المدينة في الوقت الذي يجري فيه تدميرها، أوضح أن القائد الميداني يكون عادة بين رفاقه وعلى مقربة من الجميع، أما وجود أبو طعام إلى جانبه فهو لا يتنافى مع التوزيع العسكري للقيادات لأنه يمكن تواجد قياديين في مكان واحد.

كان قاسم أحد القياديين البارزين في معركة مارون، ثم انتقل منها إلى بنت جبيل. وبعد استشهاده، حل مكانه القيادي محمد قانصو الملقب بساجد وتابع المعركة قبل أن يستشهد بدوره.

ويروي المواطن حسني بزي الذي بقي في بنت جبيل خلال الحرب، أن أول قذيفة سقطت على المدينة، كانت عند السابعة والنصف من يوم الخميس في الثالث عشر من يوليو، وقد استشهد فيها هشام بزي وجرح كامل العشي.

صباح اليوم التالي بدأ القصف على التلال المحيطة بالمدينة، وخاصة تلة مسعود، لكنه كان بطيئا. استمر حتى الثامن عشر من تموز عندما جرى استهداف منزل تابع لآل حميد، فكان ذلك إيذانا بأن اسرائيل انتقلت من التلال إلى المنازل.

قتل حسب الروايات، ثلاثة عشر جنديا إسرائيليا خلال عملية التقدم من تلة مارون إلى مهنية بنت جبيل. وينقل أحد الشهود على المعركة أن المقاوم على عادل أقام للجنود

كمينا في جذع تينة وأخذ يطلق النار عليهم بمساندة مجموعة من المقاومين، فاستطاع قتل غالبيتهم قبل أن يستشهد.

سلكت الدبابات الإسرائيلية الطريق الرئيسي باتجاه المهنية، فدمر المقاومون الدبابة الأولى بتفجير عبوة ناسفة وقتل فيها مقدم إسرائيلي، عندها غيرت القوات الاسرائيلية الخطة واستقدمت جرافات أخذت تجرف طريقا خاصا أمام الدبابات، بين عيترون وبين بنت جبيل.

استمرت عملية التقدم بطيئة حتى الخامس والعشرين من تموز، بسبب تصدي المقاومين للجنود . في السادس والعشرين قصف الطيران المدينة القديمة لمدة عشر ساعات، وفي السابع والعشرين منه قصفها لمدة إحدى عشرة ساعة، أما في الثامن والعشرين فثلاث عشرة ساعة، وفي التاسع والعشرين، قصفت المدينة لمدة إحدى وعشرين ساعة.

بدأ الطيران أولا بقصف المباني المؤلفة من طبقات عدة ودمر ثماني بنايات عند واجهة المدينة الشرقية من أجل رؤية قلبها. بعد ذلك جرى تدمير المنازل الصغيرة، بالمدفعية الثقيلة ، بالإضافة إلى الصواريخ، واستمرت عملية التدمير أربعة أيام.

وقد كشفت وسائل الإعلام الإسرائيلي – فيما بعد – حقائق جديدة، عن معركة بنت جبيل فهيئة الأركان الإسرائيلية أصابها الجنون، بعد سماعها لخطاب بيت العنكبوت للأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله عام ألفين، وأردات في حرب تموز أن تثبت العكس عبر احتلال مدينة بنت جبيل، ورفع العلم في المكان الذي ألقى فيه الخطاب وإجراء عرض عسكري بمشاركة رتل من الدبابات وإلقاء خطاب لأحد جنرالاتها يدحض فيه نظرية نصرالله لكن ما الذي حصل؟

الحقائق الجديدة عن معركة بنت جبيل تكشفت معها، عقدة خطاب بيت العنكبوت الذي ألقاه الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله عام ألفين في المدينة. فقد كشفت صحيفة " معاريف " في تحقيق لها أن قيادة هيئة الأركان في الجيش الإسرائيلي، كانت مصرة على تحطيم رمزية بنت جبيل والسبب الأساسي لهذا الأمر هو خطاب بيت العنكبوت للسيد حسن نصرالله، الذي سخر فيه من حصانة المجتمع الإسرائيلي.

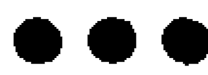
وأضافت إن قيادة الجيش كانت متشوقة لأخذ صورة رمزية في بنت جبيل. فإضافة لرفع العلم بالقرب من المكان الذي ألقى فيه نصر الله خطابه خطط الجيش الإسرائيلي لإجراء استعراض للنصر يشارك فيه رتل من الدبابات يسير في الشارع الرئيسي بمحاذاة مكان الخطاب. كما كشفت الصحيفة أن قائد لواء المظليين العقيد (حغاي موردخاي) فوجيء عندما سُلم نسخة لخطاب الانتصار الذي سيلقيه في بنت جبيل بعد سقوطها ليفند فيه كلام نصر الله حول ضعف المجتمع الإسرائيلي.

المحلل العسكري عمير رابوبورت قال إن" خطاب نصر الله في بنت جبيل أصاب هيئة الأركان بالجنون وعلى امتداد حرب تموز كانت الرغبة بالوصول إلى بنت جبيل ورفع العلم هناك مهما كلف من مصابين، والهاجس هو دحض ادعاء نصر الله بأن المجتمع الإسرائيلي واهن كبيت العنكبوت. إلا أنهم بقدر ما أرادوا دحض نظرية نصر الله فقد أكدوا صحة مقولته حين رفضوا العمل البري خوفاً من عدم تحمل المجتمع الإسرائيلي لسقوط خسائر بين الجنود".

لكن رغم إصرار قيادة الأركان على احتلال المدينة ووضعها الخطط لكيفية إخراج الانتصار وإحضار طواقم التصوير وتعريضهم للخطر، إلا أن ضراوة المقاومين بحسب شهادات الضباط والجنود الذين شاركوا في محاولة احتلال بنت جبيل حالت دون وصولهم لمبتغاهم، فاستعاضت قيادة العدو باكتفائها برفع العلم على أحد المنازل النائية على أطراف بنت جبيل

من جهته قال ايال بلوم - أحد الجنود الذين أرسلوا لرفع العلم " هدف المهمة إحضار صورة انتصار من المكان الذي خطب فيه نصر الله، ولدحض نظريته حول بيت العنكبوت إلا أن ذلك لم ينجح كما كان مخططا له ما اضطرنا إلى رفع العلم على أحد المباني الوقع في أطراف بنت جبيل".

صحيفة " معاريف " ذكرت أن الجيش الإسرائيلي امتنع عن نشر صور رفع العلم على المبنى لأن صورة الانتصار لم تكن في محلها، في الوقت الذي كان الجنود الإسرائيليون يهمون بمغادرة المكان دون أن ينجحوا في تحطيم أي رمز لحزب الله.



٣٣

سيمون بوليفار..
جورج واشنطن أمريكا اللاتينية !!





قائد ثوري وسياسي من فنزويلا تدين له جمهوريات في أميركا اللاتينية باستقلالها عن الحكم الإسباني.

سيمون خوريه أنطونيو دي لا سانتيسيما ترينيداد بوليفار (٢٤ يوليو ١٧٨٣– ١٧ ديسمبر ١٨٣٠ م) هو أشهر رجالات أميركا الجنوبية السياسيين والثوريين العسكريين في القرن التاسع عشر، إن لم يكن أشهرهم على الإطلاق.

بوليفار وطني من أمريكا الجنوبية وهو مؤسس ورئيس كولومبيا الكبرى. أطلقوا عليه اسم «جورج واشنطن أمريكا اللاتينية» وذلك بسبب الدور الذي قام به في تحرير الكثير من دول أمريكا اللاتينية: كولومبيا وفنزويلا وأكوادور وبيرو وبوليفيا، التي كانت تحت الحكم الأسباني منذ القرن السادس عشر.

وكان بوليفار في شبابه زار أوروبا وتأثر بالثقافة الأوروبية وبغزوات نابليون في أسبانيا عندما أطاح نابليون بالحكومة الأسبانية كان تصريحا وتشجيعا على أن يفعل نفس الشيء مع الأسبان في أمريكا الجنوبية وأقسم أن يحرر بلاده من الاستعمار الأسباني، وأصبح بوليفار ضابطا في جيش الثورة .

وبعد سلسلة حروب طويلة انتصر بوليفار على الأسبان و نالت تلك الدول استقلالها، واشتهر بوليفار كمحرر واحترمه الناس العاديون، ولكنه لقى معارضة شديدة تخللت أيامه الأخيرة عندما هدف إلى توحيد أمريكا الجنوبية كلها تحت سلطته، وسميت دولة بوليفيا باسمه.

ولد سيمون بوليفار في كاراكاس في ٢٤ تموز ١٧٨٣. تأثر خلال دراسته بالفلسفة ودرس بشكل خاص جان جاك رُوسُّو الذي ترك أثراً عميقاً في شخصيته.



سافر بوليفار في مطلع شبابه إلى فرنسا حيث التقى بالعالم الألماني اسكندر هومبولت الذي نقل له اعتقاده بأن المستعمرات الأسبانية في حالة استعداد للتحرر، فراقت الفكرة لبوليفار وأخذ يمعن النظر في تحرير بلاده.

في العام ١٨٠٧، عاد بوليفار إلى فنزويلا حيث اشترك في اجتماعات وطنية عدة للتخطيط للتخلص من الاستعمار الأسباني الذي كان يحتل ويحكم بلاده. واستطاع في ١٩ أبريل عام ١٨١٠ الإطاحة بالحاكم الأسباني فنسينت دي امبران وإقامة حكم عسكري.

في العام ١٨١١ أعلن المجلس الوطني استقلال فنزويلا فانخرط بوليفار في الجيش تحت قيادة فرانسيسكو ميراندا وأصبح عقيداً ثم عميداً. إلا أن اسبانيا لم تعتبر نفسها مهزومة فقامت بهجوم مضاد على فنزويلا مما دفع ميراندا إلى توقيع الهدنة معها عام ١٨١٢، وغادر بوليفار إلى كارتاجينا في غرناطة الجديدة التي أصبحت في ما بعد كولومبيا.

ومن هناك أكد أن انقسام شعب فنزويلا هو الذي أعادها إلى العبودية، فتجاوب معه شعب غرناطة وتم تعيينه قائداً لحملة هدفها تحرير فنزويلا. في العام ١٨١٣ اشتبك مع الأسبان في ست معارك ودخل منتصراً إلى كاراكاس بصفته منقذاً للبلاد.

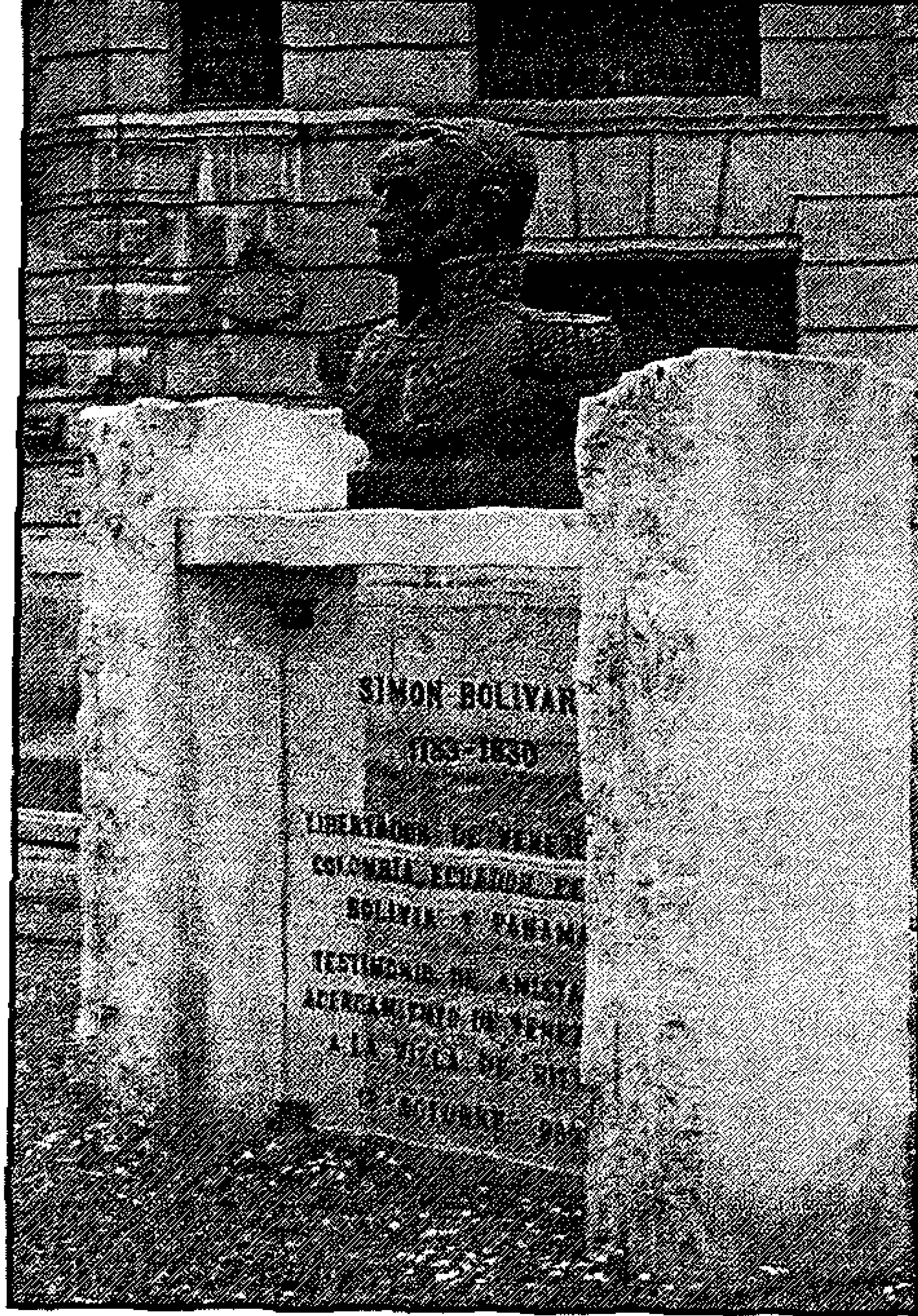
وحصل من جراء ذلك على لقب "المحرر" واستولى على الحكم، إلا أنه أسس حكماً ديكتاتوريا قويا وأنزل أحكاماً قاسية بمعارضيه ما أدى إلى اندلاع حرب أهلية، فاستغلت اسبانيا الوضع واعادت احتلال كاراكاس، في حين غادر بوليفار فنزويلا والتجأ إلى كارتاجينا.

واصل بوليفار ثورته وأقام اتصالات مع ثوار السهول الذين انضموا اليه، وفي ربيع ١٨١٩ قاد حملة لضرب القوات الأسبانية في غرناطة الجديدة.

ويعتبر هذا الهجوم من أكثر الحملات جرأة في تاريخ الحملات العسكرية إذ قام به جيش صغير (٢٥٠٠ رجل) سلكوا طريقاً صغيراً في جو ممطر، وقطعوا بحيرات وجبالاً، كان الأسبان يعتبرون المرور فيها متعذراً وحتى مستحيلاً.

بعد استسلام القوات الملكية لبوليفار، تم اعلان جمهورية كولومبيا الكبرى وانتخابه رئيساً ودكتاتوراً عسكريا.

لكن هذه الدولة الفدرالية التي ضمت فنزويلا وكيتو (الأكوادور) وغرناطة الجديدة، كانت حبراً على ورق، لأن فنزويلا وكيتو كانتا لا تزالان تحت سيطرة اسبانيا. وشعر بوليفار أن الثورة في أميركا الجنوبية أصبحت حتمية، فعاد لمجابهة القوات الملكية وحرر كاراكاس في يونيو ١٨٢١، والأكوادور في مايو ١٨٢٢.



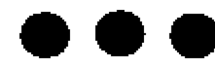
تمثال سيمون بوليفار تجده بكل مدن أمريكا الجنوبية تقريبا.

وبذلك تم تحرير جمهورية كولومبيا بأسرها. ولم يبق بأيدي المستعمرين سوى البيرو التي تمكن بوليفار من تحريرها في ديسمبر ١٩٢٤ باستثناء القسم الأعلى منها الذي حرره مساعده بعد عام فقط. واتخذت هذه المنطقة اسم بوليفيا تيمناً ببوليفار.

في العام ١٨٢٦ أقام القائد المنتصر حلفاً يضم دول أميركا الأسبانية. ووُقعت إثر ذلك معاهدات بين كولومبيا والبيرو وأميركا الوسطى والمكسيك التي اتخذت قراراً في ما بينها بإنشاء جيش وأسطول مشتركين، وتعهدت بأن تحل جميع مشاكلها بالتحكيم.

في مطلع العام ١٨٢٧، دبّ الخلاف بين غرناطة الجديدة وفنزويلا فأصلح بوليفار الوضع، إلا أن الأخيرة ما لبثت أن انفصلت عن كولومبيا في شتاء ١٨٢٩، فأصيب بوليفار باليأس وغادر البلاد بناءً على دعوة أحد الإسبان المعجبين به.

ومن المفارقات العجيبة أن تنتهي حياته في بيت أسباني في يناير عام ١٨٣٠.وكما قلنا يعتبر بوليفار من أشهر رجالات أميركا الجنوبية السياسيين والثوريين العسكريين في القرن التاسع عشر، إن لم يكن أشهرهم على الإطلاق.



٣٤

معركة جليقية ..
المنصور الذي أهمله التاريخ !!





سيظل تاريخ الأندلس معيناً لا ينضب وواديًا لا يجدب من كثرة ما فيه من الدروس والعبر والأخبار الطوال ودولة الإسلام في الأندلس لهي أطول دول الإسلام مدة فقد استمرت طيلة ثمانية قرون خلالها برز العديد من الرجال والأبطال والقادة الذين كانوا وقتها ملء السمع والبصر وظلت أخبارهم تتردد في جنبات الأندلس لعصور متعاقبة ولكنهم وللأسف طوت أخبارهم وإنجازاتهم غير المسبوقة في خدمة الإسلام من ذاكرة المسلمين الآن ووجب علينا أن ننفض عنها الغبار الآن.

من هؤلاء الأبطال المنصور وهومحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي عمار المعافري جده من الداخلين الفاتحين الأوائل وكان من الأبطال الشجعان فنزلت أسرة بني عامر بالجزيرة الخضراء وأسرة بني عامر من أعرق الأصول العربية، ونشأ محمد في بيت علم ودين فأبوه عبد الله كان من أهل العلم والتقى عالماً بالحديث والعلوم الشرعية الأخرى وتأثر محمد بذالك فطلب العلم من صغره وانتقل إلي قرطبة وهو حدث ودرس على علمائها الكبار الأدب والشريعة ومنهم أبو على القالي وابن القوطية وأبو بكر بن معاوية القريشي، أما عن صفاته فقد كان ذكيا طموحاً قوي العزم متعدد المواهب سخي اليد كريم النفس ولكن أبرز ما يميزه حتى صار قدوة هائلة في هذا الباب هو همته العالية التي تناطح السحاب طولاً وتملأ الأرض عرضاً فلم يعلم من قادة المسلمين ونبلائهم من هو أشد منة همة وطموحاً إلا ما كان من رجال القرن الأول رضي الله عنهم وأرضاهم.

المتأمل لترقي المنصور بن عامر في سلك القيادة والمناصب يرى عجب العجاب فالمنصور أول ما قام به وهو شاب صغير أن افتتح مكتباً بجوار قصر الخلافة لكتابة الشكاوى المرفوعة للخليفة الأموي وذلك للإنفاق على تعليمه بقرطبة وهذا العمل الصغير مكنه من الاتصال بأهل القصر من الخدم والحراس وغيرهم والذي نقلوا أخباره إلى سادة القصر خاصة السيدة " صبح " أم ولي العهد و " هشام المؤيد " فعهدت إليه بعدة وظائف كتابية، وهذا مهد إليه السبيل لأن يتصل بالخليفة الحكم بن عبد الرحمن الذي أسند إليه مهمة الإشراف على أملاك ولي العهد " هشام " ثم إدارة الخزانة العامة ودار المواريث وغيرها من المناصب العامة لما رأى من عزمه وطموحه وتفانيه في العمل، وكان عمر المنصور وقتها لم يتجاوز السابعة والعشرين فلقب بفتي الدولة وذلك بفضل مواهبه وإمكاناته الباهرة .

ظل المنصور مضطلعاً بالمناصب الهامة والأعمال الجسيمة في الدولة وهو محط أنظار الجميع لرفيع خلاله وجميل صفاته والقلوب حوله مؤتلفة ولكنة قام بعمل كان هو الأعظم في هذه المرحلة من حياته حيث استطاع بقوة عزمه وسرعة تصرفه أن يقضي على مؤامرة دبرت من جانب بعض الصقالبة الموالي بالتعاون مع بعض الأمويين؛ وكانت تهدف تلك المؤامرة إلى قتل الخليفة الجديد (هشام المؤيد) وتعيين عمه المغيرة وذلك سنة ٣٦٦هـ فحفظ بذلك دولة الخلافة من السقوط في دائرة الصراعات الداخلية التي عادة تعصف بأساس أي ملك ثابت مهما كانت قوته وثباته .

ارتفعت مكانة المنصور بن عامر في الأندلس بعد دوره الرائع في إنقاذ الخلافة من هوة الصراعات والخلافات الداخلية فقام الخليفة هشام المؤيد بتعيينه وزيراً للدولة الأندلسية وأصبحت مسئوليات المنصور بن أبى عامر أعظم مما سبق بكثير وهذا جعله يفكر مليا في وضع الأندلس ويحاول خدمة دولة الإسلام بها **وذلك بعد أن اتضح له عدة أمور منها :-**

أولاً :- ضعف شخصية الخليفة الجديد"هشام المؤيد" وعدم صلاحيته لهذا المنصب الخطير خاصة أنه صغير السن مشتغل باللهو واللعب مع أقرانه.

ثانياً :- زيادة الأخطار المحدقة بالمسلمين والآتية من ناحية الشمال حيث أسبانيا النصرانية خاصة بعد أن تنفسوا الصعداء بموت الخليفة القوى عبد الرحمن الناصر الذي خضد شوكتهم سنوات طويلة .

ثالثاً :- ظهور بوادر لانقسامات داخلية خطيرة في دولة الإسلام بالأندلس؛ وذلك لزيادة العصبيات القبلية وكثرة الطامعين من ولاة الأقاليم المترامية في الانعزال والاستقلال عن جسد الدولة الأم .



تمثال للمنصور بن أبى عامر فى أسبانيا

رابعاً: - فساد بعض رجال الحكم والوزارة أمثال جعفر المصحفي وولده محمد الذي كان يتولى رئاسة الشرطة وفي عهدهما انتشر الفساد والفسق واختل الأمن واضطربت الأمور.

خامساً: - زيادة نفوذ الصقالبة الموالي وهم في الأصل عبيد عند الخليفة الناصر اشتراهم واصطفاهم في الحراسة والجند والجيش وترقوا حتى صاروا قوة كبيرة يخشى بأسها وقد زاد نفوذها داخل قصر الخلافة حتى إنهم هموا بالانقلاب على الخليفة المؤيد عدة مرات.

كل هذه الأسباب دفعت المنصور أبي عامر لأن يمعن التفكير والترتيب في كيفية مواجهة كل هذه الأخطار المحدقة وفي النهاية قرر أن يتحرك وبسرعة لمواجهة هذه الظروف العسيرة وأن يأخذ زمام المبادرة بنفسه **فقام بالخطوات الآتية:**

١- قام بحجز الخليفة الصوري الصبي هشام المؤيد بقصره واستقل هو بتدبير الأمور وتولى لقب الحجابة- تلقب بالحاجب المنصور- وهذه الخطوة وإن كانت سبب نقمة كثير من الناس على المنصور إلا أنها في واقع الأمر كانت أهم خطوة لأن غياب القائد الموجه والرأس المدبر يجعل كل الجهود تذهب هباءً منثورًا وسنرى أن المنصور لم يستخدم سلطانه إلا لخدمة الإسلام.

٢- بعد أن أصبح المنصور هو الحاكم الحقيقي للأندلس قام بعزل الوزير جعفر المصحفي وولده محمد وحاسبهما على أموالهما الطائلة من أين جاءت وكيف تضخمت؟ وأسفر التحقيق عن كثير من الانحرافات لدى الوزير المصحفي الذي زج بالسجن وقضى فيه نحبه وانتهى عصر الفساد معه.

٣- أما الصقالبة الأشداء فقد شعروا بأن المنصور يعمل على سحق نفوذهم فقرروا القيام بمبادرة وانقلاب سريع واجتمعوا على قائد لهم اسمه درسي ولكن منصور اليقظ كان أسرع منهم فقبض على قادة التمرد وحاكمهم بشدة وفرق شملهم ووزعهم على الأقاليم حتى لا يعودوا للتجمع والتذمر.

٤- أما الطامعون من رجال الدولة وولاة الأقاليم البعيدة والعصبيات العربية القديمة والموروثة منذ أيام الفتح الأول إضافة إلى التهديد الخارجي المتمثل في أسبانيا النصرانية المتربصة والتي قامت بالفعل بالهجوم على ديار المسلمين وذلك في شهر رجب ٣٦٦هـ كلا الخطرين رأى المنصور أن يواجههم بأفضل الأساليب على الإطلاق وهو شرارة الحملات الجهادية وبذلك يرد عادية الصليبيين وفي نفس الوقت يشغل هؤلاء الطامعين من الولاة بقضية إسلامية ويوجه طاقتهم لحرب أعداء الإسلام وكانت هذه الحملات هي أنجح الحملات الجهادية التي قام بها مسلمو الأندلس ضد أسبانيا الصليبية طوال عمر دولة الإسلام في الأندلس على طول عمرها ثمانية قرون.

منذ أن أطلق "المنصور بن عامر" شرارة الحملات الجهادية ضد أسبانيا سرت روح جديدة في قلوب المسلمين واشتعلت الحمية في قلوبهم فتقاطر المجاهدون المتطوعون على الأندلس من كل مكان، وخاض "المنصور" أكثر من خمسين معركة ضد الصليبيين انتصر فيها جميعًا ولم تنكس له راية أبدًا حتى سرى الاعتقاد بين كل الناس مسلمهم وكافرهم بأن "المنصور" مؤيد من السماء، والحق أن "المنصور" قد اعتمد في سياسته الجهادية على أسلوب الغزوات المستمرة المتعاقبة والذي كان يرمي من خلاله إلى غاية بعيدة المدى لم يفكر فيها أحد من قبله من أمراء الأندلس أو لم يقدروا عليها وهي سحق الممالك الأسبانية الصليبية سحقًا تامًا وأن يفكك عراها التي بدأت في الالتحام والترابط وبالتالي يجعل أسبانيا النصرانية كلها أرضا مسلمة وكانت معظم حروب المسلمين من قبل "المنصور" للدفاع ورد عادية النصارى فلما جاء عهد "المنصور" كان هو البادئ بالغزو دائمًا ولم يقبل من النصارى قط صلحًا أو مهادنة ولم يقنع إلا بالنصر الكامل لذلك فهو أحق الناس بوصف "المنتصر دائمًا" وبالقطع بعد خالد بن الوليد رضي الله عنه وجيل الصحابة الأفذاذ، **ومن أشهر معارك المنصور ضد الصليبيين ما يلي:**

- معركة شنت منكس:

وكانت سنة ٣٧١هـ وفيها واجه "المنصور" تحالفا صليبيا مكونًا من أقوى أمراء الأسبان وهم" راميرو الثالث "أمير "ليون" وجرسيا فرنانديز أمير قشتالة وسانشو

أمير نافار وانتصر المسلمون على النصارى الذين قتل منهم عشرات الألوف وتفككت عرى التحالف الصليبي الوليد.

- معركة برشلونة:

وهي من أعظم ثغور أسبانيا وقد فتحها المسلمون الأوائل مع بداية الفتح الأول ولتثبت مع المسلمين قرنًا من الزمان ولكنها سقطت سنة ١٨٥هـ وأصبحت شوكة في جسد الأمة المسلمة بالأندلس حتى جاء المنصور في سنة ٣٧٥هـ واقتحمها بجيوشه الجرارة بعد معركة طاحنة مع أهل المدينة الذين قتل معظمهم ودحر المسلمون المدينة تمامًا وأسر أمير برشلونة وظل في السجن حتى مات ودمر المنصور قوى النصارى تمامًا في هذا الطرف النائي من شبه الجزيرة الأسبانية.

- معركة جليقية:

وهي أعظم المعارك على الإطلاق وتقع "جليقية" في أقصى غرب أسبانيا وتوجد بها مدينة "شنت ياقب" الدينية كعبة أسبانيا النصرانية ومزارها المقدس ورمز زعامتها الروحية وبها قبر القديس "يعقوب" بزعمهم ويقام له سنويًا احتفالاً ضخمًا مثل الموالد المعروفة يفد إليه النصارى من كل حدب وصوب من داخل أسبانيا، وقد قصدها بجيشه الجرار لأمرين أولهما: أنها كانت ملجأ لملوك وأمراء ليون الخارجين على طاعة المنصور، ثانيهما: ضرب إسبانيا النصرانية في صميم معقلها القاصي وصميم زعامتها الروحية وبالفعل بعد معركة طاحنة ورحلة شاقة عبر مفاوز الجبال الوعرة وفي ٢شعبان ٣٨٧هـ اقتحم المسلمون المدينة وخربوها تمامًا مع عدم المساس بقبر يعقوب القديس وأخذ المنصور نواقيس الكنيسة العظمى وحملها الأسرى على كواهلهم حتى قرطبة وعلقت رؤوسًا للثريات الكبرى لمسجد قرطبة.

- معركة صخرة جربيرة: وكانت في ٢٤ شعبان ٣٩٠هـ وفيها تحالفت كل قوى النصرانية من أجل الصمود في وجه المسلمين والتقى الفريقان عند مكان شديد الوعورة يسمى بصخرة جربيرة وكاد المنصور أن يهزم لأول مرة في معاركه ولكن بسالة المسلمين وشدة بأسهم في القتال أنهت المعركة بهزيمة مروعة للتحالف النصراني وقتل معظم قادة الصليبيين وواصل المنصور سيره حتى فتح مدينة برغش عاصمة قشتالة.

إن من عاش على شيء وداوم عليه فلابد أن يموت عليه و"المنصور" قضى حياته كلها في الجهاد في سبيل الله فلابد أن يموت مجاهدًا وقد كانت تلك أسمى أمانيه حتى إنه كان يحمل أكفانه حيثما سار إلى غزوة وهي أكفان صنعت من غزل بناته واشتريت من خالص ماله الموروث وقد استجاب الله دعاءه فوافته المنية في ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢هـ بمدينة "سالم" ودفن بها بعد أن دفن معه غبار كل معاركه التي خاضها في سبيل الله وكان يحتفظ بها طوال رحلته الجهادية الطويلة لأعدائها وتحقيقه أمنها ورخاءها ولم يستخدم قط سلطانه إلا لخير الإسلام وخير الأمة، وقد كتب هذان البيتان من الشعر على شاهد قبره :

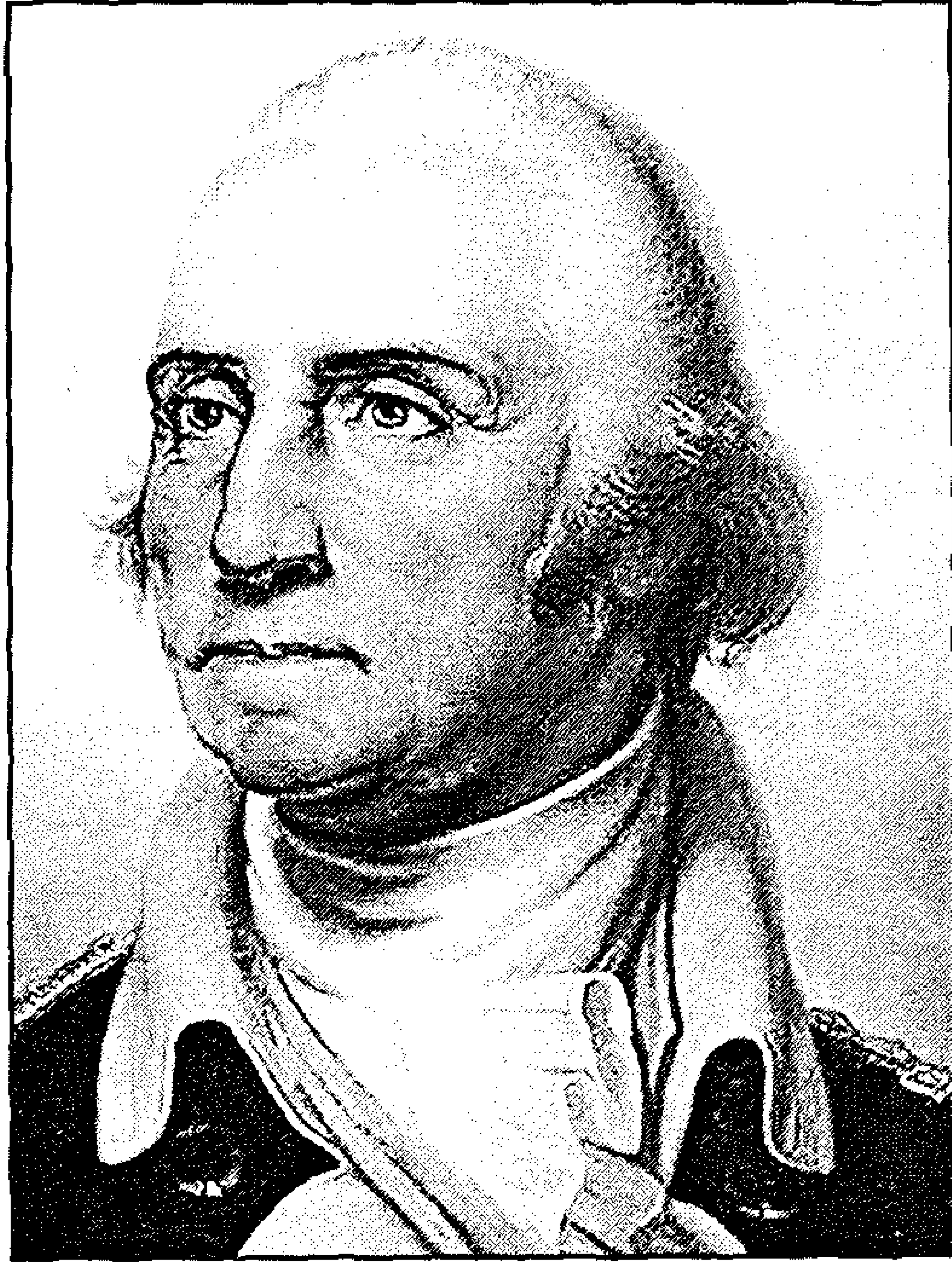
آثاره تنبيك عن أخباره   حتى كأنك بالعيان تراه



٣٥

معارك ساراتوجا ..
وسر عظمة جورج واشنطون !!





كانت المستعمرات الأمريكية الثلاث عشرة الواقعة على المحيط الأطلسي تابعة للنظام الإنكليزي خلال القرن الثامن عشر و قد استوطنها مهاجرون من أوروبا (إنجليز ، فرنسيون ، هولنديون ...) رأوا من حقهم الانفصال عن الإنكليز و تسيير أمورهم بأنفسهم .

كانت الولايات الأمريكية الثلاث عشرة هي النواة الأولى لتكوين الولايات المتحدة الأمريكية .

وقد ساهمت حركة الهجرة من أوروبا إلى هذه المستعمرات في ارتفاع عدد السكان.

مارس الإنجليز سياسة احتكارية في التجارة مع السكان لترويج بضائعهم .

وفرضت ضرائب مرتفعة على السكان .

حقق المستعمرون الجدد رغم اختلاف مصادرهم اندماجا اجتماعيا و توحدا على مستوى اللغة المستعملة و هي الإنكليزية .

تمتع سكان البلاد بالوعي الاجتماعي والثقافي متأثرين برواد حركة التنوير الأمريكية وقد مكنهم ذلك من المطالبة بحقوقهم (المساواة ، الحرية ، السعادة) ورفض ضرائب القوانين الجائرة والتي أصدرتها الحكومة الإنكليزية .

رفض سكان المستعمرات دفع الضرائب بحجة عدم تمثيلهم في البرلمان البريطاني وهو نزاع يهم الدستور .

وقام الأمريكيون بإتلاف حمولة باخرة شاي و هو ما جعل الوضع يتطور إلى مقاطعة اقتصادية برفض استهلاك البضائع الإنكليزية .

وأدى ذلك إلى تراجع الحكومة الإنكليزية عن الترفيع في الضرائب الجائرة التي تراجعت إلى النصف .

اندلعت حرب الإستقلال سنة ١٧٧٥ م و قاد جيش المتطوعين جورج واشنطُن بدعم من الجيش الفرنسي الذي قاده الجنرال لافيات و أعلن استقلالها في ٤ يوليو ١٧٧٦ من قبل ممثلي الولايات المتحدة الأمريكية خلال مؤتمر فيلادلفيا الثالث .



جورج واشنطون القائد بلباسه العسكري .

وبمقتضى معاهدة فرساي بباريس سنة ١٧٨٣ تم الإعلان رسميا عن استقلال الولايات المتحدة الأمريكية من قبل إنكلترا .

وتبدأ القصة عندما احتاج جيش المستعمرات (التي شكلت فيما بعد الولايات المتحدة الأمريكية) إلى قائد محنك مثل جورج واشنطن ليقودها إلى الاستقلال عن بريطانيا . وبعد أن تم اختياره بالإجماع في ١٥ يونيو١٧٧٥،نجح جورج واشنطن في أوج انتصاراته العسكرية في إجلاء القوات البريطانية من بوسطن في ١٧ مارس ١٧٧٦، ثم رجع بعد ذلك إلي نيويورك تحسبا" لهجوم وشيك من القوات البريطانية، وبالفعل تم الهجوم في شهر أغسطس فتقهقر واشنطن وقواته إلي نيوجيرسى وأصبح مصير الثورة مغلفا" بالشك وفي ليلة الخامس والعشرين من ديسمبر ١٧٧٦ نفض واشنطن غبار الهزيمة وقام هو وقواته بعبور نهر ديلاوير ليسحق البريطانيين والقوات المرتزقة الألمانية في نيو جيرسي.

وتلا ذلك عدة هجمات مباغتة لقوات الجنرال البريطاني كورن والس Charles Cornwallis الرابضة في مدينة برنستون Princeton مما أدى إلى ارتفاع الروح

المعنوية للثوار الأمريكيين، وفي صيف ١٧٧٧ قام البريطانيون بهجمتين مزدوجتين فهزمت قوات جورج واشنطن في معركة براندي وين Brandywine يوم الحادي عشر من سبتمبر عام ١٧٧٧، وفي ظل الشتاء القارص أصيب العديد من الجنود الأمريكيين بمرض الجدري ولكن ظل جورج واشنطن صامدا" وطلب المدد من كونغرس المستعمرات، ثم نجح بعد ذلك في إنزال هزيمة ساحقة بالقوات البريطانية في معركة مونموث Monmouth في ٢٨ يونيو ١٧٧٨، واستمرت المعارك حتى عام ١٧٨١ الذي حاصر فيه واشنطن القوات البريطانية في نيويورك حتى تم التصديق على معاهدة السلام بين بريطانيا و أمريكا سنة ١٧٨٣.

معارك الاستقلال هذه أُطلِق عليها اسم " معارك ساراتوجا " .. وهي سلسلة معارك حدثت في عام ١٧٧٧ أثناء حرب الاستقلال الأمريكية بين الثوار الأمريكيين والجيش الإنجليزي وكانت نقطة التحول في تاريخ الولايات المتحدة فهي التي هيأت الاستقلال للولايات المتحدة فكانت أهم نتائجها أنهارفعت الروح المعنوية للثوار الأمريكيين وشجعتهم على التقدم وطلب الاستقلال. وفقد جيش الملك ربع جنوده الأكفاء وأنهت فرنسا ترددها ووقعت معاهدة التحالف مع الثوار الأمريكيين للنيل من عدوها اللدود إنجلترا وانتقاما من هزيمتها في حرب السنين السبع.

وأصبح حوض هدسن تحت السيطرة الأمريكية.

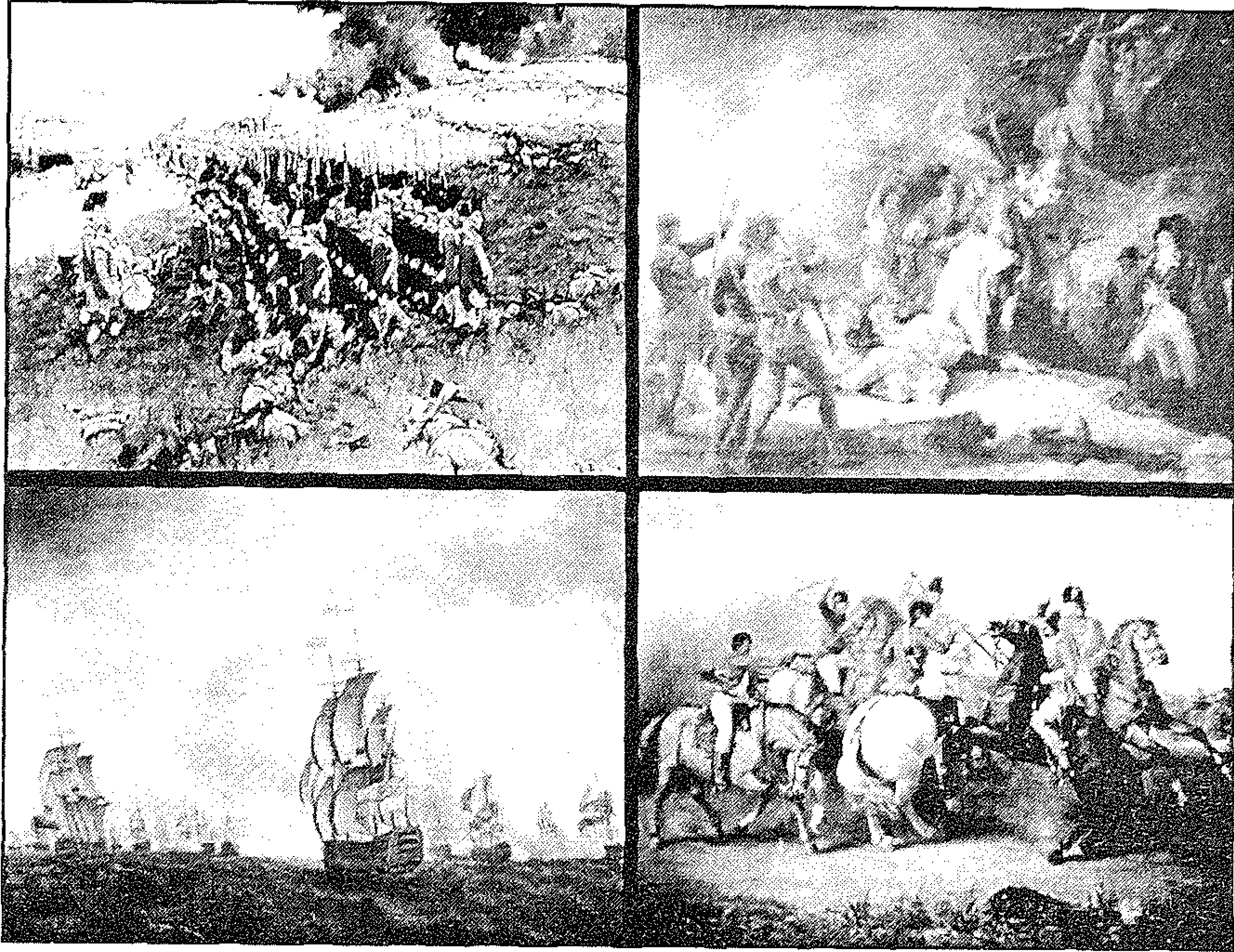
وترتبط معارك ساراتوجا ارتباطا وثيقا بالثورة الأمريكية أو حرب الاستقلال عن المستعمرين البريطانيين .

والثورة الأمريكية (١٧٧٥ - ١٧٨٣م). هي الثورة التي قامت ضد بريطانيا، وأدت إلى ميلاد دولة جديدة باسم الولايات المتحدة. كانت الثورة أو الحرب الثورية قد اندلعت بين بريطانيا والولايات الثلاث عشرة الممتدة على الساحل الأطلسي في أمريكا الشمالية.

بدأت الحرب في ١٩ أبريل ١٧٧٥م عندما اصطدم البريطانيون بالثوار الأمريكيين في مدينتي لكسنجتون وكونكورد في ماساشوسيتس، واستمرت ثماني سنوات وانتهت في ٣ سبتمبر ١٧٨٣م، عند توقيع معاهدة باريس بين بريطانيا والولايات المتحدة التي اعترفت فيها بريطانيا باستقلال الولايات المتحدة.

وقد بدأ الأمر بمذبحة بوسطن حدثت في ٥ مارس عام ١٧٧٠م، عندما أطلق جنود بريطانيون النار على بعض الأمريكيين وقتلوا خمسة منهم. هذه الدعاية الوطنية التي قام بحفرها الفنان بول ريفير لإثبات الحدث، سماها مذبحة بوسطن لتحريض المستوطنين ضد الحكم البريطاني.

أما أسباب الحرب وخلفياتها فكان النفوذ البريطاني في أمريكا الشمالية في أوجه قبل الثورة الأمريكية بسنوات قليلة. فقد تغلبت بريطانيا في حربها مع الفرنسيين والهنود، وكانت المعاهدة التي أنهت الحرب قد ضمنت لبريطانيا معظم الأراضي التي كانت بيد الفرنسيين في أمريكا الشمالية التي كانت تمتد من جبال الأبلاش في الشرق إلى نهر المسيسيبي، ومن ضمنها رقعة واسعة في كندا. كان معظم أهل المستعمرات الأمريكيين يفخرون بانتمائهم إلى الإمبراطورية البريطانية، في وقت كانت تُعتبر فيه أقوى الإمبراطوريات في العالم.



لوحات بالمتحف الوطني الأمريكي تصور جانبا من معارك ساراتوجا التي خاضها جورج واشنطون.

كان من حق المستعمرات أن تنتخب ممثليها لجمعية تشريعية تقوم بسن القوانين وفرض الضرائب، ولكن حاكم المستعمرة كان له حق نقض أي من تلك القوانين. وكانت بريطانيا تأمل من المستعمرات الأمريكية أن تخدم مصالحها الاقتصادية وقد رضيت المستعمرات بذلك بصورة عامة. والمثال على ذلك أنها امتنعت عن صنع المواد والسلع المنافسة لمثيلاتها البريطانية.

وبدأت بريطانيا بتغيير سياستها بعد الحرب الفرنسية والهندية، وذلك بتشديد قبضتها على مستعمراتها الشاسعة في أمريكا، فصوت برلمانها على وجود جيش مرابط في أمريكا الشمالية. وصدر قانون يلزم المستعمرات بأن تؤمن لذلك الجيش الثكنات والتجهيزات كما صدر قرار بتخصيص أراضٍ واقعة غرب جبال الأبلاش لإسكان الهنود، ومنع البيض من إنشاء مستوطنات لهم في تلك الأراضي، وتعيين الحراس لإبعاد المستوطنين عنها. لقد اغتاظ المستوطنون من هذا القرار قائلين بأنه لا يحق لبريطانيا أن تمنعهم من الاستيطان، كما أن الكثيرين منهم كانوا يطمعون في تحقيق أرباح لهم في شراء الأراضي في الغرب.



ملابس الجنود في معارك ساراتوجا .

رأت بريطانيا ضرورة مشاركة أهل المستعمرات في تحمل نفقات جيوشها في أمريكا، فأصدرت في سنة ١٧٦٥م قانونًا عرف بقانون الطابع، بموجبه تُدفع رسوم على الصحف وورق اللعب والشهادات العلمية والعديد من المستندات الرسمية على غرار ما كان معمولاً به في بريطانيا.

اندلعت أعمال الشغب في المستعمرات احتجاجًا على هذا القانون، ورفض الناس السماح ببيع تلك الطوابع متعللين بأنه لا يحق لمجلس البرلمان البريطاني أن يفرض ضرائب على المستعمرات، لاعتقادهم بأن ذلك هو من حق هيئتهم التشريعية التي انتخبوها. وقرر التجار في جميع الموانئ أنهم سيقاطعون البضائع البريطانية مالم يقم مجلس البرلمان بإلغاء ذلك القانون. وقد ألغى مجلس البرلمان قانون رسم الطابع في السنة التالية مصدرًا قرارًا آخر يجعل للملك والبرلمان الحق التشريعي في إصدار القوانين الخاصة بالمستعمرات في كل المسائل.

وأصدر البرلمان البريطاني بعد ذلك قانوني تاونزهند، نسبة إلى وزير الخزانة آنذاك، فَرَض أحدهما ضريبة على الرصاص والأصباغ والورق والشاي كما فرض الآخر إنشاء مكتب للجمارك لجمع الضرائب في بوسطن. وتسبب القراران في تجدد الاحتجاجات التي ألغيت على أثرها تلك الضرائب باستثناء الضريبة المفروضة على الشاي. وخرجت المظاهرات ضد الضريبة مرة أخرى ولاسيما في مدينة بوسطن، فتصدى الجنود البريطانيون للمتظاهرين وقتلوا منهم خمسة أشخاص. وقد سمى الأمريكيون هذا الهجوم مذبحة بوسطن.

وبدأ الأمريكيون يُهرِّبون الشاي من هولندا لتلافي دفع ضريبته، وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية الممولة للشاي إلى المستعمرات، قد أصيبت بأضرار بسبب المقاطعة والتمست المساعدة من البرلمان، فقرر تخفيض الرسوم فاستطاعت الشركة أن تخفض سعر الشاي إلى مستوى أدنى من سعر الشاي المهرَّب، غير أن المستوطنين استمروا في المقاطعة، ورفض التجار بيعه وقام عدد من أهالي بوسطن متنكرين في أزياء هندية بالهجوم على السفن المحملة بالشاي في الميناء، وألقوا بشحناتها في الماء. وعرفت هذه العملية ببوسطن تي بارتي.

غاظ ذلك الملك جورج ووزراءه فأصدروا عددًا من القوانين في ١٧٧٤م سماها الأمريكيون القوانين غير المحتملة، من بينها قانون يأمر بإقفال ميناء بوسطن إلى أن يدفع الأهالي قيمة الشاي الذي أتلفوه، وقانون آخر أوقف فعاليات الهيئة التشريعية في ماساشوسيتس وتوسيع صلاحيات حاكمها البريطاني.

عقد الكونجرس القاري الأول اجتماعًا في فيلادلفيا من ٥ سبتمبر إلى ٢٦ أكتوبر ١٧٧٤م وصوت لصالح قطع العلاقات التجارية مع بريطانيا ما لم تقم بإبطال القوانين القسرية، كما وافق على اقتراح بقيام المستعمرات بتدريب رجالها على فنون الحرب. ولم يتطرق أي من الوفود إلى موضوع الاستقلال و لكن استسلام البريطانيين في ساراتوجا في ١٧ أكتوبر ١٧٧٧ أصبح نقطة تحول في مسار الحرب وجاء الاستقلال بالتبعية وكان بطل هذه المعارك و حرب الاستقلال هو جورج واشنطون .

جورج واشنطون ولد لأسرة تمتهن الزراعة كغالبية الشعب الأمريكي في تلك الحقبة. وبعد انتهائه من تعليمه التحق عام ١٧٥٤ بجيش القارة الذي قاد ثورة التحرير، ثم اختير عام ١٧٧٥ م قائداً لهذا الجيش ليخوض به حروبا عنيفة انتهت بعد ست سنوات. كما شارك فيما يعرف بالحرب الفرنسية الهندية. كان ناجحاً جدّاً في عمله الذي كان القائد الأعلى في الجيشِ القاري في الحرب الثورية الأمريكية من ١٧٧٥ إلى ١٧٨٣ ولاحقاً كان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . معظم الأقاويل والكتب تقول إنه انتخب مرتين في ١٧٨٩ وفي ١٧٩٧ . يقول المؤرخون أنه عمل أولاً كضابط أثناء الحرب الفرنسية الهندية و ثانياً كزعيم المقاومة الشعبية الاستعمارية التي تدعم الإمبراطورية البريطانية .بعد قيادة النصر الأمريكي في الحرب الثورية، رفض قيادة النظام العسكري (مع هذا دفعه البعض لعمل ذلك) عاد إلى الحياة المدنية في جبل فيرنون. في ١٧٨٧ ترأس الاتفاقية الدستوريةَ التي صاغت الدستور الأمريكي الحالي، وفي ١٧٨٩، اختارت الانتخابات واشنطون كأول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية ، لقد وضع واشنطون الكثير من السياساتِ والتقاليد التي هي حتى الآن موجودة ،بسبب دورته المركزية في تأسيس الولايات المتحدة، مدينة واشنطن تطلق عليه في أغلب الأحيان اسم (أبّ البلاد). العلماء يصنفونه مع أبراهام لينكون بين الأعظم الرؤساء الأمريكيين. اعتمد سياسة التحرش ببريطانيا وعدم خوض مواجهات كبيرة ومباشرة، كما استعان بفرنسا لطرد الإنجليز من كورنوليز في مدينة يورك.

استمر في جهوده الرامية إلى إقرار النظام الفدرالي بين الولايات الأمريكية حتى تكللت في النهاية بعقد مؤتمر دستوري في فيلادلفيا عام ١٧٨٧. وبعد إقرار الدستور في مؤتمر فيلادلفيا انتخبته الهيئة الانتخابية بالإجماع رئيساً للولايات المتحدة ليبدأ حكم دولة مقدر لها أن تكون أكبر قوة في العالم. أدى أول قسم دستوري في تاريخ الولايات المتحدة في شرفة مبنى مجلس الشيوخ يوم ٣٠ أبريل ١٧٨٩ ليحكم أميركا لفترتين متتاليتين من ١٧٨٩ – ١٧٩٧.

تميز باحترامه العميق لقرارات الكونغرس، إذ لم يسع لتجاوز صلاحيات الكونغرس الدستورية. وعمل على تحييد أمريكا وعدم إقحامها في الصراع الدائر بين بريطانيا وفرنسا، ورفض الأخذ بآراء العديد من وزرائه في التحيز لإحدى الدولتين. وقبل أن تنتهي السنة الثالثة من خروجه من الرئاسة أصيب بمرض توفي على إثره .

من أهم قراراته الرئاسية مرسوم مقر الحكومة الأمريكية عام ١٧٩٠ والذي ينص على تخصيص مقاطعة كولومبيا (القريبة من نهر بوتوماك Potomac) كمقر دائم للحكومة الأمريكية والتي سميت فيما بعد واشنطن دي سي لتصبح عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية.



٣٦

ألب أرسلان ..
بطل معركة ملاذ كرد





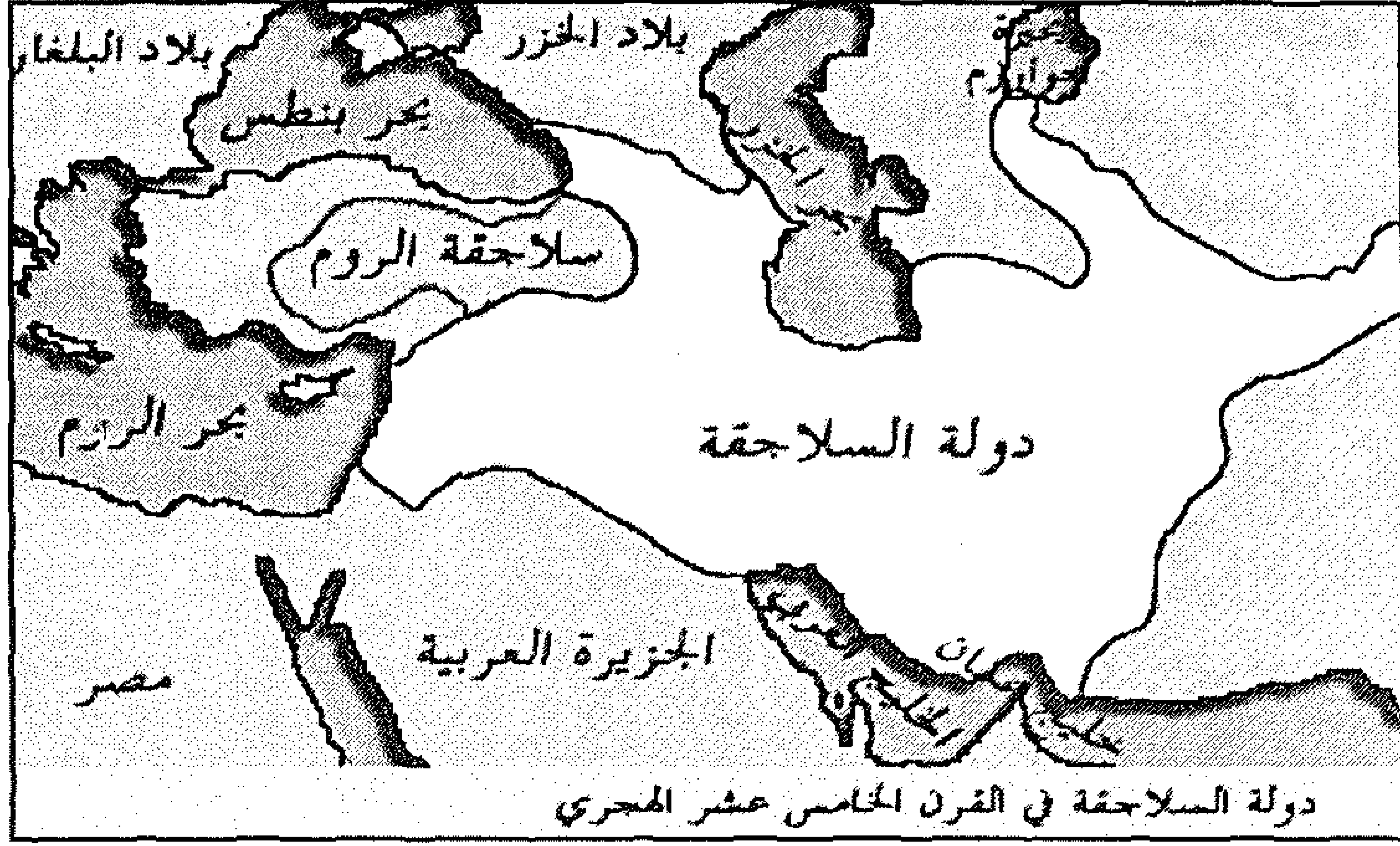
هو بطل معركة من معارك الإسلام الخالدة ، وتعتبر من المعارك الفاصلة في التاريخ. ويسميها البعض باسم الملحمة الكبرى ؛ لأنها تعد أكبر انتكاسة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، فقد أصبحت أراضيهم تحت رحمة السلاجقة، وهي امتداد للفتوحات الإسلامية الأولى فهي من أزهى الفتوحات الإسلامية على الروم البيزنطيين .

تبدأ قصة هذه المعركة عندما نجح السلاجقة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري في إقامة دولة قوية في خراسان وبلاد ما وراء النهر على حساب الدولة الغزنوية، وأن يعلنوا تبعيتهم للخلافة العباسية، ثم لم تلبث هذه الدولة أن اتسعت بسرعة هائلة؛ فسيطرت على إيران والعراق، وتوج "طغرل بك" إنجازاته العسكرية بدخول بغداد في (٢٥ من رمضان ٤٤٧هـ = ٢٣ ديسمبر ١٠٥٥م)، وبدأ عصر جديد للدولة العباسية، أطلق عليه المؤرخون عصر نفوذ السلاجقة؛ حيث كانت السلطة الفعلية في أيديهم، ولم يبقَ للخليفة سوى بعض المظاهر والرسوم.

ويُعَدُّ طغرل بك من كبار رجال التاريخ؛ فهو المؤسِّس الحقيقي لدولة السلاجقة، نشأت على يديه، ومدت سلطانها تحت بصره، وغدت أكبر قوة في العالم الإسلامي، ونفخت الرُّوح في جسد الدولة العباسية الواهن؛ فدبت فيه الحياة، بعد أن أوشكت على الموت، منذ أن أعلن "البساسيري" أحد قادة الجند تبعية بغداد للدولة الفاطمية في مصر، في سابقة لم تحدث في تاريخها.

تُوفِّيَ طغرل بك في سنة (٤٥٥هـ = ١٠٦٣م) دون أن يترك ولدًا يخلفه على سدة الحكم، فشب صراع على الحكم، حسمه ابن أخيه ألب أرسلان لصالحه بمعونة وزيره النابه نظام الملك، المعروف بالذكاء وقوة النفوذ، وسعة الحيلة، وتنوع الثقافة.

وكانت سوابق ألب أرسلان تزكِّي اختياره للحكم؛ فهو قائد ماهر، وفارس شجاع، نشأ في خراسان، حيث كان والده "جغري" حاكمًا عليها، وأُسندت إليه قيادة الجيوش في سن مبكرة، فأظهر شجاعة نادرة في كل المعارك التي خاض غمارها، وبعد وفاة أبيه تولى هو إمارة خراسان خلفًا له. ولم تسلم الفترة الأولى من عهده من الفتن والثورات، سواء من ولاته، أو من بعض أمراء البيت الحاكم؛ فقضى على فتنة ابن عم أبيه "شهاب الدولة قتلمش سنة (٤٥٦هـ الموافق ١٠٦٤م)، وكانت فتنة هائلة كادت تقضي على ألب أرسلان بعد أن استولى على "الري" عاصمة الدولة، وأعلن نفسه سلطانًا، وأحبط محاولة عمه "بيغو" للاستقلال بإقليم هراة سنة (٤٥٧ = ١٠٦٥م)، وبعد سنوات من العمل الجاد نجح ألب أرسلان في المحافظة على ممتلكات دولته، وتوسيع حدودها، ودانت له الأقاليم بالطاعة والولاء، وأُخمِدَت الفتنة والثورات، وتصاعد نفوذه، وقويت شوكته، حتى أصبحت دولته أكبر قوة في العالم الإسلامي في سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧٠م) مما شجَّعه على التفكير في تأمين حدود دولته من غارات الروم.



دولة السلاجقة في القرن الخامس عشر الهجري

اطمأن ألب أرسلان إلى جبهته الداخلية المستقرة؛ فبدأ يتطلع إلى ضم المناطق النصرانية المجاورة له؛ بهدف نشر الإسلام فيها؛ فأعد جيشًا بلغ أربعين ألف جندي لهذا الغرض، وتمكن به من فتح بلاد الأرمن، وجورجيا، والأجزاء المطلة على بلاد الروم، وكان لهذه الانتصارات أثرها؛ فتحرك قيصر الروم الذي أدرك أن بلاده معرضة للهجوم من ألب أرسلان، وأن القتال معه وشيك لا محالة؛ فخرج على رأس جيش كبير لمواجهة غزو السلاجقة لمتكلاته، وذلك في سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧٠)؛ لتطويق الجيش السلجوقي، واستولى على حلب، وكان حاكمها يتبع الخليفة الفاطمي في مصر.

فطن ألب أرسلان إلى محاولات القيصر؛ فبعث ابنه "ملكشاه" على رأس قوة من جيشه؛ لاسترداد حلب من الروم، وتأمين الحدود الشمالية لبلاد الشام؛ فنجح في مهمته، واستولى على حلب، وأصبحت تابعة للسلاجقة، وضم القدس أيضًا، وأجزاء من بلاد الشام.

لم يجد قيصر الروم بدًا من الهجوم على جيش ألب أرسلان بعد أن فشلت خطته في تطويق الجيش الإسلامي؛ فخرج بجيوشه الجرارة التي ضمت أخلاطًا من الروس والبلغاريين واليونانيين والفرنسيين إلى المنطقة التي يعسكر فيها جيش السلاجقة في "ملاذكرد"، وكان جيش ألب أرسلان صغيرًا إذا ما قُورِنَ بجيش القيصر، الذي يبلغ عدده مائتي ألف جندي، ويفوقه أسلحة وعتادًا.

أسرع ألب أرسلان بقواته الصغيرة، واصطدم بمقدمة الجيش الرومي الهائل، ونجح في تحقيق نصر خاطف، يحقق له التفاوض العادل مع القيصر؛ لأنه كان يدرك أن قواته الصغيرة لا قِبَل لها بمواجهة هذا الجيش العظيم، غير أن القيصر رفض دعوة ألب أرسلان إلى الصلح والهدنة، وأساء استقبال مبعوثه؛ فأيقن ألب أرسلان ألاَّ مفرَّ له من القتال، بعد أن فشلت الجهود السلمية في دفع الحرب؛ فعمد إلى جنوده يشعل في نفوسهم رُوح الجهاد، وحب الاستشهاد، والصبر عند اللقاء، ووقف الإمام "أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري" يشد من أزر السلطان، ويقول له: "إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره، وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح".

وحين دنت ساعة اللقاء صلَّى بهم الإمام أبو نصر البخاري، وبكى السلطان؛ فبكى الناس لبكائه، ودعا، ودعوا معه، ولبس البياض وتحنَّط وقال: "إن قُتلت فهذا كفني"، والتقى الفريقان، وحمل المسلمون على أعدائهم حملة صادقة، وأبلوا بلاءً حسنًا، وهجموا عليهم في جرأة وشجاعة، وأمعنوا فيهم قتلاً وتجريحًا، وما هي إلا ساعة من نهار حتى انكشف غبار المعركة عن جثث الروم تملأ ساحة القتال، ووقع قيصر الروم "رومانوس ديوجينس" أسيرًا في أيديهم، وحلَّت الهزيمة بهذا الجيش الجبَّار في (ذي القعدة ٤٦٣هـ = أغسطس ١٠٧١م).

افتدى الروم قيصرهم بفدية كبيرة قدرها مليون ونصف المليون من الدينارات، وعقدوا صلحًا مع السلاجقة مدته خمسون عامًا، وتعهدوا بدفع جزية سنوية طوال هذه المدة، واعترفوا بسيطرة السلاجقة على المناطق التي فتحوها من بلاد الروم، وتعهدوا بعدم الاعتداء على ممتلكات دولة السلاجقة.

وكان من نتائج هذا النصر العظيم أن تغيرت صورة الحياة والحضارة في هذه المنطقة؛ فاصطبغت بالصبغة الإسلامية بعد أن أشرقت عليها شمس الإسلام، ودخل سكانها في الإسلام، وتعلموا مبادئه وشرائعه.

وما كان للسلطان ألب أرسلان أن يحقق كل هذه الإنجازات بدون جهود وزيره العظيم نظام الملك، الذي لم يكن وزيرًا لامعًا وسياسيًّا ماهرًا فحسب؛ بل كان داعيًا للعلم

والأدب محبًّا لهما، أنشأ المدارس المعروفة باسمه "المدارس النظامية"، وأجرى لها الرواتب، وجذب إليها كبار الفقهاء والمحدثين، وفي مقدمتهم حجة الإسلام "أبو حامد الغزالي".



لوحة تصور ألب أرسلان يقود جيشه في قلب المعركة .

وقد ارتفع شأن ألب أرسلان بعد انتصاره الباهر، وصار مرهوب الجانب في الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، وحقق شهرة واسعة هو ووزيره نظام الملك الذي أسهم في وضع سياسة السلاجقة، وأشرف على تنفيذها، غير أن السلطان ألب أرسلان لم يهنأ كثيرًا بما حققه، ويجني ثمار نصره، ويواصل فتوحاته، فقد قُتِلَ بعد عام ونيف من موقعة ملاذ كرد على يد أحد الثائرين عليه، وهو في الرابعة والأربعين من عمره في (١٠ من ربيع الأول ٤٦٥ هـ = ٢٩ من نوفمبر ١٠٧٢م"، وخلفه ابنه ملكشاه صاحب الإنجازات العسكرية والحضارية في القرن الخامس الهجري.

و من نتائج هذه المعركة :

١- انتصر السلاجقة انتصارا ساحقا على البيزنطيين .

٢- قتل الكثير من فرسانهم وأسر الكثير أيضا مما حطم قوتهم .

٣- أُسِر الملك رومانوس وأطلق ألب أرسلان سراحه بعد تعهده بدفع فدية كبيرة قدرها مليون ونصف المليون دينار.

٤- أن يطلق الملك رومانوس كل أسير مسلم في أرض الروم .

٥- عقد معاهدة صلح لمدة "٥٠" عاما يلتزم الروم فيها بدفع الجزية السنوية.

٦- يعترف البيزنطيون بسيطرة السلاجقة على المناطق التي فتحوها من بلادهم ، ويتعهدون بعدم الاعتداء على ممتلكاتهم .

٧- لما سمع رعايا الملك رومانوس بهذه الهزيمة أزالوا اسمه من سجلات الملك وقالوا إنه سقط من عداد الملوك وسملوا عينيه، وعينوا ميخائيل السابع بدلاً منه .

ومن آثار المعركة :

١- تواصلت فتوحات السلاجقة إلى كوتاهية وقد توالت الغزوات في القرون الثلاثة التالية لملاذ كرد حتى توجت إلى فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح العثماني .

٢- فتح الحدود الشرقية البيزنطية على مصراعيها لتقدم المسلمين .

٣- فقدان الإمبراطورية الشرقية البيزنطية لهيبتها واسمها كحامية للحدود الشرقية الأوروبية .

٤- نجاح السلاجقة في السيطرة على مناطق واسعة في آسيا الصغرى .

٥- فقدان رومانوس عرشه مما زاد في الصراع الداخلي لفترة زمنية طويلة.

٦- قيام النورمان بالسيطرة على كل إيطاليا وطردهم للبيزنطيين .

٧- كانت خسارة بيزنطية في هذه المعركة دافعا للحروب الصليبية بعد ذلك كرد فعل للكارثة التي حلت بالبيزنطيين .

٨- بدخول هذه المنطقة في حوزة السلاجقة تغيرت صورة الحياة والحضارة في هذه المنطقة فقد انتشرت اللغتان العربية والفارسية واصطبغت بالصيغة الإسلامية لانحسار النفوذ البيزنطي تدريجيا ودخل سكانها في الإسلام .

٩- استغاثة البيزنطيين بأوروبا الغربية والبابوية حيث بدأت حول حلقات النزاع بين البابوية والإمبراطورية وقد استمر هذا النزاع طويلاً .

١٠- تكونت دولة إسلامية سميت بدولة سلاجقة الروم في قونية أسسها أحد الأمراء السلاجقة وهو سليمان بن قطلمش .

و يقول ابن كثير في الجزء الثاني من كتابه " البداية والنهاية " عن هذه المعركة: ثم دخلت سنة ست وخمسين وأربعمائة ٤٥٦هـ وفيها المعركة التي غيرت مجرى التاريخ(منازكرد) والتي قال عنها المؤرخون "وكانت هذه الملحمة من أعظم فتح في الإسلام، ولله الحمد

وفيها أقبل ملك الروم أرمانوس في جحافل أمثال الجبال من الروم والكرخ والفرنج وعدد عظيم ومعه خمسة وثلاثون ألفا من البطارقة مع كل بطريق مائتا ألف فارس ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون ألفا ومن الغزاة الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر ألفا ومعه مائة ألف نقاب وحفار وألف روزجاري ومعه أربعمائة عجلة تحمل النعال والمسامير وألفا عجلة تحمل السلاح والسروج والغردات والمناجيق منها منجنيق عدة ألف ومائتا رجل وأهله ومن عزمه قبحه الله أن يبيد الإسلام وقد أقطع بطارقته البلاد حتى بغداد واستوصى نائبها بالخليفة خيرا فقال له ارفق بذلك الشيخ فإنه صاحبنا ثم إذا استوثقت ممالك العراق وخراسان لهم مالوا على الشام وأهله ميلة واحدة فاستعادوه من أيدي المسلمين والقدر يقول لعمرك إنهم في سكرتهم يعمهون .

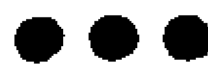
فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه وهم قريب من عشرين ألفا بمكان يقال له الزهوة في يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة وخاف السلطان من كثرة جند ملك الروم فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين فلما كان ذلك الوقت وتواقف الفريقان وتواجه الفتيان نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عز وجل ومرغ

وجهه في التراب ودعا الله واستنصره فأنزل نصره على المسلمين ومنحهم أكتافهم فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسر ملكهم أرمانوس أسره غلام رومي فلما أوقف بين يدي الملك ألب أرسلان ضربه بيده ثلاث مقارع وقال لو كنت أنا الأسير بين يديك ما كنت تفعل قال كل قبيح قال فما ظنك بي فقال إما أن تقتل وتشهرني في بلادك وإما أن تعفو وتأخذ الفداء وتعيدني قال ما عزمت على غير العفو والفداء فافتدى نفسه منه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار فقام بين يدي الملك وسقاه شربة من ماء وقبل الأرض بين يديه وقبل الأرض إلى جهة الخليفة إجلالا وإكراما وأطلق له الملك عشرة آلاف دينار ليتجهز بها وأطلق معه جماعة من البطارقة وشيعه فرسخا وأرسل معه جيشا يحفظونه إلى بلاده ومعهم راية مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله فلما انتهى إلى بلاده وجد الروم قد ملكوا عليهم غيره فأرسل إلى السلطان يعتذر إليه وبعث من الذهب والجواهر ما يقارب ثلاثمائة ألف دينار وتزهد ولبس الصوف ثم استغاث بملك الأرمن فأخذه وكحله وأرسله إلى السلطان يتقرب إليه بذلك.

ويصف الإمام الذهبي رحمه الله في كتابه " تاريخ الإسلام " المعركة ويخص بالذكر لحظه التقاء الجيشين وماذا كان رد فعل السلطان ألب أرسلان الملقب بسلطان العالم وصاحب الممالك المتسعة .

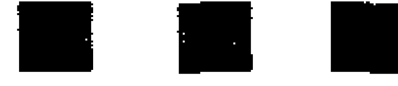
فلما كان تلك الساعة (لحظه التقاء الجيشين) صلى بهم، وبكى السلطان، فبكى الناس لبكائه، ودعا فأمنوا، فقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف، فما ههنا سلطان يأمر ولا ينهي. وألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنط وقال: إن قتلت فهذا كفني.

وزحف إلى الروم، وزحفوا إليه، فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه بالتراب، وبكى، وأكثر الدعاء، ثم ركب وحمل الجيش معه، فحصل المسلمون في وسطهم، فقتلوا في الروم كيف شاؤوا، وأنزل الله نصره، وانهزمت الروم، وقتل منهم ما لا يحصى، حتى امتلأت الأرض بالقتلى، وأسر ملك الروم.



٣٧

داويت أيزنهاور ..أعادت الحرب العالمية الثانية اكتشافه !!





دوايت أيزنهاور (١٨٩٠-١٩٦٩ هو الرئيس الرابع والثلاثون لولايات المتحدة الأمريكية، عن الحزب الجمهوري، خلال الفترة ١٩٥٣-١٩٦١.

وقبل ذلك كان جنرالاً في الجيش الأمريكي، وهو المهندس الرئيسي لاجتياح الحلفاء لأوروبا خلال الحرب العالمية الثانية، والذي أفضى في المحصلة إلى هزيمة ألمانيا النازية.

وخلال وجوده في البيت الأبيض، كرئيس للولايات المتحدة الأمريكية، أنهى أيزنهاور الحرب الكورية. وفترتا رئاسته (١٩٥٣-١٩٦١) لم تحملا أية سمات مميزة على صعيد السياسة الخارجية، حيث اعتبرت رئاسته فترة هادئة على هذا الصعيد، مع ذلك فقد ارتبط اسم أيزنهاور بالشرق الأوسط، والعالم العربي، من خلال المبدأ المعروف باسمه، وهو مبدأ أيزنهاور.

يتجسد هذا المبدأ في الإعلان الصادر عن الكونغرس الأمريكي في عام ١٩٥٦، والذي حدد الإطار العام للاستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط في المرحلة التي أعقبت العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ مباشرة، والذي هدف أساساً إلى احتواء التمدد السوفييتي باتجاه المنطقة. وتضمن الإعلان العناصر التالية:

تفويض الرئيس الأمريكي سلطة استخدام القوة العسكرية في الحالات التي يراها ضرورية لضمان السلامة الإقليمية، وحماية الاستقلال السياسي لأي دولة، أو مجموعة من الدول في منطقة الشرق الأوسط، إذا ما طلبت هذه الدول مثل هذه المساعدة لمقاومة أي اعتداء عسكري سافر تتعرض له من قبل أي مصدر تسيطر عليه الشيوعية الدولية.

تفويض الحكومة في تفويض برامج المساعدة العسكرية لأي دولة أو مجموعة من دول المنطقة إذا ما أبدت استعدادها لذلك، وكذلك تفويضها في تقديم العون الاقتصادي اللازم لهذه الدول دعماً لقوتها الاقتصادية وحفاظاً على استقلالها الوطني

حقق دوايت دي. آيزنهاور، الذي جلب إلى الرئاسة هيبته كقائد عام للقوات المنتصرة في أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية، الهدنة في كوريا وعمل بلا هوادة أثناء ولايتيه لتخفيف توترات الحرب الباردة. اتبع السياسات المعتدلة لـ "الجمهورية المعتدلة" مشيراً لدى مغادرته الرئاسة إلى أن "أميركا هي اليوم أقوى دولة في العالم، وأكثرها نفوذا، وإنتاجا."

كان آيزنهاور، الذي ولد في تكساس في العام ١٨٩٠، وترعرع في أبيلين، تكساس، الثالث من بين سبعة أولاد. وقد تفوق في الرياضة أثناء دراسته في المرحلة الثانوية، وتم قبوله في (الكلية العسكرية) وست بوينت. التقى أثناء خدمته في تكساس كملازم، ميمي جنيفا داود، التي تزوجها في العام ١٩١٦.

في أوائل سيرته في الجيش، تفوق في المهمات التي أوكلت إليه، تحت قيادة الجنرالات المشهورين جون جاي. بيرشنغ، دوغلاس ماك آرثر، وولتر كروغر. وبعد بيرل هاربر، استدعاه الجنرال جورج مارشال إلى واشنطن من أجل مهمة تتعلق بخطط حربية. وقد تولى قيادة القوات الحليفة التي نزلت في شمال إفريقيا في تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٤٢؛ وفي يوم الغزو، كان القائد الأعلى للقوات التي غزت فرنسا.

بعد الحرب، أصبح رئيساً لجامعة كولومبيا بنيويورك، ثم أخذ إجازة ليتولى القيادة العليا لقوات ناتو الجديدة التي جرى تجميعها في العام ١٩٥١. وقد أقنعه مبعوثون جمهوريون إلى مقر رئاسته قرب باريس بالترشح لمنصب الرئيس في العام ١٩٥٢.

وكان الشعار الطاغي، "أحب آيك"؛ وحقق آيزنهاور انتصاراً ساحقا.

حاول أثناء التفاوض من مركز قوة عسكرية أن يخفف من توترات الحرب الباردة. وفي العام ١٩٥٣، تطور توقيعه للهدنة إلى إقامة نوع من السلام المسلح على امتداد حدود كوريا الجنوبية. وتسبب موت ستالين في نفس العام بحدوث تحول في العلاقات مع روسيا.

فقد وافق القادة الروس على معاهدة سلام تحيّد النمسا. وفي غضون ذلك، طورت كل من روسيا والولايات المتحدة قنابل هيدروجينية. ومع وجود خطر مثل هذه القوة المدمرة ماثلا فوق العالم، اجتمع آيزنهاور مع قادة حكومات بريطانيا، وفرنسا، وروسيا في جنيف في يوليو، ١٩٥٥. اقترح الرئيس أن تتبادل الولايات المتحدة وروسيا تصاميم المنشآت العسكرية لكل منهما و"توفير، داخل بلدينا، مرافق من أجل تصوير جوي للبلد الآخر." وقد واجه الروس الاقتراح بصمت، لكنهم كانوا ودودين طيلة الاجتماعات بحيث خفت حدة التوتر.

وفجأة، في سبتمبر، ١٩٥٥، أصيب آيزنهاور بنوبة قلبية في دنفر، كولورادو. وبعد سبعة أسابيع غادر المستشفى، وفي فبراير، ١٩٥٦ أعلن الأطباء شفاءه. وفي نوفمبر، أعيد انتخابه لولاية ثانية.



الجنرال أيزنهاور مع جنوده في خضم الحرب العالمية الثانية .

على صعيد السياسة المحلية، اتبع آيزنهاور سبيلا وسطا، مواصلا معظم برامج "البرنامج الجديد" و"البرنامج العادل"، مشدداً على ميزانية متوازنة. وعندما بدأ دمج الطلاب السود في المدارس، أرسل جنوداً إلى ليتل روك، في آركنساو، لضمان الامتثال إلى أوامر المحكمة الفدرالية، وأمر أيضا بمنع كلي للفصل العرقي في القوات المسلحة. وقد كتب يقول، "يجب ألا يكون هناك مواطنون من الدرجة الثانية في هذه البلاد."

ركز آيزنهاور على المحافظة على السلام العالمي. وراقب بسرور تطور برنامجه "الذرة من أجل السلام"، وهو برنامج أمدت بموجبه الولايات المتحدة الدول "المعوزة" مادة اليورانيوم لأغراض سلمية.



قادة الحرب العالمية الثانية المنتصرون الزعيم الروسي جوزيف ستالين (أقصى اليمين) ثم أيزنهاور ثم ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني .

وقبل مغادرته منصبه في يناير، ١٩٦١، للتوجه إلى مزرعته في غيتيزبيرغ، حث على ضرورة الاحتفاظ بقوة عسكرية ملائمة، لكنه حذر من أن النفقات العسكرية الضخمة المستمرة لأمد طويل يمكنها أن تولد أخطاراً ممكنة لطريقة حياتنا. واختتم بصلاة من أجل السلام "في الطيّب من الأوقات." وبقيت الفكرتان منسجمتين مع الوقت وملحتين عندما مات، بعد مرض طويل، في ٢٨ مارس، ١٩٦٩.

وقد كشفت وثائق سرية نزعت عنها السرية أن سلاح الجو الأميركي اعد لهجمات نووية ضد الصين خلال مواجهة مع تايوان في ١٩٥٨، إلا أن القرار رفض.

وأوضحت التقارير السرية أن الرئيس الأميركي في حينه دوايت أيزنهاور ولدى اطلاعه على هذه الخطط، أمر سلاح الجو باستخدام قنابل تقليدية وليس قنابل ذرية، ضد القوات المسلحة الصينية في حال تفاقمت الأزمة التايوانية.

وعلى ما يبدو فإن أوامر الرئيس أذهلت صقور سلاح الجو، لكن واضع إحدى هذه الدراسات المنشورة أشار إلى أن المسؤولين السياسيين أقروا بأن الضربات بالقنابل الذرية ستؤدي إلى "أضرار ملازمة" بسبب خطر الانبعاثات الإشعاعية في المنطقة وخطر حصول تصعيد نووي.

ويفصل التقرير حول الأزمة الذي أعده برنار نالتي المؤرخ لدى سلاح الجو الأميركي في حينه، مشروع الهجوم النووي، وخصوصا خطة تنص على إطلاق قنبلة من الوزن الثقيل على مطارات في أموي (تسمى اليوم شيامن) في حال منعت بكين الوصول إلى مجموعة الجزر القريبة من الصين والمحيطة بتايوان.

ونشر هذا التقرير مركز "ناشونال سيكيوريتي اركايف"، وهو معهد غير حكومي تابع لجامعة جورج واشنطن في العاصمة، ويجمع وينشر الوثائق التي تنزع عنها السرية بموجب قانون يرعى حرية الإعلام.

وقال الخبير في المركز وليام بور لوكالة فرانس برس إنه "لو حصلت حرب حقيقية، من يدري ماذا كان ليحصل؟ ولكنها لحسن الحظ لم تحصل".



٣٨

شارل ديجول ..
بطل معركة تحرير فرنسا





ولد شارل ديغول في ٢٢ نوفمبر ١٨٩٠ ومات في ٩ نوفمبر ١٩٧٠، وهذا يعني أنه عاش ثمانين عاماً بالتمام والكمال إلا بضعة أيام، وفي أثناء هذا العمر الجديد كانت حياة ديغول مليئة بالأحداث التاريخية، ولكن قبل أن نصل إلى ذلك ينبغي أن نتوقف قليلاً عند طفولته وشبابه الأول.

لقد ولد ديغول في مدينة "ليل" عاصمة الشمال الفرنسي في عائلة كاثوليكية محافظة، مثقفة، فأبوه هنري ديغول كان أستاذ تاريخ وأدب في المدارس الخاصة، وقد عرفه على كبار كتاب فرنسا من أمثال باريسي، وبيرغسون وشارل بيغي وآخرين.

ثم اختار ديغول المهنة العسكرية وتخرج ضابطاً من كلية سان سير الشهيرة عام ١٩١٢، أي في سن الثانية والعشرين، وقد شارك بعدئذ في الحرب العالمية الأولى وجرح في الحرب عام ١٩١٤، وتشاء الأقدار أن يكون رئيسه المباشر آنذاك الجنرال فيليب بيتان الذي سيصبح عدوه الأول أثناء الحرب العالمية الثانية لأنه تحالف مع الألمان وقبل احتلالهم لفرنسا على عكس ديغول.

ثم أسر في الحرب عام ١٩١٦ من قبل الألمان وظل في الأسر سنتين ونصفا، أي حتى نهاية الحرب وتحقيق الهدنة بين فرنسا وألمانيا، وكانت تجربة الأسر مريرة بالنسبة له لانه شعر بعدم القدرة على خدمة بلاده عندما كانت المعارك تشتعل ضاربة.

حاول أن يهرب من الأسر خمس مرات ولكنه كان يفشل في كل مرة بسبب طول قامته، فقد كانوا يعرفونه ويكتشفونه فوراً لأنه أطول رجل في المعسكر، وقد منحوه وسام الشرف بعد انتهاء الحرب نظراً لبطولته وتضحياته في ساحة الوغى.

وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية كان ديغول قد أصبح عقيداً في الجيش الفرنسي وقائداً لإحدى سرايا المدفعية ولكنهم رفعوه فوراً إلى رتبة جنرال وأعطوه قيادة أكبر فرقة عسكرية في الجيش لكي يعيد الهجوم الألماني على باريس.



جيش التحرير الذي قاده ديجول لحظة دخوله العاصمة باريس بعد النصر.

ولكنه لم ينجح في ذلك بسبب قوة الهجوم الألماني الذي اخترق خط ماجينو، نقول ذلك على الرغم من شجاعته ومخاطرته بنفسه أثناء المعارك، ونظراً لذلك فقد عينوه وزيراً في الحكومة في تلك الفترة العصيبة، ولكنه رفض معاهدة الهدنة أو الاستسلام للألمان، وغادر فرنسا سرّاً في اللحظة التي استلم فيها الماريشال بيتان السلطة. وذهب ديغول إلى عند تشرشل في لندن لمقاومة النازية.

ثم دخل التاريخ يوم ١٨ يونيو من عام ١٩٤٠ عندما وجه نداءه الشهير إلى الشعب الفرنسي قائلاً : "أيها الفرنسيون لقد خسرنا معركة ولكننا لم نخسر الحرب وسوف نناضل حتى نحرر بلدنا الحبيب من نير الاحتلال الجاثم على صدره".

وهناك في لندن راح الجنرال ديغول يشكل في المنفى حكومة فرنسا الحرة، وهكذا أصبحت لفرنسا حكومتان: الأولى برئاسة الماريشال بيتان ومقرها في مدينة "فيشي" وهي عميلة للألمان.

والثانية في المنفى الانجليزي برئاسة ديغول وهي مضادة لأي تعامل مع المحتل، وعندئذ انقسمت فرنسا إلى قسمين قسم مد يداً للمارشال وقسم مؤيد للجنرال، وسوف ينعكس ذلك على تاريخ فرنسا اللاحق كله.

عقب تخرجه عام ١٩١٢، عين في الكتيبة ٣٣ مشاة، في مدينة أراس، تحت قيادة الكولونيل فيليب بيتان Philippe Petain في ١٠ أكتوبر ١٩١٢. وقبل الحرب العالمية الأولى أصبح ديجول قائد الفصيلة الأولى من الكتيبة الثالثة والثلاثين، وذلك في ١ أغسطس ١٩١٤، وحدثت له الإصابة الأولى على جسر دينانت، في بلجيكا، في ١٥ أغسطس ١٩١٤. ورقي إلى رتبة النقيب في يناير ١٩١٥، وقُلد وسام "صليب الحرب"، وفي ١٠ مارس ١٩١٥ حدثت له الإصابة الثانية في يده اليسرى، في مقاطعة أرجون.

وفي ٢ مارس ١٩١٦، أبيدت السرية التي كان يقودها، واعتقل وأرسل إلى أوسنابروك في ألمانيا. وتمكن من الهرب من المعتقل في ٢٩ أكتوبر ١٩١٦، بعد عدة محاولات، إلا أنه اعتقل مرة أخرى، بعد ثمانية أيام. وتمكن من الهرب في ١٥ أكتوبر ١٩١٧، مع أربعة من رفاقه من قلعة روزنبرج.

التحق شارل ديجول بكلية الحرب العليا، في ٢ مايو ١٩٢٢، وهو برتبة نقيب، وأمضى فيها سنتين، حدثت فيهما مشاجرات مع أساتذته كادت تؤخر تخرجه، لولا تدخل المارشال بيتان، وتخرج بتقدير جيد.

وفي أول يوليه ١٩٢٥ عمل ديجول بهيئة إمداد وتموين جيش الراين، ثم استدعاه المارشال بيتان للعمل في مكتبه الخاص. ورُقي لرتبة الرائد في سبتمبر ١٩٢٧. ثم التحق بجيش الشرف في أكتوبر ١٩٢٩، حيث خدم لمدة سنتين في بيروت عمل خلالها رئيساً لهيئتي الاستخبارات والعمليات. ثم التحق بالسكرتارية العامة لوزارة الدفاع في نوفمبر ١٩٣١، حيث أمضى فيها ٦ سنوات. وفي ٥ مايو ١٩٣٤ رقي ديجول إلى رتبة المقدم. وفي سبتمبر ١٩٣٧ تولى ديجول قيادة اللواء ٥٠٧ المدرع، في مدينة ميتز، وكان مقتنعاً أن الدبابة ستكون السلاح الحاسم في الحرب التالية. ورُقي شارل ديجول لرتبة العقيد، في ٢٤ ديسمبر ١٩٣٧، وكان عمره وقتئذ ٤٧ سنة.



ديغول خلده التاريخ.

بدأت الحرب العالمية الثانية واحتلت ألمانيا بولندا في ١ سبتمبر ١٩٣٩، وتولى ديجول قيادة دبابات الجيش الخامس، في مقاطعة الزاس. وفي ١٠ مايو ١٩٤٠، دخلت القوات الألمانية سيدان، وتقهقرت القوات الفرنسية اعتباراً من ١٦ مايو، وحاول ديجول تنفيذ هجوم مضاد غير مرة لكنه فشل، ويعزي هذه الهزيمة إلى رفض القيادة الفرنسية إنشاء وحدات وتشكيلات على شكل واسع.

وفي يونيه ١٩٤٠، عُين ديجول في منصب وكيل وزارة الحرب والدفاع، وذهب إلى لندن لمقابلة ونستون تشرشل، الذي صرح لديجول بأن إنجلترا تركز جهودها لتمنع غزو ألماني لها. وفي ١٠ يونيه دخلت إيطاليا الحرب، وكان الألمان على أبواب باريس، فغادرت الحكومة الفرنسية العاصمة، واتخذت من مدينة تور مقرّاً لها.

اجتمع المجلس الأعلى للحلفاء في ١١ يونيه ١٩٤٠، وكان يتكون في ذلك الوقت من تشرشل وإيديه ورينو وبيتان وفيجان وديجول، وقد اتفق تشرشل وديجول في الرأي الخاص بالانسحاب نحو مقاطعة بريتاني وإنشاء مقاومة شعبية، إلا أنه في اليوم الثاني، خلال اجتماع مجلس الوزراء الإنجليزي، اقترح بيتان وفيجان توقيع الاستسلام. ودخل الألمان باريس، واتخذت الحكومة من مدينة بوردو مقرّاً لها، وتوجه ديجول إلى لندن، وقابل تشرشل بمقر مجلس الوزراء البريطاني، الذي وضع إمكانيات هيئة الإذاعة البريطانية تحت أمر ديجول، وناشد الفرنسيين بمواصلة المقاومة، وفي ١٩ يونيه أملى هتلر شروطه لوقف المعارك، وفي ٢٢ يونيه وقعت فرنسا الاستسلام. فتقطع بريطانيا علاقاتها بحكومة بوردو، وتعترف بالهيئة الوطنية الفرنسية التي أنشأها ويرأسها ديجول، كما تعترف بريطانيا بأن ديجول قائد لكل الفرنسيين، في ٢٨ يونيه ١٩٤٠. وكان يحمل رتبة اللواء في ذلك الوقت ورفض قبول الاستسلام. وفي بريطانيا قام ديجول بتنظيم القوات الفرنسية الحرة، الموجودة هناك، وفي بعض المستعمرات الفرنسية، حيث قام بزيارة القاهرة وسوريه ولبنان في مارس ١٩٤١، من أجل استقطاب القوات الفرنسية الموجودة بها.

بدأ نجم ديجول يلمع، ففي سبتمبر ١٩٤١ أصبح رئيساً للهيئة الوطنية الفرنسية في لندن، وفي ٢٣ يوليه ١٩٤٢، عقد لقاء بين ديجول ووفد عسكري أمريكي، واقترح ديجول عليهم القيام بعملية إنزال بحري في منطقة نورماندي، إلا أن القوات الأمريكية والبريطانية، قامت بعملية إنزال في الجزائر، في ٨ نوفمبر ١٩٤٢، بدون علم ديجول . وبحلول عام ١٩٤٣، وافق الحلفاء على أن يصبح ديجول قائداً للفرنسيين المقاتلين.

وفي ٢٨ نوفمبر ١٩٤٣ اجتمع ستالين وروزفلت وتشرشل في طهران، وقرروا إنزال القوات الحليفة على شواطئ فرنسا في ربيع ١٩٤٤، ونظم اجتماع بين ديجول وتشرشل في يناير ١٩٤٤، طالب فيه ديجول بزيادة المعدات العسكرية للمقاومة الفرنسية، وكذلك فرض سيطرته على الأراضي الفرنسية التي ستحررها القوات الحليفة. وفي

٦ يونيه ١٩٤٤ تم إنزال قوات الحلفاء في منطقة نورماندي، ووصل ديجول إلى الشواطئ الفرنسية في ١٤ يونيه ١٩٤٤، واستقبلته مدينة بايو بحفاوة. وقام ديجول بزيارة للولايات المتحدة الأمريكية في يوليه ١٩٤٤، واستقبله الرئيس روزفلت في البيت الأبيض بحفاوة، كما استقبل استقبالاً حافلاً في مدينة نيويورك، وكذلك زار ديجول كندا والجزائر في نفس الشهر.

وفي ٢٠ أغسطس وصل ديجول إلى مدينة شربورج بشمال فرنسا، وبدأت عمليات تحرير فرنسا. واستطاعت الفرقة الثانية المدرعة وفرقة المقاومة الشعبية أن تجبر القوات الألمانية تحت قيادة الجنرال شولتيتز على الاستسلام. وفي ٢٥ أغسطس وصل ديجول إلى مقر وزارة الدفاع بشارع دومينيك واتخذه مقرّاً له. وفي ٢٦ أغسطس ١٩٤٤، استقبل ديجول في باريس استقبالاً شعبيّاً حافلاً. وعقد اجتماعا مع رؤساء المقاومة. وفي سبتمبر ١٩٤٤، أصبح رئيساً للحكومة المؤقتة، كما استقبل تشرشل في باريس بحفاوة. وفي ٨ مايو ١٩٤٥ وقعت ألمانيا .

وفي ٨ مايو ١٩٤٥ وقعت ألمانيا استسلامها في برلين. وفي ١٣ نوفمبر ١٩٤٥ انتخب ديجول من قبل البرلمان رئيساً للوزراء. ولكن عندما أسفر استفتاء عام للفرنسيين، عن إيثار الشعب لحكومة برلمانية، بدلاً من حكومة رئاسية، كما اقترح ديجول. قدم استقالته في يناير عام ١٩٤٦ من الحكم واعتكف.

وبعد حدوث اضطرابات داخلية كبيرة في فرنسا في شهر مايو ١٩٥٨، أعلن ديجول أنه مستعد أن يتسلم زمام الحكم، على أن يكون رجوعه للحكم بشكل شرعي.



ديغول قاد شعبه للانتصار وطرد المحتل النازي .

في يونيه ١٩٥٨، قام ديجول بتشكيل حكومة، تتمتع بصلاحيات مطلقة لمدة ستة أشهر، وحصلت على الأغلبية. كما وضع دستوراً جديداً للبلاد، قدمه للفرنسيين في شهر سبتمبر ١٩٥٨، ويحوز على ٨٠٪ من أصوات الشعب. كما حاز حزب الوحدة من أجل الجمهورية الديجولي على ٢٠٠ مقعد في البرلمان. وقد أرسى أركان الجمهورية الخامسة، وتم انتخاب شارل ديجول رئيساً في ٢١ ديسمبر ١٩٥٨.

وكانت ثورة الجزائر قد اشتدت، وفرضت نفسها في وجه الاحتلال الفرنسي، وأحس ديجول بحسه التاريخي أن ثوار الجزائر لا بد منتصرون، مضى ديجول في سياسة التفاوض مع الثورة الجزائرية واعترف باستقلال الجزائر في اتفاقية ايفان في مارس ١٩٦٢، وفي مايو ١٩٦٢، منحت الجزائر استقلالها، وبذلك أنهى ديجول حربا دموية، دامت سبع سنوات.

عرض ديجول إجراء تعديلات على الدستور، وطرح ذلك في استفتاء شعبي، في أبريل ١٩٦٩، إلا أن عرضه فشل في الاستفتاء، فاستقال من منصبه في ٢٨ أبريل ١٩٦٩.

واعتزل العمل السياسي، وعاش في بلدة كولومبي لي دوزيجليز في فرنسا، وواصل تدوين مذكراته. وكان ديجول شخصية مهيبة ومتحفظة وصارمة.

وقد عمل ديجول خلال فترة حكمه، على بعث فرنسا كأمة عظيمة، وشكل قوة نووية فرنسية ضاربة مستقلة. وأقام علاقات جيدة، مع بلدان العالم الثالث، والبلدان الاشتراكية، واعترف بالصين الشعبية. وعلى إثر العدوان الإسرائيلي، على بعض الدول العربية، عام ١٩٦٧، حظر تصدير السلاح إلى إسرائيل

وتوفي ديجول، في بلدة كولومبي لي دوزيجليز في فرنسا في التاسع من نوفمبر ١٩٧٠، على إثر نوبة قلبية. وأصبح شارل ديجول رمزاً لفرنسا، في نظر الفرنسيين، وغيرهم من الشعوب.

●●●

٣٩

جان دارك.. عذراءُ أورليانز
قائدة معركة تحرير خلّدها التاريخ !!





أثبتت المرأة، وخلال تعاقب العصور التاريخية، جدارتها ومكانتها من خلال مشاركتها في بناء المجتمعات الإنسانية، ومساهمتها في مجالات عديدة من الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية. ولكن أن تتزعم المرأة جيشا للمقاومة وتحمل السلاح وتقود شعبها نحو الحرية و التحرر من براثن الاستعمار فهذا ليس بالطبيعي أو المعتاد!

وهناك عدد قليل من النساء المتميزات والشهيرات، من اللواتي أصبحن مضرب مثل على إمكانية تميّز المرأة، في مجالات تبدو حكراً على الرجال، ولا سيما التضحية في سبيل الوطن، وقيادة النضال الوطني.

ومن بين هؤلاء الشخصية الأسطورية الفرنسية "جان دارك"، التي احتلت مساحة شاسعة من صفحات التاريخ الأوروبي والإنساني، وشغلت العالم بقدراتها العسكرية والقيادية المتميزة، حتى أصبحت مضرب المثل في الشجاعة وروح التضحية، ورمز النقاوة الفرنسية.

غدت شخصيتها من أبرز الشخصيات التاريخية، التي تتجلى فيها البطولة والجرأة؛ إذ قادت الشعب الفرنسي، لتقاتل الاحتلال الأجنبي "الإنكليزي" لبلادها.

نادت بالعدالة، وناضلت من أجل استقلال بلادها وحريتها وكرامتها. تمردت على العادات والتقاليد، وعلى والديها؛ إلا أنها وقعت ضحية نظام الحكم وأصحاب السلطة والنفوذ، والمتسلقين في الحكم.

كان هدفها من النضال أن تكشف عن زيف الحكام وشعاراتهم الرنانة، هؤلاء الذين تجردوا من الرحمة والإنسانية. كانت غايتها تعريتهم وإزالة أقنعتهم؛ لتظهرهم على حقيقتهم. وكان هؤلاء، أصحاب النفوذ، من ألد أعدائها، وأصبحوا يخشونها، ولا سيما عندما نالت شهرة وشعبية كبيرة بين أبناء وطنها؛ فتحركت أحقادهم وضغائنهم ضدها، ومن بينهم الكاردينال "وينشستر"، وهو من أبرز الناقمين عليها. ولهذا دبروا لها المكائد، لينالوا من سمعتها اجتماعيّاً؛ فاتهموها بالسحر والهرطقة.

تجمع شخصيتها بين الرمز والحقيقة؛ فهي شخصية مميزة ومتوهجة، حساسة، جذابة، ومحبوبة في فرنسا إلى حد القداسة. وبسبب تميّزها هذا، فقد جلبت لنفسها متاعبَ كثيرة، وكثر أعداؤها، وخاصة أنها كانت من عامة الشعب.

جان دارك... تلك الفتاة الصغيرة البسيطة، شغلت الكتاب والمؤرخين الأوروبيين. لفتت انتباه الأديب الألماني الشهير "فريدريش شيللر"، خلال مطالعته لتاريخ العصور الوسطى؛ فكتب عنها مسرحيته التي سماها "عذراءُ أورليانز"، وهي دراما رومانسية إنسانية، لم يقصد بها أمة معينة؛ بل عممها لكل الأمم المفككة، التي تسعى لمواجهة الأطماع الخارجية، عن طريق الوحدة.

إن سيرة حياة هذه المناضلة تدور حول أحداث حرب المئة عام، بين بريطانيا وفرنسا (١٣٣٧-١٤٥٣)، وانتهت بخسارة الإنكليز لكل إقطاعاتهم في فرنسا.

ولدت جان دارك في عام ١٤١٢ في قرية "دومرمي"، التي كانت جزءاً من "بريجاندي" - الولاية المستقلة عن السلطة الفرنسية في ذلك الوقت، لأبٍ مزارع متوسط الحال، اسمه "جون دارك"، وأمها "إيزابيل" التي لقنتها التعاليم الدينية. تأخذ حياة "جان دارك" شكل الأسطورة، عند بعض الفرنسيين؛ فعندما بلغت الثالثة عشرة من عمرها، كانت تسمع أصواتاً تناديها، وتدعوها إلى تحرير بلدها من الاحتلال الإنكليزي - هذا ما أشارت إليه في مذكراتها- فلبت النداء الداخلي، وعملت على تجميع قوات عسكرية، قادتها بنفسها لدحر القوات الإنكليزية، بعد أن تنكرت بزي الرجال!. واستطاعت بهذه الطريقة أن تحصل على نوع من السلطة، التي كان يصعب لامرأةٍ الوصول إليها في تلك الفترة.

كان اسمها الحقيقي "جانيت" وعندما جاءت إلى فرنسا نادوها "جان". بينما كانت مشغولة بأمر الحرب، أبلغتها أمها أن والدها قد حلم بها أكثر من مرة، وهي تهرب مع مجموعة من الجند، وأنه تحدث من إخوتها منذراً: "لو آمنتُ بأن هذه الأحلام ستتحقق، لطلبت منكم إغراقها، وإذا رفضتم فسأغرقها بنفسي"!. وفعلاً تحقق قوله الأخير؛ لأنها أحرقت ورُميت في نهر السين.

وبسبب حلم أبيها، تعرضت لمراقبة والديها واضطهادهما. كانت مطيعة لأوامرهما، إلا أنها لم تستطع أن تعصي مشيئة ربها؛ الذي كانت تقول إنه أوحى لها بضرورة النضال من أجل حرية واستقلال شعبها ووطنها. ولقوة إيمانها بما كانت تعتقده؛ فقد عصت والديها، واستسلمت لمشيئة ما كانت تسمعه في داخلها، وذهبت إلى عمها لتقيم عنده فترة، ثم توجهت إلى (فرسولورز)، وقابلت قائد المدينة "روبرت ديودريكورت"، وطلبت منه أن يساعدها في السفر إلى فرنسا، إلا أنه رفض طلبها؛ فلجأت إلى مساعده "جون ديميتر"، الذي لبى طلبها، واضطر "ديودريكورت" أن يساعدها،وأعطاها سيفاً، ورافقها فارس وأربعة جنود.

عند وصولها قابلت ابن الملك، وأخبرته أنها جاءت لتحارب الإنكليز. اختبرها العلماء مدة ثلاثة أسابيع، وعندما تيقنوا من أنها جاءت لتنقذ "أورليانز" من الاحتلال

البريطاني، ولتتويج الابن البكر للملك على العرش، وهبها الملك اثني عشر ألف جندي، قادتهم إلى أورليانز، وكتبت رسالة إلى ملك بريطانيا "الدوق بدفورد"، قائلة: " أرسلني المتعالى ملك السماوات والأرض لطردك من أراضي فرنسا، التي انتهكتَ سيادتها وعثتَ فيها فساداً... لو أطعتني؛ فسأرحم رجالك وأسمح لهم بالذهاب إلى ديارهم، وستذهب المملكة إلى الملك تشارلز، الأحق بالإرث... وإلا سنشعلها حرباً ضروساً لم ترَ فرنسا مثلها منذ ألف عام".

توجهت جان دارك إلى أورليانز، وزحفت إليها بجنودها الذين حاصروها، واحتلوا أبراج حامية المدينة. وأثناء تسلقها السلم، أصيبت بسهم في حنجرتها، لكنها لم تستسلم؛ بل ازدادت قوة وإيماناً، وامتطت فرسها دون أن تأبه بجرحها وألمها، وعادت إلى المعركة وهي تشجع الجنود بقولها: "كونوا شجعاناً ولا تتراجعوا، وبعد قليل سيكون النصر لكم. هيا...المدينة لنا".

كانت جان دارك رحيمة عطوفا ، فحينما انسحب الإنكليز من المدينة، في الخامس من أيار، قالت لرجالها والرقة تعلو وجهها: "لا تلحقوا بهم أي ضرر...". وبقيادتها أحرز الفرنسيون انتصارات باهرة، ونجحت جان دارك في تحقيق رسالتها، وقادت (تشارلز) إلى (ريمز) وشاهدت تتويجه كملك لفرنسا.

تم القبض عليها حين كانت تقوم بمهمة سرية إلى مدينة "كامبين"، وأسرها البرغانديون، عملاء الاحتلال البريطاني. اقتادوها إلى "ريون" وباعوها للإنكليز، بعد أن فكت الحصار البريطاني عن مدينة أورليانز. أخبروها أنها ستحرق، بعد أن تتعرض إلى صنوف العذاب؛ فلم تركع، وتذكرت صلب المسيح لتخفف وتسهّل مصابها، وفضلت الموت السريع على الآلام ومعاناة السجن الطويلة.

حوكمت في محكمة الكنيسة بتهمة الإلحاد والهرطقة والسحر. وصدر قرار الحكم عليها بالحرق؛ فواجهت الحكم صامدة شامخة الرأس، في ٣٠مايو١٤٣١.



وقامت السلطات الإنكليزية، وبمشاركة علماء جامعة باريس، التي تحكموا بها، بتقييدها إلى خشبةٍ وأحرقوها، بعد أن اقتيدت إلى قاعة المحكمة وهي مكبلة بالأصفاد والحديد، وكان الحكم بحقها جائراً وبالغ الوحشية.

قبل حرقها، قيدوها إلى شجرة ومزقوا جسدها وهي في عمر الورود؛ فقالت لهم: "لو كنتُ في مكان إعدامي، وشاهدتُ الزبانية يشعلون النيران التي تلتهب، حين يلقون لها بالأخشاب الجافة، ولو كنتُ وسط اللهيب حتى آنذاك؛ فليس لديّ ما يمكن أن أضيفه من أقوال".

وهكذا نذرت جان دارك نفسها للمهمة العسكرية، لرفع الحصار الإنكليزي عن مدينة (أورليانز) الفرنسية في عام ١٤٢٩. وعُرفت منذ ذلك الوقت باسم (لابوسيل أورليانز)، أي عذراء أورليانز.

وهبت جان دارك نفسها، وهي لا تزال طفلة صغيرة السن، للكفاح والمقاومة ضد الإنكليز. أذهلت العالم بقوة شخصيتها وقدراتها التي فاقت التصور، في وقت كانت القوانين جائرة بحق المرأة؛ لهذا كان الحكم عليها قاسياً.

ارتبط اسم جان دارك ليس فقط بمقاومة الاحتلال البريطاني لملكة فرنسا؛ وإنما بالمقاومة النسائية في العالم. ففي عام ١٤٥٠، أي بعد ١٩ عاماً على حرقها، أقيمت محكمة خاصة لتكريمها. ولم يتوقف التكريم عند هذا الحد؛ بل إنه في عام ١٩٠٩، أي بعد ٤٥٠ عاماً، تم تطويبها كمسيحية، ولقبت جان دارك بالقديسة في عام ١٩٢٠، وأصبحت مصدر إلهام للعديد من المبدعين الفرنسيين والكتاب في العالم.

كتبت حولها المسرحيات، مثل مسرحية (عذراء أورليانز) لـ(شيللر)، وأنتجت الأفلام مثل فيلم (آلام جان دارك) لـ(كارل ديير)، وأصبحت رمزاً للمقاومة النسائية في فرنسا وفي العالم.

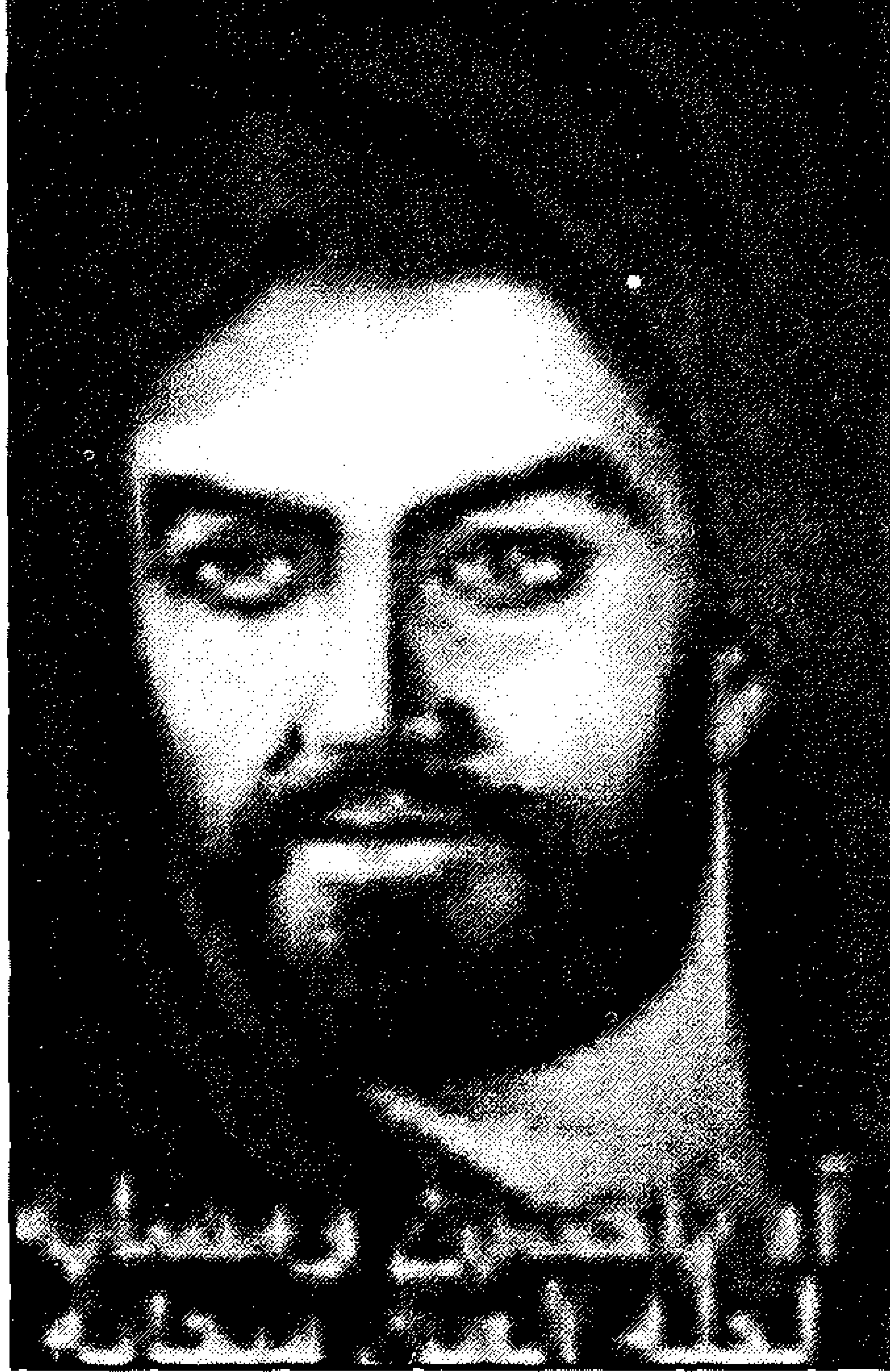
أصبحت جان دارك مثلاً يُحتذى به، كبطلة فرنسية ساهمت في تحرير بلادها من الإنكليز.



٤٠

حسان بن النعمان الأَزْدى
قائد الفتوحات فى إفريقيا





حسان بن النعمان الأزدى الغسَّانى المُلقَّب الشيخ الأمين قائد الفتوحات فى إفريقيا ولد حسان بن النعمان بالشام، وأسلم عند الفتح الإسلامي للشام مع أهله ، حفظ القرآن والسنة النبوية وأتقن العلوم الفقهية، وروى عن عمر بن الخطاب، وكانت وفاته سنة (٨٦هـ)

اختار الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان ليقود الحملة الثامنة: (٨٥ هجرية/ ٦٩٢ - ٧٠٤م) لقيادة جيش كبير لتكملة الفتح الإسلامي بالمغرب، إذ بلغ عدد الجيش أربعين ألفا، فانقض على جبال الأوراس سنة (٧٢ هجرية/٦٩٥م)، ثم اقتحم قرطاجنة ليقضي فيها على الروم قضاء نهائيا سنة (٨٢هـ/٧٠١م) فصفى حسابه مع القرطاجيين. وكان من نتائج تلك المعارك التي قادها هذا الأخير أن استسلمت قبائل المغرب للجيش الإسلامي. لذلك اعتبرت هذه الحملة كآخر مظهر من مظاهر القضاء على المقاومة الفعلية للفتح العربي وتثبيت أقدام المسلمين نهائيا في المغرب الأقصى.

هكذا أتم حسان بن النعمان الغساني فتح إفريقية والمغرب، واعتنق أغلبية البربر الإسلام طوعا، ودخل العديد منهم في الجيش الإسلامي. فقضى حسان على كل ما من شأنه أن يزعزع استقرار الدولة الإسلامية ويهدد كيانها..

ويعتبر حسان بن النعمان :

- أول من دخل إفريقيا من الشام زمن بني أمية.
- ولاه معاوية إفريقيا وولاه عبد الملك بن مروان ، مصر.
- أرسله عبد الملك بن مروان إلى إفريقيا بعد حدوث الاضطرابات بها وقال: "ما أعلم أحد أكفأ بإفريقيا من حسان بن النعمان الغساني"
- بلغ جيشه ٤٠٠٠٠ ولم يدخل إفريقيا جيش قط مثله.
- فتح قرطاجنة وقضى على الملكة الكاهنة زعيمة البربر، وأسلم بعدها الكثير من البربر.
- فرت أمامه جيوش الروم وحلفاؤهم واتجهوا إلى صقلية والأندلس.
- أقام بالقيروان فجدد بناء مسجدها ودون الدواوين وولى الولاة.
- عزله عبد العزيز بن مروان فعاد إلى الشام، وحلف ألا يلي لبني أمية أبداً بعد أن حاول الوليد بن الملك أن يرده ويوليه مرة أخرى.



٤١

الأدميرال نيلسون ..
بطل معركة " طرف الغار "





الأدميرال هوراتيو نيلسون ٢٩ سبتمبر ١٧٥٨ عسكري إنجليزي. اشتهر بمشاركته بمعركة النيل و معركة طرف الغار، أحد أبرز القادة العسكريين في تاريخ المعارك.

توفي نيلسون يوم ٢١ أكتوبر ١٨٠٥ وهو يقاسي بعد إصابته في العمود الفقري لدى وقوفه على مقدمة سفينته أثناء معركة طرف الغار التي غيرت التاريخ، على سواحل إسبانيا .

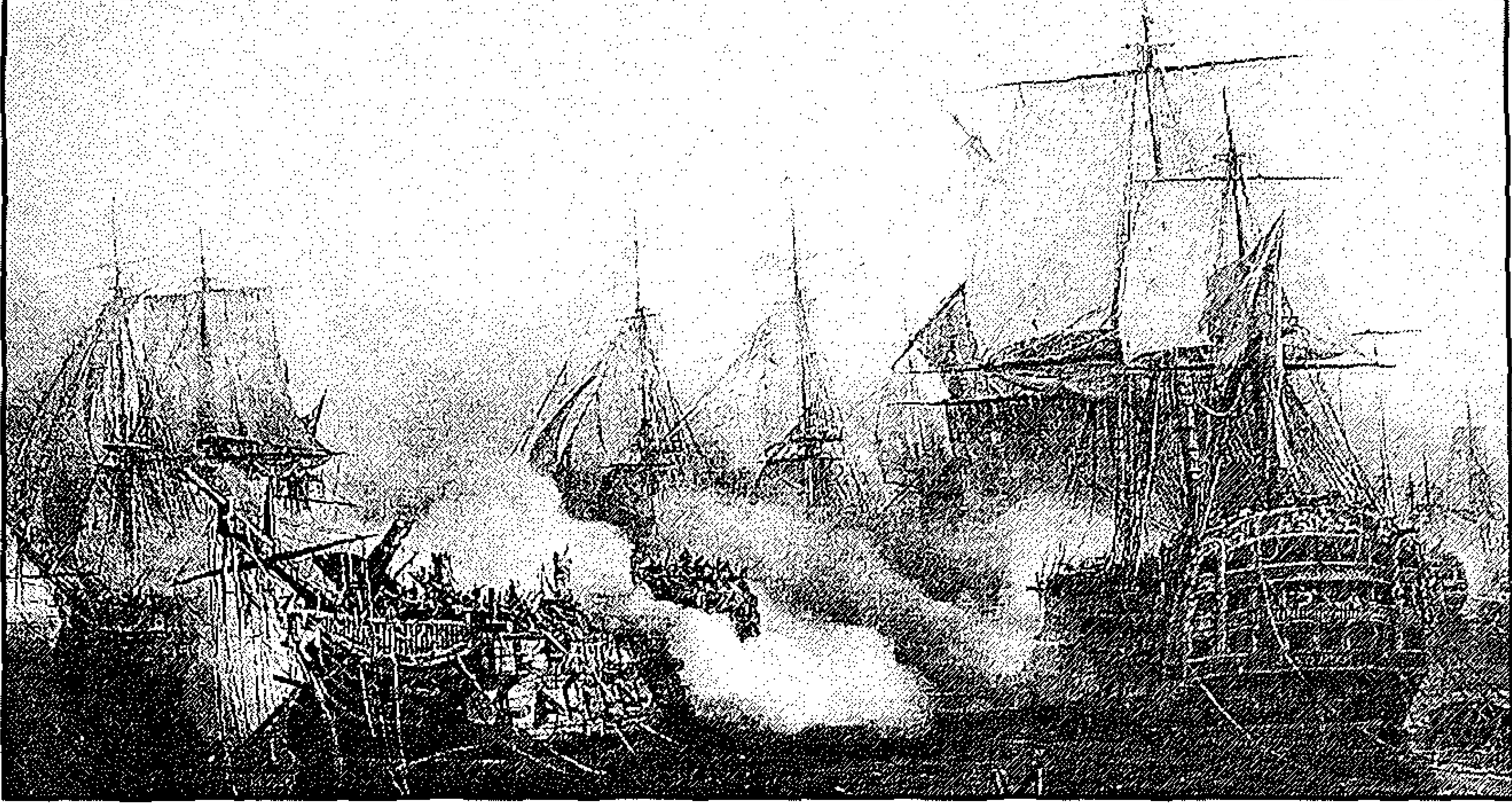
واعتبرت المعركة بداية النهاية لغزو نابليون بونابرت إمبراطور فرنسا لأوروبا وأمنت لبريطانيا السيادة على البحار لأكثر من قرن.

معركة طرف الغار Trafalgar وتعرف بشكل خاطئ بمعركة " الطرف الأغر " وقعت يوم ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥ قرب رأس طرف الغار في قادش جنوب غرب أسبانيا حيث تواجها الأسطولان الفرنسي والأسباني المتحالفين تحت قيادة الأدميرال بيير شارلز فيلنوف الفرنسي ضد الأسطول البريطاني بقيادة الأدميرال هوراتيو نيلسون. وقد سُمّي ميدان طرف الغار في لندن باسم هذه المعركة تخليدًا لانتصار نيلسون.

في ١٨٠٥، كانت القوة العسكرية المهيمنة على الأرض في القارة الأوروبية هي الإمبراطورية الفرنسية في إطار نابليون ، في حين كانت البحرية الملكيه البريطانية تسيطر على البحار.

أثناء الحرب ،فرضت البحرية الملكيه البريطانية حصارا بحريا على فرنسا، أثر على التجارة وأبقى فرنسا خالية تماما من تعبئة الموارد البحرية الخاصة بها. ورغم نجاح العديد من فرص التهرب من الحصار من قبل البحرية الفرنسية، إلا أنها لم تفلح في إلحاق هزيمة كبيرة عند البريطانيين. البحرية البريطانية كانت قادرة على أن تهاجم المصالح الفرنسية في الداخل والخارج بسهولة كبيرة.

سيطرت فرنسا على جميع الموانئ الأوروبية الكبرى باستثناء تلك البروسيه جمد التجارة الانجليزيه في أوروبا وهكذا اضطرت بريطانيا هي في نهاية المطاف إلى هجوم نابليون على الأرض البريطانية تملك من ذوي الخبرة والمدربين تدريبا جيدا من ضباط سلاح البحرية. وفي المقابل ، فإن معظم أفضل الضباط في القوات البحرية الفرنسية تم فصلهم من الخدمة خلال الأشهر الأولى من الثورة الفرنسية ونتيجة لذلك، الأميرال بيير شارل فيلنوف هو أكثر ضباط قيادة أسطول نابليون في البحر الأبيض المتوسط. ولكن فيلنوف قد أظهر عدم وجود حماسه لمواجهة نيلسون والبحرية الملكية بعد هزيمة معركة أبي قير البحرية.



لوحة تصور المعركة

حاول نابليون استدراج الأسطول البريطاني للذهاب إلى جزر الهند الغربية لكي يتمكن جيشه من غزو إنجلترا. ولكن أدميرال الأسطول الفرنسي فلينوف أَخْفَقَ في استدراج الأسطول البريطاني فقرر مهاجمته مُستعينًا بالأسطول الإسباني.

كان أسطول فلينوف يفوق أسطول نلسون من حيث العدد. فقد كان الأسطول الإنجليزي يتكون من ٢٧ بارجة بينما كان عدد الأسطولين الفرنسي والأسباني ٣٣ بارجة.

ومع ذلك فقد فاجأ نيلسون أعداءهُ بأن اختَرقَتْ سُفُنَه الخُطوط الفرنسية. ولم يَفْقِد الأسطول البريطاني أية سفينة وتمكن الأسطول البريطاني من الاستيلاء على ما يزيد على نصف السفن الفرنسية والإسبانية أو تدميرها.



٤٢

جوكوف بطل ستالينجراد ..
نعم .. التاريخ لا يخطئ !!





في سنة ١٩٧٥ توفي في موسكو جورجي جوكوف ، و في يوم دفنه خرج الملايين من السوفييت يبكون بحرقة هذا الرجل الفذ الذي قدم لبلاده الكثير .

و في التاسع من شهر مايو من كل عام تخرج روسيا بكاملها لتحتفل بيوم النصر على النازية وهو من أكبر أعياد روسيا الآن والاتحاد السوفيتي قبل تفكيكه و يُسمى هذا اليوم أو هذا العيد القومي بـ " يوم جوكوف " تخليدا للرجل صاحب الإنجاز و مهندس الانتصار .

الحدث دون شك يجسد أكبرالانتصارات والتضحيات في التاريخ البشري حجما ومضمونا إذ بلغت خسائر الاتحاد السوفيت خلال الحرب العالمية الثانية أكثر من عشرين مليون نسمة وصحح الرقم مؤخرا ليبلغ ٢٧ مليونًا. دامت الحرب خمسة اعوام تم خلالها تسخير كل مقدرات الاتحاد السوفيتي البشرية والمادية لخدمة المجهود الحربي .

في خلال الحرب برزت نخبة ممتازة من الجنرالات الروس كان أبرزهم و أشهرهم الماريشال جوكوف .

دخل الجندي جورجي جوكوف الجيش الروسي سنة ١٩١٥ كجندي في الوحدة ١٠٦ من سلاح الفرسان ، و دخل الحرب العالمية الأولى ليظهر من اليوم الأول شجاعة ملفتة و بسالة منقطعة النظير لتتم ترقيته بعد فترة وجيزة إلى ضابط صف و ليحصل و بكل جدارة على وسام سان جورج مرتين ، أحد أعلى الأوسمة في روسيا القيصرية .

وبعد انطلاق الثورة البلشفية شارك ضابط الصف جوكوف في الحرب الأهلية الروسية بين عامي ١٩١٨ -١٩٢١ و انتقل في هذه الحرب إلى الفوج ١ فرسان الذي استطاع إخضاع تومبوف أحد أقوى المتمردين ضد الثورة ليحصل على الوسام الأحمر وترقية رتبته مكافأة له على إنجازاته.



تمثال جوكوف الشهير في العاصمة الروسية موسكو تخليدا لإنجازات الرجل .

بين سنتي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ دخل الجيش الأحمر حربا غير معلنة على الحدود السوفيتية اليابانية و وصلت القوات اليابانية في هذه المعارك إلى ٨٠ ألفا و ١٨٠ دبابة و ٤٥٠ طائرة و في يوم ١٥ أغسطس ١٩٣٨ استطاع جوكوف تطويق القوات اليابانية و القضاء عليها وحصل على وسام بطل الاتحاد السوفييتي مكافأة له .

في سنة ١٩٤١ دخل الاتحاد السوفييتي الحرب العالمية الثانية - الحرب الوطنية العظمى كما يسميها السوفييت - وكان صاحبنا آن ذاك حصل على رتبة جنرال ليصبح مع بداية الحرب نائب القائد العام للأركان الماريشال بوريس شاباشينكوف والذي كلفه سنة ١٩٤٢ بالقتال في ستالينغراد و استطاع جوكوف ان يحقق نصرا على القوات الألمانية ليحصل للمرة الثانية على وسام بطل الاتحاد السوفيتي ولهذا قصة مشهورة .

فقد حدث أن كان جوكوف من المقربين إلي جوزيف **ستالين ويقال إنه** الشخص الوحيد الذي كان يستطيع مناقشة أمور حساسة وتعديلها **مع ستالين الصارم** و من هنا كان جوكوف هو أول من اقترح على الزعيم الروسي العتيد **شن هجوم** شامل ضد ألمانيا ووضع الخطة بأدق تفاصيلها وافترض أن الهجوم سوف **يبدأ في صيف عام** ١٩٤١ (علما أن هذا التاريخ هو نفس تاريخ هجوم القوات الألمانية على **روسيا) قبل أن** تأخذ ألمانيا الاتحاد السوفيتي على حين غرة .

لكن خطته هذه لم تلق اذانا صاغية لدى ستالين الذي كان متأكدا من أن ألمانيا لن تقوم بأي هجوم مالم تنتصر على بريطانيا لكن الحقائق أثبتت عكس ذلك .

ويوم وقوع الهجوم الالماني المدمر على الاتحاد السوفيتي طلب جوكوف من ستالين إخلاء جبهة كييف لأنها لا تستطيع تحمل الضغط الألماني عليها رفض ستالين اقتراح جوكوف ووبخه وكانت النتيجة أسر ٦٠٠ الف جندي سوفياتي في كييف.

بدأ ستالين يثق بجوكوف وبخبرته العسكرية وفي معركة الدفاع عن موسكو استدعى جوكوف لقيادة الجيوش المدافعة عن موسكو .

وكانت هذة المعركة من أعظم إنجازات جوكوف وبالفعل قام بإعداد خطة الدفاع ومن ثم قام بقيادة الهجوم المضاد في شتاء عام ١٩٤١ حيث اجبر الالمان على التقهقر بعيدا عن موسكو وبعد هذا الانتصار تمت ترقيته إلى مشير .

وفي عام ١٩٤٢وعندما احتلت القوات الألمانية مدينة ستالينغراد أرسل جوكوف إلى الجبهة الجنوبية الغربية للدفاع عن مدينة ستالينغراد حيث قام بهجوم شامل ومدمر ومن ثم قام بالالتفاف حول المدينة وتطويق الجيش السادس مع قوات الماريشال روكوسفسكي حيث أجبرة على الاستسلام وكانت النتيجة نصرا ساحقا للسوفييت .

وفي عام ١٩٤٣ قام بتنظيم الاختراق الأول للجيوش الألمانية التي حاصرت مدينة لينينغراد ولولا هذا الاختراق لكان مصير لينينغراد الإبادة على يد الألمان .

وفي نفس السنة قام بشن الهجوم المضاد الشامل أيضا مع المارشال روكوسفسكي ضد القوات الألمانية في معركة نتوء كورسك التي دمرت معظم القوات الألمانية المتمركزة في الاتحاد السوفياتي وفي عام ١٩٤٤ وبعد فشل المشير كليمينت في خرق الجبهة الألمانية في لينينغراد استدعي مرة أخرى المارشال جوكوف فقام باختراق الجيش الألماني من الشمال والجنوب ومن ثم تطويق الوسط مما أدى إلى تحرير مدينة لينينغراد من الاحتلال الألماني وأسر الحامية الألمانية.

ومن ثم قاد العملية العسكرية الأعظم في الحرب العالمية الثانية.وهي الهجومَ النهائيَ على قلب ألمانيا برلين في ربيع عام ١٩٤٥ .

يشار إلى أن المارشال جوكوف كان العنصر الأهم في تحقيق النصر على ألمانيا النازية سواء على مستوى الاتحاد السوفييتي أو على مستوى دول الحلفاء بعد استسلام ألمانيا، أصبحَ جوكوف القائد الأول لمنطقة الإحتلالِ السوفيتيةِ في ألمانيا ونائب القائد العام للقوات السوفياتية والقائد العسكري الأبرز في الاتحاد السوفياتي احتفل بالنصر في الساحة الحمراء في موسكو حيث قام بامتطاء حصانه الأبيض إلى جانب الجنرال الأميركي ايزنهاورالقائد الأعلى لقوات الحلفاء والذي لايخفي إعجابه الشديد بالمارشال جوكوف.

خرج جوكوف من الحرب وقد حصل على رتبة المارشال ووسام بطل الاتحاد السوفييتي أربع مرات ، ووسام لينين ست مرات و العديد من الأوسمة الأخرى كما أهداه الاتحاد السوفييتي ساعة ذهبية و شقة من غرفتين في حي راق من أحياء موسكو.

بقى أن نقول إنه عندما حاصر المارشال جوكوف قائد القوات السوفيتية مدينة برلين قبل قليل من نهاية الحرب العالمية الثانية، دكها بحوالي ٦ آلاف قذيفة في أسبوع واحد قبل أن يستسلم النازيون.

وهناك مقولة شهيرة للماريشال جوكوف عندما فتح برلين وأسر عددا من الجنرالات الألمان .. قال له القائد الألماني الذي أستسلم على يديه :أعتقد أنها غلطة تاريخية .ويقصد بذلك كيفية تفوق الجيش الأحمر على القوات الألمانية التي تتمتع بالمعدات المتفوقة والأسلحة الفتاكة والعقول العبقرية.فأجابه المارشال جوكوف : إن التاريخ لا يُخطئ!



٤٣

"الجنرال جياب ..بطل ديان بيان فو"
درس للعسكريين عبر العصور !!





في شهر مارس ١٩٥٠ كان الكاتب الفرنسي أندريه مالرو (١٩٠١ ـ ١٩٧٦) ، الذي أصبح ، فيما بعد، وزير الثقافة الفرنسية، في زيارة ميدانية لفيتنام لتغطية الحرب الدائرة بين القوات الفرنسية تؤازرها القوات الأمريكية من جهة وبين ثوار فيتنام من جهة أخرى .

كانت "ديان بيان فو" تعتبر خلال تلك الحرب من أهم المراكز الاستراتيجية لدى كلا الجانبين. وكان مالرو قد "سمع" عن الجنرال فو نغوين جياب ، القائد الثوري الفيتنامي الذي أصبح فيما بعد أحد أهم قادة حرب العصابات في العالم .

ذهب مالرو للقاء جياب ، و"ذهل" عندما رآه يرتدي "سروالا من الكتان وحذاءً من المطاط ، ويحمل عتاده العسكري على ظهره ، شأنه في ذلك شأن أي جندي عادي" . وفي كتابه "المذكرات المضادة" Anti-Memories يقول أندريه مالرو إنه سأل جياب عما إذا كان يعتقد بأن "عصابات من الفلاحين الجهلاء" قادرة على هزيمة فرنسا. وأجابه جياب والابتسامة لا تفارق مُحيَّاه : "ليس النصر شرطا لدخول المعركة، يا سيدي... وليس الهرب من ميدانها طريقا إلى النجاة ... ليس ثمة هزيمة أكبر من أن تعلن يأسك من نفسك بينما عدوك خائف منك حتى الموت..." وطوال الأعوام الأربعة التي أعقبت ذلك اللقاء أحرز الجنرال فو نغوين جياب انتصارات عسكرية مؤزرة على القوات الاستعمارية الفرنسية ، وصارت انتصاراته تتوالى إلى أن تُوِّجت في معركة ديان بيان فو الشهيرة . وفي السابع عشر من أيار ١٩٥٤ سقطت قلعة ديان بيان فو في أيدي القوات الوطنية بقيادة الجنرال غياب ، وأصبحت تلك المعركة التاريخية درسا إلزاميا على الطلاب في المعاهد والأكاديميات العسكرية .

اسم الجنرال جياب انتشر في أصقاع العالم في أواسط الخمسينيات من القرن الماضي العشرين ، تحديداً بعد انتصار قوات حركة التحرر الفيتنامية (المعروفة، آنذاك، باسم فييت مينه)، بقيادته، في معركة ديان بيان فو، واستسلام قوات الاستعمار الفرنسي للقوات الثورية الفيتنامية، وذلك يوم ٧ مايو ١٩٥٤، أي قبل خمسة وخمسين عاماً من هذا الوقت ، بعد حصار امتد ستة وخمسين يوماً لهذا الموقع الفرنسي العسكري الحصين.

وهكذا انتهت الحرب التحررية الفيتنامية الكبرى الأولى التي كانت قد بدأت بقوة وعنف منذ أواخر العام ١٩٤٦ بين المستعمرين الفرنسيين وقوات الثورة الفيتنامية، بقيادة مؤسس هذه الحركة ومؤسس الحزب الشيوعي الفيتنامي، هو شي مينه.

واستسلم الفرنسيون، بعد هذه الحرب الدموية التي أشعلوها ودامت أكثر من سبع سنوات، وبعد استعمار دام زهاء السبعين عاماً استسلموا للواقع الآسيوي الجديد، واقع

الاستقلالات والتخلص من الاستعمار القديم ومن النظم الهشة التابعة التي أقامها، وهو الواقع الذي تكرّس منذ أواخر الأربعينيات من القرن السابق العشرين باستقلال الهند (وباكستان، التي كانت جزءًا من الهند)، ثم انتصار قوى اليسار في الصين بقيادة ماوتسي تونغ والحزب الشيوعي، واستقلال إندونيسيا، وغيرها من بلدان آسيا الشرقية، التي كانت قبل ذلك مستعمرة ومنتهكة سيادتها، كما خضعت لاحتلالات يابانية منذ الثلاثينات وأبان الحرب العالمية الثانية حتى هزيمة اليابان في صيف العام ١٩٤٥.

وبانتصار الثوار الفيتناميين على دولة استعمارية، رئيسية في ذلك الحين، أخذت لهب حركات التحرر تنتشر في أنحاء العالم الثالث، الذي كان ما زال في معظمه يخضع للاستعمار المباشر. وليس صدفة أن ثورة الجزائر انطلقت (في مطلع نوفمبر ١٩٥٤) بعد ستة أشهر تقريباً من الانتصار الفيتنامي، حيث إن العديد من القادة اللاحقين لحرب التحرر الوطنية في الجزائر كانوا مجندين (عنوة) في الجيش الفرنسي باعتبار الجزائر كانت ملحقة بفرنسا، مما أتاح لهم التواصل المباشر مع الشعوب المكافحة لحريتها ضد الاستعمار الفرنسي، وخاصة شعب فيتنام.

وفي السنوات الأولى للثورة الفلسطينية المعاصرة، أي في أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن العشرين، حمل العديد من الفدائيين الفلسطينيين في صفوف المقاومة اسم "جياب" كاسم حركي، إلى جانب أسماء أخرى من وحي حركات التحرر والحركات الثورية العالمية الأخرى، مثل غيفارا وكاسترو وماو وغيرهما.

وكان انتصار ديان بيان فو في ربيع العام ١٩٥٤ قد قاد إلى التعجيل في إنجاز المفاوضات الدولية حول فيتنام، بحيث جرى التوصل إلى اتفاقية جنيف في شهر تموز/ يوليو من العام ذاته، وهي الاتفاقية التي تقر باستقلال الجزء الشمالي من فيتنام، وتدعو لانتخابات عامة في غضون عامين لتقرير مصير البلد برمته، وخصوصاً الجنوب، الذي بقي عمليّاً تحت وصاية غربية (أميركية) وحكم تابع.

وبقية الرواية التاريخية معروفة. حيث عطّلت الولايات المتحدة الأميركية انتخابات العام ١٩٥٦ (وكانت قد رفضت التوقيع على اتفاقية جنيف، بالرغم من مشاركتها في المؤتمر الدولي الخاص بمصير فيتنام). فاضطر الفيتناميون إلى العودة إلى السلاح

بعد سنوات قليلة من انتصارهم التاريخي في ديان بيان فو، حيث تشكلت الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام في العام ١٩٦٠، وخاضت، مع جيش وقوات جمهورية فيتنام الديمقراطية (الشمال)، حرباً أشد عنفاً وأكثر كلفة بشرية ومادية في مواجهة القوة الأولى في العالم بعد الحرب العالمية الثانية، الولايات المتحدة الأميركية. وكان حجم القوات الأميركية المقاتلة في جنوب فيتنام، بالإضافة إلى الأساطيل والقوات الجوية التي شاركت في الحرب، على الجنوب والشمال على حد سواء، قد وصل إلى زهاء نصف المليون عسكري أميركي في أواخر ستينيات القرن العشرين يضاف إليهم مئات الآلاف من المجندين من جنوب فيتنام في إطار جيش النظام التابع هناك.

لكن صلابة المقاومة الفيتنامية وتلاحم الشعب بقيادة هيئاته المتحدة وزعيمه التاريخي، هو شي مينه، كسرا حدة الهجوم الأميركي الشرس، الذي انكفأ منذ العام ١٩٦٨، مقرّاً بمبدأ التفاوض مع الفيتناميين وقواهم التمثيلية الحقة. لينتهي الأمر باتفاق العام ١٩٧٣ في باريس الذي قضى بانسحاب القوات الأميركية، ومن ثمّ بالهزيمة المدوية للاحتلال الأميركي مع دخول القوات الفيتنامية إلى عاصمة الجنوب (سايغون، آنذاك، ولاحقاً وحالياً "مدينة هو شي مينه") يوم ٣٠ أبريل ١٩٧٥، اليوم الوطني الفيتنامي الذي تكرست فيه وحدة الشعب والأرض، وقامت بعده "جمهورية فيتنام الاشتراكية" على كل الأرض الفيتنامية المحررة.

ورغم أن هذه الانتصارات العسكرية رُبطت كلها في أذهان الكثيرين في العالم باسم الجنرال جياب، الذي بات يُعتبر أحد أبرز الاستراتيجيين العسكريين في القرن العشرين، إلا أن واقع الحال أن القادة العسكريين الذين أنجزوا مهمة التحرير في السبعينيات الماضية كانوا من جيل جديد من الضباط.

فقد استطاع جياب ورفاقه في القيادة الفيتنامية، وفي المقدمة القائد الاستثنائي هو شي مينه، أن يُوجدوا إطارات كفاح وقيادة أنجبت القائد تلو القائد والعسكري الفذ تلو الآخر. وعندما رحل "العم" هو شي مينه، كما كان يلقّب تحبباً، في العام ١٩٦٩، في أوج المعارك مع الأميركيين (وقد ظنّوا لوهلة أن رحيله سيؤثر على معنويات الفيتناميين)، استمر الكفاح الفيتنامي ضد الاحتلال الأميركي بنفس درجة الكفاءة والفعالية... كما استمرت المفاوضات في الوقت ذاته في العاصمة الفرنسية باريس بين الطرفين المتواجهين، وبنفس الكفاءة والصلابة اللتين طبعتا المفاوضات التي سبقت.

وعندما دخلت قوات التحرير الفيتنامية عاصمة الجنوب في أواخر أبريل عام ١٩٧٥، واضطر السفير الأميركي وطاقمه إلى الهرب من سطح سفارته بالطائرات العمودية (الهليكوبتر)، خرجت مجلة "تايم" الأميركية الأسبوعية بغلاف يظهر خارطة فيتنام الموحدة وفوقها رسم كبير للزعيم الفيتنامي الراحل هو شي مينه، وكلمة كبيرة تحت الرسم: "ذي فيكتور".. "المنتصر".

أي إن استراتيجية التحرير الفيتنامية، التي وضعها هو شي مينه ورفاقه منذ ثلاثينيات القرن العشرين، قادت إلى تحقيق الأهداف المرجوة... في السبعينيات، وحتى بعد رحيل القائد، الذي ملك شعبه ورفاقه في القيادة كل الكفاءات الضرورية لمواصلة المعركة وتحقيق الانتصار، بالرغم من فداحة الثمن، خاصة على الصعيد البشري (ثلاثة إلى أربعة ملايين من الضحايا في الحربين وما بينهما).

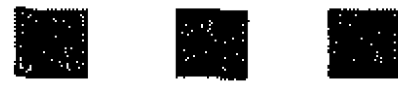
ولم يكن غريباً أن يجيب الجنرال جياب، معلم التاريخ السابق الذي تحوّل إلى قائد عسكري، في المؤتمر الصحفي الذي انعقد بحضوره بمناسبة ذكرى الانتصار على الاحتلال الأميركي وتوحيد فيتنام في أواخر أبريل ٢٠٠٥، أن يجيب على سؤال لأحد الصحفيين حول المقاومة الجارية الآن في العراق، لنفس القوات الأميركية، قائلاً إنه ليس ملمّاً بالوضع الداخلي العراقي وخصوصياته ولم يسبق له أن زار البلد. ولكنه أضاف: "كل القوى التي تريد أن تفرض إرادتها على شعوب أخرى ستواجه الهزيمة حتماً"... وكذلك "كل الشعوب التي تكافح من أجل حقوقها المشروعة وسيادتها ستنتصر حتماً"... وكذلك "على القوى الكبرى في عالمنا المعاصر ألا تستهين بتطلع البلدان الأضعف إلى الاستقلال"... وكذلك "تجربة فيتنام أكدت أن شعباً مصمماً على الوقوف في وجه الغزو هو شعب قوي جدّاً".

كلمات بسيطة من رجل تسعيني غاية في البساطة والتواضع، ولكنه يحمل في جسمه النحيل الهش كل أمجاد الشعوب التي كافحت وانتصرت على القوى العاتية في العقود الماضية... وهي أولاً أمجاد شعب بأكمله، كافح بلا هوادة من أجل حريته واستقلاله وسيادته على أرضه، وأنجب في مسيرته التحررية الطويلة أبناء وقادة أفذاذاً، مثل هو شي مينه وفو نغوين جياب وفام فان دونغ وغيرهم، وغيرهم.



٤٤

المعتصم و فتح عمورية ..
السيف أصدق أنباء مِّنَ الكتبِ !!





كانت وصية الخليفة المأمون لأخيه المعتصم وهو على فراش المرض أن يقضي على فتنة بابك الخُرَّمي، وكان زعيم فرقة ضالة، تؤمن بالحلول وتناسخ الأرواح، وتدعو إلى الإباحية الجنسية. وبدأت تلك الفتنة تطل برأسها في أذربيجان، ثم اتسع نطاقها لتشمل همدان وأصبهان، وبلاد الأكراد وجرجان. وحاول المأمون أن يقضي عليها فأرسل الحملات تترى لقمع تلك الفتنة، لكنه توفي دون أن يحقق نجاحًا، تاركًا للمعتصم مهمة القضاء عليها.

وما إن تولى المعتصم الخلافة حتى انصرف بكليته للقضاء على فتنة بابك الخرمي مهما كلفه الأمر، وخاصة بعد أن شغلت الخلافةَ سنوات طويلةً، وأنهكت ميزانية الدولة، وأهلكت الرجال والأبطال. واستغلت الدولة البيزنطية انشغال الخليفة المعتصم بالقضاء على تلك الفتنة الهوجاء وراحت تعتدي على حدود الدولة العباسية، وجهزت لذلك جيشًا ضخمًا قاده إمبراطور الدولة، حيث هاجم شمال الشام والجزيرة.

وكان بابك الخرمي -حين ضاق عليه الحصار، واشتد الخناق عليه، وأيقن ألا مفر من الاستسلام- قد اتصل بإمبراطور الروم يحرضه على غزو الدولة العباسية؛ ليخف الحصار عليه، وزين له أمر الهجوم بأن معظم جيوش الدولة مشغول بالقضاء عليه، ولم يبق في العاصمة قوة تدافع عنها، ووعده باعتناق المسيحية هو وأتباعه.

عزز ذلك الأمر من رغبة الإمبراطور في الهجوم على الدولة العباسية، ودخل بقواته مدينة "زبطرة" التي تقع على الثغور وكانت تخرج منها الغزوات ضد الروم. وقتل الجيش البيزنطي من بداخل المدينة من الرجال، ثم انتقل إلى "ملطية" المجاورة، فأغار عليها وعلى كثير من الحصون، ومثل الجيش الرومي بمن وقع في يده من المسلمين، وسمل أعينهم، وقطع آذانهم وأنوفهم، وسبى أكثر من ألف امرأة مسلمة، ورجع الجيش البيزنطي إلى القسطنطينية فرحًا بما حقق، واستُقبل من أهلها استقبالا رائعًا.

وصلت هذه الأنباء المروعة إلى أسماع الخليفة المعتصم وكان قد أوشك على قمع فتنة بابك الخرمي. وحكى الهاربون الفظائع التي ارتكبها الروم مع المسلمين، فاستعظم الخليفة ما حدث، وأمر بعمامة الغزاة فاعتمَّ بها، ونادى لساعته بالنفير والاستعداد للحرب، وبعث بنجدة إلى أهل زبطرة بقيادة "عجيف بن عنبسة"، استطاعت أن ترد إليها الهاربين من أهلها تطمئنهم، وفي هذه الأثناء تمكن "الأفشين" أبرع قادة المعتصم من القضاء على الفتنة وألقى القبض على بابك الخرمي في (١٠ من شوال ٢٢٢هـ = ١٦ من سبتمبر ٨٣٧ م).

وكان المعتصم قد سأل: أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل: عمورية؛ لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام وهي عين النصرانية، فسارع بتعبئة الحملة وتجهيز الجيش بكل ما يحتاجه، حتى قيل: إنه لم يتجهز قبله مثله، وخرج إلى عمورية في

(جمادى الأولى ٢٢٣هـ= أبريل ٨٣٨م) ولم تكن من عادة الحملات الكبرى الخروج في ذلك الوقت، غير أن الخليفة كان متلهفا للقاء، ورفض قبول توقيت المنجّمين الذين تنبؤوا بفشل الحملة إذا خرجت في هذا التوقيت، وهذا ما عبر عنه الشاعر الكبير "أبو تمام" في بائيته الخالدة التي استهلها بقوله:

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... في حدّه الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف ... في متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعةً ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية؟ أم أين النجوم ؟ وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصًا وأحاديثا ملفقة ... ليست بنبع إذا عُدّت ولا غرب
عجائبا زعموا الأيام مجفلة ... عنهن في صفر الأصفار أو رجب

وعند "سروج" قسم المعتصم جيشه الجرار إلى فرقتين: الأولى بقيادة الأفشين، ووجهتها أنقرة، وسار هو بالفرقة الثانية، وبعث "أشناس" بقسم منها إلى أنقرة ولكن من طريق أخرى، وسار هو في إثره، على أن يلتقي الجميع عند أنقرة.

علم المعتصم من عيونه المنتشرين في المنطقة أن الإمبراطور البيزنطي قد كمن شهرًا لملاقاة الجيش الإسلامي على غِرّة، وأنه ذهب لمفاجأة الأفشين، وحاول الخليفة أن يحذر قائده، لكنه لم يستطع، واصطدم الأفشين بقوات الإمبراطور عند "دزمون" وألحق الأفشين بالإمبراطور البيزنطي هزيمة مدوية في (٢٥ من شعبان ٢٢٣ هـ= ٨٣٨م) ولم يحل دون النصر الضباب الكثيف الذي أحاط بأرض المعركة أو المطر الغزير الذي انهمر دون انقطاع، وهرب الإمبراطور إلى القسطنطينية، وبقي قسم من جيشه في عمورية بقيادة خاله "ياطس" حاكم "أناتوليا".

دخلت جيوش المعتصم أنقرة التي كانت قد أخليت بعد هزيمة الإمبراطور، وتوجهت إلى عمورية فوافتها بعد عشرة أيام، وضربت عليها حصارًا شديدًا.

بدأ الحصار في (٦ من رمضان ٢٢٣هـ= ١ من أغسطس ٨٣٨م)، وأحاطت الأبراج الحربية بأسوار المدينة، في الوقت نفسه بعث الإمبراطور البيزنطي برسوله يطلب الصلح، ويعتذر عما فعله جيشه بزبطرة، وتعهد بأن يبنيها ويردّ ما أخذه منها، ويفرج عن أسرى المسلمين الذين عنده، لكن الخليفة رفض الصلح، ولم يأذن للرسول بالعودة حتى أنجز فتح عمورية.

ابتدأت المناوشات بتبادل قذف الحجارة ورمي السهام فقُتل كثيرون. وكان يمكن أن يستمر هذا الحصار مدة طويلة، لولا أن أسيرًا عربيًّا قد أسره الروم دلّ الخليفة المعتصم على جانب ضعيف في السور، فأمر المعتصم بتكثيف الهجوم عليه حتى انهار، وانهارت معه قوى المدافعين عنه بعد أن يئسوا من المقاومة، واضطر قائد الحامية "ياطس" إلى التسليم، فدخل المعتصم وجنده مدينة عمورية في (١٧ من رمضان ٢٢٣هـ= ١٢ من أغسطس ٨٣٨م). وقد سجل أبو تمام هذا النصر العظيم وخلّد ذكرى المعركة، فقال:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به — نظمٌ من الشعر أو نثر من الخطب

فتـح تفتَّح أبواب السمـــاء له — وتبرز الأرض في أثوابهـــا القُشُـبِ

يا يوم وقعة عمورية انصرفت — عنك المنى حُفّلا معسولة الحلـــب

ثم يصور الأهوال التي نزلت بالمدينة حتى اضطرت إلى التسليم تصويرا رائعًا، فيقول:

لقد تركتَ أميـر المؤمنـــين بهـــا — للنار يوما ذليل الصخب والخشب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى — يشلّه وسطهـــا صبـح من اللهـــب

حتى كـأن جلابيب الدجـى رغبت — عن لونهـــا وكأن الشمـــس لم تغب

ثم يهنّأ الخليفة بهذا النصر الذي ناله بعد تعب ومشقة، فيقول:

خليفة الله جازى الله سعيــك عن — جرثومة الدين والإسلام والحسَب

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترهـــا — تُنال إلا علـى جسر مـن التعـــب

إن كان بين صروف الدهر من رحـــم موصولة أو زمام غير منقضـــب

فبين أيامــك اللاتي نُصــرت بهـــا وبين أيام بدرٍ أقــرب النســب

أبقت بني الأصفر المراض كماسْمهم صُفْرَ الوجوه وجلّت أوجه العرب

وبعد هذا النصر قرر المعتصم المسير إلى القسطنطينية، لكن هذا المشروع لم يقيض له أن ينفذ، بعد أن اكتشف المعتصم مؤامرة للتخلص منه دبرها بعض أقربائه، كما أن فتح القسطنطينية يحتاج إلى قوى بحرية كبيرة لم يكن يملكها ساعتها، فتوقف المشروع إلى حين.



٤٥

معركة الماراثون ..وحكاية بابيتس
العداء الذي دخل التاريخ !!





داريوس الأول

ماراثوناس أو ماراثون هو اسم البلدة مشتق من لفظ (ماراثون=μάραθον) في اللغة اليونانية)وهو اسم نبات الشمرة، ويعتقد أن الإغريق القدماء أطلقوا هذه التسمية على البلدة بسبب وفرة هذا النبات في السهل والمنطقة المحيطة بها.

تقع البلدة على ارتفاع (٣٠) مترا عن مستوى سطح البحر في وسط سهل ماراثون الساحلي ذي الشكل الهلالي، وتبعد مسافة خمسة كيلومتر عن ساحل خليج بيتاليون أحد تفرعات بحر إيجة الغربية.

تبعد ماراثون مسافة (٣٤) كم عن أثينا عاصمة البلاد، ويبلغ عدد سكانها (٤،٣٠٠) نسمة، أما عدد سكان البلد ككل فهو حوالي (٨) آلاف نسمة (التعداد العام للسكان لعام ٢٠٠١).

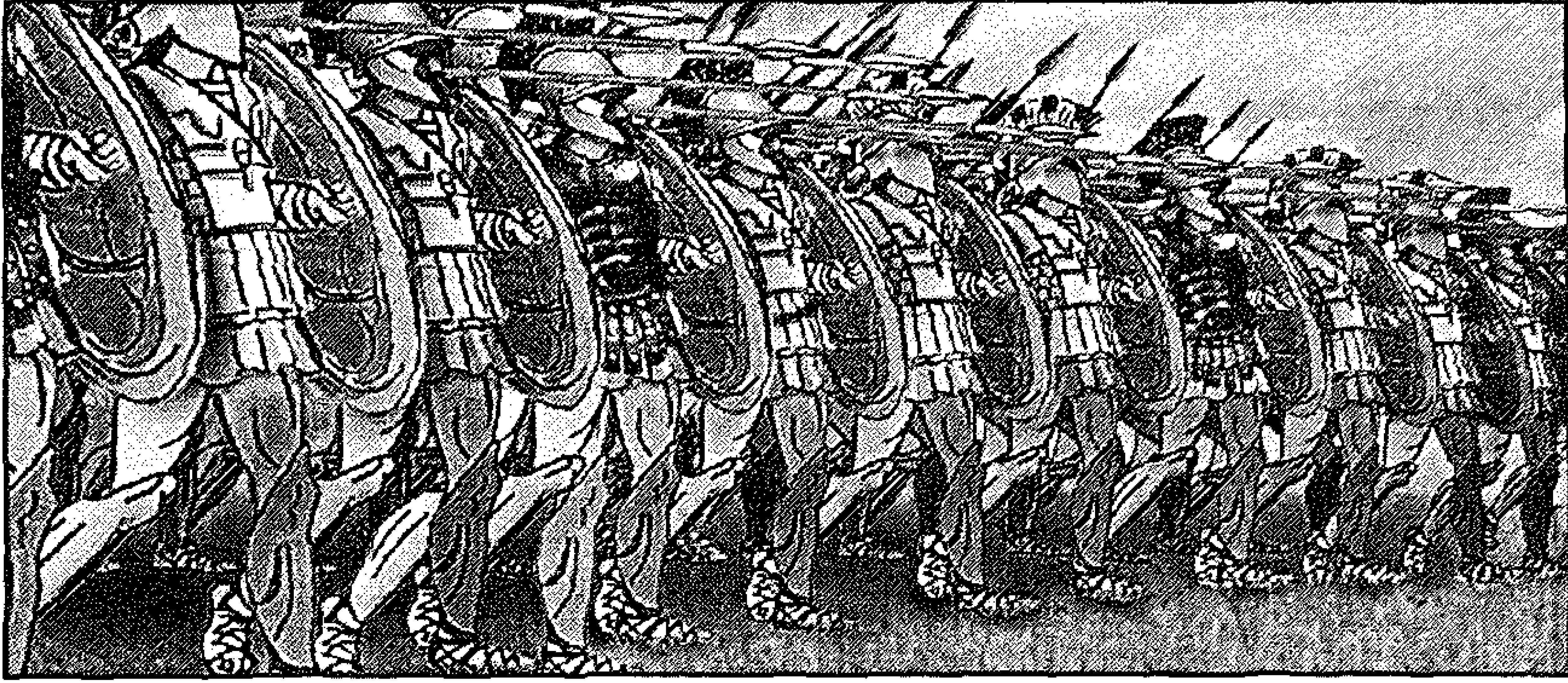
أما اسم البلدة هذا فقد أصبح شهيراً في كل لغات العالم بسبب إطلاقه على سباق العدو الأولمبي لمسافة طويلة الذي يعرف بسباق الماراثون أو فقط الماراثون.

وهذا الأمر يعود لتاريخ الإغريق القديم بسبب معركة ماراثون التي جرت بين الجيش الفارسي الجرار، والجيش الإغريقي قليل العدد بالقرب من البلدة في عام (٤٩٠) ق.م. وفي هذه المعركة نجح الجيش الإغريقي بتحقيق انتصار كبير، وإيقاف تقدم الجيش الفارسي على الرغم من قلة عدد الجنود وتنظيمهم، ومع لحظات الانتصار الأولى تم إرسال أحد الجنود الإغريق إلى أثينا ليزف إلى سكانها خبر الانتصار البهيج، استمر هذا الجندي الذي يدعى فيدييديس (Pheidippides) بالجري من أرض المعركة حتى وصوله إلى العاصمة صائحاً على طول الطريق بعبارة (نتيكيكامن=Nenikekamen) وتعني (نحن المنتصرون)، وتقول الأسطورة أنه عندما وصل إلى أثينا مخبراً أهلها بالانتصار خر صريعاً نتيجة التعب والإرهاق الشديدين.

اعتمد سباق الماراثون بدءاً من دورة الألعاب الأولمبية الأولى التي أقيمت في أثينا عام ١٨٩٦، تخليداً لذكرى هذه الواقعة التي حمت الديمقراطية الأثينية من السقوط أمام الزحف الفارسي.



لوحة في متحف أثينا تصور السفن الفارسية قبل المعركة



لوحة تصور الجيش الاغريقي

وتعتبر ساحة معركة ماراثون من أهم معالم البلدة وتقع إلى الجنوب تماماً منها، وتوجد هناك -رابية الأثينيين والتي تسمى سوروس (Soros) أو تيمفوس (Tymvos)، وهي مدفن على شكل هضبة صغيرة يقال إنه دفن فيها (١٩٢) مقاتلا أثينيا كانوا كل قتلى الجيش الإغريقي في تلك المعركة، تم إجراء حفريات أثرية في موقع المعركة على يد شليمان مكتشف طروادة، أثبتت وجود عظام متفحمة (كانت عادة الإغريق حرق جثث قتلاهم)، وأيضاً أوانٍ فخارية تعود إلى قرون سبقت تلك المعركة.

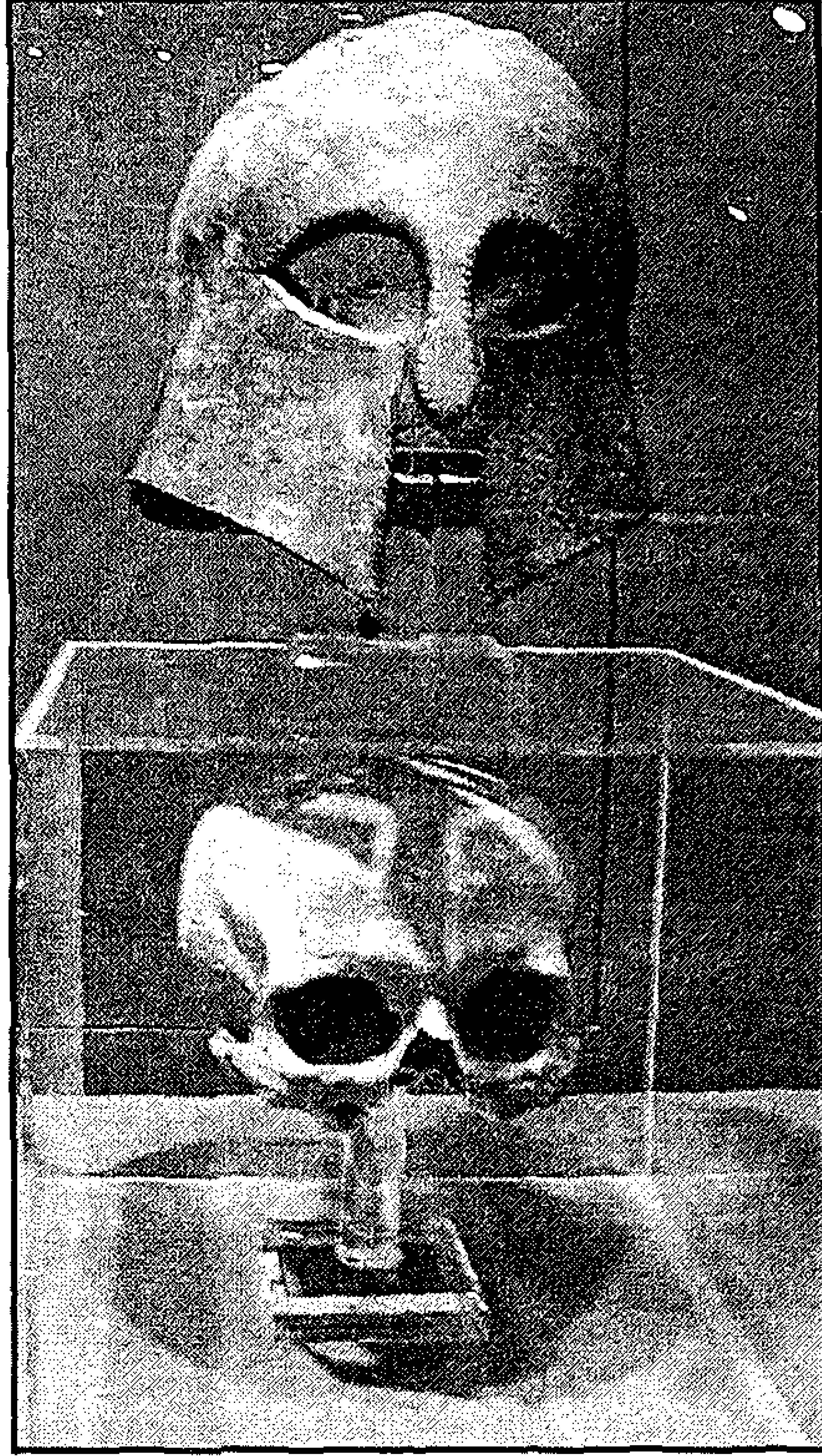
توجد هناك مقبرة تلي أخرى تخص قتلى الإغريق القادمين من مدينة بلاتيا. ومتحف ماراثوناس الأركيولوجي (يقع على بعد ٥ ك من أرض المعركة) ويضم لقى أثرية مهمة من بلدة ماراثوناس، ساحة المعركة، والسهل المحيط بالبلدة، ومن أهم القطع الأثرية المعروضة فيه: الفخاريات التي تعود للعصر النيوليثي والفترة الهيلادية القديمة، بالإضافة إلى قطع منقوشة من بيت هيرودوس آتيكوس، النصب التذكاري لمعركة ماراثون، وأيضاً معبد بريكسيزاس المصري الغامض. و توجد خارج المتحف بعض المقابر التي تعود للفترة الهيلادية المتوسطة.

ومعركة الماراثون من أهم المعارك التي حدثت في تاريخ الحضارة الغربيَّة، فهناك وفي سنة ٤٩٠ ق.م قام جيش يوناني بقهر جيش الغزو الفارسي، وأنقذ اليونان من أن تصبح جزءًا من الإمبراطوريَّة الفارسية، وتقع الماراثون على بُعْد ٤٠كم شمال شرقي أثينا.

أسباب المعركة. في عام ٥٠٧ ق.م طلب شعب أثينا من الملك داريوس الأول ملك فارس أن يتحالف معهم ضد أسبرطة التي كانت دولة قويَّة باليونان الجنوبيَّة، ومن أجل تشكيل التّحالف قام ممثلو أثينا بتقديم الوعود بطاعة الشعب لداريوس. وقامت حكومة أثينا فيما بعد برفض الاتفاق، ولكنَّ داريوس استمر في اعتبار نفسه الحاكم الحقيقي لأثينا.

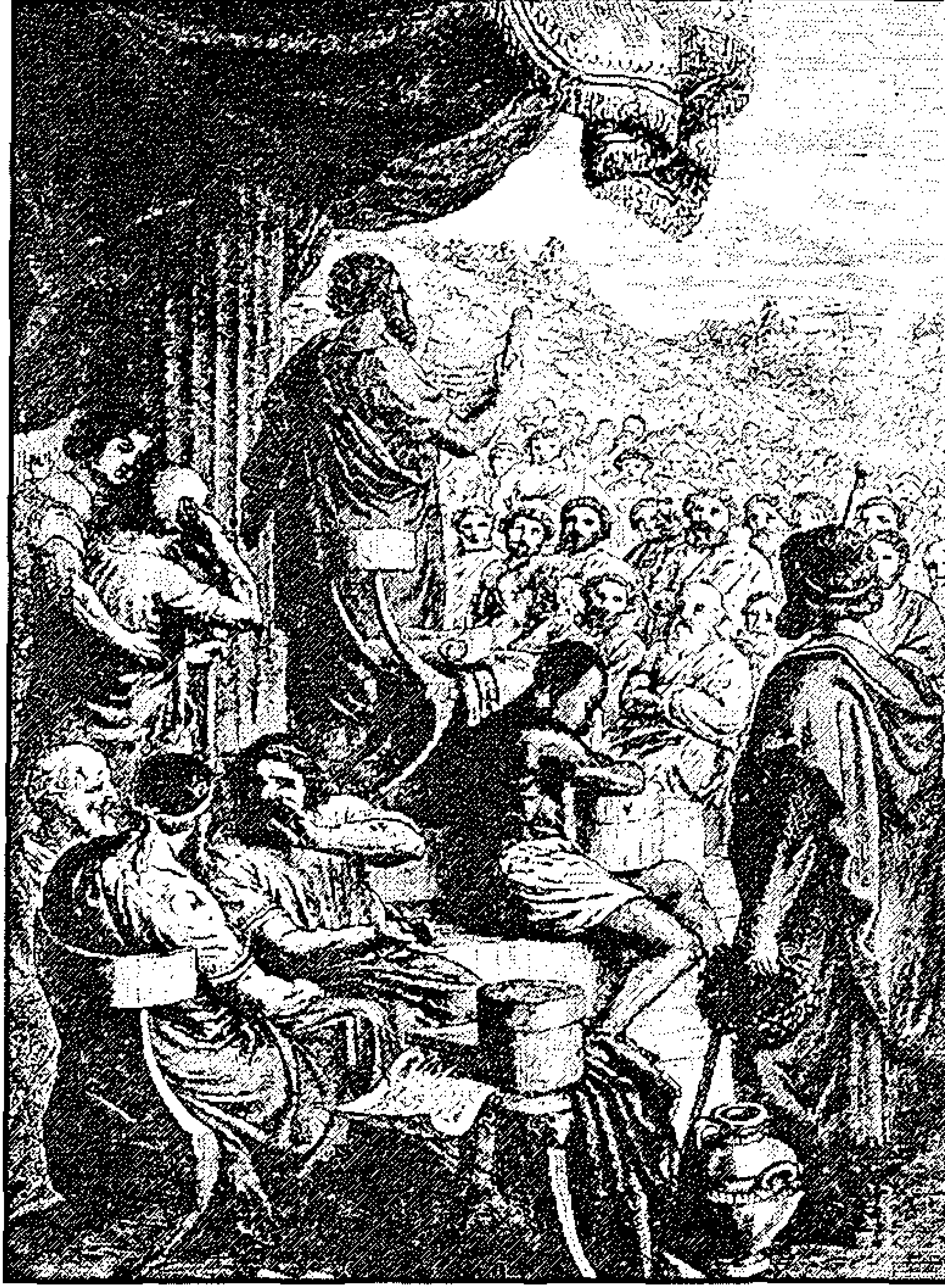
وفي أوائل سنة ٤٩٩ ق.م، تمرّد اليونانيون الذين كانوا تحت الحكم الفارسي في آسيا الصُّغرى (تركيا الآن) ضد داريوس، وأرسل شعب أثينا الجنود وعشرين سفينة لمساعدة المتمردين، ثم قامت القوات اليونانية بمهاجمة ساردیس وإحراقها حيث كانت المدينة التي كان يتَّخذها داريوس عاصمة له بآسيا الصُّغرى، فأقسم داريوس أن ينتقم من شعب أثينا بأن يقهر أثينا ويحرقها.

في سنة ٤٩٠ق.م أرسل داريوس ابن أخيه أرتافرمس، وكذلك داتس وهو واحد من لواءاته على رأس جيش وأسطول مكوَّن من ٢٠٠ سفينة لقهر أثينا، وقام الفُرْسُ أوَّلاً بتدمير إرتريا وهي مدينة توجد بجزيرة يونانية تُسمَّي يوبوا ثمَّ أبحروا إلى الماراثون، فقام الضابط الأثيني ملتيادس بوضع القوات الأثينيَّة على الحافَّة الدَّاخليَّة لمنطقة الماراثون، واحتل الفرس الحافَّة التي تطل على البحر.



خوذة لجندي فارسي مات في المعركة و جمجمته التي وجدت داخلها و هما معروضتان في متحف أونتاريو بمدينة تورنتو الإيطالية

انتظر جيشا الطرفين أيامًا عديدة، وترقَّب الفُرْسُ وصول إشارة تفيد بأن شعب أثينا المتحالف معهم قد أضعف قوة أثينا ببدء حرب أهلية بالمدينة، وفي الوقت نفسه انتظر الجيش الأثيني مساعدة متوقعة من أسبرطة ولكنَّ نحو ٦٠٠ جندي فقط من بلاتايا - وهي مدينة بالقرب من أثينا - انضموا لشعب أثينا بالماراثون.



لوحة من أحد مؤلفات هيرودوت يروي فيها قصة الماراثون و علاقتها بمعركة الماراثون .

وبعد مرور بضعة أيام، قام زعماء الفرس - أملاً في أن تكون قد حدثت حرب أهلية بأثينا - بتحميل جزء من قواتهم على السُّفن، واستعدوا للإبحار لأثينا ومهاجمة المدينة. وبعد أن رأى جيش أثينا أن هذه فرصة للانتصار قام بمهاجمة الفرس الباقين على السَّاحل، وقام اليونان بمحاصرة الفرس وإلحاق الهزيمة التَّامة بهم بالماراثون. وأبحر الفرس - غير مبالين بالهزيمة التي وقعت بالماراثون - صوب أثينا، وبعد بضعة أيام وصلوا إلى فاليرون (ميناء أثينا) حيث اتضح لهم عدم نشوب حرب أهلية بأثينا، وأنَّ الجيش الأثيني بالماراثون قد وصل إلى أثينا قبل وصول السُّفن الفارسيَّة. ونتيجة لذلك عاد الفرس إلى فارس.

وأرسل ملتيادس - وفقًا للتقاليد - العدَّاء فايديبيتس من الماراثون إلى أثينا يحمل أنباء عن الانتصار الأثيني. وجرى فايديبيتس بأقصى سرعة مسافة ٤٠كم إلى أثينا، وسلَّم

رسالته، ووقع على الأرض ميتًا. وكلمة الماراثون تعني اليوم سباق الجري المترجل لمسافة ٤٢،٢ كم. وهكذا أصبحت الماراثون حدثًا مهمًا في المباريات الأوليمبية منذ عام ١٨٩٦م.

ماراثوناس(ماراثون): (باليونانية:Μαραθώνας)، (بالإنجليزية:Marathon)، مدينة يونانية ومركز لبلدية تقع في جنوب وسط البلاد وهي تقع ضمن مقاطعة آتيكا الشرقية التي تتبع إداريًا لإقليم آتيكا الإداري.



٤٦

معركة جبل إيزل
وولادة بطل اسمه أندرياس هوفر !!





في عام ١٨٠٩ قامت على جبل إيزل(بالألمانية: Bergisel) - الجبل الذي يقع جنوب مدينة إنسبروك وتعلوه اليوم منصة القفز- معركة جبل إيزل (بالألمانية: Bergiselschlacht) بين قوات الفلاحين التيروليين وقوات نابليون بونابرت الفرنسية مع حلفائهم البافاريين، والتي تمثل جزءاً مما يسمى "بكفاح الحرية" للتيروليين، يقودهم آنذاك البطل المحلي أندرياس هوفر.

كانت المعركة جزءًا من الحروب والتحالفات الأوروبية لاحتواء قوة نابليون الصاعدة، **وأطرافها المباشرة هي:**

- **الجانب الفرنسي** و يضم قوات بافاريا حليفة نابليون، والقوات الفرنسية والقوات الساكسونية.

- **الطرف النمساوي** ويضم قوات تيرولية تساندها قوات نمساوية.

تشكل اتفاقية "لاندليبل" الأساس لهذه المعركة، والسبب الحقيقي وراء الاهتمام المحلي في التيرول بهذه المعركة و وقعت في ٢٣ حزيران ١٥١١، و تنص الاتفاقية على:

أن يشكل التيروليون فرق حماية عسكرية بقوة ٥ إلى ٢٠ ألف محارب (بحسب حجم الخطر الداهم والحاجة إلى القوات)، والتعهد بتجنيد كل من عمره مابين ١٨ و ٦٠ سنة في القتال لحالات النفير العام. أهل المنطقة أيضاً تعهدوا بالصرف على هذه القوة بأنفسهم بدون دعم الإمبراطور، وتسليح أنفسهم بأنفسهم. سهّل هذا الأمر وجود بيت السلاح في العاصمة إنسبروك.

في المقابل تعهد الملك (الإمبراطور) بعدم استخدام هذه القوات في أيٍّ من حروبه خارج تيرول، ويقتصر استخدام هذه القوات على حماية التيرول، ويُعفى سكان المنطقة من التجنيد الإجباري في جيوش الإمبراطورية النمساوية.

صار أهل المنطقة يعتبرون هذه الاتفاقية حقا سياسيا لهم، ونوعاً من الحكم الذاتي، بغض النظر عن القوة الحاكمة. فلما دخلت القوات البافارية المقاطعة، وحكمتها، حاولت التغيير في هذا الحق لسكان المنطقة، وبدأت في عام ١٨٠٩ في التجنيد الإجباري لشباب المنطقة في أكسامس (بالألمانية: Axams) (منطقة إلى الجنوب من إنسبروك)، مباشرةً أُعلن في مجمل التيرول النفير العام وبدأ في ١٢ نيسان ١٨٠٩ القتال حول إنسبروك.

في ١٢ نيسان ١٨٠٩ ثار قائد وحدة سلاح البنادق "مارتين تايمر" بالألمانية: (Martin Teimer) على المحتلين البافاريين واستطاع السيطرة على عاصمة الإقليم إنسبروك، مما اضطر قائد القوات البافارية الجنرال "كينكِل" مع وحدته للاستسلام للتيروليين.

في ٢٥ مايو ١٨٠٩ حشد التيروليون ٥٠٠٠ جندي من الفلاحين الذين تحصنوا في سفوح الجبال الجنوبية لإنسبروك بما فيها جبل إيزل، لينضم إليهم ١٠٠٠ من سلاح البنادق بقيادة "يوسف شبيكباخر" (بالألمانية: Josef Speckbacher) مدعومين بـ ١٢٠٠ جندي نمساوي ترافقهم ٥ قطع مدفعية، قائد القوات المجتمعة كان "أندرياس هوفر" (بالألمانية: Andreas Hofer)، ليواجهوا القوات البافارية بقيادة الجنرال ديروي (Deroy) و تعدادها ٥٠٠٠ جندي. بعد أيام من القتال - الذي تقطع بسبب العواصف الرعدية - كان البافاريون يسيطرون على وادي إنسبروك والفلاحون على سفوح الجبال، ولكن بعد وصول أخبار هزيمة نابليون بونابرت (حلفاء البافاريين) في معركة آسبرن (بالألمانية: Aspern) قرب فيينا، تشجع الفلاحون ليشنوا الهجوم النهائي في ٢٩ أيار ١٨٠٩ ويُلحقوا خسائر فادحة بالجيش البافاري، مما أجبره على الانسحاب إلى كوفشتاين.

عاود نابليون الكَرَّة على النمساويين ليعوض عن هزيمة آسبرن وينتصر على النمساويين في معركة فاغرام في ٥ و ٦ حزيران ١٨٠٩ وأجبرهم على توقيع وقف إطلاق النار في (تسنايمر) في ١٢ تموز ١٨٠٩. قرر نابليون استغلال الفرصة بتوجيه قوته لاقتحام المقاطعة الثائرة والقضاء على الثورة، فبدأ الحشد في النصف الثاني من شهر تموز.



تمثال يمثل بطل المعركة أندرياس هوفر، التمثال بني على تلة جبل إيزل

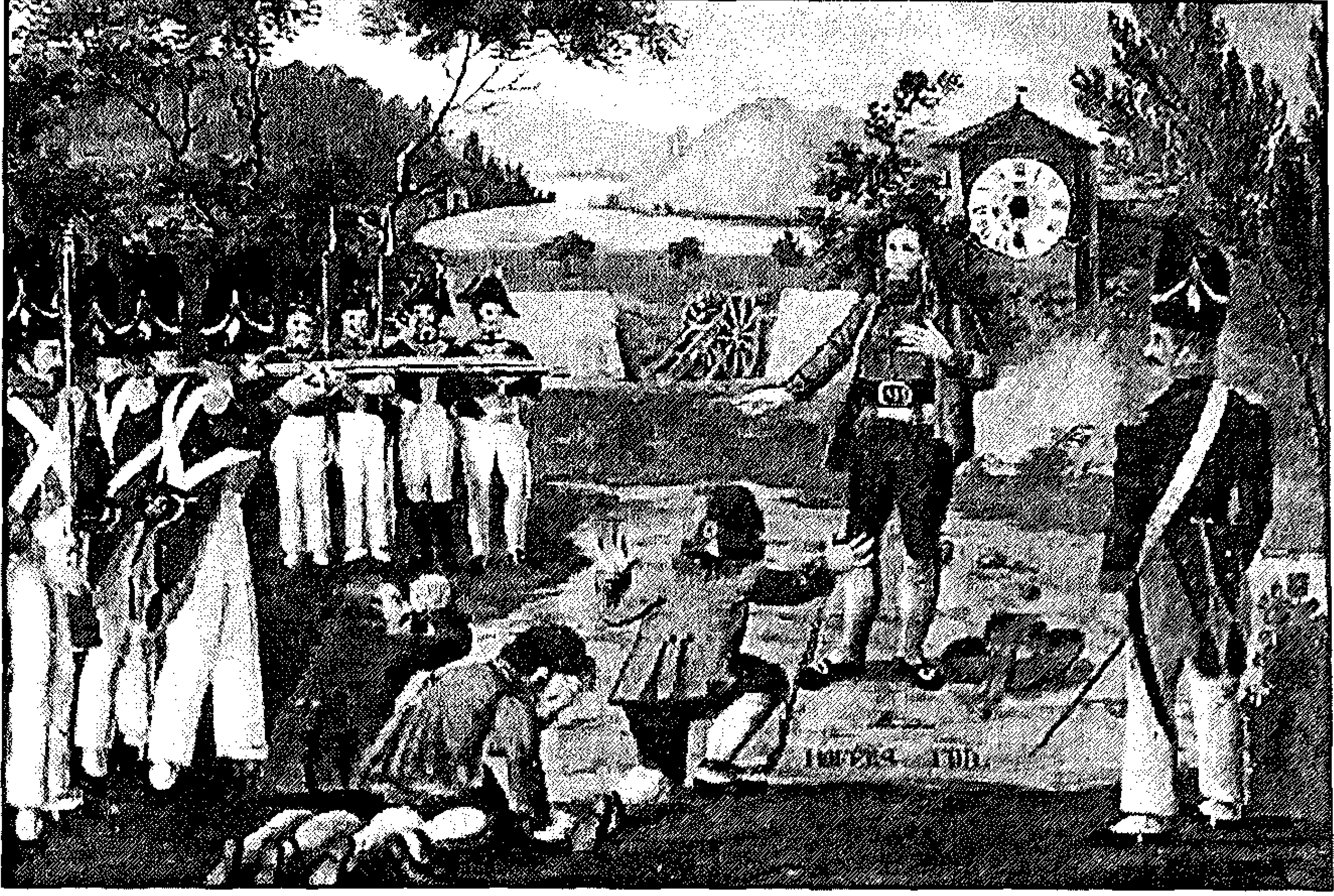
في أواخر تموز لعام ١٨٠٩ أمر نابليون ٢٥٠٠٠ جندي باقتحام تيرول من عدة محاور، إلا أن هذه القوات المهاجمة تكبدت على كافة المنافذ للتيرول خسائر جمة، وذلك على الجبهات الأربع المؤدية لإنسبروك، بسبب وعورة المنافذ الجبلية المؤدية إلى المنطقة، وشراسة الفلاحين في الدفاع عن أرضهم، ولكن القوات استمرت في التقدم حتى وصلت إلى مشارف إنسبروك أواخر تموز.

جرت أحداث المعركة الحاسمة على جبل إيزل، حيث نجح ما يقارب على ١٥،٠٠٠ جندي من مجمل القوات المهاجمة أخيراً في الوصول إلى مشارف إنسبروك.

وهكذا وقفت قوات نابليون بقيادة المارشال الفرنسي ليفيبفر (بالفرنسية: Lefebvre) والمكونة من الفرنسيين و البافاريين و الساكسيين وقدرها ١٥٠٠٠ جندي لتقابل عدداً مشابها من التيروليين بقيادة أندرياس هوفر، و تحت إمرته القائد بيتر ماير (بالألمانية: Peter Mayr) الذي جلب قوات متوحدة من جنوب وشمال التيرول ليشكلوا قلب القوات التيرولية.

استفاد التيروليون من وعورة الجبال، وموقع جبل إيزل الحصين من ناحية، والقريب من دار السلاح في إنسبروك و طرق الإمداد من جنوب تيرول من ناحية أخرى، فاستطاعوا الصمود بوجه التحالف الفرنسي المحترف لتنتهي المعركة بانتصار التيروليين و انسحاب الفرنسيين وأتباعهم في ١٥ آب ١٨٠٩ إلى كوفشتاين من جديد.

هذا الجزء من المعارك، وهذا الانتصار هو الذي خُلِّد في الرسم الدائري في إنسبروك، ويشكل جزءاً من التراث التاريخي للمنطقة و سببا للفخر والحس الوطني لأهل التيرول، كما أنها صارت أحد أعلامها السياحية والثقافية، بالمتاحف والتماثيل التي خلدت ذكراها.



إعدام أندرياس هوفر.

وبعد انتصار نابليون على النمساويين في "فاغراين" أُجبر القيصر النمساوي على توقيع الصلح المهين في قصر "شوونبرون" في فيينا. المعاهدة التي تعتبر نهاية هذه الحملة على النمسا، وتخلت بموجبها النمسا عن مقاطعات بشرق الإمبراطورية وشمالها، فخسرت مقاطعات في بولندا و تنازلت عن سالتزبورغ لبافاريا، والمهم هنا أن النمسا أُجبرت على التخلي عن دعم الفلاحين الثوار في التيرول، مما فتح الباب أمام نابليون للإعداد مرة أخرى لاقتحام المقاطعة! حيث أعطى نابليون الأمر في نفس اليوم الذي وُقعت فيه الاتفاقية باقتحام تيرول لإخضاعها.

في ٢٤ تشرين الأول وقفت القوات البافارية على أبواب إنسبروك، وكان أندرياس هوفر قد غادرها ليتحصن بجبل إيزل من جديد. وفي أول تشرين الثاني هاجم الجيش البافاري (حليف نابليون) قوات تيرول للمرة الأخيرة لتختتم معارك جبل إيزل بهزيمة التيروليين الذين فقدوا دعم قيصرهم و دولتهم التي تخلت عنهم، فكانت النتيجة انهيار الجبهة في ساعتين، وهرب بطلهم أندرياس هوفر إلى جنوب تيرول، الذي قبض عليه في ٢٨ كانون الثاني ١٨١٠ و أعدم في مدينة مانتوفا الإيطالية في ٢٠ شباط ١٨١٠.

تكمن الأهمية التاريخية لمعركة جبل إيزل في خلفياتها السياسية والاجتماعية، أكثر من أهميتها من الناحية القتالية، أو من أهمية نتيجتها العسكرية.

التيروليون يعتبرونها جزءاً مما يسمونه كفاح الحرية (بالألمانية: Freiheitskampf). هذا الكفاح الذي يفخرون به، باعتباره تعميقاً للفكر الوطني الذي بدأ يعم أوروبا في تلك الفترة، وكان الأساس في التخلص من الأنظمة الإقطاعية القديمة والبدء في التفكير بحسب الانتماء للوطن وليس للعائلة الحاكمة أو لنظام الحكم. فهو بالأساس شاهد على التحول الفكري الذي شهدته أوروبا في تلك الحقبة التاريخية، وتجسد في فرنسا بالثورة الفرنسية.

تعتبر اتفاقية لاندليبل الأساس في هذا الكفاح، وهي الممثل على التغير الفكري، فبموجب هذه الاتفاقية حقق التيروليون أهم مكسب لهم، وهو أن الإمبراطور في فيينا لا يحق له تجنيد أبنائهم ليشاركوا في حروبه التوسعية، ولا ليقاتلوا من أجل ميراث مملكته، ولا لتحقيق مآرب الطبقة الحاكمة، كما كان عهد الملوك والأباطرة في تلك الحقبة. لقد كانت العادة في أوروبا أن يجند الملوك الفلاحين، ليخوضوا حروباً طاحنةً يروح ضحيتها مئات الآلاف من الشباب اليانع، لا لشيءٍ إلا لأن هذا الفلاح أو ذلك الشاب يعيش ضمن هذه المملكة أو تلك، ومن الملاحظ أن الصراع لم يكن آنذاك يحمل في طياته أيًّا من أشكال الصراع الفكري أو الديني. حتى إن بعض فلاسفة التاريخ صار يقول ساخراً: الحرب كانت رياضة الطبقة الحاكمة!

التيروليون اعتبروا هذه الاتفاقية جزءاً لا يتنازلوا عنه من دستور ولايتهم، وهو الأمر الذي دعمه مثقفو المنطقة (جامعة إنسبروك والمعاهد العلمية فيها)، والفلاحون الذين كانوا يرغبون في التفرغ للإنتاج الزراعي، دون الاهتمام بالحروب التي تعصف بأوروبا، وبالذات في هذه المنطقة الجبلية يحتاج الفلاحون إلى كل الأيدي العاملة التي يمكن أن يحصلوا عليها، ويرفضوا إرسال أبنائهم إلى الحروب ليموتوا للاشيء!

من هنا كان النصر أكثر من مرة، على الجيوش النابليونية التي دهمت بلادهم، وذلك بقدرات ذاتية وبدعم قليل من القيصر في فيينا، فالجيش الذي كان يدافع عن تيرول هو من تيرول، وتمويله من تيرول، وسلاحه من بيت السلاح في إنسبروك، إذاً لقد أثبت التيروليون أن الاعتماد على الذات أمرٌ مجدٍ وقادرٌ على الصمود أمام أعتى الجيوش

في تلك الحقبة، جيش نابليون المهاب في كل أوروبا، والذي كانت جيوش إمبراطورية النمسا تهزم أمامه.

برغم أن نهاية هذه الثورة لم يكن لصالح التيروليين، إلا أن آثار الهزيمة لم يكن كبيراً عليهم، إذ سرعان ما هُزم نابليون في معركة واترلو بعد خمس سنوات من أحداث هذه المعركة لتعود تيرول للنمساويين. ولكن الهزيمة تعود بنظر العديد من التيروليين إلى أن القيصر في فيينا تخلى عنهم، وتركهم عرضة سهلة أمام جيش تفرغ ليسيطر على تيرول. على أي حال تبقى هذه المعركة في ذاكرة أهل المنطقة محل فخرٍ واعتزاز بما حققه أسلافهم باعتمادهم على أنفسهم، لتحمل في طياتها نواة الحس الوطني الذي بدأت رياحه تهب على أوروبا الإقطاعية، وتنسف ظلم الحكام في تلك الحقبة.



٤٧

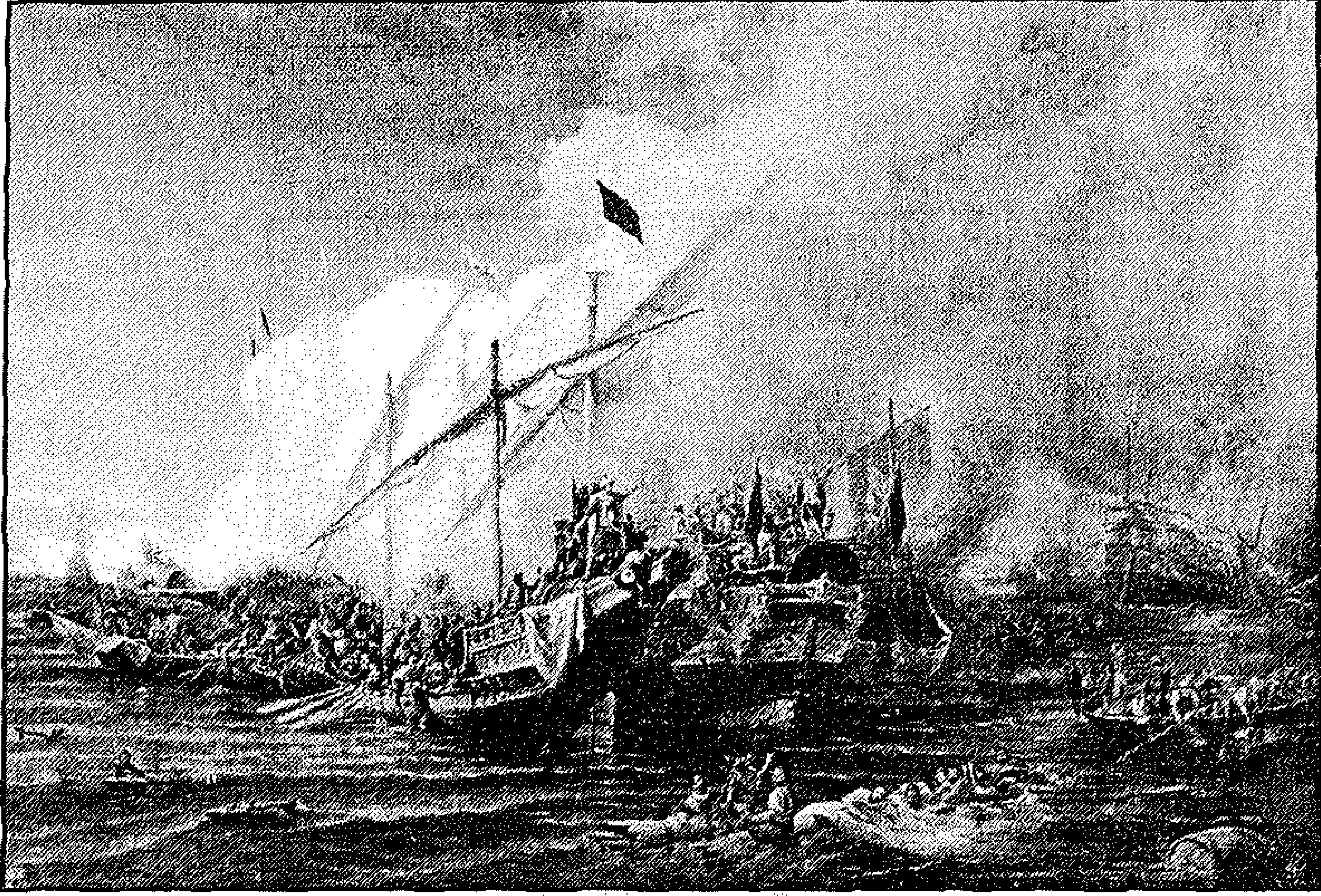
خير الدين بربروسا
بطل معركة بروزة





وقعت معركة " بروزة " أو " بريفيزا " في ٤ جمادى الأولى ٩٤٥ هـ الموافق ٢٨ سبتمبر ١٥٣٨ م بالقرب من ميناء بريفيزا غربي اليونان ، وانتصر فيها الأسطول العثماني على تحالف الرابطة المقدسة الصليبي الذي نظمه البابا بولس الثالث .

كانت معركة هائلة تحركت لها أوروبا استجابة لنداء البابا في روما ، فتكونت حملة صليبية من أسطول مكون من أكثر من ٦٠٠ قطعة بحرية . منها ٣٠٢ سفينة حربية كبيرة تحمل نحو ستين ألف جندي من إسبانيا والنمسا والبندقية، ويقوده قائد بحري من أعظم قادة البحر في أوروبا هو أندريا دوريا من جنوة. أما القوات العثمانية فتكونت من ١٢٢ سفينة تحمل عشرين ألف جندي.



معركة بروزة

التقى الأسطولان في بروزة وفاجأ خير الدين بربروسا خصمه قبل أن يستعد للقتال، فتفرقت سفنه من هول الصدمة، وهرب القائد الأوروبي من ميدان المعركة التي لم تستمر أكثر من خمس ساعات والتي حسمت لمصلحة العثمانيين.

أثار هذا النصر الفزع والهلع في أوروبا، وأعاد للبحرية العثمانية هيبتها في البحر المتوسط، في الوقت الذي استقبل فيه السلطان سليمان القانوني أنباء النصر بفرحة غامرة، وأمر بإقامة الاحتفالات في جميع أنحاء دولته. هذا النصر ضمن السيادة العثمانية في البحر المتوسط حتى هزيمة العثمانيين في معركة ليبانتو عام ١٥٧١.



٤٨

عبد الكريم الخطابي
بطل معركة أنوال





تعتبر معركة أنوال في ٢١ يوليو ١٩٢١ من المعارك الشهيرة في التاريخ العسكري. حيث انتصر أهل جمهورية الريف في شمال المغرب بقيادة الأمير محمد عبد الكريم الخطابي على إسبانيا. فئة قليلة من الريفيين وبوسائل بسيطة حققوا نصرا على جيش عتيد وأسلحة متطورة فتاكة، وتمكن أهل الريف من قتل ٢٥ ألف عسكري مستعمر من الإسبان.

تعد معركة أنوال من أهم المعارك التي شهدها العالم الحديث في القرن العشرين. وقد خاضها عبد الكريم الخطابي ضد الاستعمار الإسباني معتمدا في ذلك على حرب شعبية كان لها صيت عالمي كبير. إذاً، ماهي أسباب ودواعي هذه الحرب الضروس؟ وما هي الخطة التي اتبعها عبد الكريم في هذه المعركة؟ وما هي نتائجها؟ هذه هي الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها في موضوعنا هذا. خرج مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة١٩٠٦ بوضع المغرب تحت الحماية الأجنبية. فاستهدفت اسبانيا شماله و جنوبه، بينما ركزت فرنسا على وسطه. أما طنجة فكانت منطقة دولية. لقد واجهت إسبانيا أثناء تغلغلها في منطقة الريف الشرقي مقاومة شرسة وحركة جهادية قادها محمد الشريف أمزيان من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩١٢. وكانت حملة الشريف الدفاعية منصبة على عرقلة تغلغل الأسبان في أزغنغان بعد مده للسكة الحديدية لاستغلال مناجم الحديد في أفرا و جبل إكسان. وقد كبد الشريف الأسبان خسائر مادية وبشرية، كما قضى على ثورة الجيلالي الزرهوني والذي يلقب في المغرب ببو حمارة أو الروكي. وبعد موت الشريف أمزيان في ١٥ مايو ١٩١٢ ستواصل أسرة عبد الكريم الخطابي النضال المستميت ضد التكالب الاستعماري: الأسباني والفرنسي. وستقف في وجه أطماع الحكام الأسبان والطبقة الأرستقراطية المناصرة لسياسة الحرب وأطماع الحزب الحاكم. ولما أحس محمد عبد الكريم الخطابي بأطماع إسبانيا في الريف الشرقي التي تتمثل في احتلال الحسيمة و الحصول على خيرات الريف واستغلال معادنها بعد استيلائها على الناظور و تطوان والاستعداد للانقضاض على ثورة الريسوني لاحتلال شفشاون، قرر سي محمد أن يؤسس إمارة جهادية؛ وذلك بتوحيد قبائل الريف مثل: كزناية و بني ورياغل و بني توزين وتمسمان... وأسس إمارته على أحكام شريعة الله وأنظمة الإدارة الحديثة، وأبعد الريفيين عن الفوضى و الثأر، وأجبرهم على الاحتكام إلى عدالة الشرع والقضاء الإسلاميين. **هذا وقد أحدث عهد عبد الكريم قطيعة بين عهدين:**

١ - **عهد السيبة والفوضى** الذي يمتد من أواخر القرن ١٩ إلى أوائل العقد الثاني من القرن العشرين بكل ما شهده من سخائم و نعرات عشائرية.

٢ - **عهد الثورة التحريرية** الممتدة من١٩٢١الى ١٩٢٦، إذ عرف الريف عدة إصلاحات وفي مقدمتها القضاء على حدة الفوضى والثأر.

ولما عرف عبد الكريم نوايا حكومة أسبانيا الاستعمارية نظم جيشه أحسن تنظيم على الرغم من نقص العدد والعدة. وكان عبد الكريم مثالا في الشجاعة والبطولة والعدل والتشبع بالا سلا م؛ لذلك اتخذه الريفيون بطلا جماهيريا يقود ثورة شعبية من الجبليين والفلاحين للدفاع عن ممتلكاتهم و أعراضهم باسم الجهاد والحق المبين. ولايعني هذا أن إمارة الريف مستقلة عن السلطة المركزية؛ بل كانت موالية لها أتم الولاء والخضوع والاحترام. فرضتها الظروف المرحلية و العسكرية. وقد أثبت جرمان عياش في كتابه "أصول حرب الريف" هذه التبعية والولاء عندما أقام المؤلف "لائحة بأسماء عمال مخزنيين تمتد من ١٨٣٥ إلى ١٩٠٠ وتشهد على استمرار حضور ممثلين عن المخزن في الإقليم، كما كشف عن وجود ست قصبات في مختلف أنحاء الريف ترابط بها حاميات مخزنية. وكل هذا يدل على أن الريف كان خاضعا للسلطة المركزية على عكس ما تدعيه الروايات الأجنبية.



الجثث الإسبانية، يوليو ١٩٢١.

ولم تكن ثورة الريف التحريرية لعبد الكريم بدافع إقليمي؛ بل كانت بدافع وطني ضد الاستعمار، وبدافع قومي لتحرير الشعوب الإسلامية من ربقة الاستعمار والجهل والتخلف.

وإذا انتقلنا إلى سيناريو معركة أنوال، فقد بدأت إسبانيا تعقد أملا على احتلال خليج الحسيمة بعد أن عقد المقيم العام الجنرال بيرينغير صلحا مع قبائل الريف، واستقبل بحفاوة من قبائل الأعيان وبعض الرؤساء من بني ورياغل وبني سعيد وبنطيب. وعاد المقيم العام إلى تطوان متفائلا مسرورا و مشيدا بعمل سلبستري القائد العام للجيوش الغازية المعتدية. كما اطمأن وزير الحرب الأسباني "إيزا" إلى هذا الوضع المريح عسكريا وسياسيا. و على الرغم من هذا التفاؤل الزائد، كان الريفيون وخاصة رجال بني سعيد وبني وليشك وأهل كرت على أهبة للانقضاض على عدوهم سلبستري الذي أحرق غلتهم ومنازلهم، وصادر أغنامهم دون أن يدفع لهم تعويضا مقابلا عن ذلك؛ ودفعهم إلى الهجرة نحو الجزائر خوفا من بطشه، و من موت الفقر والجفاف هذا.

وقد اتفق الجنرال بيرينغير مع رئيس الشرطة الأهلية بمليلية الكولونيل غبريل موراليس على التوجه نحو الريف للتفاوض مع عبد الكريم؛ وذلك بإغرائه بـ٧ ملايين دولار، زيادة على أسلحة حديثة و جميع أنواع الذخيرة التي تمكنه من مقاومة الجيش الفرنسي مقابل التنازل عن خليج الحسيمة. لكن عبد الكريم رفض هذه المساومات، وأصدر أمرا يقضي بفرض غرامات على كل من يتفاوض مع الأسبان في هذه القضية المصيرية، كما هدد الأسبان بعدم اجتيازهم "وادي أمقران" وإلا سيتصدى لهم الأبطال الأشاوس من تمسمان و بني توزين. وقد أثار هذا التهديد حفيظة سلبستري، و قرر غزو المنطقة ساخرا من تهديدات عبد الكريم ومستصغرا من شأنه ومن عدته الحربية. وبعد ذلك، بدأ سلبستري في بناء الثكنات و الحاميات العسكرية لتسهيل الإمدادات الحربية وتأمين وجود قواته و تمركزها بشكل أفضل و مقبول في كل المناطق الريفية الإستراتيجية، فاقترب الجنرال من ظهار أبران في أواخر شهر مايو١٩٢١ لمحاصرة الموقع، وجس النبض؛ بيد أن الريفيين تصدوا للجيش الغازي و ألحقوا به هزيمة شنعاء مازال يتذكرها الشعر الأمازيغي: قديما و حديثا .

وعليه، فقد " توجه الثوار بهجوم ضد مركز أبران فاقتحموه، وقتلوا جميع من كان به من ضباط وجنود إلا عددا قليلا استطاع الهروب، فالتحقوا إما بأنوال و إما بسيدي إدريس.

وأصدر الجنرال برينغير أوامره لسلبستري بعدم التقدم إلى الأمام؛ لكنه لم يعر أدنى اهتمام لهذه الأوامر، وتوجه مباشرة نحو أنوال للسيطرة على الموقع. و هناك

نشبت معركة حامية الوطيس دامت خمسة أيام شارك فيها العدو ب٢٥ ألفا من الجنود، و لم يحضر إلى أنوال من مجاهدي عبد الكريم سوى ألفي مجاهد، أما الجنود الآخرون فكانوا ينتظرون الفرصة السانحة، و يترقبون الأوضاع مع زعيمهم عبد الكريم بأجدير. وفي الساعة السادسة مساء من ٢٠ يوليوز١٩٢١، وصل عبد الكريم ب١٥٠٠ جندي إلى موقع أنوال؛ لتشتعل الحرب حتى صباح ٢١ يوليو من نفس السنة ، و انتهت الحرب بانتحار سلفستري و موت الكولونيل موراليس الذي أرسل عبد الكريم جثته إلى مليلية؛ لأنه كان رئيسه في إدارة الشؤون الأهلية سابقا. وقد اتبع عبد الكريم في هذه المعركة خطة التخندق حول "إغرين"، و منع كل الإمدادات و التموينات التي تحاول فك الحصار على جيش العدو. "وكانت الضربة القاضية لمركز (إغريبن) عندما أدرك المجاهدون نقطة ضعف الجنود الأسبان المحاصرين المتمثلة في اعتمادهم على استهلاك مياه (عين عبد الرحمـن) ب(وادي الحمام) الفاصل بين (ءاغريبن) و(أنوال)، فركزوا حصارهم حول هذا النبع المائي، و بذلك حرم الجنود الأسبان من الماء، واشتد عطشهم إلى درجة اضطرارهم إلى شرب عصير التوابل وماء العطر و المداد، ولعق الأحجار، بل وصل بهم الأمر إلى شرب بولهم مع تلذيذه بالسكر...كما جاء في المصادر الأسبانية.

وقد تتبعت جيوش عبد الكريم فلول الجيش الأسباني، وألحق به عدة هزائم في عدة مواقع ومناطق مثل: دريوش وجبل العروي وسلوان فأوصله حتى عقر داره بمليلية. وبعد ذلك أصدر عبد الكريم أمره بالتوقف وعدم الدخول إلى مليلية المحصنة لاعتبارات دولية وسياسية وعسكرية. وفي هذا يقول أزرقان مساعده الأيمن في السياسة الخارجية: "نحن – الريفيين- لم يكن غرضنا التشويش على المخزن من أول أمرنا، ولا الخوض في الفتن كيفما كانت، ولكن قصدنا الأهم، هو الدفاع عن وطننا العزيز الذي كان أسلافنا مدافعين عنه، و اقتفينا أثرهم في رد الهجومات الاعتدائية التي قام بها الأسبان منذ زمان، وكنا نكتفي بالدفاع عن الهجوم عليه فيما احتله من البلدان مثل مليلية التي كان في طوقنا أخذها بما فيها، من غير مكابدة ضحايا جهادية؛ لكنا لم نفعل ذلك لما كنا نراه في ذلك من وخامة العاقبة، فانه ليس عندنا جند نظامي يقف عند الحدود التي يراعيها" .

و يعترف عبد الكريم بغلطته الكبرى عن عدم استرجاعه لمليلية في مذكراته: " على إثر معركة جبل العروي، وصلت أسوار مليلية، وتوقفت، وكان جهازي العسكري ما يزال

في طور النشوء. فكان لابد من السير بحكمة، وعلمت أن الحكومة الأسبانية وجهت نداء عاليا إلى مجموع البلاد، وتستعد لأن توجه إلى المغرب كل ما لديها من إمدادات، فاهتممت أنا، من جهتي بمضاعفة قواي وإعادة تنظيمها، فوجهت نداء إلى كل سكان الريف الغربي، و ألححت على جنودي وعلى الكتائب الجديدة الواردة مؤخرا، بكل قوة، على ألا يسفكوا بالأسرى ولا يسيئوا معاملتهم، ولكني أوصيتهم في نفس الوقت وبنفس التأكيد، على ألا يحتلوا مليلية، اجتنابا لإثارة تعقيدات دولية وأنا نادم على ذلك بمرارة وكانت هذه غلطتي الكبرى".

ومن نتائج معركة أنوال ما غنمه الريفيون من عتاد عسكري حديث. وفي هذا الصدد يقول عبد الكريم في مذكراته أيضا: "ردت علينا هزيمة أنوال ٢٠٠ مدفع من عيار ٧٥ و٦٥ و ٧٧، وأزيد من ٢٠٠٠٠ بندقية ومقادير لا تحصى من القذائف وملايين الخراطيش، وسيارات و شاحنات، وتموينا كثيرا يتجاوز الحاجة، وأدوية، وأجهزة للتخييم، و بالجملة، بين عشية وضحاها و بكل ما كان يعوزنا لنجهز جيشا و نشن حربا كبيرة، وأخذنا ٧٠٠أسير، وفقد الأسبان ١٥٠٠٠ جندي ما بين قتيل و جريح".

وكان لهذا الانتصار الريفي في معركة أنوال صدى طيب على المستوى الوطني والعربي، وقيل الكثير من الشعر للإشادة بهذه النازلة العظيمة؛ وقد شاع بعد ذلك أن بعض الأدباء جمع ما قيل في موضوع الحرب في ديوان سماه "الريفيات"،

أما في أمريكا اللاتينية، فكان ينظر إلى عبد الكريم بمثابة بطل ثوري عالمي يشبه عندهم سيمون بوليفار أحد رواد الحركة التحريرية هناك. أما الرأي العام الإسلامي " فقد كان يعلق آمالا كثيرة على نجاح الثورة الريفية، وعبر عن استنكاره في أكثر من مناسبة تضامننا مع المسلمين في الريف؛ لكنه كان مغلوبا على أمره."

ولقد اتخذت خطة عبد الكريم الحربية (تكتيكا) عسكريا لدى الكثير من الزعماء والمقاومين في حركاتهم التحريرية عبر بقاع العالم لمواجهة الإمبريالية المتغطرسة مثل: هوشي منه و ماوتسي طونج و عمر المختار و تشيغيفارا وفيديل كاسترو، ولا ننسى كذلك الثورتين:الجزائرية و الفلسطينسة. وكانت لهذه الحرب انعكاسات سياسية و عسكرية خطيرة على إسبانيا و فرنسا بالخصوص؛ مما اضطرت هاتان الدولتان للتحالف مع

الولايات المتحدة الأمريكية للقضاء على الثورة الريفية قبل أن تستفحل شوكة عبد الكريم الذي بدأ يهدد كيان فرنسا ويقض مضجعها. فشن التكالب الاستعماري هجوما عنيفا وكاسحا بريا وبحريا وجويا، واستعملت في هذه الحملة العدائية المحمومة أبشع الأسلحة المتطورة الخطيرة السامة لأول مرة؛ وتم تجريبها على الريفيين الأبرياء من أجل مطامع استعمارية دنيئة .

ولقد انتهت هذه الهجمات المركزة على معاقل المقاومة الريفية باستسلام مجاهد السلام البطل عبد الكريم الخطابي يوم ٢٦ مايو ١٩٢٦، و نفيه إلى جزيرة لاريونيون "LA RÉUNION" إلى حدود سنة ١٩٤٧؛ ليستقر بعد ذلك في مصر.

هذه نظرة موجزة عن معركة أنوال التي ستبقى ذكراها راسخة في تاريخ المغرب الحديث. وما أحوجنا اليوم إلى تمثل دروس هذه المعركة بقيمها النبيلة وأخلاقياتها الرفيعة وبطولاتها الخارقة التي تذكرنا بأمجاد ومعارك وحروب أسلافنا الأشاوس الميامين! وما أحوجنا للتشبع بقيمها الوطنية والقومية للنهوض بوطننا العزيز و أمتنا الإسلامية، والتمسك بالوحدة الترابية لمواجهة كل مناورات المعتدين وأطماع الاستعمار المباشر وغير المباشر.



٤٩

السمح بن مالك
بطل معركة "تولوز"





توفي سليمان بن عبد الملك في (العاشر من صفر سنة ٩٩هـ = ٢٢ من سبتمبر ٧١٧م) وخلفه ابن عمه عمر بن عبد العزيز، فبدأت بلاد الأندلس في خلافته عهدا جديدا؛ حيث جعلها تابعة له مباشرة، شأنها في ذلك شأن بعض الولايات الإسلامية

الأخرى، وكانت الأندلس من قبل تابعة لولاية إفريقية، واختار لها واحدا من الرجال الصالحين الأكْفاء القادرين على النهوض بمسئولياتهم في إيمان ونزاهة. وكان الخليفة العادل حريصا على ذلك أيما حرص؛ فكانت أمور المسلمين شغله الشاغل.

وكان ذلك الوالي الكفء الذي اختاره الخليفة لولاية الأندلس هو "السمح بن مالك الخولاني"، تخيَّره الخليفة لأمانته وكفاءته وإخلاصه. وتذكر الروايات التاريخية أن من عادة خلفاء بني أمية أنهم كانوا لا يدخلون خزائن بيت المال شيئا مما يرسله ولاتهم من أموال الخراج إلا إذا شهد ١٠ من عُدُول الجند في الولاية بأن هذا المال هو المستصفى الحلال لبيت المال، بعد دفع أعطيات الجند والإنفاق على مصالح الولاية وشؤونها؛ فلما أقبلت أموال ولاية إفريقية في أحد أعوام خلافة سليمان، كان يصحبها ١٠ من العدول الذين اختارهم الوالي، وكان فيهم إسماعيل بن عبيد الله، والسمح بن مالك، فلما طلب الخليفة شهادتهم حلف ٨ بصحة هذا المال، ورفض الرجلان أن يحلفا على ذلك. وكان عمر بن عبد العزيز حاضرا هذه الجلسة، فأعجب بنزاهة الرجلين وشجاعتهما، فلما ولي الخلافة استعان بهما في إدارة ولايات دولته.

ولم يقدم الخليفة عمر بن عبد العزيز على النظر في شؤون المغرب والأندلس إلا بعد مضي أكثر من عام من خلافته؛ فقد شغلته أمور الدولة الأخرى عن متابعة ما يجري في الأندلس، وكان يفكّر في إرجاع المسلمين من الأندلس وإخلائهم منها؛ فكان يخشى تغلّب العدو عليهم لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين.

غير أن هذه الفكرة تبددت لديه، وعزم على إصلاح أمور الأندلس حديثة العهد بالإسلام، فاختار لولايتها السمح بن مالك، وأمره أن يحمل الناس على طريق الحق، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق، وطلب منه أن يكتب له بصفة الأندلس، وأنهارها وبحرها، فلما استقر السمح هناك كتب إليه يعرفه بقوة الإسلام وكثرة مدائنهم، وشرف معاقلهم؛ فلما استوثق الخليفة عمر من أهمية الأندلس، وثبات أقدام المسلمين فيها أولاها من عانيته ما هي جديرة به. ولم يكد السمح بن مالك يتولى أمر الأندلس حتى ظهر أثر كفايته وصلاحه في البلاد، فانتظمت أمورها، ونعم الناس بالأمن والسلام، وتحسنت موارد الدولة، واجتمع له من المال مبلغ كبير منه، استغله في إصلاح مرافق الولاية.

وحدث أن قنطرة "قرطبة" الرومانية التي كانت مقامة على نهر الوادي الكبير للاتصال بنواحي جنوبي الأندلس قد تهدمت، واستعان الناس بالسفن للعبور، وكان في ذلك مشقة عليهم، وأصبح المسلمون في حاجة إلى بناء قنطرة متينة يستطيعون العبور عليها من الجنوب إلى قرطبة عاصمتهم الجديدة، ووجد السمح بن مالك أن خير ما ينفق فيه هذا المال هو بناء تلك القنطرة، فكتب إلى الخليفة عمر في دمشق يستأذنه في بناء القنطرة فأذن له، فقام السمح ببنائها على أتم وأعظم ما يكون البناء. وكان لهذه القنطرة أهميتها في تاريخ الأندلس السياسي والفكري، فربطت بين قرطبة بجنوبي الأندلس وشمالي إفريقيا، وكانت من الجمال والبهاء بحيث أصبحت متنزه أهل قرطبة ومدار خيال شعراء الأندلس.

وبعد أن اطمأن السمح بن مالك إلى أحوال أمور الأندلس، ووثق الخليفة عمر باستقرار المسلمين بها، بدأ السمح يفكر في معاودة الفتح، ورد المتربصين بولايته من أمراء ما وراء جبال ألبرت، فأعد العدة لذلك، وجهز جيوشه لهذه المهمة.

واخترقت جيوش السمح جبال ألبرت من الشرق، وسيطر على عدد من القواعد هناك، واستولى على "سبتمانيا" في جنوبي فرنسا، وأقام بها حكومة إسلامية، ووزع الأراضي بين الفاتحين والسكان، وفرض الجزية على النصارى، وترك لهم حرية الاحتكام إلى شرائعهم، ثم زحف نحو الغرب ليغزو "أكوتين".

وكانت مملكة الفرنج حينما عبر المسلمون إلى غاليا –فرنسا– تفتك بها الخلافات والحروب بين أمرائها، غير أن الأمير "أدو" دوق أكوتين كان أقوى أمراء الفرنج في غاليا وأشدهم بأسا، نجح في غمرة الاضطراب الذي ساد المملكة أن يستقل بأكوتين، ويبسط نفوذه وسلطانه على جميع أنحائها في الجنوب من اللوار إلى البرنية.

فلما زحف السمح بن مالك إلى الغرب ليغزو أكوتين قاومه البشكنس –سكان هذه المناطق– أشد مقاومة، لكنه نجح في تمزيق صفوفهم، وقصد إلى "تولوشة" تولوز. وفي أثناء سيره جاءت الأخبار بأن الدوق "أدو" أمير أكوتين جمع جيشا كبيرا لرد المسلمين، وإخراجهم من فرنسا، فآثر السمح بن مالك ملاقاة عدوه على كثرة عددهم عن مهاجمة تولوشة، والتقى الفريقان بالقرب منها، ونشبت بينهما معركة هائلة في ٩

من ذي الحجة ١٠٢هـ = ٩ من يونيو ٧٢١م، سالت فيها الدماء غزيرة، وكثر القتل بين الفريقين، وأبدى المسلمون رغم قلتهم شجاعة خارقة وبسالة وصبرًا، وتأرجح النصر بين الفريقين دون أن يحسم لصالح أحد من الفريقين، حتى سقط "السمح" شهيدًا من على جواده، فاختلت صفوف المسلمين، ووقع الاضطراب في الجيش كله، وعجز قادة الجيش أن يعيدوا النظام إلى الصفوف، وارتد المسلمون إلى "سبتمانيا" بعد أن فقدوا زهرة جندهم، وسقط عدد من كبار قادتهم.

وعلى إثر استشهاد السمح بن مالك اختار الجيش أحد زعمائه "عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي"، فبذل جهدًا خارقًا ومهارة فائقة في جمع شتات الجيش، والتقهقر به إلى الأندلس، وأقام نفسه واليًا على الأندلس عدة أشهر قليلة حتى يأتي الوالي الجديد، وفي هذه المدة القليلة نجح عبد الرحمن الغافقي في ضبط أمور الولاية، والقضاء على الفتن التي ظهرت في الولايات الجبلية الشمالية.

ثم تولى عنبسة بن سحيم الكلبي أمر الأندلس في (صفر ١٠٣هـ = أغسطس ٧٢٢م)، وكان من طراز السمح بن مالك كفاءة وقدرة وورعًا وصلاحًا، له شغف بالجهاد وحرص على نشر الإسلام وتوسيع دولته، وما إن استقرت الأمور في الأندلس بعد اضطراب واختلال حتى عاود الفتح، وخرج على رأس جيشه من قرطبة، وسار نحو سبتمانيا التي فقد المسلمون كثيرًا من قواعدها، وتابع زحفه شمالاً في وادي الرون، ولم تقف هذه الحملة الظافرة إلا قرب بلدة "سانس" على بعد ثلاثين كيلومترًا جنوبي باريس، وخشي "أدو" دوق أكوتين أن يهاجمه المسلمون مرة أخرى، فسعى إلى مفاوضتهم ومهادنتهم، وبذلك بسط المسلمون نفوذهم في شرق جنوبي فرنسا.

ولما لم يكن في نية عنبسة الاستقرار في تلك المناطق، فقد عاد إلى بلاده بعد أن أعاد نفوذ المسلمين في مملكة غالة، قاطعًا نحو ألف ميل شمالي قرطبة، وفي طريق العودة داهمته جموع من الفرنجة، فالتحم معها في معركة أصيب أثناءها بجراح بالغة توفي على إثرها في (شعبان ١٠٧هـ = ديسمبر ٧٢٥م)، بعد أن انفرد بين الفاتحين المسلمين بفخر الوصول برايات الإسلام إلى قلب أوروبا الغربية، ولم يدرك هذا الشأو بعد ذلك فاتح مسلم آخر.

وقد تكررت محاولات المسلمين لفتح مملكة غالة والاستقرار بها ثم التوسع في قلب أوروبا لنشر الإسلام بها، لكنها لم تلقَ نجاحًا، وكانت آخر تلك المحاولات ما قام به القائد العظيم عبد الرحمن الغافقي، لكن استشهاده في معركة بلاط الشهداء (رمضان ١١٤هـ = أكتوبر ٧٣٢م) قضى على أحلام المسلمين في الفتح والتوسع.



٥٠

هرقل الأسطورة
بطل معركة سهل حوران





قامت حروب طويلة متعددة بين الفرس (الفرثيون ومن بعدهم الساسانيون) وبين الرومان (وورثتهم البيزنطيين). لكن الحرب الأخيرة كانت الأعنف لأن كلاهما كاد يقضي على الطرف الآخر، وكل ذلك في بضع سنين فقط.

قام كسرى الثاني (٥٩٠-٦٢٨) en:Khosrau II باستغلال نزاع على السلطة في الإمبراطورية البيزنطية وانطلق مع جيوشه باحتلال شامل للأراضي البيزنطية ضد ملك الروم فوكاس en:Phocas. فقد كان حلم كسرى الثاني هو إعادة حدود الإمبراطورية الأخمينية السابقة.

بدأت الحرب عام ٦٠٢م. وفي عام ٦٠٨ وصلت جيوش الفرس في آسيا الصغرى إلى كريسبوليس المواجهة للقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية (أي في الجانب الآسيوي)، وفي نفس الوقت تقدمت قبائل الآفار والسلاف المتحالفين مع الفرس في البلقان لتطوق القسطنطينية من الجانب الآخر (الأوربي)، وغزت جيوش تلك القبائل كذلك عامة البلقان ووصلت إلى أثينا. وقد وسع الفرس رقعة ممتلكاتهم في الشام وأرمينيا. وفي عام ٦١٣ وصلت جيوشهم إلى دمشق. وانتصر الفرس في عدة معارك منها معركة حاسمة في سهل حوران بين مدينتي بصرى وأذرعات (درعا اليوم).وأخرى عند البحر الميت.

ثم في العام التالي ٦١٤ زحف جيش القائد الفارسي شهرباراز en:Shahrbaraz إلى إيلياء (القدس). حيث حاصرها الفرس حوالي ٢٠ يوماً، ثم دخلوها عنوة وجعلوها نهبا للحرائق. وقتل اليهود (حلفاء الفرس التقليديين) عدداً كبيراً من النصارى يقدره بعض المؤرخين بـ٥٧ ألفا. ودمر الفرس كنيسة القيامة واستولوا على الصليب المقدس (الذي يعتقد النصارى أن إلههم صلب عليه) ونقلوه إلى عاصمتهم المدائن. وكان لسقوط بيت المقدس في أيدي الفرس صدمة كبيرة بين النصارى. فهذه كانت أول مرة تقع فيها هذه المدينة المقدسة بأيدٍ غير مسيحية.

ثم تقدم إلى مصر، فسقطت الإسكندرية في أيديهم سنة ٦١٩، وترتب على ذلك انقطاع القمح عن القسطنطينية وازدياد سوء الأحوال الاقتصادية.

وخلال تلك الفترة تقريباً نزل قول الله في القرآن: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ سورة الروم.

وبحلول سنة ٦٢٢ م كانت الإمبراطورية البيزنطية على حافة الانهيارِ وحدودِ الإمبراطوريةِ الأخمينية السابقة على كُلّ الجبهات احتلها الساسانيون ما عدا أجزاء من الأناضول. ولم يبق للروم إلا أثينا وجزائر البحر المتوسط (قبرص وصقلية) وشريط ساحلي في شمال إفريقيا (قرطاجة). انهارت معنويات الروم، وازداد الصراع الداخلي بينهم، وتوقع الناس سقوط دولتهم سريعاً، إذ بدى من المستحيل أن يستطيعوا المقاومة.

عام ٦٢٢ م (يعني السنة الأولى للهجرة)، حصل انقلاب عسكري حيث تمكن هرقل (٦١٠-٦٤١) en:Heraclius حاكم قرطاجة من الاستيلاء على القسطنطينية وأعاد تنظيم الجيش. أبدى هرقل شجاعة ومهارة كبيرة في مواجهة الخطر الفارسي. فبدلاً من منازلة جيوش الفرس المتوغلة في أراضي الإمبراطورية، قام بالالتفاف عليهم ومهاجمتهم في عقر دارهم في البلاد الفارسية. إذ تحالف مع الخزر الترك، وترك العاصمة المحاصرة القسطنطينية وهاجم بلاد فارس مِنْ المؤخّرةِ عن طريق الإبحار من البحر الأسود، فاستولى على أذربيجان (ميديا) سنة ٦٢٤، حيث قام بتدمير أكبر معبد نار مجوسي (انتقاماً لتخريب كنيسة القيامة في القدس).

وفي هذه الأثناء ظَهرَ شك متبادل بين الملك كسرى الثاني وقائد جيشه شهرباراز. وقام الوكلاءُ البيزنطيون بتسريب رسائل مزيفة للجنرال شهراباراز تظهر بأنّ الملك كسرى الثاني كَانَ يُخطّطُ لإعدامه. فخاف الجنرالَ شهرباراز على حياته وبَقي محايداً أثناء هذه الفترةِ الحرجةِ. وخسرت بلاد فارس بذلك خدماتِ إحدى أكبر جيوشها وإحدى أفضل جنرالاتها. إضافةً إلى ذلك، توفي بشكل مفاجئ شاهين وسباهبود العظيم قائد الجيش الساساني والذي كان تحت سيطرته بلاد القوقاز وبلاد الأناضول. وهذا ما رَجّحَ كفّة الميزان لمصلحة البيزنطيين، وأوصل الملك كسرى الثاني إلى حالةِ الكآبةِ.

ويمساعدةِ الخزر وقوّات تركية أخرى، استغل الإمبراطور البيزنطي هرقل غياب قادة الجيش الساساني وربح عِدّة إنتصارات مُدَمّرة للفرس بعد ١٥ عاماً من حربهم للبيزنطيين. حملة الملك هرقل تَتوّجتْ في معركةِ نينوى، حيث انتصر الملك هرقل في كانون الأول عام ٦٢٧ (بدون مساعدة الخزر الذي تَركوه) انتصاراً ساحقاً على الجيش الفارسي بقيادة راهزاد. وهذه المعركة الحاسمة قد قررت مصير الصراع بين الطرفين.

ووصل خبر هذه المعركة إلى المسلمين عام ٦٢٨ بعد أن انصرفوا من مكة عاقدين صلح الحديبية. ثم أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى الثاني يدعوه للإسلام. فغضب كسرى غضباً شديداً، فجذب رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم من يد كاتبه وجعل يمزقها دون أن يعلم ما فيها وهو يصيح: أيكتب لي بهذا، وهو عبدي؟!! ثم أمر بعبد الله بن حذافة أن يخرج من مجلسه فأخرج. فلما قدم عبد الله على نبي الله أخبره بما كان من أمر كسرى وتمزيقه الكتاب، فدعا على الفرس أن يُمَزَّقُوا كل مُمَزَّق.

أما كسرى فقد كتب إلى باذان نائبه على اليمن: أن ابعث إلى هذا الرجل الذي ظهر بالحجاز رجلين جلدين من عندك، ومرهما أن يأتياني به. خرج الرجلان برسالة باذان إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلما قرأ كتاب صاحبهم، أخبرهم أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه؛ فقتله في شهر كذا وكذا ليلة كذا وكذا من الليل؛ بعد ما مضى من الليل. فانطلقوا فأخبروا باذان. فقال: لئن كان ما قاله محمد حقًّا فهو نبي، وإن لم يكن كذلك فسنرى فيه رأيا. فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه en:Kavadh II ابن كسرى يخبره بقتله لأبيه في تلك الليلة، واستيلائه على عرشه. فأعلن باذان إسلامه، وأسلم من كان معه من الفرس في بلاد اليمن. وأسلم كذلك العرب في البحرين وخرجوا عن طاعة كسرى. وأسلمت بعض قبائل العرب في العراق مثل بني شيبان.

زحف هرقل خلال العراق، حيث وصلته أخبارَ اغتيالِ الملك كسرى الثاني. ثم تحالف مع الأحباش عام ٦٢٩ وانتصر مجدداً على الفرس وصار قريباً من المدائن. وعندها رأى شيرويه أن من الأفضل أن يعقد الصلح مع هرقل. وبمقتضاه استردت بيزنطة كل ما كان لها من البلاد التي كانت قد سقطت في أيدي الفرس، بما في ذلك أملاكهم في بلاد الجزيرة الفراتية والشام ومصر..

مشى هرقل حافياً إلى القدس حاملاً ما يسمى بالصليب المقدس عام ٦٣٠. وهذه هي سنة لقائه مع أبي سفيان لما وصلته رسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم). وبعد رجوع هرقل إلى القسطنطينية استقبله أهلها استقبال الأبطال، وحمل له الشعب أغصان الزيتون ورتلوا المزامير وهتفوا باسمه.

على أن فرحة هرقل لم تدم طويلاً. إذ لم تمض إلا برهة من الزمن وإذا به يواجه جيوش المسلمين. وبعد معركة اليرموك، حسم مصير بلاد الشام، ثم لم تلبث مصر أن فتحت كذلك، ثم شمال إفريقيا.



مصادر ومراجع



- هانيبال من أعظم القادة العسكرين في التاريخ - محمد خلف الرشدان - الحوار المتمدن - ١٤ أبريل ٢٠٠٨ .
- جون بوردمان، تاريخ كامبردج القديم - المجلد الثالث - القسم الثاني: فترة حكم الأشوريين والبابليين ودول أخرى في الشرق الأدنى - دار نشر جامعة كامبريدج- ١٩٩٢.
- سرجون الأكدي (سرجون العظيم)- مثنى الشلال - الحوار المتمدن - ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٨ .
- تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك - تحقيق إحسان حنفي - دار النفائس- بيروت = ١٩٨٣.
- تاريخ الدولة العثمانية - يلماز أوزتونا - ترجمة عدنان محمود سليمان - منشورات مؤسسة فيصل للتمويل - إستانبول - ١٩٨٨.
- الدولة العثمانية : عوامل النهوض وأسباب السقوط- على محمد الصلابي - دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة -٢٠٠١.
- تاريخ الدولة العثمانية - على حسون - المكتب الإسلامي - بيروت -١٩٩٤ .
- الدولة العثمانية دولة مُفتَرَى عليها - عبد العزيز محمد الشناوي - مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة - ١٩٨٤.

- السلطان محمد الفاتح – عبد السلام عبد العزيز فهمي - دار القلم – دمشق - ١٩٩٣.

- السلطان محمد الفاتح – محمد صفوت مصطفى - دار الفكر العربي - القاهرة – ١٩٤٨.

– مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام - محمد عبد الله عنان مؤسسة الخانجي – القاهرة –١٩٦٢.

- فتح القسطنطينية.. بشارة نبوية - سمير حلبي

– الحرب العالمية الثانية – -محمود صالح منسي– ١٩٨٩.

– تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث – د/عبد العظيم رمضان - الهيئة العامة للكتاب – القاهرة.

– تاريخ الطبري – محمد بن جرير الطبري– حققه محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – القاهرة – ١٩٦٩.

– الكامل في التاريخ – ابن الأثير - دار صادر – بيروت –١٩٧٩.

– الطريق إلى دمشق – أحمد عادل كمال - دار النفائس – بيروت –١٩٨٥.

– تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي – حسن إبراهيم حسن - مكتبة النهضة المصرية القاهرة – ١٩٤٨.

-خالد بن الوليد.. المنتصر دومًا !!- سمير حلبي - إسلام أون لاين- أول يناير ٢٠٠٠.

– تاريخ فتوح الشام – محمد عبد الله الأزدي - مؤسسة سجل العرب – القاهرة – ١٩٧٠.

- البداية والنهاية-عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير – تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي - دار هجر للطباعة والنشر- القاهرة - ١٩٩٨.

- تاريخ خالد بن الوليد البطل الفاتح- أبو زيد شلبي- دار الفرجاني القاهرة- ١٩٨٣.

- سيف الله خالد بن الوليد- الجنرال أ.أكرم – لاهور ١٩٦٩ - ترجمة: العميد الركن: صبحي الجابي- مؤسسة الرسالة – بيروت - ١٩٨٢.

- قطز..سيف سُلط على رقبة التتار – مي كمال الدين .

-كتاب اضمحلال الإمبراطورية الرومانية – إدوارد جيبون .

- بلاط الشهداء.. وتوقف المد الإسلامي بأوروبا – موقع إسلام أون لاين.

- الوجود العربي في أوروبا –إيان ميدوز – مجلة أرامكو الإنجليزية.

- معركة مارون الراس – د. إبراهيم علوش

- إعلام العدو يعرض حقائق جديدة عن معركة بنت جبيل – حسن حجازي – ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٧ .

- معركة مارون الراس من أفواه جنود «إيغوز» – القدس المحتلة – موقع دنيا الوطن – ٩ سبتمبر ٢٠٠٦ .

- جنود وضباط إسرائيليون يروون تفاصيل معركة بنت جبيل:مائة من مسلحي حزب الله نصبوا كمينا لقوة المشاة – دنيا الوطن – ٢٨ يوليو ٢٠٠٧ .

- موجز تطور الحضارة الإنسانية – د.محمد صادق صبور

- موجز تاريخ العالم – هـ.ج.ويلز– ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد

- دراسة وتحليل (عملية زعنفة الحوت) – سليمان محمود سليمان – ٨ يونيو ٢٠٠٨.

- كتاب : " اصطياد روميل : المهمة البريطانية السرية ، لقتل ، أعظم جنرالات هتلر " – مايكل آشر – مجموعة أورنيون للطباعة – لندن – ٢٠٠٤ .

- فتح عمورية.. أحمد تمام – إسلام أون لاين

- الدولة العباسية. محمد الخضري– المكتبة التجارية الكبرى– القاهرة –١٩٥٩.

دولة بني العباس. شاكر مصطفى– وكالة المطبوعات. الكويت. ١٩٧٤.

- الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري. فتحي عثمان: – دار الكتاب العربي. القاهرة .

- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي. تحقيق محمد عبده عزام. دار المعارف، القاهرة. ١٩٧٢.

- ميسلون و يوسف العظمة – د. إحسان هندي

- ميسلون.. معركة الشرف العسكري والكرامة – أحمد تمام – إسلام أون لاين

-الحكومة العربية في دمشق ـ خيرية قاسم- دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧١.

- العالم العربي الحديث ـ جلال يحيى - دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٥.

- المشرق العربي المعاصر ـ صلاح العقاد-مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٩.

- كتاب الحروب والمعارك-محمد غريب جودة-دار الطلائع

- تاريخ هيرودوت - ترجمة : عبد الإله الملاح - منشورات المجمع الثقافي - أبو ظبي - ٢٠٠١.

- أخبار الدولة السلجوقية - بدر الدين الحسيني- تحقيق محمد إقبال - لاهور - ١٩٣٣.

- إيران والعراق في العصر السلجوقي - عبد النعيم محمد حسنين - دار الكتب الإسلامية - القاهرة - ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢م.

- الدول الإسلامية المستقلة في الشرق - عصام عبد الرؤوف الفقي- دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٨٧.

- تاريخ الإسلام الديني والسياسي والثقافي - حسن إبراهيم حسن- دار الجيل - بيروت - ١٩٩١.

-وثائق أمريكية نزعت عنها السرية: ايزنهاور رفض قصف الصين بقنابل ذرية خلال "الأزمة التايوانية" - ١٩٥٨ - واشنطن - أ. ف. ب

- الموسوعة العربية العالمية- مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع- الرياض- ١٩٩٦.

- موسوعة العلوم السياسية محمد محمود ربيع وإسماعيل صبري مقلد - جامعة - الكويت- ١٩٩٤.

- الزَّلَّاقة معركة كسبها الإيمان وضيَّع ثمارها الخلاف - محمد عبد الحميد عيسى رشيد الدين فضل الله الهمداني - جامع التواريخ - (تاريخ هولاكو خان) القاهرة ١٩٦٠م.

- المغول في التاريخ - فؤاد عبد المعطي الصياد - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٧٠.

- تاريخ المغول- عباس إقبال - ترجمة عبد الوهاب علوب - المجمع الثقافي - أبو ظبي - ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠.

- المغول - السيد الباز العريني - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٨١م.

- تكودار هولاكو.. هذبه الإسلام وقتله المغول – أحمد تمام
- "وادي المخازن".. معركة الملوك الثلاثة – مصطفى عاشور
- الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية- عزيز سامح – ترجمة: محمود على عامر- دار النهضة العربية- بيروت – ١٩٨٩.
- وادي المخازن- شوقي أبو خليل- دار الفكر- دمشق- ١٩٨٨.
- معجم المعارك الحربية – ماجد اللحام- دار الفكر المعاصر- بيروت- الطبعة الأولى ١٩٩٠.
- واقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب- إبراهيم حسن- دار الثقافة- الدار البيضاء- ١٩٧٩.
- جالديران.. الطريق إلى المشرق الإسلامي – إسلام أون لاين
- أحمد عبدالرحيم مصطفى- أصول التاريخ العثماني- دار الشروق. القاهرة.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور- ابن إياس الحنفي
- تاريخ الدولة العثمانية- د . أحمد فؤاد متولي- القاهرة – ٢٠٠٥ .
- الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط – د. على محمد الصلابي- دار المعرفة- بيروت.
- دراسات في التاريخ العثماني- سيد محمد السيد – القاهرة.
- مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة – إبراهيم على طرخان – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – ١٩٦٠.
- التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك – عبد المنعم ماجد- مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – ١٩٨٨.
- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام – محمد سهيل طقوش- دار النفائس – بيروت – ١٤١٨هـ – ١٩٩٧.
- ريتشارد قلب الأسد.. والحلم الضائع – أحمد تمام الحركة الصليبية – سعيد عبد الفتاح عاشور- مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة –١٩٨٦.

- التاريخ الحربي المصري — نظير حسان سعداوي- مكتبة النهضة المصرية — القاهرة — ١٩٦٧.

- تاريخ الحروب الصليبية — ستفين رنسميان - ترجمة السيد الباز العريني — دار الثقافة — بيروت — ١٩٨٠.

- معركة الأرك - من موقع التاريخ.

- تاريخ أوروبا في العالم في العصر الحديث. عبد العظيم رمضان- الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.

- جان دارك... عذراءُ أورليانز نادت بالعدالة، وناضلت من أجل استقلال بلادها وحريتها وكرامتها - لمعان إبراهيم- نوروز — ٩ أبريل ٢٠٠٦

— تاريخ أوروبا في العصر الحديث — هربرت فشر- ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع — دار المعارف — القاهرة — ١٩٥٨.

— أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين — أ، ج جرانت وهارولد تمبرلي- ترجمة. بهاء فهمي — مؤسسة سجل العرب — القاهرة — ١٩٥٨.

— الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم — عمر طوسون — ١٩٣٦.

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. أحمد بن خالد السلاوي- دار الكتاب. الدار البيضاء. ١٩٥٤.

- دولة الإسلام في الأندلس. عصر المرابطين والموحدين. محمد عبد الله عنان - ١٩٦٤.

- المغرب الكبير (العصر الإسلامي). السيد عبد العزيز سالم- الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة. ١٩٦٦.

- تاريخ المسلمين في الأندلس. عبد الله جمال الدين - دار سفير. القاهرة. ١٩٩٦.

- دولة الإسلام في الأندلس- محمد عبد الله عنان- مكتبة الخانجي- القاهرة- ١٩٨٨.

- فجر الأندلس- حسين مؤنس- الدار السعودية للنشر والتوزيع- جدة- ١٩٨٥.

-كيف ضاع الإسلام من الأندلس- عبد الفتاح مقلد القاهرة- ١٩٩٣.

الفهرست

الفهرست

الفهرست

من يقلّب صفحات التاريخ، ويتتبع سطور الأحداث، يتوقف طويلاً عند المعارك الكبرى التي غيرت مسار التاريخ، وقدمت الدليل القاطع على أن الحرب هي الحدث الأهم الذي كان له أبلغ الأثر في مجرى البشرية، وفي رسم خريطة مستقبلها عبر العصور.

وفي هذه المعارك الكبرى التي خاضتها الشعوب وُلِدَ أبطال، وسقط أبطال، وأصبح هؤلاء وأولئك في ذاكرة التاريخ، وفي مخيلة الناس في كل زمان ومكان، سواء العامة أو خبراء السياسة والعسكرية والاستراتيجية.

و قد حاولنا في هذا الكتاب الذي وضعناه في جزئين - قدر جهدنا - تقديم المائة المعركة الأكبر والأخطر والأشهر في التاريخ، وقصص أبطالها سواء الذين سطعوا فيها أو الذين سقطوا وكيف اندلعت هذه المعارك، و كيف سارت أحداثها، وكيف انتهت بقادتها، مع الوقوف على أهم نتائجها.

الجزء الأول من هذا الكتاب، اخترنا له عنوانا يُقرأ: " معارك صنعت أبطالا ". أما الجزء الثاني فيحمل عنوانا يقرأ: " معارك دمرت أبطالا ".

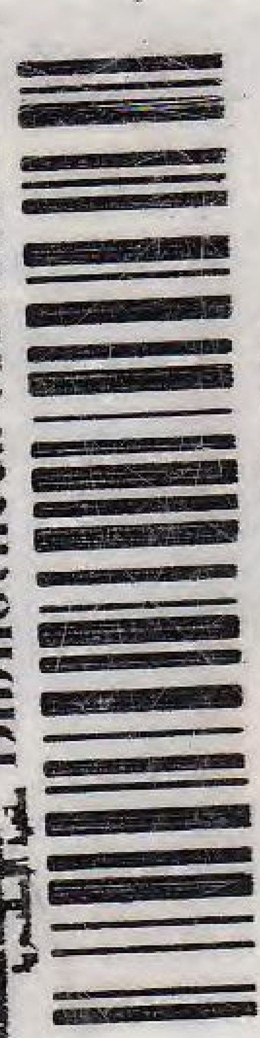
هذا الكتاب أشبه بالعمل الموسوعي الذي يتتبع مسيرة الحروب التي عصفت بالبشرية في الماضي والحاضر للوقوف على سير حياة قادة شاءت الأقدار أن ينتصروا أو ينهزموا، و في انتصاراتهم وكذلك في هزائمهم بالإضافة لتغييرها للتاريخ، عبرة أيضا للأجيال المتعاقبة لكي يستفيدوا من أهم دروسها وهى كثيرة كما سنرى في الكتاب.

نعم أصبحت تلك المعارك - كما سنرى في الكتاب - تمثل صفحات مهمة من التاريخ، لكي تستفيد الأجيال من تجاربها القاسية، وتستخلص منها الدروس التي تبين عوامل النصر وأسباب الهزيمة.

معركة الماراثون، ومعركة ثرموبيلاي، ومعركة إسوس، ومعركة زاما، ومعركة أكيتيوم البحرية، ومعركة القادسية، ومعركة اليرموك، ومعركة نهاوند، ومعركة ذات الصواري البحرية، ومعركة وادي لكّة، ومعركة بلاط الشهداء، وفتح صقلية، ومعركة عموريَة، ومعركة ملاذ كرد، ومعركة الزلاقة، ومعركة حطين، ومعركة عين جالوت، ومعركة كوسوفو، ومعركة أورليان، وفتح القسطنطينية، ومعركة مرج دابق، ومعركة ليبانتو البحرية، ومعركة ساراتوجا، ومعركة الطرف الأغر، ومعركة أوسترلتز، ومعركة واترلو، ومعركة جيتيسبرج، ومعركة سيدان، ومعركة التل الكبير، ومعركة العلمين، ومعركة ستالينجراد، ومعركة ميدواي، ومعركة ديان بيان فو، وعشرات المعارك الأخرى التي خاضتها البشرية وشهدت مولد أبطال أ[illegible]رين!

W.Salama 010 15 17 873




Bibliotheca Alexandrina
0918742

I.S.B.N. 978-977-376-519-3



